أميمة الخميس

عمّة آل مشرق

رواية

'ثريّة بحكاياتها وأساطيرها'
صحيفة عكاظ

دار الساقي

أميمة الخميس
عمّة
آل مشرق
رواية
'ثريّة بحكاياتها وأساطيرها'
صحيفة عكاظ
دار الساقي

عمّة آل مشرق

صدر للمؤلفة عن دار الساقي:

- مسرى الغرانيق في مدن العقيق

أميمة الخميس

عمّة آل مشرق

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2024

الطبعة الإلكترونية، 2024

ISBN-978-614-03-0354-6

Published 2024 by Dar Al Saqi Dar Al Saqi Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

منها خرج الغزاة وطلاب المغامرة، واحتلّوا نصف العالم، وغرسوا بيارقهم وقصائدهم وملامحهم التي ستصادفك بين الجبل والشاطئ.

مآذنهم في عواصم العالم تصدح مانيفستو الثورة الأول في اليوم خمس مرات، نسغهم يجري في عروق الدنيا؛ فلا يخلو منه بيت من سمرقند إلى مالقا.

ولأنهم يصلّون لإلههم بولاء وخشوع وإخلاص عميق، فقد زحزح ربّ الناس لهم بوابة البئر، وانبثق الكنز عالياً حتى بات يعبث ببورصات العالم.

ومن تحت الرمال، اهتزت وربت ممالك العرب البائدة، وعادت تطالب بأسطر من الحكاية تروى بلسانها، وليس كما كتبه المارّون بها عنها... عادوا بعد قرون يحاولون فكّ نقوش الأسلاف وطفولة البشرية.

في تاريخ كل عائلة هناك حكاية غامضة، داكنة متوارية، قطعةٌ من نسيج ماضيهم، يدسونها عن الآخرين كندبة، ويرفعون دونها الحجب كجُنْحة، تشفّ خلف مفرداتهم، يهمسون بها في اجتماعاتهم المغلقة، ويشيرون إليها بالرمز والتعريض أمام الغرباء؛ لظنهم أنه إذا لم تسمَّ الأشياء بأسمائها، فستبقى بالظلام.

وعمّة آل مشرق، هي حكايتهم التي جرى جزء كبير من أحداثها في الرياض قبل قرن تقريباً. ولأن الكثير من أفراد العائلة شارك في رواية تلك الحكاية، وتفتيق تفاصيلها، وإضافة بعض الأحداث عليها، فهي حكاية لم تكتملْ على الإطلاق إلى الآن.

كان الجدّ يرويها بشجن، ومجالس الرجال تمررها بجمل مقتضبة مفككة، ومجالس النساء كانت تزخرفها بالكثير من التفاصيل التي تنتهي بطقطقة الشفاه والتحسر، بينما الصفوف الخلفية للصبايا تتناقلها همساً، كمصداقية لنفوذ العشق وسطوته على القلوب.

الجميع يرغب في أن يتصدّى لهذا اللغز العائلي ليحلّه، ويصنع نهاية رسمية ومعتمدة من الجميع، مقابل عشرات النهايات التي انزلق إليها.

الجِنُّ شارك في حكاية العمّة أيضاً، ومخلوقات الليل التي تدُبّ حول نيران السمر، وتدس على ألسن الرواة الكثير من التفاصيل المخادعة المضلّلة... فاخترعوا بدورهم لها عشرات النهايات، والعديد من الخواتيم الخارقة، دون أن يستقروا على نهاية.

فحكاية العمّة التي تواشجت مع سيرة مستشرق أميركي، هي إحدى الطفرات المفاجئة التي تتمرد على التواؤم المجتمعي، تقفز على المتاح والمباح، وتصارع بالمناكب داخل انتظام الحشد؛ لتجمع اثنين قررت السماء أن يرتبطا، تخترق الحواجز التي يرفعها البشر عادة للحفاظ على النوع، ونقاء السلالات، ولكن تبزغ فجأة، تكسر الطوق وتولد كهجين حيوان اللاما بالزرافة.

مخلوق جميل ونادر، لكنه لن يصبح نوعاً بذاته، وسيظل هجيناً بديعاً لا يتناسل، وقد يتحول إلى قصيدة، وقد يُسرد كحكاية أو رواية، أو ربّما يصبح فيلماً.

الفصل الأول

المنامة 1918م

يصل البريد إلى مبنى مستشفى الإرسالية الأميركية في المنامة، عادةً مرة كلّ أسبوعين، هذا في الأحوال العادية التي لا يهددها ظرف طارئ، ولم تحاصر السفن القادمة من مكتب البريد في ميناء بوشهر بمزاج بحري هائج، أو بعض مراكب القراصنة. ولكن الرسالة وصلت اليوم لد. هاريسون من قلب البحرين، تحديداً من شيخ اللؤلؤ الإحسائي القصيبي، الذي ناوله دعوة لعمق الصحراء!

سمع د. بول هاريسون وجيب قلبه في أذنيه؛ الدعوة مغرية، والوصول إلى عمق الجزيرة العربية فرصةٌ لا تتاح للجميع، باب موارب يفضي إلى واحات، تلتف على غموضها وتستريب من الغرباء، تراوغ القاصدين، متوارية بين سلاسل الجبال والكثبان.

يسترجع كلمات الأب زويمر عن جزيرة العرب: "إنها رديئة المناخ، ويصعب التفاهم مع أهلها، لكنهم أحوج الناس إلى المساعدة، وأقل مكان في العالم من الممكن أن نرى فيه إرهاصات النجاح". رغم هذا، كان زويمر يمتلك يقيناً أن القديس بولس قد مرّ بجزيرة العرب، لكنه يظل يردد: "أراضي هؤلاء العصاة الجفاة وقلوبهم ظلت عصية على كلمة الرب".

رنّ الهاتف الذي يربط مستشفى مايسون بسكن الأطباء فقط، حيث لا توجد في المنامة شبكة هاتفية سواه، وعبر فوهته المخروطية، أخبره الممرض ستانلي، أن المريضين مجهزان في غرفة العمليات، آخر مريضين لذلك اليوم: عملية فتاق وتنظيف جرح ملتهب، لا بد أن يجريهما سريعاً قبل العتمة.

الجو خانق في غرفة العمليات، يعيد أحشاء المريض إلى مكانها بصعوبة؛ فلم يعد يغطيها إلا غشاء رقيق وجلدة البطن، يثبتها بقطعة شاش متينة خاصة بهذا النوع من الجراحات، ويعيد رتقها بغُرَزٍ وخيوط مُثبتة، نُسلت من أمعاء الماعز، اعتاد أن يصنعها بنفسه في مختبر بدائي خلف منزله، أعده لأمور التعقيم وصناعة خيوط الجراحة من مصران الماعز.

رغم رجائه للمرضى بعد عمليات الفتاق أن يهجروا أعمال الميناء وينقطعوا عنها وينهجوا أسلوباً حذراً في تحركاتهم، وانثناءاتهم، فهم يعودون لمرفأ السفن مرة أخرى حتى قبل أن تلتئم جراحهم، لا سيما عندما يكون البحر هائجاً، وتضطر البواخر إلى الرسو على بُعْد أميال من الشاطئ ونقل البضائع من هناك.

منذ وصل د. هاريسون للساحل الشرقي من هذا الخليج، تبدت له واضحةً خريطةُ الأمراض المستوطنة على شواطئ الخليج العربي، فقد تقاسمها نوعان من الأمراض: بعضها للبر، والآخر للبحر؛ بينما الأوبئة تكاد تكون مشتركة تقريباً، الكوليرا والملاريا تنتشر فجأة ثم تنحسر، ولا تلبث أن تعود، كما يظهر الماء الأبيض في العيون بكثرة نتيجة أشعة الشمس الحارقة.

ولأن نسبة كبيرة من الصيادين والمزارعين، يعملون في تفريغ السفن أثناء مواسمهم الهادئة عندما يشح العمل، فقد بات الفتاق كالوباء! عندما يضطرون إلى حمل أمتعة ثقيلة من ميناء نشط، ترسو فيه العديد من سفن البضائع القادمة من المستعمرات الإنكليزية، قبل أن تتفرع غرباً نحو ميناء العقير بوابة جزيرة العرب، أو إلى العراق شمالاً؛ لتتلقفها القوافل وتأخذ دربها إلى العالم.

تضاءل النور في غرفة العمليات، وبدأ التوتر يرتفع في أطراف أصابع الجرّاح هاريسون، فهو لا بد أن ينتهي سريعاً من هذه العملية على ما تبقى من ضوء النهار، فإضاءة مصباح جازولين آخر سيزيد من حرارة الجو.

ولا يريد تأجيل عمليته الثانية في تنظيف جرح غائر متعفن عولج بإحراق سعفة نخيل ووضعها على جرح في قدم مزارع. تأجيل تنظيفها إلى الغد قد يفضي إلى مضاعفات وفشل كلوي.

رغم ذلك، فهو يشعر أن يديه تعملان بطريقة آلية، بينما ذهنه منخطف بالدعوة التي في جيبه. قبل ست سنوات تقرياً، تحديداً في نوفمبر 1912، توغلت به القوافل في الصحراء العربية، حتى وصل واحة الأحساء العبقة بندى النخيل، وابتسامات سكانها الودودة، لكن وجدها في ظروف صحية صعبة، وشح الموارد وغياب الإمكانيات، رغم وجود حامية تركية في الهفوف مع طبيبها الذي يندر أن يتجاوز أسوار القلعة، إلا في حالات صعبة، يتوسل فيها

السكان آمر القلعة، أن يأذن لطبيبه الأرمني بالخروج لإنقاذ حالة طارئة، مريضها بين الحياة والموت.

زار أطراف الأحساء مرة أخرى عام 1915 بعد انسحاب الترك منها، ولكنها كانت زيارة فاشلة، بعدما شك البعض بنواياه التبشيرية، وطلب أميرها الوهابي منه المغادرة.

ولكن د. هاريسون لا ينكر أنّه يرغب في استعادة تلك القشعريرة والهيبة التي أصابته بعد توغله في جزيرة العرب، مخترقاً تلك الستارة التي ترفعها دون العالم، ستارة نُسِج جلُّها بحكايات العالم القديم، في زوايا ذاكرته اللاهوتية.

أحاديث الليمونادة

> "من أجل الشعوب الشقية والأقوام المستعبدة، من أجل من لا يزالون يجهلون المسيح" – **دي ليسبس**

هواء البحر ثقيل لزج، لكن له نكهة سعف النخيل التي تحف شرفة منزل الإرسالية، بينما تتغشى العتمة المكان، تصنع طمأنينة وفسحة لقول ما لا يقال، والتحديق خلسة في وجوه يحجبها الحذر والانضباط المهني نهاراً، الاجتماع المسائي في الشرفة الأرضية، الذي يجذب معظم العاملين في المستشفى لأحاديث ما قبل صلاة المساء.

تحتضنهم مقاعد الخيزران ذات الوسائد الحمراء بلطف، يتوسطهم دورق من عصير الليمون المثلج، يخالطه قطرات ماء الزهر، أعدته السيدة بيننج كعادتها كلَّ مساء ابتداءً من دخول شهر مايو، ليدخل الجميع في مزاج مسترخٍ، يلطف لزوجة الهواء القادم من البحر.

ذلك المساء كان هناك الزوجان هاريسون، القس بيننج وزوجته، والممرضة مارلين، والممرض الأميركي ماثيو إيدن، والممرضان الهنديان ستانلي وجورج. أما الممرضتان كورنيلا وروث فقد ذهبتا قبيل العصر لتباشرا حالة ولادة

متعسرة في المحرق، ولا يظن بأنهما تفكران في العودة مساء، بل ستفضلان العودة في الصباح؛ فقارب محلي صغير، يحتاج للوصول إلى شاطئ المحرق ساعة من الوقت، أما إذا كان هناك جزر بحريّ، فيجب امتطاء حمار ينتزع حوافره بصعوبة من لزوجة الشاطئ للوصول إلى المركب، ومن ثم الإبحار للمحرق.

أحوال المستشفى، والمرضى، والحصول على المزيد من وسائل التمويل، تهيمن على أحاديث الليمونادة كل ليلة. لدى الإرسالية عقد إيجار طويل المدى لبيت جمعة بو شهري، وتبرع سخي 6000 دولار من عائلة ثيودور مايسون في نيويورك جعل الإرسالية تتوسع في بناء المرافق، وعنابر المرضى وغرف العمليات، مع أجنحة تنويم للنساء، وأخرى للرجال؛ ليصبح المستشفى مطروقاً بكثافة يومياً، ولكن تظل قضية التمويل مقلقة للإدارة، مع حرب عالمية شرهة تلتهم اقتصاد العالم.

فإذا همد الهواء وأطبقت لزوجة البحر على الصدور، اختار كل منهم أن يضفي جواً من البهجة على الشرفة بطريقته.

فعندما تلتمع نجوم المساء النَديَّة بأنفاس البحر، يشعر ماثيو إيدن بأنها أعين لجماهير هائلة ترقبه، وتطلب منه تقليب الهواء الثقيل، فيبدأ برواية المواقف الطريفة التي صادفته في يومه، أو تحديداً تمثيلها.

الرجل الذي اختبأ ذاك اليوم تحت السرير، ليعدّ الشاي والقهوة لزوار ابنه دون أن يفطن الممرضون؛ يحمل صينية الأكواب مقلداً له، ويثني جسده الفارع كنادل، فلا يتبدى في الشرفة سوى فارس سلافي ينحني في حضرة قائده، خصلات شعره بشقرة قمح كاليفورنيا؛ حاجباه الداكنان يحميان طلته من البهوت السلافي، فتبرز سمات الكاوبوي الجامح، ينقصه فقط صهيل حصانه، وتبغٌ يلوكه.

يهرول جنوب الشرفة مكملاً دعاباته، بتقليد الصبية الذين يلاحقون دراجة د. هاريسون في الطريق، صائحين بأنه يمتطي حمار إبليس. يسمع القهقهات حوله، فيكمل وهو يحدس بعمق أن هناك عينَين تتابعانه بِوَلَه وتبتّل مستغيث.

***

الأختُ مارلين ببنيتها المتينة المتكدسة، وجهٌ مستدير كدمى القطن، شعرٌ نحاسي أشعث، عينان خضراوان ضيقتان، وشفتان منقبضتان تظهران قوة الشكيمة والقدرة على العمل لساعات طوال، لكنهما تفترّان عن ضحكة متغنجة في حضرة ماثيو، لا سيما عندما يبدأ هذا الشاب الفارع بتقديم استعراضه المسائي.

لحظة وقعت عيناها عليه يوم التحاقه بالإرسالية، تخللت أطرافها رجفة، علمت أن مكوثه حولها لن يكون يسيراً، تغاضت عندها عن تلك الأحاسيس التي فارت والتهبت بداخلها، وظنت بأنها ضمن المشاعر التي تطفر في أعماق عزباء سنين، فتتجاهلها وتتركها تجوب أعماقها لترطبها، ومن ثم تتلاشى رويداً رويداً، وتترمد مع الصلوات المنتظمة. لم تعلم بأنها ستتحول إلى عواصف تزعزع كل أبوابها ونوافذها، وتطوح بكل حصونها التي رفعتها دون الذكور المغويين.

يبدو كحزمة شهب تتناثر في سمائها، ولغياب زميلتيها اللتين تتفرسان فيها عادةً باستنكار ساخر حين تلعقه محدقة، فهي فرصتها تلك الليلة لترشفه بمتعة دونما مراقبة.

***

اختار ليلتها د. هاريسون تلطيف أجواء الشرفة الشمالية، عبر قراءة رسالة الدعوة التي وصلته من الإمارة النجدية. التفت نحوه ماثيو بكل جسده، وعيناه تبرقان بتيقظ وانتباه، كأن د. هاريسون يعلن عن اكتشاف شمس ثانية في قبة السماء. والمفارقة ليست هنا، بل بكون ماثيو أيضاً كان المرشح في رأس الطبيب هاريسون طوال اليوم، لمرافقته كمساعدٍ إلى هناك.

ألف شجرة سنديان

ماثيو الكاوبوي القادم من الغرب الأميركي غير المدجن، عائلته ذات الأصول السلافية، هاجرت من نيويورك إلى كاليفورنيا أثناء حمى الذهب وأحلام الثراء، ولكن خيباتها جعلتها تنزوي في بلدة صغيرة قريبة من سانتا مونيكا اسمها ثاوزند أوك. هناك استقرت، وولد ماثيو بعد أن أسس والده منجرة صغيرة لقطع الأشجار، وكان من الممكن أن يكون صبياً عادياً ينخرط في عمل أبيه، لا سيما أن بنيته الشاهقة وحيويته تهيئانه لهذا النوع من الأعمال المجهدة؛ لولا حادثتان وقعتا في طفولته، كان لهما الأثر البالغ على فصول حياته لاحقاً.

الأولى عندما كاد أن يُهرس تحت شجرة بلوط ضخمة وهو في سن الخامسة، وكان وقتها قد خرج يبحث عن أبيه، فيقسم جميع من حضر المشهد، بأن الشجرة وهي تهوي توقفت في الهواء للحظات كانت كفيلة بجعل الأب يجري ويدفعه بعيداً من موضع سقوطها في آخر لحظة، لكن الطفل تعرض لكسر مضاعف في مشط كاحله، ألزمه المكوث في فراشه لأسابيع. كانت أمه الورعة الحنون تهدّئ نوبات الغضب والحنق التي تصيبه، نتيجة عدم قدرته على الحركة بعشرات الكتب والمجلات، فَالتَأمَ كسرُه سريعاً؛ ولكن بالمقابل، نتيجة ساعات القراءة الطويلة، انشرخ داخل روحه برزخ الفضول، الذي لا يلتئم عادة مهما حشوتَه بالمعارف وكومت داخله من الكتب والتجارب، فهو يظل ينِزّ... بالأسئلة.

بينما الحادثة الثانية حدثت بعدها بنحو 10 سنوات، بعد أن أصبح يافعاً، وقد اقتنصته غواية الاطّلاع والقراءة، فأهداه جارهم القسيس هولمز إنجيلاً مترجماً لعدة لغات، منها التاميلية، والعربية، واليابانية، مقابل تنظيفه أوراق الشجر المتساقطة أمام داره.

كانت تلك الهدية التي تسللت إلى عالم ماثيو، وغيَّرت مواضع السطور داخله. فقد راقتْه فكرةُ أن تكون حكاية الرب مرويَّةً بعدّة ألسن. أكَبَّ على الكتاب ليس تبتلاً أو عبادة، بل أخذته فكرة المقارنة، محاولاً معرفة مفاتيح اللغات، بمقارنة كل كلمة بما يوازيها في معناها الأصلي في الصفحة المقابلة. وخلال هذا كله، استوقفته اللغة العربية، التي تبدأ سطورها من اليمين إلى اليسار، وتبدو كنقوش الدانتيلا فوق أطراف المناديل.

لم يغب هذا الشغف والاهتمام عن عينَي القسيس هولمز، واستبشر به خيراً، كفتى يخطو أولى خطواته في مسيرة الجلجلة ودرب الرب، فأهداهُ لاحقاً كتاباً به بعض الترجمات من الإنكليزية للغة السبئية القديمة. ولكن أهم هدية دخلت سلته بعد تخرجه في الثانوية خطابُ توصية وإشادة كتبه القس هولمز لزميل قديم هو القس لانسنج، معلّم اللغة العربية في معهد اللاهوت، في نيوبرونزويك في ولاية نيوجيرسي.

لذا لم يكابد ماثيو حيرة ما بعد تخرج المدرسة الثانوية، وتوقف أبوه عن طرح فكرة أن يخلفه في الإشراف على المنجرة، فبات لانسنج بوابته التي ولج منها إلى عالم الشرقيات الذي تَخَطَّفه في فضول معرفي هائل.

ما سبق، لا شأن له بمكان عمله الحالي، ولم يكن بوابته لدرب الرب أو الروح التبشيرية للإرسالية في المنامة. فعندما التحق بالإرسالية قدم نفسه كممرض، وعندما تبيَّن لهم أن شهادة الإسعافات الأولية التي يمتلكها ماثيو لا تجعله ممرضاً، صارحهم بأنه التحق بالإرسالية كمقر يضمن له المكوث لمزيد من الوقت في بلاد العرب، للحفاظ على مكتسباته من اللغة العربية، ودفعها للتغلغل في ذاكرته العميقة.

وقتها اضطر هاريسون لقبوله تحت التدريب بسبب الشحّ الكبير في العاملين. ففي العام الماضي، رفض صيدلي مسيحي من البصرة العمل في البحرين، بعده حضر صيدلي مدرب آخر، لم يلبث أن كرّ راجعاً وقال: "لا أعتقد أن السيد المسيح يحتاجني بين ستائر هذه الرطوبة اللزجة".

كان د. هاريسون يمكث معهم طويلاً قبل عودتهم، محاولاً أن يثنيهم عن قرار العودة قائلاً: "هنا في مستشفى الإرسالية، يأتون للتحرر من الآلام الجسدية والعجز، لذا لا بد أن يسمعوا عن المسيح الشافي، الذي يشفي آلام الجسد وعذاب الروح. إننا هنا ليس لنجعل الإرسالية مؤسسة مفيدة ومحترمة فقط، بل لنقيم كنيسة السيد المسيح في الجزيرة العربية، ونسير على خطاه كطبيب مخلص".

ولكنهم في الغالب لا يستجيبون لتوسلاته، ويقفلون عائدين للبصرة أو لبوشهر.

كان ماثيو وقتها قد أجاد اللغات السامية، متمكناً بعض الشيء من اللغة العربية بالتحديد. زار بيروت، ودمشق، وطهران، مكث في القاهرة بضعة أشهر، قبل أن يزمع زيارة بغداد، فأصبح المكان شبهَ شاغر له.

***

في عام 1834، وضمن مشروعها لتثبيت وجودها في الخليج العربي، أرسلت إنجلترا سفينتين بخاريتين للعمل في العراق، حيث أُنزلت الباخرتان على الساحل السوري، وتم تجميعهما وتدشينهما تحت اسم دجلة والفرات. غرقت دجلة أثناء رحلتها الأولى وهي في طريقها إلى البصرة، وبقيت الفرات، وهي التي استقلها ماثيو إيدن للبصرة عام 1915.

مبحراً على ظهر مركب صغير، وصل البحرين، وفي حقيبته خطاب توصية لد. هاريسون، من أحد أعضاء إرسالية البصرة اسمه دايكسترا، للعمل في الإرسالية الأميركية في البحرين، جاء في مطلعها: "عندما يفقد أحد أجزاء الكنيسة حيويته، يقام جزء آخر مفعم بالحيوية في مكان آخر".

وإن كان الشح الدائم في العاملين المدربين في مستشفى الإرسالية هو ما وفر وظيفة لماثيو، فشخصيته الودودة المتلطفة، وحرصه على مدّ يدٍ لكل تعثر يواجهه في المستشفى خلال لهاثه اليومي، أدرجاه ضمن الطاقم التمريضي، واستبقياه هناك بشعبية واسعة.

بات يسمح له بدخول غرفة العمليات، ومساعدة الممرضة مارلين، وتجهيز المرضى من الرجال العرب الذين يرفضون أن تكشف الممرضات عورته، ومن ثم البقاء في الميدان الذي انتهك الجسد البشري، لتنظيف بقع الدماء والسوائل والأخلاط، وإعادة تعبئة المراوح بالكيروسين، قبل أن تتحول تلك الغرفة في الأيام الحارة إلى مكان خانق لا يطاق.

أثناء العمليات، يتبادل هو ومارلين مهمة تجفيف جبين د. هاريسون ونظاراته، إلى أن قررت مارلين خلسة أن تجفف جبين ماثيو أيضاً. بلطف وبطء تنزل القطن إلى ذقنه وخلف أذنيه، تربت عليها بسرعة كأنها قبلات مختلسة، مع حرص كبير ألا يفطن د. هاريسون لموقع يديها.

في البداية ظنّه ماثيو نوعاً من اللطف، أو ربما الحرص الذي تبديه النسوة عادة لمن حولهنّ، قبل أن يكتشف سريعاً بأن حمولتها أكبر، وأنفاسها أثقل، ونظراتها أعمق، لكنه لم يضطرب أو يتبعثر، فقد اعتاد منذ غادر حدود 1000 سنديانة أن يوقف أي اقتراب متطفل من دائرته اللصيقة، عبر ضحكة اللامبالاة الصامتة، التي لا تصنع عدواً، لكنها في الوقت نفسه لا تشرع باباً.

عوالمه العميقة المارقة، من تلك اللحظة التي تناول فيها كتاب الرب المترجم من القس هولمز جارهم، إلى لحظة وصوله البحرين، وهو يسير في الدرب، ويقطف من ثماره وامتيازاته، دون أن يسمح لأي كان، بالتكشف على عقوقه السري، وهرطقته، وكلفِه بأعمال سبينوزا ونيتشه، اللذين قدحا نيران السؤال في روحه، وأطلقا شياطين صندوق الشك داخل هذا الرأس السلافي البديع ذي العينين اللتين تتلاطمان بالأسئلة.

لذا لم يكترث لقبلات الشاش من مارلين الصهباء، ولو وضعها على طاولة القمار كمغامرة عابرة، قد يخسر بها أكثر من طيش أرباحه، فهي تبدو كالقرويات اللواتي كن يجلبن الحليب إلى منزلهم في 1000 سنديانة.

يكفكفها بمراوغة لا تظهر صدوده، بل يقابلها في منتصف الطريق ويسألها بصوت صبياني، يقترب من صوت تلميذ يسأل معلمته عن واجبات الغد، يبقي على تلك المساحة المدرسية البيضاء المجدبة بينهما، التي لا توجد بها حدائق لتفاح حواء.

فقط حين تبدأ في تلاوة الصلاة الربانية على المرضى المحتضرين، كان يصاب بحنق، ويكزّ على فكيه قائلاً: "دعيهم يغادرون فوق مراكب صلواتهم الخاصة، لا تقدموا خدمات أساطيلكم لرحلة الأبدية، دعيهم يختارون مراكبهم"، متمنياً ألا تعتبر هذا نوعاً من الهرطقة، وتشي به. لكنها خلف غشاوة الوله التي تطمس كل شيء، تجاوبه بصوت نعس مرتخٍ: "وأنتَ، أيّ المراكب ستختار؟".

ولم يختر هو مراكبه... بل اختيرت له.

معلوماته الطبية الشحيحة، لم تثنِ د. هاريسون عن ترشيحه كرفيق رحلة ومساعد طبيب. ففي رحلة تتربص بها المخاطر والتحديات، الجميع بحاجه إلى

روحه المتفلتة المندفعة، توقه العارم لاقتحام الغامض والمجهول، ويقظته التي تجعله جاهزاً لأي مفاجأة، متأهّباً لأي طارئ.

الصحراء لها مزاجها المباغت، لا تعلم متى تفسح لك درباً أو تفغر فاهاً، كل هذا يرجع لمزاجية غموضها وصمتها.

***

لم يضف خبر الدعوة على بقية المجموعة جواً مبهجاً محفِّزاً كما تخيّل د. هاريسون، بل على العكس، ظلّ الخبر معلقاً يحوم فوق رؤوسهم، والجميع احتار في كيفية استقباله.

كلٌّ انسحب لزاويته الخاصة؛ فالقس بيننج يشعر بامتعاض يخالطه بعض الشعور بالغبن، كونه لم يقدم كمرشح لرفقة د. هاريسون.

بينما جورج وستانلي أصبحا قلقين من التعامل مع 30 مريضاً منومين في الأجنحة، في غياب د. هاريسون وماثيو إيدن.

مارلين غارت ملامحها وتقهقرت بمقعدها لزاوية مظلمة، فلم يعد يتبدى منها سوى شعرها الأحمر الأشعث يبرق في الظلمة، وهي تحدس طعم أسابيع ستمر، والممرات خالية من خطوات ماثيو إيدن الواسعة المتلاحقة، ومرارة أمسيات تمر دون أن تُزهر عينيها برؤيته.

حاول د. هاريسون تبرير هذا الانكماش كقلق على الممرضتين الغائبتين، فما كان منه إلا أن انسحب بدوره، متذرعاً بتجهيزه بعضاً من أمعاء الغنم، وتغطيسها بمحلول مطهر طوال الليل، ليستيقظ فجراً ويبدأ بتجفيفها ومعالجتها.

خلت الشرفة، ولم يبقَ في العتمة عدا عينَي مارلين، وقد تعلقتا بماثيو وقميصه الذي تندت كتفاه بفعل رطوبة الجو. يداه القويتان يجمع بهما أكواب الليمونادة، وعتمة المساء لم تحجب زرقة عينيه المتوقدتين المشغولتين دوماً بالتحديق والتفرس بمحيطه بفضول نهم.

خلو المكان أفشى تهدج التنهدات التي تصدر في العتمة، مارلين تتأمله بتضرع كأيقونة مناجاة الصلاة، وزوايا شفتيها انحدرت للأسفل في مشروع

بكاء وشيك. شعر بهذا كلّه، لكن كعادته في إبقاء تلك المساحة الحذرة الدمثة بينه وبينها، التي تكفل له محيطاً آمناً في عمله، لا سيما مع امرأة يتكهن بأنها ستذهب لآخر المضمار، دون أن يثق هو بمتانة سرجها. انسحب بهدوء للمطبخ متذرعاً بمساعدة مسز هاريسون في غسل أكواب الليمونادة.

خبزنا كفاف يومنا

كل حضارة تحمل في رحمها فيروساً يسعى إلى التمدد والانتشار، سلاحها الأول ضد الفناء. بعض الحضارات انتشرت فوق الصهوات، والأخرى عبر الهجرات، لكنّ جزءاً غير يسير منها، انتشر في رغيف ملفوف داخل صلاة أو ترنيمة؛ فعندما تسطو على مواقيت صلوات شعب، باستطاعتك أن تدرجه خادماً أبدياً في معبد آلهتك.

يقولون إن الشرق هو مهد الأسرة الإنسانية، لكن هناك طيف خيبة في قلب د. هاريسون، عضو إرسالية الكنيسة الإصلاحية في نيوجيرسي؛ فبعد سنوات من التنقل على ضفاف الخليج، يجد أن المردودَ التبشيري ما زال صداه قليلاً للغاية، والسكّانَ المحليين في غاية الحذر من نقاش شؤون دينهم، أو تلك التي تتطرق للعقائد في الأوقات العادية.

حتى في اللحظات الخاطفة الحرجة، كوقت الاستفاقة من المخدر التي يبدو فيها العقل الحَذِر مشوشاً، والقلب منبلجاً لأنوار الرب، لا تحدث استجابة. أحياناً يشاركه القس بينج جولته الصباحية على المرضى والوقوف عند الأسِرَّة، والحرص على توفير أغطية متميزة، وعلب حلوى، وبعض النسخ العربية من الإنجيل. بينما الممرضتان كورنولا وروث، تحرصان أثناء ساعات الطلق العسرة الطويلة للنساء، أن تتلُوَا أمام أعضائهنّ المتكشفة الدامية الصلاةَ الربية: ”أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمُك، ليأتِ ملكوتُك، لتكن مشيئتُك، كما في السماء، كذلك على الأرض. أعطِنا خبزنا كفافَ يومنا، واغفرْ لنا ذنوبَنا وخطايانا....“، وهكذا، قبل أن تختماها بقبلة على جبين المرأة، وآمين.

لكنّ الأمهات ما إن ينتهين من أهوال المخاض، حتى يهرعن إلى طلب أحد شيوخهن المسلمين، أو حتى آبائهن أو أزواجهن، ليتلُوَ نداء صلاته في أذن المولود وتسميته، كأنهنّ يطهّرن الصغير من رجسٍ طاله.

الممرضة كورنيلا نحيلة ضئيلة، مفعمة بروح المسيح وأنوار المخلِّص، قادمةٌ من ولاية إيلنوي، عازمة على أن تسفح عمرها في خدمة المسيح، لكنها باتت تبدي استياءً مضمراً من نساء المخاض العنيدات، فهنّ يبقين متوجّسات ممّا تحدثهنّ. حتى الأمهات اللاتي يكنّ في أشدّ الحالات ضعفاً وانكساراً بعد نزيف ولادة، عندما تدعو لإحداهنّ بأن يخلّصها المسيح، ترتجف كأنّ شيطاناً مرّ من فوق رأسها، فترفض وتشعر برغبة في طرد كورنيلا ورجسها، لكنها لوهنها وخجلها تسكت على مضض.

تحمل كورنيلا خيباتها المستمرة للشرفة المسائية، فيجيبها الأب بيننج:

– فكرة المخلص وموته ليفتدي الخطايا لا تروقهم أبداً، بل تثيرُ جنونهم، فهم شعوب سامية؛ وحدها فكرةُ الإله المتعالي الصمد، الذي ليس له صاحبة ولا ولد، هي التي تهيمن عليهم، لعلّ فكرة الافتداء لديهم محسومة، عبر الخراف التي يضحون بها كل عيد.

تجيبه كورنيلا بدهشة منكسرة تكسو وجهها المنمّش المنمنم:

– حينما أتلو الصلاة نفسها على مريضات أخريات، يقلبن وجوههن ويستفسرن: "لماذا تصلون للخبز؟ هل لديكم شح طعام في بلدانكم؟". الخبز هي الكلمة الوحيدة التي لفتت انتباههن.

تقول مسز هاريسون:

– ربما ترديد الصلاة بعربية متعثرة حجبَها عن الوصول لغرفات قلوبهم، لكن لا بد أن نعرف المفتاح، لا بد أن نصل إلى تلك المنطقة الرقيقة الرخوة التي من الممكن أن تخترقها أنوارُ الرب.

أجنّة تسبح في رحم كبيرة

عادةً عندما تتبدى لماثيو فرجة ضئيلة من الوقت، ينسرب منها ليقصد سوق قيصيرية المنامة، وينغمر بلزوجة هواء البحر المشبع برائحة البهارات، وبن قهوة عربية يقلب على الجمر برائحة فاغمة، وبريق ألوان لفات الحرير المقصب. تعصف برأسه نشوة كأنه مر بجارية حرملك مغوية، سوق المنامة بابل، اللغات ما بين عربية، وهندية، وبلوشية، وفارسية، فيحاول أن يدرج كل منها داخل جداول دفتر معجمه في اللغات السامية.

ومع محاولات إنشاء حوار يستمر لعدد من الجمل المرتبكة، التي يحاول نظمها في سياق، تكفكفه عتبات اللهجة الدارجة، متأبطاً فضولَه ورغبتَه في كشف الطبقات المحايدة التي تقدمها له الأنثروبولوجيا.

يسمونه الدختور الألماني، يسألونه عن الحرب ومن سينتصر، قومه الألمان أم الإنكليز؟

يتوقف لمحادثة بعض الوجوه المألوفة، التي سبق أن رآها في المستشفى بيسر وسهولة. يكوِّن عدداً من الصداقات تتجاوز تحيّات المرور العابرة، بل بات بعضهم يدعوه إلى ديوانيته.

هذه الشعبية تندرج كأحد الأسباب التي قادت هاريسون لاختياره رفيقَ دربٍ، فهو كثيراً ما يصادف ماثيو ملوحاً بيده لأحد المارة، يسلك بين الدروب آمناً متبسّماً، لا يرفض أي دعوة تصله لتناول فنجان من القهوة، أو الشاي الهندي المعطر بالمسالا.

يشعر هاريسون ببعض الغيظ المستتر، فماثيو لم يمرّ بتحديات طلائع القادمين عام 1903، وكان وقتها الطاعون قد ضرب البحرين، فاتُّهم الأطباء في المستشفى بأنهم هم من قذفوا المرض في الآبار، وكان الصبية في الشارع يلاحقونهم في الأسواق، ويرجمونهم بالحجارة كساحرات محاكم التفتيش.

لكن حيوية ماثيو الدافقة، وأصدقاءَه العرب الكثر، رشحاه بقوة كرفيق رحلة، ولا بأس أنّ د. هاريسون يعلم أنه مهرطق كبير، لا يشارك في أي من مهامّ الإرسالية، سواء بين المرضى أو في صلوات الفجر والمساء، لكن لعلّ هذا أكثر أمناً عندما يتوغلان عميقاً داخل صحراء العرب.

آن زوجة د. هاريسون عندما تصاب بالخذلان من المردود التبشيري الضئيل، أو شبه المنعدم حولهم؛ تقول لزوجِها ساخرة:

– ليتك تبدأ تبشيرك بماثيو إيدن، فالهرطقيات قد عبثت برأسه.

فيهزّ رأسه بأسى ساخر، ويردّد ما قاله توما الأكويني:

– لا يكتسب الحواريّ معرفة جديدةً من معلّمه، وإنما يرتقي بفضل هذا المعلّم، فيصير قادراً على المعرفة.

***

أوكل د. هاريسون إلى ماثيو تجهيز صناديق المعدّات وحقائب الإسعافات الأولية، التي سترافقهما عميقاً داخل جزيرة العرب، واكتفى هو بتجهيز قوائم الأدوية التي تجعل زيارته مفيدة وناجعة، وفي الوقت نفسه، لا تسبّب شحّاً في أدوية مرضى مستشفى الإرسالية.

ماثيو غادره جيشان الحماس، وأصبحت تمازجه صور ورؤى مع بعض القلق، فهو يعرف أن الشرق ليس حدائق ونوافير الموريسكين، أو بائعي السجاد الجشعين الشبقين، أو Levant السلاطين ذوي العمائم المزركشة، الذين تحفهم نساء غنجات حبيسات الحرملك بأطراف بضة مكتنزة تنسدل على الوسائد الحريرية، كما في لوحات ديلاكروا ودينييه.

كان ماثيو إيدن على يقين منذ وصل مصر، وتجول في دمشق وعمان، أنّ فسيفساء الشرق ما برحت ناقصة في رأسه. البداية كانت أسئلة تمتلك جواباً وحيداً مطمئناً حول الشرق، قبل أن تجتاح العواصف رأسه: هل ما سبق كل الحكاية، أم هناك في عمق الصحراء حكايةٌ أخرى أكثر غرابة، وتحت كل كثيب هناك ممالك وحضارات بائدة التهمتها الرمال؟

قوافل اللبان والبخور التي كانت تخترقها قاصدة المعابد الرومانية، تنقل نتفاً من حكاية هذا المكان، ولكنهم لا ينقلونها كاملة، بل نتفاً مختلطة بمخاوفهم على بضائعهم، وتوجسهم من العيون المتربصة التي ترمقهم بفضول.

جبال تتقد النيران فجأة فوقها، ليكلم الله أنبياءه، وكواكب تتناقل بشارات مولد نبي، وكهوف تهطل عليها الملائكة ببشارات النبوة، واحات خجلى،

وغدران ساهمة صامتة، لا تتحدث إلا همساً في المساء عندما تختلي بالأهِلّة.

الصحراويّون الرعاة المتنقلون، لا يأبهون بتصميم منازل، وينفرون من أسوار المدن. الصحراويّ عندما يشعر برغبة في الاستقرار، ينشد بيتاً من الشعر ويقفز ليسكن فيه.

***

أول جملة قالها له د. هاريسون عندما التحق بالإرسالية: "انتبه، في البداية ستراهم كلهم متشابهين، ستجدهم جميعاً بسحن مشتركة وتقاطيع متطابقة، من عظام الوجه، إلى أطرافهم السمراء الدقيقة، كأجنّة في رحم كبيرة، وستحتاج إلى بعض من الوقت لتميزهم؛ فلا فرق بين الخباز أو جارك في البيت المجاور، أو آخر مريض فحصته".

ومع أن ماثيو لم يجدهم متشابهين للغاية، لكن عبارة "أجنّة في رحم كبيرة" استوقفته طويلاً، فقد اختزلت العلاقة الأبوية بينهم ود. هاريسون، الذي يراهم أجنّة تنتظر الولادة من ظلمات الرحم إلى أنوار اليسوع.

داخل الإرسالية، كان ماثيو يحدس بأنه مبحر داخل سفينة كروسيد مجللة بالغموض، ذلك الغموض الذي لم يفسر له قبولهم التحاقه بالإرسالية، بينما معلوماته عن التمريض استقاها من دورة إسعاف، التحق بها في مخيم كشفي عندما كان في الثالثة عشرة، أثناء صيف منعش داخل مدينة سان فرانسيسكو.

تراتبية العلاقة بين النحن والهم السائدة في الإرسالية، د. هاريسون يرسمها بدقة وحذر، كما يخيط جرحاً ملتهباً.

كان ماثيو يعلم أن الكنيسة تمتلك شهية مفرطة، تصبو إلى التهام العالم وتحويله إلى مدينةٍ لله، لكن لم يكن يتخيل أن يهبَ أطبّاء حياتَهم لهذا المشروع.

د. هاريسون طبيب حاذق. خلف وجهه النحيل، وعينيه الساهمتين، وشعره المتقهقر، يكمن قديسٌ ورع، لا يتوانى عن فصد عروقه لنشر كلمة الرب. نظاراته المستديرة بإطارها الذهبي تضفي عليه سمات برجوازية نيويورك

المثقفة. مفاتيح مكتبه والعديد من غرفات المستشفى في قاع جيبه. وتحت معطفه مبشّرٌ عنيد، يظهر فقط أثناء احتدام تلك المعركة الوجودية الكبرى على برزخ يفصل الموت والحياة.

يتمتم في جلسات الليمونادة المسائية، عندما يحتدم الحديث غضباً من استبداد القنصل البريطاني، وتحفظه على السماح لأعضاء الإرسالية بحرية الحركة والتنقل في المنطقة، بحجة أن هذا من شأنه أن يوتر علاقة بريطانيا مع شيوخ البحرين والخليج.

يقول وهو يزم شفتيه الرفيعتين:

"نحن لسنا هنا للوعظ الاجتماعي بل للخلاص، لا للحضارة، بل للمسيح. نحن لسنا سياسيين، بل سفراء المسيح. المسيح كان معلّماً ومداوياً، وما نفعله هو تتبع أثره وخطاه".

الانتداب البريطاني في البحرين، يمنح بعض المرونة للعمل التبشيري المتدثر بمعطف الطبيب، بشرط أن تكون التحركات واللقاءات واضحة ومرصودة في تقارير.

ومستشفى الإرسالية في المنامة، يصبح خياراً استطلاعياً ملائماً بدلاً من البصرة. فنظراً إلى كون أفراد الطاقم الطبي لا يمتلكون دبلومات تركية تسمح لهم بالعمل في البصرة، قامت مجموعة منهم بتأسيس الإرسالية البروتستانتية عام 1888، وهم من أطلقوا على أنفسهم إرسالية العجلة في ولاية نيوجيرسي: الدكتور لانسنج وثلاثة من مساعديه هم جيمس كانتين، صموئيل زويمر، وفيليب فيلبس، واختاروا البحرين مقراً لهم، وإن باتت علاقتها مع الكنيسة الأم ضعيفة، تقتصر على التمويل، ومدّها بالمبشرين في حال نقصهم.

***

ما زالت في السماء نجمتان متعلقتان بأهداب الفجر البنفسجي، عندما طقطق الدرج بقدمَي د. هاريسون، صاعداً لغرفة ماثيو في الطابق الثالث ليعطيه قائمة بالأدوات الطبية التي عليه تنضيدها في الصناديق المعدنية التي

سترافقهما للرياض، ومن ثم عليه أن يتواصل مع مندوب التاجر الإحسائي، لينظّم حجز المركب ونقل المتاع.

قدحت عينا ماثيو وخفق قلبه، فقد رُفعت رايات القافلة، وبدأت هذه المهمة المتطلبة، التي حتماً ستملأ دفتر يومياته بالأحداث، وتأخذه بعيداً من شرفة الليمون، التي بدأت أحاديثها اليومية المكررة تطبق على صدره، والتي يخمن بأنها ستزدحم الليلة بأحاديث كورنيلا وروث، حول ما صادفهما، والتي تتشابه دوماً، وتكررانها كل مرة... وكيف أنهما اضطرتا لمشاركة النساء النوم فوق سطح المنزل، بعد أن وفرن لهما غطاء من الشاش يقيهما البعوض، وآنية ماء معطرة بماء لقاح النخل، عندما ترشفها تشعر بأنك تلتف داخل جذع نخلة. وكيف أن الديك هناك لا يصيح لقدوم الفجر، بل في أوقات متفرقة طوال الليل، الذي أمضتاه في الصلاة، حمداً لانتهاء حالة الولادة المتعسرة بصبي جميل، ملأ ذلك الصباح صياحاً.

***

تصدى هاريسون لأصعب المهام وأكثرها وعورةً، وهي الحصول على أذونات سفر من القنصل البريطاني.

هو يعلم بأن تحت كل بزة عسكرية بريطانية، قرصاناً جسوراً يجوب البحار، ذئب بحر يحلم بخفق أشرعته في أعالي البحار المثلجة والخلجان الدافئة دون منافسة. يعلمون أن محطاتهم العسكرية حول العالم لا تكفيها كتيبة من العسكر فقط، بل أيضاً ثعلب إدارة، بابتسامة متحفظة، وأنف هوند حساس، يكتشف الفضوليين والطامعين بقضمة من الغنيمة.

والخليج هو البوابة البحرية للهند. فمذ خرج البرتغاليون من الخليج العربي، والإنكليز يعتبرونه بحيرتهم، التي تؤمن طرق مواصلاتهم بين الهند وأوروبا، ولا بد من حمايتها ضد أطماع الروس، والألمان، والفرنسيين، ولكن ما يهوِّن الموضوع بالنسبة إلى د. هاريسون، أن الأميركيين ليسوا بموجودين كتهديد على الخارطة.

***

فضَّل أن يذهب إلى مبنى المعتمدية بمعطفه الطبي، حتى تبدو مهنته رسمية، وجزء من الطلب المرفوع أمام أوراق المعتمد البريطاني.

منذ وصوله الخليج، يحرص د. هاريسون على علاقته الجيدة معه، ومعالجته لجميع من يبعثه له للعلاج بحرص وعناية. كل هذا يتيح لهاريسون زيارة ومثولاً سريعاً أمام القنصل، لكنه يخشى أن كمية الرطوبة الثقيلة التي هطلت على المنامة البارحة، جعلت القنصل يتمترس خلف برودة الإنكليز، التي يرفعها عادة كتحذير بعدم الاقتراب أكثر.

ورغم علم المعتمد البريطاني هارولد ديكسون التام، بأن جلّ عمل هاريسون يقتصر على الحرث والبذار في أرض المسيح، فهو يحرص دوماً عبر صيغة لطيفة وكوب شاي في مكتبه، أو عند لقاء في منزل صديق مشترك، على التوغل في التفاصيل التي صادفت هاريسون في آخر رحلة له، لا سيما بعد زيارته لعُمان، وأيضاً أبو ظبي، تتكثف الأسئلة حول شيخها القوي حمدان، الذي يُكِنّ للبريطانيين الاحترام، لكنهم يعرفون أنه يبغضهم، ويخفي قلقاً مضمراً من توسّعهم.

وعادة حتى يتخلص هاريسون من إلزامية هذا التطفل، يطلب تنظيم استقبال بعدد محدود من الضيوف على شرف الزوجين ديكسون، للحديث حول الموضوع بشكل يقترب من المنادمة أو المسامرة، بحيث يتحاشى تقديم أي التزامات أو تقارير ذات رصد معلوماتي. فوجود هارولد ديكسون وسط غرفة تنسكب فيها أصوات النساء الرقيقة المُلطفة، ونظرات زوجته فيوليت التي تظل تتابعه كما تتابع أم طفلها الشقي لتثق بأنه تصرف بلطف وكياسة يليقان بالصالونات، يجعلانه لا يشبه ذلك المعتمد داخل غرفة تعبق برائحة التبغ، والبارود، وزنخة بزات الجنود الثقيلة.

لكن الوقت ضيق، وآن زوجته غضبى، وتتجنب التحدث إليه عدا ردود متبرمة مقتضبة، لا سيما بعد أن اتخذ قرار تلبية دعوة التوغل لعمق جزيرة العرب بشكل مستقل عنها، رغم ما في الموضوع من خطورة ومشاق.

هي عادة لا تسرف في غضبها، يظل مشذباً مقصقصاً غضب زوجة ثانية، تجلس بديلاً لامرأة يتحدث عنها الجميع كقدّيسة، زوجة ثانية لأرمل يحاول أن يخفي لواعج فقده وعذاباته، ويعلّق على وجهه ابتسامة يحتاجها من هم حوله، مرضاه، وأولاده، وهي، حتى يتبدى لها في لحظات، بأن ذلك هو أقصى ما باستطاعته تقديمه لها.

ومهما يحمل لها من احترام وتقدير ومعاملة لطيفة، لكن في أعماقها يهيمن عليها بأنها مجرد بديل، اختارها لاعتبارات عدة، ليس بالضرورة أن يكون الحبّ أحدها.

لكن ما زال يوجعها إعلانه نيته سفره لقلب الجزيرة العربية الخطِر، دون أن يخبرها، بل أعلنه للجميع كشأن قد انتهى نقاشه.

للأسباب أعلاه، لم يتح الوقت لطلب تنظيم حفل مختصر، يسرب من خلال الأحاديث المشتركة خبر زيارته الوشيكة للسلطنة النجدية، بشكل لا يبدو فيه بأنه يستأذن المعتمد البريطاني.

فاضطر أن يزور ديكسون في المعتمدية، ويتحمل تلك البرودة الإنكليزية، التي تجعل حجاباً سميكاً بينها وبين الآخرين.

لكن سماح ديكسون له بالدخول فور وصوله المعتمدية، ونهوضه من خلف مكتبه وترحيبه العميق به... فهل وصلت رائحة رحلة الرياض له؟ أم أنه يمتلك مزاجاً طيباً ذلك اليوم؟

وكان قد عقد العزم على أن يختصر وقتهما المزدحم؛ فبينما يده اليمنى تسلم عليه، أخرج له الدعوة التي وصلته من السلطنة النجدية بيده اليسرى.

تأملها ديكسون لوهلة، ووضعها فوق الطاولة، ولم يُبدِ ردود فعل واضحة، ثمّ أكمل تعبئة غليونه بالتبغ، وتعامل معها كأنها أمر ليس بذي شأن.

وعوضاً عن هذا، نهض من مقعده وتوجه لخزانة كتب ذات طراز إنكليزي، بحافات كلاسيكية مذهبة، أسفلها مجموعة من الأدراج، فتح درجها الثاني، وعاد بنسخة من رسالة سبق أن كتبها كابتن الجيش البريطاني وليم شكسبير، عندما كان برفقة السلطان عبد العزيز في معركة جراب عام 1915. وقبل أن يناولها لهاريسون، قرأها ديكسون بصوت هامس: ”هذا الرجل (ابن سعود)

زعيم بدوي داهية، ومن الممكن أن يصعّب علينا تحقيق مأربنا في المنطقة، وبسط سيطرتنا على القبائل في الجزيرة العربية“.

ناولها هاريسون الذي ظل يقلبها بحرج، ولا يدري ماذا يقصد بها!

هل هو يريد أن يخبره بأن الإنكليز، وصلوا هناك قبله ولهم عيون هناك؟ هل يريد أن يفرض وصاية ما؟

وقبل أن يجلس، أشار إلى خريطة للمنطقة معلقة على يساره، وأخذ يتأملها باستغراق وتفحّص، كأنه يبحث لهاريسون عن الباب الذي سيلج منه.

وما لبث أن حزمة أخرى من الأوراق ملفوفة فوق مكتبة، أشار إلى أنها مستلة من جورنال المستشرق بيرس، كتبها حول الرياض! ولأن هاريسون لم يسمع من قبل عن مستشرق بهذا الاسم، رغم حرصه على الاطلاع والحصول على كل ما كتب حولها، فإنه خمن بأن بيرس هو ديكسون نفسه، يريد أن يمرر له رسالة مضمرة حول الرياض.

ومما أكد شكوكه، طلب ديكسون بصوت ملحّ: ”لنقرأْها معاً الآن بصوتك العميق الرخيم، ستبدو كخطبة يسوع فوق الجبل، لا سيما أن كاتبَها كان يحمل موهبة أدبية رائعة وأسلوباً فريداً في مزج الزمان مع المكان“.

وعرف وقتها الطبيب الورع، أن هذا المستشرق (المختلق)، سيقول كلاماً قاسياً منفراً.

رغم هذا بدأ هاريسون يتلوها ببطء:

> معظم الكتب التاريخية تصور شراهة الإمبراطوريات الرومانية في قضم المزيد من المستعمرات، ولكنها كانت تصل الحدود الشمالية، ولا تستطيع التوغل لتصل وسط جزيرة العرب.
>
> ظلت صحراء مستعصية غير مضيافة للغرباء، لذا شكلت هذه الأرض حافة كل الإمبراطوريات التاريخية الكبرى مثل الحثيين، والمصريين، والبابليين، والآشوريين، والفرس، والرومان، والبيزنطيين. حدودها رسمت حدود الإمبراطوريات حولها، التي انحسرت تباعاً، حتى طوفان

الغزوات المغولية المتتالية، مرت على نصف الجزيرة العربية الشمالي، وما لبث أن تقهقرت دون أن تقترب منهم.

الرياض توسطت الهضبة النجدية، قابعة فوق عرشها ملكة حذرة تخشى الغرباء، تفطن لخشخشة أول خطوة للغزاة على أرضها، ولو على بعد مسيرة شهر، وتعد أنفاس المتسللين إليها، وسرعان ما ترسل لهم جيوشها وكتائبها متتالية، لتبعدهم وتصدّهم وتحبسهم خارج مملكتها.

جفل د. هاريسون عندها قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً ليسيطر على تلك الارتجافة في قاع صوته وأكمل:

فأول ما تبعث، جيوش القيظ اللاهب التي تشقق وجوه الغرباء، وتحرق حلوقهم، وتجفف ألسنتهم، فيتساقطون على الطريق كالحطب المترمد.

فإذا احتاطوا لهذا بكثرة السقيا والسرى الليلي، وتوغلوا باتجاهها، أرسلت عليهم كتائب الريح ودوامات الرمل، فتطمس دروبهم، وتدفن الآبار في طريقهم، وتحثو التراب في وجوههم، حتى إذا ما قاربوا على الاختناق وأصروا على المضي، اكتشفوا واحات بينابيع وعيونٍ سرية فوق أرض منبسطة، تقع بين جبال تصب ضلوعها في الينابيع، فقبعوا هناك بانتظار أن يهدأ مزاج الآفاق المكفهرّة.

أما الحُمَّى، فهي آخر الأسوار وأشرسها، وهي التي أبقت جيوش الإمبراطوريات العظمى بعيداً، وارتدت على عقبيها، وأقصَت روما عن الرياض آلاف الفراسخ، واكتفت بالبتراء تلك المدينة المنحوتة في الجبال الوردية، كنقطة حدود بين الرومان وقبائل جزيرة العرب.

فالبتراء تحمي حدود روما الجنوبية من كتائب الفرسان، الذين يبزغون فجأة فوق خيول رشيقة بلا سرج من عمق الصحراء، كمخلوقات القنطور، ملثمين بأعين مكحولة واسعة، وعراقيبهم النحيلة كالذئاب، كثيري التلفت، الذين يظهرون من خلف الجبال يتصايحون،

فإذا كنت قد استأذنت بالمرور في أراضيهم، أكرموا ضيافتك وحموك، وأوصلوك إلى حدود القبيلة المجاورة.

ولا أنصح إطلاقاً، بالتوغل دون إذن أو دليل من إحدى قبائلهم، تجزل له العطاء، فهو بحاجة إلى أن يدفع إتاوات على امتداد الدرب، كي يضمن لكم سفراً آمناً، ومن يحاول أن يتهاون بهذه القوانين أو يقفز عليها، فكثر هم من خلفوا عراة فوق كثبان الرمل للضباع والسباع.

وأخيراً:

إذا استطاعت ندرة أن تقفز فوق هذه العقبات الكؤود... حظيت بشرف المثول بين يدَي السلطانة.

كان ديكسون يترقب ملامح وجه هاريسون، مستقصياً ردود فعله، لكن الطبيب المتحفظ صمت لوهلة يلتقط أنفاسه، ونبس: "شكراً".

في نهاية اللقاء وقف د. هاريسون وأعماقه تتقافز بالبهجة، فهو ممتن بأنه لم يطلب منه التعاون أو التقارير، وحصل على أذونات المرور المطلوبة، مختومة بالتاج البريطاني، لفّها بجيب معطفه الطبي، واستأذن بالمغادرة.

***

د. هاريسون منذ صغره، كانت توكل إليه الترميمات، وإصلاح ما تكسر أو احتاج إلى إعادة لصق. وفي أكاديمية فرانكلن، بات على يقين بأن هناك أجزاء في بيت البشرية تحتاج إلى نوافذ، تنفذ أنوار الرب إلى عتمتها. عندما سنحت له فرصة العمل في العالم القديم مبشّراً، لم يتردد في قبول الدعوة، فهي دعوة للعود إلى المعبد القديم، إزالة ما علق به من أتربة، وقدم، وغبار... فرصة نادرة حطت فوق كتفه كنجمة لن تمرّ به كلّ يوم.

وعندما أعاد هذا الحديث على مسمع آن عند عودته، أجابته بصوت محتقن:

– لم تهدأ نفسي بل ازداد قرع طبولها، وأنا لا أعلم أي سماء ستظلّلك.

فقال لها بنبرة تأنيبية متأففة:

– تلك السماء نفسها التي يوماً ما عاهدناها على خدمة الرب.

كيف يعاملها بهذا الجفاء، بعدما أمضت نهارها تخبز كعكاً، زاداً لرحلته؟ ترقبت الحديث معه تلك الليلة، وهي ترتدي ثوبها الأبيض المنقوش بأزهار التفاح، والذي ترتديه عادةً عندما تكون في مزاج احتفالي، بينما ظلت أطراف شعرها مشعثة بفعل الرطوبة. نظرت إليه نظرة استجداء أخيرة، متأملة أن يتراجع عن رأيه، لكنه تظاهر بأنه لم يلمحها، وإن لم يفتْه بريقُ دمعة تقف على حافة جفنها في عتمة المساء.

ثلاث رسائل

الليلة الأخيرة قبل الإبحار، وبعد أن انتقلت المعدّات جميعها إلى الميناء، كان فضاء الشرفة دافئاً ورطباً، عابقاً بنكهة بواكير البلح والليمونادة، لكنه ظلّ مشدوداً بزفرات وتنهدات ثقيلة. الجميع اختار أن يتحدث بجمل يسيرة مقتضبة. القس بيننج ما برح يحمل في أعماقه بعضاً من الامتعاض، لإهماله وحجبه عن رحلة الرياض. ولمحاولة ستر هذا، قدم لهاريسون وماثيو، المجلد الأول لكتاب الألماني أويتنج **يوميات رحلة إلى الجزيرة العربية**، ومدونة منقولة بخط اليد، لبعض الفصول من كتاب الإنكليزي بلجريف، التي ذكر فيها أنه زار الرياض عام 1863.

القس بيننج يتلفت طوال الوقت يمنةً ويسرة، يشعر أن قميصه يكاد يخنق رقبته الثخينة، وقد ضاق ذرعاً بالحديث المستمر حول ترتيبات الرحلة، وتخلى عن طبيعته اللطيفة التي يميل فيها رأسه الضخم نحو اليمين في حالة إنصات، فما لبث إلا أن قاطعهم بجفاء قائلاً: ”امتلأت الصناديق، ولا أدري هل امتلأت الرؤوس بالمعلومات؟“. ثم أردف:

”هل تذكر رحلتك إلى القطيف، التي عدت منها طريداً مدحوراً كالشيطان، بعد أن عرف أميرها أنك تقيم الصلوات التبشيرية قبل العلاج، فأمرك بالمغادرة فوراً، رغم وصول روّاد عيادتك يومياً إلى ما يوازي 200 مريض، جميعهم سلكوا طريقهم إليك، ولم يبالوا من دروب تزدحم بـالبؤر الملتهبة

لإخوان الجزيرة من البدو، والذين حتماً ستتضاعف أعدادهم الآن بالرياض، فهم جزء من جيش سلطان نجد، ولكن جميع هذا لم يشفع لك!“.

وليلتقط أنفاسه، قام يملأ كأسه من الليمونادة، بينما د. هاريسون يطرق منصتاً متظاهراً بالاهتمام العميق، ولم يعلق إطلاقاً، خشية أن يصبح تعليقه محل أخذ ورد، ومساومة من القس بيننج، فيعيد طرح عرضه بالمرافقة! لا سيما أنه أخذ يتصرف بطريقة عجيبة وعدوانية نوعاً ما في الأيام الأخيرة، وابتاع ثياباً عربية من ليلتين، وأخذ يذرع شرفة الليمونادة بها، متذرعاً بمهارته في التخفي بثياب شيخ عربي، كرسالة مواربة، تشير إلى إمكانية أن يكون رفيقاً ملائماً في الرحلة.

وهي الفكرة التي لم ترق د. هاريسون منذ البداية، فهو لا يريد أن يسبب إحراجاً للسلطان الجريء الذي دعاه، والذي ستكون البعثة الطبية تحت جناحه، بموازاة مجموعات شرسة من رجال القبائل صعبة المراس، لا تأمن الغرباء ولا تستلطفهم إطلاقاً.

قال له هاريسون كأنه يقدم تشخيصاً مطمئناً لمريض ثرثار:

”ومستحيل أن تستطيع قوى الدخول دون الاستعانة بأهل المنطقة أنفسهم! فهم يظهرون على شكل قبائل من عمق الصحراء، يتقدمون القوافل، جالبة عطور الهند، وحرير الصين، ولازورد فارس، قاطعين تلك الصحاري، قاصدين أوروبا وشواطئ الأبيض المتوسط، يسيرون بهم بين ممراتهم السرية مقابل ضرائب ورسوم، من ثم سرعان ما تغيِّبهم كثبان الرمال“.

صمت بيننج لوهلة وعاد يهتف لهاريسون محذّراً:

”لا بد أن تعرف الآن، أنك في البحرين تعتبر في نزهة من الحرية، مقارنةً بالمدن الداخلية لجزيرة العرب“.

لا يود د. هاريسون أن يبدو بمظهر الساذج المستغفل، وأن يكبح استعراض معلومات بيننج عليه فقال: ”أعلم هذا، وأعلم أيضاً أن الوهابيين لهم مناوشات مع القبائل التي تسكن على ضفاف الخليج، ويرون فيها بعض الليونة والتهتك، وهم سبق أن طلبوا من أمير الكويت طرد الشيعة، واعتناق عقيدة الإخوان، وتسمية الأتراك بالزنادقة، وإلغاء التدخين والبغاء، وإغلاق المستشفى

التبشيري الأميركي. لذا أثناء وجودي هناك، هذه الحقيبة المثقلة ستكون على ظهري أتحرك بها بحذر... لا تقلق... السيد المسيح معلّم ومداوٍ، لا بدّ من تتبع خطاه، فهو قد ترك بعض المرضى دون علاج... ليقوم أتباعه بعلاجه".

ليلتها أوى الجميع إلى مهاجعهم باكراً، دون أن يكون هدفهم الرئيسي النوم. في تلك الليلة أيضاً، كتبت داخل الإرسالية الأميركية في المنامة ثلاث رسائل:

الأولى من آن هاريسون إلى أمّها:

تعلمين يا أمي، كزوجة ثانية تسير في أنحاء المكان، بينما ترتفع جوارها صورة أزلية للمقارنة مع سيدة غائبة، يتحدث الجميع عنها بإجلال، سأنزلق حتماً داخل معطف التبريرات والمسوغات، أقدمها لكل عمل أقوم به.

عندما وصلت مركز الإرسالية في البحرين، كانت الأمور متشابكة بفوضى، المستشفى بلا طباخ أو عامل نظافة، فقد خرجوا جميعهم مع مراكب صيد اللؤلؤ، والغوص من الصعب زحزحته كمصدر رئيس لرزق الأهالي.

مع بداية الصيف، وعندما يرتخي مزاج البحر من الحرارة، تطفو تلك المراكب فوق الخليج، وفوقها فردٌ أو أكثر من كل بيت، مأخوذون مترنمون، تغويهم أغاني جنيات اللؤلؤ، والتي إما تمنح الصياد لؤلؤة ترشقها فوق مفرقه لتقيته على امتداد العام، أو ينتهي به الأمر كذكرى أطبقت عليها محارة في أعماق البحر.

لكن ما يدمي قلبي حقاً، كثرة أعداد الرضّع الذين يستسلمون للموت بعد مقاومة ضعيفة، الأمر الذي يدخلني في أطوار عميقة من الكآبة، لولا التمسّحُ بإهاب الله.

أحاول أن أضفي على المكان بعض السكينة والانضباط، في مكان قطنه الذكور الفوضويون طويلاً، ترتيب وتنظيف الخزائن المهملة، تلميع النوافذ والأرضيات، نشر مناديل الدانتيلا على الطاولات، لأنك لطالما

أخبرتني بأن البشر تأخذ وجوههم ملامح المنازل التي يقطنونها، وأخاف أن يصبح وجهي كئيباً لزجاً.

لكن الآن تحسنت الأمور كثيراً، لا سيما مع المباني الجديدة، وتضاعف أعداد العاملين بالمستشفى، ومع وجود طاحونة الهواء التي استخرجت الماء، التي أصرّ القس بيننج على إحضارها من ولاية أيوا، مبحرةً على السفن القادمة من الولايات المتحدة، حمولة من 100 قطعة. وبعد محاولات مضنية لرفعها، كانت تنهار ومن ثم يتم رفعها ثانية، هذا قبل أن تصمد وتعمل وتتدفق المياه العذبة في بئر المستشفى، ولم نعد بحاجة إلى إرسال الخدم للبحر للحصول على المياه.

بول هو قنديلي وبوصلتي، وأشعر بأن هذا الطبيب الطيب إحدى النعم التي وضعها الله عند بابي، سيسافر غداً إلى عمق جزيرة العرب، وأشعر بقلق لرحلته، وبعض العتب، فهو لم يخبرني إلا قبل أيام قليلة، خشيةَ أن أثنيه عن عزمه العارم.

حانقة منه، ولا أدري كيف أظهر مشاعر غضبي خشية أن يقارنني بزوجته الراحلة، فأنا لا أطيق أن أبدو في المقارنة كالعجوز الساحرة.

لذا فضّلت الصمت والكتابة لك، بشكل يخالف مواعيد الرسائل بيننا مرتين في الشهر. أعلم أن الفترة التي سيغيبها بول داخل الجزيرة العربية ستكون مضنية، وسأمضيها قلقة، لكن لعلّي أُلطِّف وحشتها برفقة السيدة بيننج، وأيضاً في تلبية دعوة أولئك السيدات المدللات، اللواتي يقبعن في عمق البيوتات البحرينية، وبأيديهن المزخرفة بالحناء يقدمن ضيافة فاخرة من أصناف الكعك العربي، وأكواب الشاي بالحليب، والقهوة المرة بنكهة الهيل والقرنفل، وعند الخروج يعطرننا بالبخور، ويرششن ثيابنا بماء الورد.

عندما تقرئين هذه الرسالة، أرجو أن أكون قد شرعت في كتابة رسالتي الثانية لكِ، وسأبشرك بعودة بول سليماً من جزيرة العرب.

المنامة 1918

آن هاريسون

***

الرسائل كالوصايا، يجمح الكثير إلى كتابتها في المنعطفات المصيرية. وفي تلك اللحظة التي كانت بها مسز هاريسون تكتب رسالتها لأمها، كتب ماثيو إيدن لمعلمه الأثير، رئيس قسم اللغة العربية في معهد نيوبرونزويك في ولاية نيوجيرسي د. ويزلي، الرسالةَ الثانية، الذي كان ينصت لأشد أفكاره جموحاً، دون أن يغضب أو ينعكس هذا على علاقته به.

بل يذكر أنه لطالما حذره قبل أن يأتي إلى الشرق، بأنه ما من داعٍ للحديث عن جميع أفكارك مع بقية أفراد الإرسالية. ففي عام 1890 أظهر د. ريجز، الذي كان طبيباً متميزاً، بعض آرائه المذهبية حول ألوهية المسيح، فألغوا علاقته بالإرسالية فوراً... وأعادوه.

د. ويزلي

ما زلت حريصاً على جرعات مكثفة من العربية وأنا في المنامة. الأسواق وبعض قارئي الكتب المتوارين في أعماق حوانيتهم هم مقصدي الأول، فهم بعد عدد من الجمل البسيطة بعربيتي المتعثرة، سرعان ما يطلبون مني مرافقتهم للديوانية المسائية، حيث يجتمعون للحديث والمسامرة وشرب الشاي، ظناً منهم، أنّ لديَّ المزيد من المعلومات عن أخبار الحرب، وإعادة سرد مشهد إمبراطوريات تنهار وتتهاوى، وأخرى تنهض من الركام.

عموماً لا تصل للبحرين الكثير من الأخبار، وعلى الغالب مصدرها البريد والصحف القديمة، أو قباطنة السفن المارة، وهي أخبار تقترب من قصص الجدات، ولكن جلّ الأسئلة في المجمل حول المعاهدات التي فرضت على ألمانيا.

أحتاج إلى المزيد من التحكم في مخارج الألفاظ الحلقية، أحتاج إلى أن أكف عن ترتيب القواعد للتأكد من الفعل، والفاعل، والمفعول به،

وظرف الزمان والمكان، كي أمضي في حديثي بتلقائية وطلاقة، فلم أكف إلى الآن عن ترجمة اللغة داخل رأسي قبل أن أتحدثها.

لكنهم دوماً يسألونني لماذا تتحدث بالمصري؟ يبدو أن لهجة مصر هي الطبقة الأولى التي انفرشت فوقها كل بذار عربيتي، وأعتقد ستظل عالقة في لساني، رغم أنني كنت كل صباح أشارك في إحدى حلقات التعليم في الأزهر، والتي يتحدثون فيها اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى.

غداً إبحارنا إلى الجزيرة العربية، وإلى الآن ما زلت مزهواً بالامتياز الذي منحنيه د. هاريسون، وبات يكرّره على مسمعي دوماً، ليهدّئ حماسي وانفعالي: "لقد سبقنا البعض إليها، فنحن لسنا بطلائع المستكشفين".

أعلم بأن هذه الأراضي كانت عبر التاريخ محصنة تحصيناً طبيعياً، لا يجرؤ أحدٌ على التوغل فيها، وحينما جفّت أنهارها في عصور جيولوجية قديمة، سالت بها بدلاً من الأنهار القوافل التجارية، فمرّ بها درب الحرير، ودرب اللبان، ودرب الصندل، ودرب الشتاء والصيف الذي جعل في أوسطه مزاراً دينياً عظيماً، مكعباً ضخماً، فيه إلهٌ لكل قبيلة، يجبر القوافل التجارية المتنقلة بين الشام واليمن على أن تمر به، وتؤدي طقوسها التعبدية بين يديه، وطبعاً ستبيع وتشتري، لتنتعش مدينة مكة.

لطالما أخبرتني أن من يطلق الكلام جزافاً عبثاً يفتقد الوقار والموضوعية العلمية، لكن هو محض حدس قد يوافقه الصواب أو يجانبه.

عموماً الكتابات الاستشراقية دونت داخل حواضن ومؤسسات استعمارية، ووسط سطورها لا تستطيع التفريق تماماً بين عبث الموظف في الردهات الاستعمارية، أو المؤرخ الشغوف بالعلم.

اعذرني، أنا أعرف أن هذه الجملة ستزعجك.

هناك أمر مهم للغاية نسيت إعلامك به في رسالتي الماضية؛ فعندما كنت في القاهرة، عثرت في إحدى مكتبات باب اللوق، على مخطوطة

ثمينة لجغرافي مسلم 1271–1331، يسمّى بأبي الفداء، وصف الجانب الغربي والجنوبي الغربي من جزيرة العرب، لكن معلوماته شحيحة، تعتمد على رحلات الحج، ولم يتوغل كثيراً إلى وسط الجزيرة العربية، وقد علمت لاحقاً أن المستشرق لاروك 1771، ترجمها للفرنسية تحت عنوان: "وصف شبه جزيرة العرب". اقتنيته وسأجلبه معي حين أعود.

من هنا تأتي أهمية رحلتي غداً إلى قلب الجزيرة العربية. فمع الأسف، أجد معظم كتابات الرحّالة الذين مروا من هنا، استطلاعية استخباراتية، وليست علمية، حتى في شطرها التبشيري. التبشير كان الحمار المسالم الوادع الذي امتطاه الاستعمار، لكن لياقة ذلك الحمار لم تستطع أن تتوغل به إلى قلب جزيرة العرب، هذا الصمت صنع فراغاً حشده الرحّالة بحكايتهم وهلوسات مخيالهم.

أخذت بنصيحتك في محاولة حفظ قصيدة عمرو بن كلثوم، كونها أسهل قصائد المعلقات لفظاً وتركيباً.

ما زلت متحمساً للغاية. رسالتي القادمة ستكون بعد عودتي... لا أعلم متى.

المنامة 1918
ماثيو إيدن

***

الرسالة الثالثة التي كُتبت تلك الليلة كانت إلى الله! جاء فيها:

إلهي، إن لوسيفر يعبث بي!

صبّ حمم بركانه في عروقي، وجمع أكثر شهوات الفانين خساسةً وشهوانية وقذفها في جوفي، ويحلق حولي في زوايا السقف والأركان، عيناه تقدحان بالتشفي والشبق.

إلهي، الملعون يتربص بي على هيئة هذا الأميركي المغوي، في صحوي ومنامي، يجلس متربعاً في رأسي، وأمضي نهاري وأنا أقيم

حوارات خيالية معه، حتى إذا اجتمعنا مساء في شرفة الليمونادة، أطبقْتُ شفتيّ، لا أريد أن أقول شيئاً بليداً غبياً، يزيده نفوراً مني، فقط أحاول الاقتراب منه كي أشتم رائحة صابونه وياقة قميصه، والتي تذهب بي إلى سهول تصهل بالمطر وحمحمة الخيول، ونحن في غرفة العمليات.

كيف يبدو كلُّ ما به شهياً وعذباً ويستحق الارتشاف؟ أقصى ما أقوم به أقترب بكفي لأستطيع ملامسة عقدة إصبعه عندما تتصل بكفه، والعضلة البارزة أسفل عنقه. عيناه تبرقان بمحجريهما الواسعين، كمغارة يختفي فيها قطيعُ ذئاب قطبية.

يا إلهي رأفتك ورحمتك، المنبوذ يعبث بي.

كيف سأطيق غيابه داخل الصحراء لأسابيع! ستطبق على روحي السماء ولن أتنفس. يا الله ها أنا أقف بعتبات ملكوتك.

يا ربّ، ثبّت عليَّ عقلي، أكاد أجنّ به، أدنو منه فيتباعد عني متقهقراً، يوجعني صمته البارد النائي. يا إلهي، كن معي وانزعه من قلبي، عشقه أنهكني واستبدّ بي، وفتح أبواب الطريد داخل نفسي، فلا أسمع سوى زعقات لوسيفر وهو يمطرني بصورة أكتافه تحت القميص المندى بالعرق ورائحة التبغ. يا ربّ، لا تجعلني كالمرأة التي أذهلها قميص فتاها.

إلهي، خلّص روحي... أنقذْني.

المنامة 1918
مارلين

الفصل الثاني

الرياض 2018
جليسة الأطفال

كانت دراسة الإخراج السينمائي خيار فواز آل مشرق الأول للدراسة الجامعية، رغم أنّ أباه عبد القادر آل مشرق، صاحبَ شركة المحاسبة، والعضو المنتدب في البنك الأميركي، قال له بنبرة صارمة مغلفة بالتوبيخ: ”لا يعني أنك تشاهد أفلاماً من تصبح إلى أن تمسي أن تجعلها مستقبلك أيضاً وتدرس إخراج سينما! هذه اسمها رعونة وعدم قدرة على تقدير الأمور!“.

لذا حصوله على الموافقة لدراسته في نيويورك كان إحدى أهم معارك فواز، ومشاحناته المتصلة التي يخوضها عادة مع والديه، فتستمر لعدة أشهر من الإلحاح والمطالبة، عندما يمنعانه من الإسراف في التهام الهمبرغر، أو التحديق اللصيق الدائم في شاشة الكمبيوتر، أو السهر خارجاً مع الرفاق لما بعد الحادية عشرة.

جميعها معاركُ كان يخرج منها منتصراً بالمراوغة والتسويف، والوعود بالإقلاع عنها، لكنه لم يقلع، ولن يقلع أيضاً عن حلمه في دراسة الإخراج في أميركا، الذي خرج منه برضوخ واستسلام من رجل الأعمال عبد القادر آل مشرق.

فواز ينبهر بأبيه عبد القادر ودماغه العجيب، وهو يقوم بعمليات القسمة المطولة بثوانٍ، قبل أن يواليه بالرقم الصحيح. هذا بالنسبة إلى فواز يندرج ضمن بطولات البابا، الذي لديه قبضة قوية تفتح علبة البيبسي، ويتفادى الحادث المروري بمهارة، وأي مما سبق لم يجعل فواز يحب الأرقام بل يبغضها. ورأس عبد القادر آل مشرق الذي يظل يحسب ويطرح، ابتدأ من سمك جدار العزل عند بناء منزلهم ليخفض مصاريف التبريد والتدفئة، انتهاءً بعدد المصابيح التي يجب أن تبقى مضاءة كل ليلة في السور الخارجي، أما بقاء المكيف هادراً في غرفة فارغة، فكان يعتبر خطيئة مشينة.

لكن رؤيته بريد قبول ابنه في الأكاديمية الأميركية للسينما جعل نشوة تلف برأس عبد القادر، تلاشت معه كل تحفظاته حول دراسة ابنه الإخراج السينمائي، واستعاد رائحة القاعات في جامعة أوريغون، وشوارع مدينة كورفاليس وغاباتها، ومكتب القبول والتسجيل، وزينة الكريسمس المعلقة فوق مكتب مرشدته الطلابية مسز أيون التي كانت تعامله بأمومة، وتردف انكساراته بكعك "رجل الزنجبيل"، حلاوته ما زالت تحت أسنانه.

جميع ما سبق، جعله يوافق على ذهاب ابنه، بل تغطية المصاريف إلى أن يتحصل على بعثة.

عبد القادر آل مشرق خرّيج تسعينيات أميركا، تنقّل بين جامعاتها وولاياتها، يرى أي مؤسسة أميركية مهما كان برنامجها، من شأنها أن تهندم شعث فواز وفوضاه، وتضبط جدوله، وإن كان لا يثق بفواز كثيراً، فهو يرى فيه بعض العبثية والرعونة، ينتظر أن تُصنع له الأشياء وتقدم، يمرق بين تراتبية المسؤوليات في منزل والديه بحذر وتملص كي لا تطاله. عبد القادر يوكل له بعض المهام لتدريبه وشدّ عوده، كالذهاب للبحث عن جنايني للعناية بحديقة المنزل، أو يجلب له الجريدة من السوبر ماركت الذي في الحي المجاور، متناسياً أن فواز يجيد المراوغة؛ يذهب خلسة ساخطاً متنمراً، ليطلب من السائق أن يقوم بهذه المهام، وهو يزمجر: "ماذا يفعل هذا المتواري في غرفته متبطلاً، ليقمْ بعمل مقابل الراتب الذي يناله!".

يطيش صواب عبد القادر عندما يعلم، فيوبخه ويغلظ عليه القول، ويهدده بأنه لن يسدد فاتورة جواله لمدة الأشهر الثلاثة القادمة، ولكنه عادةً لا يفعل، ولا يتوقف فواز عن مراوغته.

عبد القادر ذو التنشئة الصارمة، يقول لزوجته عزيزة بحنق: "ابنك المدلّع، عسى ذهابه لأميركا يظهر له قلب، ويخليه رجّال يتحمل المسؤولية".

فتجيبه عزيزة ساخرةً: "على وقتك كان يقولون زوِّجوه كي يعقل ويتحمل المسؤولية، وعلى زمن ابنك أصبحت أميركا هي من تقوم بمهامّ التربية". جملتها الأخيرة قالتها بنبرة المعلّمة الواعظة.

وكالعادة يهرع عبد القادر عندما تتقمص دور المعلّمة إلى الصمت، خشية أن يكتشف ذات يوم بأنه بات أحد تلاميذها، فيقول: ”يا أبلا عزيزة، ترى الأمومة ليست حصة الدرس الرابع، هي فطرة“. فتجيبه ببرود وهي تقلب شفتيها: ”إذا كانت الأمومة فطرة، فالأبوة اكتساب، يحتاج إلى التدريب والصبر الطويل الطويل“.

لا يدخل معها دهاليز الجدل، فهي تحترف مخاتلته في دهاليزها، لكنه يعود يحسب بحسابات سريعة، كم سيكفي فواز في أميركا، السكن في الدورم سيختصر عليه ثمن الطعام، يبقى مصروف اليد والملابس، سيقطن فواز في: 17 Battery Pl, New York, NY 10004, United States، وسيحاول أن يجد له مقعداً في برنامج البعثات الحكومية.

بيت العجوز المتذمرة

فواز في الطائرة التي تقترب من نيويورك، كان يشعر بأنه منزلق في إحدى ألعاب ديزني، تشهق وتنغرز في لحظة هوائية تتسع بها الرئات، وينبت له جناحا بيتر بان. لكن حال وصوله نيويورك، يشعر بأن الأمر مختلف عن بقية المدن الأميركية، وتباغته بعض الخيبة؛ فنيويورك بيت عجوز لئيمة، ثرية شقراء ومتذمرة، لكثرة عدد الغرباء الذين يحتفلون ببذخ وأناقة في باحة قصرها الأمامية، بينما في الخلف حيث الباحة المطلة على النهر، يشغبون، ويلغطون، ويتخاطفون اللقم من صحون بعضهم بعضاً، يتشاتمون، ويبصقون، ويبولون تحت الأشجار.

في الشارع الذي يقطنه، لا يألف سوى رائحة قهوة ستاربكس، تخالط رائحة البحر والميناء، ودخان عوادم السفن القادمة من العالم القديم، يصله صوت صفيرها وهو في مرقده داخل الستوديو الذي استأجره، لأنه لم يجد غرفة شاغرة في سكن الطلاب.

يداخله إحساس بالشجن والوحشة، ويتذكر الرياض واستيقاظه على قرقعة منزلهم، منزل ع/ع عبد القادر وعزيزة، والأشياء المصفوفة في أماكنها دوماً،

والعالم المجدول بحنان، لا شيء يتسرب بين صفوف الجدول. إنه يوم الثلاثاء في الرياض يوم المائدة البحرية، منذ تعرف على الدنيا، وهو يعلم أن عبد القادر أباه لا يحب السمك، لكن عزيزة فرضته على المائدة، كمنجم للفيتامينات تلمع بشرتها وتسقي شعرها، وترضي ذوق خادماتها الآسيويات.

في أيامه الأولى بنيويورك، يرفض أن يوقظه رنين المنبه، يشعر بالقسوة والفزع، كأنه في معسكر جنود، يستبدل به صوتَ المذياع، متسولاً ذكريات طفولته العميقة، عندما كان صوت مذياع جده ذي الغطاء الجلدي، يسرب له صوت العرب من القاهرة.

جده عبد المحسن جندي أخير في كتيبة العروبة، شاهد جمهوريات العسكر تتهاوى أمامه، ولكنه ظل وفياً لحلم شبابه، أمضى برفقته بضعة أشهر خلف القضبان، ناصرياً أصيلاً يضمر هذا حيناً، ويعلنه أحياناً؛ وحين رزق بابنه الأول، أصرّ على أن يطلق عليه اسم جمال.

يسمع ابنه عبد القادر يردد: "القومية غير قابلة للتطبيق، لم تقدم حلولاً للنهضة العربية، نحتت أصناماً عاجزة أن تصنع صاروخاً واحداً، سواء يطلق للقمر أو يضرب إسرائيل! إنها اللات والعزّى..."، فيلعنه أبوه وينعته بالمتأمرك، ويطلب منه أن ينقلع عن ناظريه.

***

نيويورك تمتص زوارها، كهف واسع ودامس، ثقبٌ أسودُ يغور بلا قاع... أولئك البشر الذين يشيحون عن بعضهم، خشية أن تلتقي أعينهم، فتشيح عنهم المدينة العجوز بكبرياء.

هناك طبل كبير ينبض في هواء نيويورك، لا يستطيع فواز تحديد مصدره، لكن تظل رائحة قهوة ستاربكس عبقة، تمتد الصفوف نحوها شهوة لرشفة رغوة سوداء، يرتفع معها المزاج، وتنخفض وحشة المدينة.

عندما زار تمثال الحرية، وجد المرأة توقفت عن التلويح بمشعلها للقادمين من العالم القديم، أصبحت جارية تعمل لدى شركة سياحية، ترسلها كل صباح تخاتل السواح وتستدرجهم، يدورون حولها بالهليكوبتر، وتمنح وقفات مغوية،

وبسمات مصطنعة مدروسة للذين يرغبون في التقاط صور جوارها ويحاولون ألّا يظهر في الصور ثوبُها المبقع بفضلات النوارس.

***

ظل فواز يتحاشى النظر في أعين المارة، أو ندّل المطاعم، أو حتى من يشكرهم لأنهم أبقوا له الباب مفتوحاً ليمرق.

لفت نظر سكرتيرة مدير المعهد جوديت، التي استرابت من عينيه الشاردتين في أرجاء الغرفة، وأصبحت تضغط على الكلمات، ليكون هناك اتصال بصري بينهما وهي تدون معلوماته، وجواز سفره بين يديها. عندها تفطّن فواز بسرعة أنه يجب أن يكون لطيفاً دمثاً بلا أي تصرفات مريبة؛ فندوب هذه المدينة لم تزل نازفة بعد سبتمبر 11، وهم لا يمتلكون الكثير من الوداد للغرباء، فرسم ابتسامته الوادعة التي كان يرتديها عندما تزورهم المعلمات زميلات أمه، وأخذ يملي على جوديت معلوماته بهدوء وود، بما فيها ولادته عام 2000، أي كان في سنته الأولى عندما انهار البرجان.

لدى المكتب الذي يوزع عليهم مفاتيح الغرف، أعطاه مسؤول الدورم رقم لؤي يوسف، وقال له: ”هو من بلدك، لعله سيساعدك في أيامك الأول كطالب مستجد جونيور، هو الآن سينير وسيتخرج الفصل القادم“.

***

في الحقيقة، وجد لؤي يوسف فواز كورطة. كان هو قد تأقلم وتلاشت اللكنة العربية من إنكليزيته، أو ظن بأنها كذلك، شاهدَ كمّاً هائلاً من الأفلام، زار الكثير من المهرجانات، تعرف على مجموعة من طلبة أفريقيا الجنوبية وأميركا اللاتينية تشاهد أفلام البوتيك ذات القضية الإنسانية، فيناقشونها في مشرب صغير في بروكلين. عقد شعره الطويل كبوني تيل، ولف شاله البوهيمي الذي يظهره كمحارب تتاري، بقامته المنتصبة وخطواته المستعجلة، فأتاه فواز راكباً جديداً في سيارة مزدحمة ليس بها مقعد شاغر، لا سيما وهو يعمل على

مشروع تخرجه حول حقوق الأقليات في دول العالم الثالث، لا يريد أن يتقاطع معه، أصوات ما زالت تحمل نكهة تلك البلاد الوقورة البعيدة.

ولكن اضطر أن يقوم بجزء من مسؤولية رعاية مواطنه على مضض، آملاً أن يتخلص منه سريعاً بعدما يبدأ محاضراته، وتتسع دائرة معارفه.

دعاه لؤي إلى مقهى قريب من الدورم، اعتاد أن يرتاده لتناول فطائر محلاة وقهوة، وقال له: "تعوّد أكل المطاعم الرديئة، بعيداً من أكل الماما".

ولأن هذه ليست أفضل جملة يُستقبل بها طالب جديد، انكمش فواز وأرجع كتفيه إلى ظهر المقعد.

وقبل أن يترك لفواز فرصة ليبدي رأيه أو يستفسر، قال وهو يمسد على سكسوكته المدببة التي تزيد وجهه مكراً: "عموماً ليس لديّ نصائح واضحة لك، لكن حاول هنا أن تتخلص من الأوهام الكثيرة المريحة، تلك الأوهام التي ترتفع ستاراً يحجبنا عن العالم. أوهام تحاولها المجتمعات للحفاظ على ثقتها بذاتها، كأحسن شعب، وأحسن دين، وأطهر أرض، وإلى ما هنالك من خزعبلات".

لكن يبدو أنّ حاجبَي فواز ارتفعا للدرجة التي جعلت لؤي يتدارك نفسه، ويلطف من نبرته الساخطة، وينظر إلى السقف وهو يقول:

"لن أفيدك أنا... فمهمّتك هي فحص أوهامك الكبرى، أو أفضل ما يكون أن تجد صديقاً أو صديقة (يضحك)، تستطيع مشاركتهما النظر إلى ثقافتنا بأعين محايدة".

كانت هذه أطول محادثة تشاركها مع لؤي. عدا ذلك اقتصر على إيماءات حذرة في الممرات، ونظرة إنذار مستعجلة من لؤي تختزل جملة: لا وقت لديّ لك.

***

في الأسابيع الأولى، لم يحاول فواز أن يغادر مانهاتن، فمنهاتن لقمة هائلة يغص بها زائروها، يحتاج الزائر إلى أن يقضمها برفق، ويمتصها ويستحلب رحيقها بهدوء، قبل أن ينفض لزوجة العش عن جناحيه، ويحلق ويغور في

العمق الأميركي، وهو بحاجة إلى وقت ليشفى من تجربته الشنيعة في مطار جون إف كينيدي.

فلم تعد بوابات أميركا تبتسم له بلطف، ولم تعد الموظفة على كاونتر الجوازات تطل على ذلك الطفل الصغير برفقة والديه، فتمنحه غمزة وابتسامة. أصبح هناك بدلاً منها صفوف من رجال الزومبي، يتفرسون في وجوه القادمين الجدد، وكلاب جيرمان شيبرد شرسة تتشمّمهم، ومفتشون يسألونهم عن محتويات حقائبهم، وإن هناك بضائع ستتسلل إلى السوق الأميركية المقدسة.

أمّا فواز الشاب اليافع القادم من العربية السعودية، فقد وقعت عليه قرعة التفتيش العشوائي، وهو أمر مرتقب، أخبره والده أن يتأهب له، قائلاً بتنهيدة: ”لا نعلم متى ستتطهر سجلاتنا من سبتمبر 2001؛ جراحهم ما برحت رطبة“.

ضابطا جوازات أخذاه إلى غرفة داخلية، أحدهما يبدو من أصول لاتينية، والآخر أشقر بحنك عريض، وجهه يشبه كلب البولدوغ، وجرّداه من ملابسه عدا سرواله الداخلي، ومرّراه على آلة أشعة عدة مرات، وتكفل رجلا أمن بتفتيش أغراضه، ونثرها بعشوائية، وفي النهاية ساعدته سيدة أمن سوداء في إعادة ترتيب أغراضه المتناثرة إلى مكانها، وهي تقول له بلطف: ”لا تكترث، هم يصنعون هذا لسلامتكم“. وقتها تحشرج وشعر برغبة عميقة في البكاء، فقد بعثروا الحقيبة التي نضّدتها أبلا عزيزة بأناقة وترتيب.

ولكي يستجمع روحه التي تبعثرت على عتبات مطار كينيدي، استعاد كلام عبد القادر آل مشرق: ”للغربة أنياب وأضراس، ليس من مهمتك اقتلاعها، بل راوغْها، وأسلمها بعض المقتنيات والأوقات تتلهى بها عنك، لكن ابقَ يقظاً بحيث لا تنهش ما هو خلف الضلوع... كرامتك ورونقك“.

كما أن المعهد طلب منه أن يكون حذراً في تنقله، حتى تنتهي إجراءات الأوراق الرسمية لإقامته كطالب، ولعل هذه التحذيرات هي الصيغة المهذبة التي يقولون له فيها: إن ملامحك الشرق أوسطية قد تسبب لك بعض المضايقات، ولن تشفع لك قامتك الفارعة، وجبينك الواسع، وعيناك قادحتا السواد، بأهداب مشرعة، وطلة صبوحة.

وكما تنحدر غيمة على صحراوي تائه، التقى فواز مساعد عسيري!

أتاه إلى ضفاف نيويورك، من قلب قرية تزرع البن داخل غيم جبال السراة، وتحصده في مواسم تفتح الجبال خزائنها لهم.

عرف فواز منذ تصافحا أنه سيكون رفيقه الذي سيمضي أيامه برفقته. بشاشته سرعان ما تأخذك نحو ألفة الرفاق القدماء، كود مشترك لترتيب خوارزميات الكون حولهما، حملا حقائبَ بها نفس الكتب المدرسية، ونفس عام الطبعة، هيئة كبار علماء واحدة أعلنت رمضانهما وأعيادهما، وشهقا زهواً في لحظة واحدة عندما تأهل المنتخب لتصفيات كأس آسيا، ومفاتيح أرقام المدن تفهرس مواضعهما، يضحكان ويعبثان ويتعايران بها، وأخيراً نشوة صوت محمد عبده الذي لا يهرم، هي التي تبطن سقف السيارة.

قبل أن تغلق نيويورك عينيها، تتقد أنوارها عيون ذئاب براقة حمراء، يفتح مساعد عسيري سلته ويخرج الحكايات التي تدثر غربتهما، حكايته مع أخيه عندما كانا طفلَين ذاهبَين لجني الحماط، فيحل عليهما الليل، وتبدأ جنيات الجبال تولول (الحماط أخو التين). الظلام كثيف فلا يريان فوق الجبال سوى أعين الذئاب الحمراء، ويبدآن في البكاء، قبل أن يتداركهما جارهما ويعيدهما إلى منزلهما، فيترجياه ألا يخبر أباهما بأنهما كانا يبكيان؛ ذلك أنّ الرّجال والصقور فوق قمم الجبال... لا تبكي.

مساعد يستخدم الصيغة السهلة والبسيطة لترتيب العالم حوله، أحاديث شباب يجتمعون أمام دكان لتناول ردبول، ويروي كيف أن تخصص الإخراج السينمائي، هو الوحيد الذي ظل متاحاً كبعثة في جامعته، واستطاع الفوز بها لمعدله الذي كان يخطط به للطب، لكن لم يبقَ له سوى مقعد الإخراج السينمائي. الحياة يسيرة لدى مساعد، مستساغة وقابلة للتجرُّع، عندها يتذكر فواز أكروبات السيرك، التي ظل يقوم بها على امتداد عام كامل كي يقنع عبد القادر وأبلا عزيزة، بأن المخرج من الممكن أن يكون رجلَ مجتمع صالحاً، حتى إن لم يكن له مكتب، يستحم ويقصده كل صباح.

***

عندما يبتعد عنه مساعد، يصبح فواز قلقاً مشغولاً بتحديد موقعه من الأشياء حوله، ذلك الداء الذي يصيب الغرباء ويشتتهم. كان يقيس مدى المسافة التي يجب أن يتركها في المقعد بينه وبين زميلته، المسافة التي يجب أن يتركها بينه وبين الذي أمامه في الطابور، ونبرة الصوت التي يجب أن ينادي بها أستاذه، فالطلبة هنا ينادونه باسمه مجرداً دون دكتور أو أستاذ.

أميركان نيويورك بهم بعض الشراسة وضيق الخلق، لا يشبهون أولئك الأزواج الذين كان أبوه يحضرهم لمنزلهم في الرياض. ودودون دمثون، يجلبون بمعيتهم السعادة وباقات ورد، ويعلقون فوق وجوههم ابتسامة ممتنة لكل شيء، ولا يسألونه قطّ لماذا لم تذهب إلى فراشك إلى الآن.

كانت أبلا عزيزة تستنفر قبل حضورهم، تزيد الزعفران في القهوة، تُعِد أطباق جريش، وقرصان، وكبسة ربيان، وترتدي ثياباً شعبية مزخرفة، وتسدل شعرها الأسود دائم الصهيل. يتذوقون جميع ما يقدَّم لهم كضيافة، ومن ثم يلحّون في الاستفسار عن مكوناته، تمرر عليهم مدخنة العطر يتخلل ثيابهم، ويغادرون بضحكات مجلجلة، رغم عدم وجود مشروبات تثير البهجة ترافق عشاءهم.

أين اختفت هذه الفصيلة في نيويورك، فالمارة متعجرفون والأساتذة مقطبون، وصاحب البقالة ما إن يفطن للكنته الغريبة، حتى يقفل درج الكاشير بلفتين، ومن ثم يضع المفتاح داخل جيبه.

حتى الآسيويون الذين كانوا يعاملونه بالرياض بنوع من التبجيل والتفوق الذي يقدم للسادة، أصبح عندهم مجرد سحنة سمراء، تندرج مع حشود الشرق البعيد، المزدحم بالبؤس والظلمات.

بينما تحتفظ نيويورك بلوحة فسيفساء كبرى، تتوالى الوجوه فيها تراتبياً، حيث يصطف في المقدمة المهاجرون الأوائل البيض ذوو الدماء الزرقاء، مؤسسو الدستور، وناقلو أمراض العالم القديم التي أبادت السكان الأصليين، وصانعو الخيول الحديدة، والبارجات، والمركبات التي تتنزه في الكون وتحط على القمر. ومن ثم تتوالى الصفوف بعدد الأسلاف الذي دفنوا فوق التراب الأميركي، عرقهم، لونهم، لكنتهم، أحياءهم، جميع هذا سيحدد عدد الأبواب

التي ستتاح لك في هذه المدنية المتاهة، والمفاتيح التي ستمرر إليك، وبطاقات الائتمان التي في جيبك، وإن كانت هناك بطاقتا ائتمان في محفظة فواز، فهو قد ولد فوق هذه الأرض، ويبحث عن المفتاح الذي يدخله أرض الأفلام.

بينما أبوه عبد القادر آل مشرق، الذي أمضى خمسة عشر عاماً في الولايات المتحدة، ليس بها عام يشبه الآخر، استطاعت أميركا أن تشق صدره، وتخرج تلك السخيمة السوداء التي يحملها العرب ضد أميركا، فلم يبقَ في صدره سوى ذكريات عذبة، كلّما استدرجها الوقت لمجارير النسيان، يحاول أن ينعشها بالزيارات، وأغنية ستيفي وندر، ولكنتِه الأميركية التي بدأت تتلاشى وتضمحل.

الفصل الثالث

ميناء العقير 1918

”البراري الشاسعة للجزيرة العربية الواسعة هي طرق سالكة بالقدر نفسه“ – **شكسبير، تاجر البندقية**

أمضوا عشرين ساعة بالمركب بين البحرين والعقير، على عكس ما أخبرهم الربان في المنامة حول مركبه (السالمة)، التي زعم بأنها تقطع المسافة إذا كانت الرياح مواتية ما بين 8–12 ساعة.

السالمة مركب عتيق من نوع البتيل المصنعة في الخليج، تحديداً في الزبارة جنوب البحرين، لها مقدمة ومؤخرة عريضتان، تتطابقان مع صاريتين في وسطها، تجعلها تبدو لهم كالسفن الفينيقية القديمة، ويبدو أنها كانت تستعمل للقتال، فهناك مدفعان برتغاليان يوازنان المقدمة والمؤخرة، متهالكان حد الصدأ، مع مجموعة من القذائف الثقيلة الخاصة بهما.

أول أمر صنعه هاريسون بعد أن استقرت أمتعتهم فوق السالمة، هو فتحه لفافات الخرائط التي بحوزته، حيث تبدو الجزيرة العربية كأم مشرئبة العنق، تهرول في مسارات التاريخ وتسحب بيدها اليمنى البحرين كابنتها الصغيرة.

وبجهاز الأسطُرلاب، أخذ يحاول تحديد خطوط الطول والعرض بشكل لفت انتباه الربان، خليفة الهاجري ربان السالمة، نحيل غامق السمرة، ضحكته تنفرش على كل وجهه، يرتدي ثوباً طويلاً من قماش الكتان، ويلف فوق رأسه منديلاً يقيه حرارة الشمس، ويحرص على أن يبقي مسافة بينه وبين بحارة المركب، تكفل له نوعاً من الهيبة والسطوة عليهم، لكنه بات يتبسط عندما يشارك د. هاريسون وماثيو طعامهما. كانت الوجبات التي قدمت خلال هذه الساعات دوماً الرز المسلوق في صحن دائري، فوقه سمك مشوي، ومن ثم يجلس فوق دكة في طرف المركب، ويبدأ بالتحديق في الأفق، وتدخين غليون

طويل، وتأمل الأفق، والصياح على البحارة كي يرفعوا الأشرعة الجنوبية؛ لتمتلئ بهواء الصبا القادم من عُمان.

انشغل ماثيو بدهن وجهه وأطرافه بزيت الجوز، وإطالة الجلوس في الشمس، قرأ في كتاب الرحالة ريتشارد بيرتون، بأنه عام 1853، دهن نفسه بزيت الجوز ليكتسب سمرة، وذهب متخفياً كحاج أفغاني يقصد مكة.

أيضاً جهز لساعات الإبحار الطويلة كتيباً صغيراً، دوَّن فيه جميع أسماء الإله العربي بمعانيها، يحاول ترادادها وحفظها، لكنها سرعان ما تتفلت من رأسه كسرب طيور نافرة، فلا يلبث أن يعاود المحاولة؛ إنّه على يقين بأن هذه الكلمات بكل حمولتها المقدسة، ستفيده في لحظة ما داخل جزيرة الإله العربي.

استغراقه في تمتمتها جعل بعض البحارة يفطنون له، ويظنون أنه يسبّح ويدعو، وأخذوا يرددونها معه بصوت مموسق وهدير متصعد: الرحمن، الرحيم، الحميد، المجيد، الملك، القدوس، السلام... فاتسعت الأشرعة بالتسابيح، واندفعت برشاقة وليونة فوق سطح الماء.

د. هاريسون يتأملهم ببعض الاستخفاف، ظناً منه أنهم يرددون أبيات شعر عربية. لم يفطن بأنها الإشارات التي تخبره بأن رحلته التبشيرية لن تكون بالأمر اليسير.

***

بعد 18 ساعة من الإبحار الهادئ المنساب، لاح الأفق كخط يفصل سماء شاسعة، تتلاحق فيها الرياح الشرقية، وأرض صامتة تتفحص الغرباء بوجوم.

تبدّت لهم من كثب مراكبُ تتكاثر كلما اقتربوا من الشاطئ، بعضها للنقل وأخرى تجارية، منها تلك الكبيرة الحجم والمسماة البغلة، التي تنقل إلى الخليج البضائع الآتية من الصين، والهند، وعمان، والبصرة، واليمن، ومنها تلك الأصغر الخاصة بصيد اللؤلؤ، أو نقل البضائع من السفن إلى الحاجز المائي المفضي إلى الميناء، وكثير منها يرفرف في مقدمتها العلم الإنكليزي. تمتم هاريسون ساخطاً: ”هل بات الخليج بحيرة إنكليزية تعج بمراكبهم؟“.

مالت الشمس عن زوالها، والجميع كان متأهباً فوق سطح المركب، وقد أتموا ارتداء ملابسهم العربية، ولكن لم تقترب منهم أي من القوارب الصغيرة التي ستقلهم إلى الشاطئ. الربان خليفة الهاجري، يطلب منهم الهدوء والتريث، فهناك سفينتان هنديتان هائلتان، تفرغان حمولتيهما من أكياس الشاي والسكر، مغلفة بحصير مصنوع من البوص، إلى سبعة سفن صغيرة أسفلها من نوع الدهو.

هذا الوقت الطويل استثمره ماثيو إيدن ليكتب في جورناله:

إنه ميناء الجرها؟ أكبر موانئ جزيرة العرب على الخليج، بوابة طريق البخور؟ أو جيرها كما يكتبه بطليموس. رحلات عميقة من قاع التاريخ، قادمة من جنوب الجزيرة، درب القوافل ينفرج كرأس المثلث، فإما المسير إلى مكة، فبالميرا والبحر المتوسط، وإما اليمامة، ومن ثم ميناء الجرها، فبلاد فارس.

يقال إنه كان ميناءً رئيساً للكلدانيين، لكن لم يبقَ الكثير من آثارهم على حافة الجزيرة، وإن كان بعض الباحثين يشطحون، فيقولون إن الكلدانين هم بنو خالد، عرب الجزيرة العربية، لكن الكتابة اللاتينية العاجزة عن نطق حرف الخاء، جعلتهم الكلدانيين، لا توجد أدلة تؤكد هذا، لكن منه انطلقت الحملات العربية الإسلامية للاستحواذ على آسيا.

أريد أن أنغمر بهذه الفرصة الثمينة لتجويد العربية، أريد أن أرشف ذلك الشامبين، الذي شعرت الليدي آن بلنت بأنها ترشفه وهي تخطو داخل صحراء العرب، وتملأ رئتيها من نسائم استيقاظ الربيع بالصحراء.

هل سأبحر عائداً من هذه الشواطئ مرة أخرى سليماً معافى، أم ستذرو الرياح أشلائي فوق هذه الكثبان الغامضة، عقاباً للفضول البشري؟

قد أتلاشى وأموت بالحمى، كالغزاة الرومان عندما نزلوا غالوسفي، على ساحل البحر الأحمر، ولم يستطيعوا الدخول إلا بعد عام مع فريق من العرب الأنباط.

أو قد أصبح هباءً كالجنود الذين بعثهم الإسكندر لاكتشاف الخليج العربي وبلاد فارس، أو أنتهي كنهاية جندي هندي مات في حرب الأفيون، وهو يقاتل تحت راية لا تمثله... تلك الميتات العبثية التي تفتت البشرية، وتصنع منها جسراً هائلاً لتعبر الأجيال القادمة، وتمارس الفضول نفسه، والتمرد، والرعونة، منذ زمن الأب الأكبر، وتفاحته، وزوجته الفضولية.

العاربة والمستعربة

في حقبة المادة الأولى للكون، انشطرت السماء عن الأرض، وبردت البحار، وثبتت الأرض بالجبال الرواسي.

بدأت تتشكل ثنائية الشمال والجنوب في جزيرة العرب؛ شطران متنافران شكلا ذاكرتها، وسنّا قوانينها، فما تغزله تضاريس الجغرافيا فوق رمالها، تنكثه رياح التاريخ، هكذا عبثاً تحاول قوافل الشتاء والصيف رتق شقيهما جيئةً وذهاباً.

العرب العاربة وتلك المستعربة، نزال عدنان ضد قحطان، عرب الشمال يربعون، وعرب الجنوب يكرون غزاة على حقولهم ويفرون، طيور اليُمن اليمانية وطيور الشؤم الشامية، رياح الشمال الباردة، ورياح الجنوب الدافئة المحملة بنسائم الصبا وفأل المطر.

حتى قبة السماء فوقها انشطرت تبعاً لهذه المروية، فباتت هناك نجوم الجنوب اليمانية، سهيل والشعرى اليمانية، وهناك نجوم الشمال الشامية، الثريا والشعرى الشامية. وإن تعشّق سهيل الجنوبي الثريا الشمالية، لكنهما أبد الدهر لا يلتقيان.

***

لم يؤذن لهم بالنزول إلا والمغيب قد حل بعتمة شفيفة، وطيور بنفسجية تحلق أسراباً قرب الماء. مراكبهم الصغيرة وصلت حاجزاً حجرياً وردماً ترابياً على

بعد نحو خمسين قدماً جنوب شرق المدخل، والمدخل يمكن للقوارب المحلية أن تبحر إليه بمحاذاة رصيف السفن.

تلك اللحظة التي رسوا فيها، قفز البحار مسعود إلى الميناء برشاقة وقال بالتفاتة خاطفة: "سأعلمهم بوصولكما"، قبل أن يتلاشى في ازدحام الميناء.

قريباً منهما، مبنيان شيّدا بحجارة الجير البحري، يربطهما ممر بطراز معماري شرقي، نوافذه الخشبية مقوسة في أعلاها، تقترب من الطراز السائد في البصرة ودمشق، ويبدو أنهما باتا مقراً لسلطات الميناء.

وجه د. هاريسون تقلّص، وعيناه ضاقتا، شأنه بعد التعب وساعات العمل الطويلة، أدرك ماثيو هذا من اللمحة الأولى، فتكفل هو بالإشراف على نقل الأمتعة.

يسيران بخطوات بطيئة حذرة فوق رصيف الميناء، متجهين إلى مبنى الجمارك. كان جسدا د. هاريسون وماثيو بحاجة إلى وقت لتنسجم حركتهما داخل الثياب العربية، لا سيما أنّ إبقاء الشماغ مستقراً فوق الرأس يتطلب مهارات ووقاراً خاصاً.

لا يعلمان كيف بزغ فجأة البحار مسعود، برفقة رجل طويل القامة مهندم نحيل، يتفحصهما بعينين باسمتين، شارباه مفتولان إلى أعلى باعتزاز، بينما يلوح بسبحة كهرومائية بين أصابعه. قيافته وعنايته بملابسه ولفتاته تخالف معظم العاملين بالميناء. قدم نفسه طلق بن عيسى، مرسول السلطان في العقير.

لم يتوقف عن الترحيب وتكرار كلمة أهلاً وسهلاً، بشكل يتراوح بين لطف الترحيب ورسمية البروتوكول، قبل أن يشير لهما باللحاق به. لحظتها تفطنا لحارسين يرافقانه دون أن يقتربا منه. وجوههما صارمة، ويتأبطان بنادق بارودية مقمعة. عرضا بأدب تخليص الأمتعة من الجمارك، لكن سرعان ما همس لهما طلق بن عيسى بحزم: "لا داعي للمرور بها على الجمارك، فهي أدوية لعلاج المسلمين وليست بضائع تجارية، فقط انقلاها فوق الحمير إلى موضع قريب من القافلة".

***

الفضول الكبير الذي استيقظ داخل ماثيو، بعد سماعه كلمة أمتعة وضرائب دواء المسلمين، جعله يسأل بعربيته المرتبكة، عن قيمة الضريبة المستوفاة عن هذه الوفرة من البضائع حولهم.

التفت إليه عيسى باسماً: "نحن نستوفي فقط ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، 8% من مجموعة قيمة البضائع".

ثم أخفض صوته وهمس بضحكة عابثة في أذن ماثيو، ويبدو أنه تفطن لعلب التبغ بين أمتعتهم: "عدا التبغ؛ فنظراً إلى كونه محرماً لا سيما في العاصمة الرياض، ويدخل خلسةً ويدخن في المجالس الخاصة جداً، فإن الضريبة عليه ترتفع لتصل أحياناً إلى 20%".

لحظتها لفّت رأسَ ماثيو رغبة عارمة ليملأ رئتيه وخياشيمه بسيجارة، وصار يستنشق الهواء حوله بعمق متتبعاً رائحته، وتسلل مستغلاً غبش العتمة، ليندس بين الجموع، ويبتاع المزيد من علب التبغ الذي يصل مباشرة من الهند، لعله أفضل من الناشف المخلوط بالتبن والحصى، والذي يصلهم من ميناء بوشهر.

اضطر أن يبتاع من تاجر هندي بعض قوارير عطر دهن العود ذات الرائحة النفاذة، كي يسأله خلسةً عن التبغ، ومن دون كثير من نقاش، أخرجه الهندي من صندوق مصدَّف مخبأ داخل إحدى سلاله، وناوله تولتَي دهن عود، وعشرين لفافة من التبغ، مقابل عملة فضية قدمها ماثيو، عليها نقش الملكة النمساوية تيريزا، حينما اقتناها من ميناء المنامة، قالوا له بأنها مقبولة على الضفة الأخرى، واسمها الريال الفرنسي.

وقال له وهو يبتسم بمكر، بأنه سيحتاج إلى قطرات من العطر الثقيل، دهن العود على ثيابه بعد كل لفافة، فالكثير ينفرون من رائحة التبغ.

لم تمض عشر دقائق على توغل ماثيو داخل السوق، حتى وجد طلق بن عيسى ينتصب أمامه وعيناه تستديران بالهلع، وهو يقول بالإنكليزية وأكدها بالعربية: "أينك؟ أين اختفيت؟ أرجوك لا تتحرك دون أن تخبرني، أنتم ضيوف

السلطان، ولا بد أن نحافظ على سلامتكم"، ثم مد يده بغتة يصلح شماغ ماثيو وهو يقول من بين أسنانه: "وانحسار غطاء رأسك، قد يثير فضول الكثير من رواد الميناء القادمين من عمق الصحراء".

تحجج ماثيو بكونه يتجول لتأمل ساحة الأعمدة الرومانية في وسط ميناء العقير، والتي تصطف على زواياها حوانيت لبيع وتبادل البضائع. فرد عليه عيسى بنبرة فيها الكثير من الرجاء الذي يخالطه التأنيب: "لا تتحرك وحيداً فضلاً"، قبل أن يتقدمه ويقوده إلى حيث د. هاريسون وبقية المجموعة، التي كانت تنتظر بتوجس. وحينما تأكد طلق بن عيسى من اكتمال العدد، تقدمهم وطلب منهم متابعته وهو يتلفت، بقلق الراعي الذي يعد عنزاته مساءً، خشية أن يكون الذئب قد اختلس إحداها.

***

كان الدرب يتطلب منهم السير عبر عدد من المنعطفات في ذلك الميناء، الذي تصنع تضاريسه أكوام البضائع، ومنصات التجار، ولهفة السكان لما يقذفه البحر على شواطئ صحرائهم. وبينما هم متصعدون شمالاً، تبدى لهم برجان مستديران بمتاريس، يقعان على تلة تنحدر إلى البحر، أسفلهما مضافة لاستقبال زوار السلطان وخاصته. غرف منعشة باردة، يدخل نسيم البحر من نوافذها بسخاء، والطوب الحجري الذي شيدت به، جعلهم يرقدون وكأن موجة تهدهدهم.

عميقاً في الكثبان

أطراف بلدة الجشة هي المحطة الأولى التي تنزلها القوافل، بعد أن تتحرك من ميناء العقير، قبل أن تتعمق في الصحراء، استرجع د. هاريسون تفاصيل زيارته السابقة للمكان عام 1915، حيث استغرق وصول القوافل إليها وقتها أربع ساعات، لكنهم الآن باشروا حدودها بوقت يسير، مما جعل هاريسون يرجع هذا لرواحلهم السلطانية المفتولة، والمندفعة تصعداً بقوة ونشاط.

ولكن طلق بن عيسى أشار عليه، بأنهم اختاروا أقصر الطرق بعد ضبط الأمن في المنطقة، بينما كانوا في السابق يلجؤون للكثير من الالتفات حول التضاريس لتحاشي بؤر خطرة.

كان تعداد القافلة ما يقارب الـ40 فرداً ما بين تجار، ومسافرين، ونساء، وأطفال؛ برفقتهم طباخ وخادم، وبالتأكيد عدد أربعة عشر من الفرسان الهجَّانة المسلحين.

إضافة إلى خمسة عشر حماراً لحمل المعدات الطبية، التي ستتوقف رفقتها حتماً في الهفوف، فالحمار الوديع المسالم، لا يجسر على التوغل في الصحراء، فسيهلكه العطش. وحده الجمل بمعماره الهائل وكبده الصبورة، يجسر على منازلة الصحراء.

***

استيقظوا فجر اليوم التالي، وخادم شيخ القافلة يطلق صرخة مدوية (شيل)، وفي غبش الضوء، بدأت الإبل في الرغاء، وانتشرت قرقعة أواني إعداد القهوة فقط، بينما اصطف جل أفراد القافلة ثلاثة صفوف للصلاة.

حتى إذا ما تأهب الجميع، كان هناك إبريق كبير يطبخ حليب الماعز فوق موقد الجمر، قبل أن يطيب الطباخ رميزان الحليب بملعقتين من الهيل، ويوزعه عليهم في أكواب مصنوعة من المعدن.

وضع دقيق نبات السرغوم، وعجنه مع حفنة من تمر منزوع النوى، بعده دس العجينة في الجمر، وعندما وزعها عليهم، كانت قضمات منه برفقة حليب الهيل، تجعل تأمل شروق الشمس بهجة كبرى.

حضر طلق بن عيسى بكامل قيافته، بعد أن أدى الصلاة مع الجماعة. يسأله القهوجي رميزان معابثاً:

– هل نمت بثيابك؟

قال طلق:

– النسمات ندية، الله يجيب الحيا.

أجاب القهوجي رميزان، وهو ينثر بقايا القهوة بحرص على منابت الشجيرات العشبية المتناثرة حوله، وهو يبتسم هازئاً:

– أين المطر والسيل ونحن في القيظ؟

فعاد طلق يقول مؤكّداً:

– حلمت بناقة هائلة تدر ضرعها لبناً علينا، فتسقي الجميع.

فأجابه القهوجي رميزان بنصف ابتسامة:

– الله كريم...

وما هي إلا لحظات، حتى فُكَّت الخيام بسرعة، وأزيلت العرائش، وربطت المقتنيات بطريقة يتداخل بعضها ببعض، وتتقلص مساحتها، قبل أن تُناخ الإبل، وتربط تلك الأغراض فوق ظهورها.

أفراد القافلة يعملون جميعهم معاً، ويندر أن يتحدثوا، يطيلون الصمت والتأمل، من شيخهم إلى القهوجي رميزان.

هاريسون وماثيو إيدن وقفا نفس مكان الخيمة التي تشاركاها تلك الليلة، وقد استغرقهما المشهد، فتمتم ماثيو:

– أليس هذا ما وصفه الرحالة داوتي؟ (في الصحراء الإنسان تابع للجمل، فهو من يرسم خط سيره وخرائطه).

همس هاريسون مجيباً:

– ربّما.

بينما أضمرها طلق بن عيسى في نفسه، وأزمع أن يمرر لهما بلطف، أنه ليس من شهامة وفروسية رفيق الرحلة أن يقف داساً يديه في جيبه يتأمل، بينما الجميع يرتب الأغراض والمقتنيات للرحيل.

***

تقدم القافلة حامل الراية، ليعلن أنها تخص السلطان، علمٌ من الحرير الأخضر الخالص، يصل طوله عشرة أقدام، وعرضه ستة، في منتصف العلم عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، هيئته الحريرية البراقة تتقاطع مع خشونة الصحراء وجفافها، ولكن صاحب العلم يعامله بإجلال وتقدير، كملاك أوكلت له

رعايته، ولا ينشره إلا في بداية الرحلة أو حال توجس خطراً، أو الوصول إلى مصدر ماء.

***

في تلك الليلة كتب ماثيو إيدن في يومياته:

> الهدوء المسرف للصحراء هو الشكل الماكر للضجيج، مع الهدوء تبدأ كل المخلوقات بالحديث: النجوم، والرمال، والحجارة.
>
> نَمُرُّ ببعض أهل البادية، إما فرادى أو جماعات، أشعر بأنني سألتقي في الخيمة القادمة بالنبي إبراهيم وإسحاق، وهم وسط الصحراء.
>
> (من يعرف نعمة الله الذي قال: إن طلبتم الماء فإنني سأعطيكم ماء الحياة).
>
> عندما نتحلق حول النيران في المساء، أحدق في شرار اللهب المتطاير، وأشعر بأسلافي زمن الإنسان العاقل المنتصب، يحدقون عبر حدقتي منذ آلاف السنين.
>
> جفت الأنهار في هذا المكان، تفجرت بدلاً منها القوافل، تحاول أن ترتق الشمال بالجنوب، ممرات قديمة ألمحها واضحة ونحن نسير، قد عبدها الإنسان بالحصى، أو سوتها أخفاف الجمال.
>
> رأسي ممتلئ بالحكايات المرعبة، حول قطاع الطرق واللصوص بين كثبان الجزيرة العربية، الذين يرون في كل ما يتحرك قنصاً، وإذا أخذتهم الرأفة بك، جردوك من كل ما لديك، وتركوك عارياً، وهي رأفة بالتأكيد لن أنالها في حال عرفوا بأنني مسيحي كافر، فعملية ذبحي ستصبح قرباناً لإله الصحراء الصارم.
>
> تلك المخاوف والشكوك قد ترتسم على وجهي، وقد يحدسها طلق بن عيسى، فيحاول أن يردد على مسامعنا كلّما توقفنا لماء أو نوم بأننا: "لا نحتاج الكثير من الحراسة، فقد استقرت القبائل البدوية والتزمت بمراعيها إلى حد كبير، وذلك عبر الترغيب والترهيب والعطايا، وأصبحت

هجمات أهل البادية الخاطفة على القوافل حذرة ونادرة، بعدما غلظ لها السلطان وأمير الأحساء العقوبة من ناحية... وأيضاً أشبع بطونهم".

ولكن ما كان يحرص عليه عيسى هو ارتداؤنا الثياب العربية، التي تتمثل في ثوب كتاني طويل، وتحته سروال طويل من نفس قماش الثوب، فوقهما حامل الرصاص من الجلد، يلتف على الخصر ويتقاطع على الأكتاف، هذا قبل أن يلف جميع هذا بعباءة صوفية ثقيلة، مطرزة أطرافها بالخيوط الذهبية والفضية، ونعتمر غطاء الرأس، الذي يتطابق مع تلك التي شاهدت مثلها كثيراً في البحرين والعراق، إما سوداء، ويسمونها الكوفية، وإما حمراء، ويسمونها الشماغ.

ينام ماثيو إيدن متوسداً ثيابه العربية، خشية أن تسرق، فيسخر منه هاريسون طالباً منه أن يطفئ نور السراج، حتى لا يلمحوا هيئة هاريسون وقد ركع يصلي: "ليست معضلتنا السرقة، لكن مهمة نشر كلمة الرب، درب استشهادي قد يسلبك حياتك".

***

طلق بن عيسى تناسقت أعضاء جسده كوعل الجبال، مهرولاً هنا وهناك، لا يكتفي بالمشهد المتاح، بل يراقب المُوَارب، ويكشف المُغطَّى، ومن بين أهدابه السوداء الكثيفة، يسرب نظرات فاحصة مستطلعة. رجل بروتوكولات وممثل للسلطان، يحرص على المسافات المعتدلة بينه وبين الآخرين، لصوته صرير لا يتوافق مع ابتسامته البشوشة، لكن يعطيه هيبة وصرامة، يستبطن الأعين التي تتفحصه، فينحت التفاصيل التي يقدمها بحرص، يعززها بلثام يغطي به نصف وجهه، فلا يظهر منه سوى عينيه الواسعتين، وهو على رأس 14 حارساً صحراوياً، غلاظاً كالسُّعَالي، ينتظرون أول بادرة ليونة أو تَبَسُّط، ليتجاسروا على القائد ويعصوه.

يكفكف طلق بن عيسى أسئلة ماثيو الفضولية، ويحيلها إلى الله! إن شاء الله، بإذن الله، العلم عند الله، أو فلندعُ الله أن يرفع عنا غمة الحروب.

ينسحب من الجواب بشكل مهذب، ويحيله إلى بلاط رب عليم مقتدر، يستأثر بمقادير الكون.

كانت فرصة ماثيو الوحيدة للتقرب منه، والحصول على مزيد من المعلومات التي ممكن أن يترجمها أنثروبولوجياً، ويضعها في لوحة الفسيفساء الهائلة التي يعمل عليها، وينضدها في مسودة ورقة يجهزها تحت عنوان: كيف تصنع البيئة المعتقدات؟

فكان أكثر الأوقات مناسبة هو المساء، عندما يوقد طلق مصباحه الزيتي، ويُخرج كتاباً ودفتراً، ويبدأ في السؤال عن أسم أي شيء يقع تحت عينيه بالإنكليزية، شرق، غرب، شمال، جنوب، رياح، خيام، قدر...

عربيتهم العرجاء، وإنكليزية طلق بن عيسى الكسيحة، استطاعتا أن تنشئا غلالة أحاديث تغطي وجه الصحراء، فأخبرهم بأن اختار لهم من الجِمال السريعة الخفيفة من نوع الذلول! ذات الاسم المشتق من القرآن }هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا{ أي ذللها وجعلها منحدرة بدربها برشاقة.

اكتشفوا وقتها أن طلق قد بدأ تأسيس قاموسه العربي/ الإنكليزي الأول منذ سنوات، من خلال زوار السلطان، وبعض من الصحف التي تصل بين يديه في مكتب السلطان بالرياض.

وفي تلك الليلة، بدأ يتكشَّف لماثيو إيدن، أن طبيعة طلق بن عيسى ليست صامتة ومتحفظة، لكن ربما لأن الرجل كثير الكلام مستنقص لدى العرب، وكثيراً ما يسمعه من حوله يردد:

ما قل دل وزبدة الهرج نيشان
والهرج يكفي صامله عن كثيره

فطبيعة المواضيع التي تخوضها، ورزانتك ومحفوظاتك من القصائد والمرويات، هي التي تحدد مكانك في مجالس قهوة الرجال.

تلك القهوة التي عندما تنسكب في عروقه، تخرج مكنونه وبئر معلوماته.

طلق بن عيسى

آخر شخص يجالسه طلق بن عيسى قبل أن يغفو هو طلق بن عيسى نفسه، وبعدما يعلق ملابسه على مشجب خيمته، يراجع وإياه أحداث النهار، أو ما اختارت الذاكرة أن تقدم لهما من نهار طويل منهك، يربت على أطرافه وعضديه ليؤنسها، ويستأنس بها بعد نهار تنكري طويل.

يهمس: "ضَيْفانا في أول حوار بيني وبينهما بعد الألفة وإزالة الحواجز، حرصت على أن أخبرهما بأن اسمي الثاني عيسى، هو الاسم العربي للمسيح عليه السلام، وأن الإيمان به أحد شروط إيماننا. كنت أريد أن أختصر مسافات بيني وبينهما، ليطمئنّا لي، ويستجيبا لتعليماتي؛ فسلامتهما مسؤوليتي، ولا يكفي أن أوصلهما سالمَين إلى الرياض، بل لا بد أن يكونا في مزاج طيب منشرح، يثني على مهمتي أمام السلطان.

الطبيب هاريسون يبدو متحفظاً كتوماً، في خلوته يخرج كتاباً صغيراً يطالع ويتأمل فيه، ويحمل في يده مسبحة تنتهي بصنم صغير، كنت أود أن أخبره بأن هذه الجزيرة العربية تطهّرت من الأصنام، منذ عهد الرسول عليه السلام، وأن الشياطين تحل في الأصنام، لكن لم أفعل، تردّدت، وبقيت على المسافة بيننا المليئة بالبشاشة والوداد المتحفظ.

كانت مهمّتي الأولى معهما، هي إقناعهما بارتداء الثياب العربية في الطريق. هاريسون يسمي الثوب بالجلباب، ويحرص أن تكون بقية ثيابه بمقاسات ملائمة؛ يضيف ساخراً: 'لا أود أن أبدو كشحاذ أو درويش فارسي، من الذين نراهم يهيمون حولنا مهرولين وسط الصحراء، متّجهين لمكّة سيراً على الأقدام'.

ولكن ماثيو الشاب عارم التوق لارتداء الثياب العربية؛ ولطول قامته، لم يكن الحصول على ثياب تلائم طوله أمراً يسيراً، ولكن لعلنا نجد في قيصرية الهفوف خيارات أكثر، أو حتى حياكة مجموعة من الثياب خاصة به.

هو عموماً شخصية مقلقة، يستفسر، يلمس، ويطرق، ويشم؛ وهذا يجعلني قلقاً بعض الشيء، فكثيراً ما أجده قد أنشأ حديثاً مع غريب مرّ جواره في

السوق، دسّ يده في جُحْرٍ ليعرف المخلوق بداخله، أو يمضغ بعض أوراق الأشجار الصحراوية ليعرف طعمها.

كنت أظن أن مسؤوليتي الأهم معهما ألّا يتجوّلا بعيداً، وألّا يحادثا الغرباء، وألّا يدخّنا، أو يظهرا أصنامهما علناً أمام رفقاء القافلة.

لكن اكتشفت أنّ هناك بعض التفاصيل، التي يجب أن يتقناها قبل أن نصل الرياض، ومهمتي ستكون إرسال رسالة لطيفة مضمرة، تخبرهما بأنّ وجودهما في الصحراء لا يعني أن يأكلا بأيديهما كقردَين فوضويَّين، بل هناك عدد من آداب السماط، لا بدّ من إتقانها قبل الوصول، منها:

أولاً: أن تذهب إلى الطعام متأخراً متلكّئاً كأن المضيف يرغمك، فلا تزاحم أو تدافع مَن هم حولك.

ثانياً: لا تمدّ يدك إلى الصحن، إلا إذا مدّها صاحب أبرز مكانة حول الصحن، وسمِّ باسم الله حول الطعام.

ثالثاً: اجلس على ركبة ونصف بشكل جانبي، لتفسح لأكبر عدد من الالتفاف حول السفرة.

رابعاً: أن توازن لقمتك مع ما هو موجود في الصحن وأعداد الجالسين، وتتناول الطعام بأطراف أصابعك، وتدسه بالفم بلطف وسرعة ثم تغلقه، وأن تغادر المائدة متعففاً مع أول بوادر الشبع.

قمت بهذا عدة مرات أمامهما، لكن لم يفطنا لي. سيعرفان قريباً، بأنه خلف عواصف الرمال، وغموض الكثبان، هناك شبكة من المحاذير والتقاليد؛ من يخترقها تتفتت كرامته، وينسكب ماء وجهه، وتتقهقر مكانته بين جماعته، فيجلس في نهاية المجلس جوار الأحذية“.

خلاص المعمودية

”وأية مدينة دخلتموها، فكُلوا ممّا يقدّم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها، وقولوا لهم لقد اقترب منكم ملكوت الله“ – **لوقا الطبيب**

عندما يصبح الأفق مطرزاً بسعف النخيل، فهذا يعني اقترابهم من بلدة الهفوف. عبق الجو بندى النبات، وينابيع المياه الفوارة، تداخلت الصور في رأس د. هاريسون، حول زيارته الأولى للهفوف عام 1912، كانت فيها آنذاك حامية عثمانية صغيرة، مكونة من 1500 جندي، تتوزعهم قلعة إبراهيم، وقلعة خزام وصاهود، وقلعة القطيف، ويذكر أيضاً، أنه عاد للبحرين بالملاريا، واضطر لاحقاً للذهاب إلى بغداد للعلاج. وبين خلجات الحمَّى وهذيانها، كان الممرض العربي يسخر منه قائلاً: الصحراء تعاقب الغرباء الذين يتطفلون على واحاتها، محاولين غرس راياتهم هناك.

بينما هو لا يذكر من كل هذا، سوى غبش وضبابية المكان حوله إثر الحمى، وضحكات خافتة لمريضَين إنكليزيّين يشربان سراً أنخاب انتصار دول البلقان على العثمانيين.

مضى على تلك اللحظة أربع سنوات، لكن الذكريات جعلت أول سؤال يسأله لماثيو عند وصولهم، حول عدد أقراص الكينين الخاصة بعلاج الملاريا التي جلبها ضمن الأدوية.

بينما بدا ماثيو مأخوذاً بحقول النخيل الكثيفة تفور أسفلها الينابيع، وتزدحم طيور الماء حول سبخات الأرز، وأزيز لصوت غريب لم يحدد هويته.

ذابت القافلة بالبلدة فور وصولهم، ولم يبقَ عدا طلق بن عيسى وحراس الهجانة، حيث ساروا بهما بين البيوت، حتى وقفا بمبنى بطابقين من الحجر الجيري، نوافذه الواسعة مزخرفة بالجبس، قال لهما طلق: ”إنه مبنى المدرسة الرشيدية، من مخلفات الترك، ولأن التعليم فيها كان باللغة التركية، فقد قاطعها الأهالي، ولم يرتدها سوى طلاب من أبناء ضباط الحامية. بعد رحيل الترك، عاد لها التعليم العربي، لكن ما زال يوجد فيها بعض الغرفات المهيأة كمضافة. ستمضيان فيها يومين، قبل أن نكمل للرياض. الآن اخلدا لبعض من الراحة“. ثمّ أشار إلى الجدار وهو يقول: ”حتى إذا وصل شعاع الشمس حافة هذه الزخارف الجبسية، وجدتماني أمام البوابة لأرافقكما للسلام على الأمير“.

ولأن المسافة التي سيقطعها شعاع الشمس، حتى الوصول للزخرفة الجبسية، أطول من الخطوات التي تفصل المدرسة الرشيدية عن السوق المسقوف القريب، الذي يطلقون عليه القيصرية، أتاح لهما هذا التسلل إلى هناك بخطوات سريعة حذرة، دون أن يثيرا قيلولة حراس الهجانة.

متاهة كبيرة من الممرات المسقوفة، تتجاور تحتها حوانيت صانعي السيوف، وتجار الأقمشة، وباعة السجاد، ولوازم الخياطة، وسروج الخيل، والمشغولات الفضية والخشبية، بالإضافة إلى تجار العملة، كان هناك ممر خاص بحائكي العباءات، لفات هائلة من أصواف مغزولة من وبر الجمال، طُرِّزت أطرافها بخيوط ذهبية أو فضية.

يقلبان البضائع والوجوه، ويشمان النكهات اللاذعة الشهية، وتلك المشبعة باحتمالات الخطر، يتحاشيان الخوض في حوارات تكشف هويتهما، ولأن أسواق المدن العتيقة هي مصب الأخبار، ومجمع الدروب، والمكان المفضل لدى الغرباء لاستكناه ما خلف الكلام؛ فعلى جدران الأسواق العتيقة تنشر عادة صحيفة يومية، تلغط بالأحداث والمفاجآت، وما جلبته دروب القوافل عند البوابات.

توقف د. هاريسون عند بائعي المقتنيات القديمة والخردوات متفكراً: هذه الكثافة تعكس وفرة، هل اقتصادهم قادر على النهوض بكل هذا؟ ما الذي يجعل هذه السوق نشطة؟ قربها من الموانئ، أم وقوعها على خط قوافل الحجاج؟

أخذ يقلّب بين يديه منظاراً إنكليزيّاً، ما برح بحالة جيدة، قبعة قرصان، طقم شاي بورسلان ثميناً ومذهّب الأطراف، وُقّع على صحونه من الخلف حرفا الدال والياء، يسوِّقها البائع الهندي بأنها تخص لورد إنكليزيّاً، تخلّص منها لأنها تجمع بين اسم زوجته وزوجها السابق، فكر د. هاريسون أن يجلبه هدية إلى آن، التي تركها في المنامة وأطراف رموشها رطبة، إلا أنه أجَّل هذا للعودة.

ماثيو زحزح غطاء رأسه قليلاً إلى الخلف، وأخذ يتساءل طوال الطريق عن كنه الاسم؟ ولماذا قيصرية؟ هل وصل قيصر إلى هنا؟ أيضاً الأعمدة التي في سوق ميناء العقير، لها تيجان رومانية.

مهرولين عادا من السوق، وقد غنما سؤالاً وحكاية.

هل توغل جيش القيصر عميقاً هنا، أم أن طلائع جيوش السلطانة، الغبار والحر، أرسلتهما ليحاربا بضراوة ضد الغرباء الطامحين إليها؟

هذا هو السؤال الذي عادا به إلى مكان إقامتهما.

أما الحكاية التي وجدا السوق يلغط بها، لا سيما في ذلك الميدان المستدير الذي يربط السوق بحقول النخيل، فتدور حول أمير الأحساء، وفصله في قضية بين مزارع وبدوي. لغتهما لم تتح فهم التفاصيل بدقة، ولكن أحد حراس الهجانة الذي تتبعهما إلى السوق، وبزغ لهما فجأة، آمراً إياهما بالعودة فوراً قبل لفت الانتباه، هو الذي نقل لهما بعربية ميسرة مفهومة، حكايةَ أمير الأحساء، الذي نظر في شكوى مزارع ضد راعٍ أطلق قطيع إبله في حقله، وعاث فساداً به، فأنكر هذا صاحب الإبل، وحلف الإيمان المغلظة، بأنه لم يمرّ بحقل المزارع، رافضاً أن يعوّض صاحب الحقل. فما كان من الأمير إلّا أن قال: ليس لديّ من بيّنة أتأكد بها من صدق الدعوى، غير أن أذبح بعض إبلك الآن، وأتأكد من محتوى بطنها. فلم يلبث صاحب الإبل أن تراجع، وقبل بدفع تعويض لصاحب الحقل.

همس د. هاريسون لماثيو: ”ألا تذكّرك هذه بقصة المرأتين في العهد القديم؟ اللتين تنازعتا على طفل، فقال لهما النبي سليمان: سأشطره بينكما، فرفضت الأم الحقيقية شطر ابنها إلى نصفين“.

فأجاب ماثيو مطأطئاً، وهو يبحث عن الكلمات الملطفة التي لا تخدش هاريسون: ”أيضاً أعتقد بأن تاريخ العالم القديم هو محض صراع بين المزارع والراعي، هابيل الراعي وقايين المزارع، هذه الحكاية متكررة في أكثر من مكان. وفي أساطير بلاد الرافدين أيضاً، ظهر صراع المزارع والراعي... فالمزارع يريد أن يستقر ويؤسس حضارة، بينما الراعي ينشد الحرية والمراعي المفتوحة الشاسعة، وإلى يومنا هذا لم يكونا قط على وفاق“.

يلتزم د. هاريسون الصمت ويطرق برأسه عندما يبدأ ماثيو بالهرطقة بنظريات الأنثروبولوجيا التي تربط حكايات العهد القديم بالأساطير، فالتجديف والهرطقة يحجبان عنهما بركات الرب في رحلة شاقة تنتظرهما. وسع

خطواته، وعيناه معلقتان بالجبس الذي يطوق النوافذ، خشية أن يكون شعاع الشمس قد لامسه.

وجدا طلق بن عيسى عند بوابة المدرسة، ولمّا لم يكن هناك من وقت لعتابهما، اختار أن يخبرهما أهم المراسم التي يجب أن يتبعاها عند الدخول على الأمير: ألا يكونا حاسري الرأس، أن ينزعا الأحذية عند دخول مجلسه، وألا يتحدثا مقاطعين كلامه عندما يتحدث.

بينما يرجو د. هاريسون أن يكون الأمير قد نسي ملامحه أو أنه يتناساها، ظلت حادثة الفصل بين المزارع والراعي تتردد برأس ماثيو، فتبدى له الأمير الوهابي الوقور بهيئة النبي سليمان، وهو يتحدث إليهما بتؤدة ومهابة، مع نظرة متفحصة تنطلق من قاع عينه، تنم عن رجل خبر الدنيا وتنقل بين وجوهها العابسة والباسمة، واستقر مقامه عند رمانة الميزان، حيث لم يَعُد الكثير يدهش في أيامه، وكل مُرّ سيمر، وكل همّ سيفر ويتوارى عند المنعطف، ولا يبقى سوى الدنيا تدفع بصناديق الأيام، وكل صندوق بداخله حكاية.

***

كانت ضيافة الأمير فاخرة، مدت فوق حصير من القنب الهندي مربعة الشكل، تقترب مساحتها من عشرة أقدام، وضع حولها عدد من الوسائد الملونة المحشوة بالقش، وأمام كل إناء مملوء باللبن رغيفُ خبز معجون بالتمر، ومن ثم توالت صحون مستديرة عليها أرز وقطع من لحوم الماعز، ومزينة بشرائح البيض والبصل والطماطم، وبين الصحون وضعت باقات من الخس والجرجير.

لكن ألطف مفاجأة صادفها الطبيب هاريسون في مأدبة العشاء، هي وجود آزاد!

قبل العشاء اقترب ماداً يده إلى أقصاها للسلام، تريث قليلاً ليتذكره، قبل أن ينبس: "أنا آزاد".

مشرعاً ذراعيه إلى أقصاهما لد. هاريسون، لحظتها تذكره هاريسون، الطبيب الأرمني ببنيته الضئيلة، وملامحه التي تشبه ملامح فتى على مشارف الرجولة، لكنه تخلص من بزته العسكرية التي كان يرتديها عندما كان طبيباً

للحامية التركية في الهفوف عام 1912، ولبس الرداء العربي وارتدى معه روح الثقة والنبرة الواثقة العميقة. ورغم أن آزاد يجيد الفرنسية وبعضاً من الإنكليزية، فهما بحضرة الأمير واحتراماً له، اختارا الحديث بالعربية المتعثرة.

***

آزاد درس الطب في إسطنبول، والتحق بالجيش العثماني كضابط طبيب، وقادته أقداره إلى هنا، طبيباً للحامية التركية في الأحساء.

وسرعان ما انخرطا في نبش حقائب الذكريات المشتركة، عندما تشاركا علاج الدوسنتاريا، الذي كان متفشياً آنذاك بين جنود الحامية. فبعد خسارة الترك في البلقان، ركزوا على وجودهم في الولايات العربية.

قال هاريسون بنبرة ساخرة: "أذكرهم، عشرات الجنود كانوا يمضون الوقت في قلعة الهفوف، يدخنون التبغ ويلعبون الورق، ويأكلون كميات هائلة من الطعام، وعندما يتقهقر الباب العالي في إرسال مُؤنتهم، فإنهم يخرجون للسوق جوْعى يأكلون ما يصادفونه".

أجابه آزاد بخجل وهو يهز رأسه وكأنه يحاول أن يتنصل من وصمة هذه الصورة وانتمائه إليها: "غالبية الضباط الأتراك الذين تعينوا بعد تطوير الجيش التركي وتحديثه، مشغولون بتقليد أوروبا، ولا يعنيهم هذا المكان وسكانه. كان هناك جو عدائي واضح بينهم وبين السكان. فالجند كانوا يشعرون بأنهم في المنفى، ويتبادلون الكراهية والمشادات مع سكان المكان، كونهم محض جباة ضرائب. ويرددون حكاية جنود فيضي باشا، الذين قدموا من العراق وتناهشتهم الصحراء 1904". وهمس: "عموماً، كانت مسؤولياتي تنحصر داخل القلعة".

لم يعد يشبه ذاك الطبيب ذا المعطف المتسخ، والنظرات القلقة التي تكابد الحيرة، ما بين التقهقر مع الجيش التركي خارج الأحساء، أو المكوث في الأحساء.

ويبدو أنه قرر المكوث، فمكان جلوسه قريباً من الأمير يحدد منزلته، مرتدياً فوق لباسه العربي عباءةً مقصبة من تلك العباءات الثمينة، التي يتسع تطريز قصبها إلى أربع أصابع، والتي يخلعها الأمير على خاصته.

وهو أيضاً الذي أوعز له الأمير أن يرافقهما، لتهيئة مكان ملائم لاستقبال مرضى الأحساء، خلال اليومين اللذين سيمكثانهما في الهفوف قبل المضي إلى الرياض.

مشى د. هاريسون وماثيو إلى المدرسة الرشيدية برفقة حارسين، يحملان القناديل ليتفقدا الغرف، ويجهزا عيادة لاستقبال المرضى فجر الغد، كما أمر الأمير.

وفي الدرب اختار الفرنسية ليخبرهما عبرها، أنه ظل هو وعائلته في الهفوف، لا سيما أن الأجواء في إسطنبول لم تعد ودودة مع الأرمن، حتى إن كان اسمه في كشوفات الدولة العلية، فسيظل مشكوكاً في أمره.

وأشار: "عائلتي ألفت هذه الواحات الملتفة على ينابيعها منذ الأزل، وأهلها كرماء لطفاء لهم سمات الحقول الهادئة وبساطتها الهانئة، كل شهر يضعون أمام بابنا سلة من محصول حقولهم ليذكرونا دوماً بأننا في محل الرحب والسعة. كما أن الأمير الصارم سيّر لي معاشاً، وطلب مني الاستمرار في عملي طبيباً لأهل الأحساء".

***

فجر اليوم التالي، كان آزاد واقفاً بباب المدرسة، وبدا متأججاً بالحماس، وقد ارتدى مريولاً طبياً رمادياً، وعيناه تبرقان بالود والاحترام الكبير لهاريسون، لا يريد أن تفوته لحظة من رفقته المكتنزة بالمعلومات والخبرات الطبية.

كانت العيادة التي أعدها آزاد، فصلاً واسعاً مشمساً في المدرسة الرشيدية نفسها، رتبت أدواته فوق أرفف، وهناك مقعد للطبيب، ومقاعد محبوكة من الحبال، وأرضها نظيفة، بدا واضحاً، أنها غسلت قبل حضوره بالماء والصابون، وأرفف فوقها قطن نظيف وشاش، وآنية لغلي الإبَر ومعدات الكشف.

استغرب هاريسون هذه الكميات من الضمادات والشاش.

قال آزاد: "جميعها كانت مخزنة في عيادتي، منذ حاصرنا جيش السلطان ابن سعود في قلعة إبراهيم عام 1913، أصاب الجميع حالة هلع كبرى، من سمعة جيش الإخوان وقسوتهم وبطشهم، وتم إخلاء المرضى، واستأجرنا لهم منازلَ

داخل الحقول، كي نبقيهم بعيداً من مرمى النيران. أما قائد القلعة أحمد نديم، فقد أعلن حالة استنفار كبرى، وطلب متطوعين من الجنود الذين لديهم خبرة يسيرة في الطبابة، وجهزنا القبو ليصبح مستشفى ميدانياً، بعيداً من النيران والقصف. أعددْتُ الأسِرَّة والضمادات، وشارك الجند في قصقصة الشراشف والأغطية، وجهَّزْتُ مراهمَ مضادات الحروق والالتهابات من موادّ محلية، بعض الدهن المذاب بالكحول والأعشاب، بينما طلباتنا المتصلة من الباب العالي لم تكن مستجابة وقتها بسبب فوضى الحرب. لكن المفارقة لم ترق قطرة دم واحدة، وظلت الضمادات في صناديقها، فالسلطان حينما قدم من عمق الصحراء، واقترب من الهفوف، أخذت قناديل الأهالي تلوح له خلسة من بين المزارع وفوق أسطح المنازل، فدخل عبر فتحة جهزت له في السور، وتوجه ضيفاً على أهل الأحساء، تحديداً في بيت الملا مفتي الأحساء، وأشار بإصبعه قائلاً: قريب من المدرسة هنا. وحين سمعنا الضوضاء والجلبة، ولمحنا وميض القناديل التي تلوح للموكب، وعرفنا بأن بعض رجال السلطان قد تسلقوا السور الغربي ودخلوا القلعة، مدعومين خارج السور بكتائب الإخوان العتاة، الذين يسبقهم صيتهم المرعب، ما كان من المتصرف التركي أحمد نديم، إلا بعث مفتاح القلعة للسلطان مع محمد أفندي، شرط أن يوفروا خروجاً آمناً للحامية التركية إلى ميناء العقير... وهو ما كان".

تساءل ماثيو إيدن، الذي كان ينصت للحديث باهتمام: "ماذا عنك، لماذا خلفوك هنا؟".

أجاب آزاد وهو يحك مقدمة جبينه، كعادته عندما يتأمل في موضوع: "بعد محاولة رجل أرمني قتل السلطان التركي عام 1908، وتهم التحالف مع روسيا ضد العثمانيين، بدأت الفظائع ضد قومي، لذا فضلت المكوث هنا".

ومن ثم كي يبتر الحديث الذي شعر أنه أطال الثرثرة فيه، بشكل يفقده حضوره المهني كطبيب، أخذ يشير إلى ما جهزه من أسِرَّة ومقاعد.

شاسعة الابتسامة التي غمرت وجه هاريسون، وقد عرف أنه لن يضطر لخلع الأبواب (كما في زيارته السابقة) وجعلها سريرَ كشفٍ للمريض المسجّى

فوقها. التفتَ إلى ماثيو قائلاً: ”هيا أيها الغربي النافر، حان وقت العمل، عقِّم يديك وشمّر عن أكمامك“.

ومن هناك أدخل حارسُ المدرسة المريضَ الأوّل، الذي سحب قدميه متكئاً على الجدران، من صلاة الفجر حتى باب العيادة، فاستحق أن يكون المريض الأول، في مطلع الأربعين، منهكاً بوجه شاحب، وخطوات مرتبكة، فلم يحتَجْ د. هاريسون إلى المزيد من الأعراض ليعرف أنها الملاريا.

وهكذا تتالى المرضى، ولم يصلوا قط إلى المريض الأخير، ولكن النهار قرر أن ينقضي، وأعتمت الدنيا.

وقبل أن يصل لهاريسون أي ترتيبات من بيت الأمير، أو طلق بن عيسى حول عشائهم، قال آزاد بنبرة رجاء هامسة لد. هاريسون وماثيو: ”أريد استضافتكما الليلة في منزلي“.

والغرباء عادة يكونون جاهزين للعروض المقدمة والضيافة المتاحة، فهي حتماً تفتح لهم المزيد من النوافذ، لإطلالة تجعلهم يألفون المكان وسكانه.

***

آزاد لديه منزل لطيف، يعلو عيادته في أحد الدروب التي تتفرع من القلعة شرقاً، قبل الوصول إلى سوق القيصرية، ومن باب جانبي يجاور العيادة، صعدا درجاً ضيقاً، أفضى بهما إلى غرفة جلوس بمقاعد مرتفعة محبوكة من الحبال، وفوقها وسائد ملبسة بالكتان الأبيض المطرز بالأحمر.

مع الشاي قدّم لهم كعكاً لذيذاً محشواً بالتّمر والجوز، وما لبث أن أخذ يغلق النوافذ ويسدل فوقها الستائر.

فجأة قال ماثيو مقهقهاً: ”هل حان وقت النوم؟“، وبدأ في إطلاق أصوات الشخير عبثاً.

نظر هاريسون لماثيو نظرة مؤنبة، فهو لم يرد لآزاد أن يشعر بالمزيد من الحرج، فقد تيقن أنه قد استدعي لهذا المنزل للقيام بمهمة ما، التي سرعان ما تجلت لهما، عندما دخلت الغرفة سيدة ضئيلة رقيقة الأطراف كدمية، غطت رأسها بقطعة تل سوداء، تحمل فوق يديها رضيعاً مستغرقاً في نوم عميق،

بوجه ملائكي يشبه أيقونات يسوع الطفل. لحظتئذٍ كشف آزاد عن وعاء حجري كان يقبع في زاوية الغرفة قد امتلأ بالماء وأوراق الورد.

ثمّ همس وقد احتقن وجهه وتهدّج: "د. هاريسون، هذا أول طفل صبي نرزق به بعد شدائد كبرى مرّت بنا. فبعدما انقطعت أخبار أهلي، ولم يدم الأمر طويلاً حتى وصلَنا أنّ أهل زوجتي الذين كانوا يقطنون مدينة كليكيا جنوب الأناضول كمزارعين ومربي نحل، قد تم انتزاع أراضيهم وتهجيرهم إلى حلب حفاة، واستبقوا الأخت الصغرى، حيث اصطفاها أحد الضباط العثمانيين لنفسه. بعدها دخلت زوجتي في حالة حزن شديدة، أبقتها في فراشها لأشهر، رافقتها حالة من الذهول. فلم تَعُد تكترث لمن حولها أو تهتمّ بالمنزل وابنتيها، ولم تخرج من ذلك الحزن، سوى مع رؤيةٍ تجلّت في منامها: يسوع يتقدّم منها وفي يده حملٌ أبيضُ لا يثغو بل يتكلم ويناديها: 'ماما'. ولم نلبث بعدها سوى بضعة أسابيع، قبل أن نكتشف أنها حبلى بهذا الصبي، الذي حلت علينا البركات منذ ولادته. وحين عَرِفَت بوصولك، جنّ جنونُها، فهي تريد منك أن تعمِّده".

ابتلع د. هاريسون ريقه، وقبض على يده، وحجب سؤالاً يمور بداخله: هل أعمده كبروتستانتي أو أرثوذكسي أو كاثوليكي؟ وانتصب ماثيو واقفاً كأنه يحضر مشهداً في إحدى التراجيديات الكبرى.

أحس آزاد بما يضطرب داخل الطبيب، فقال له بفرنسية متوسلة: "فقط عمّده أرجوك، لا تدخل بالتفاصيل، فقط أدِّ الطقوس أمامها، باسم الرب الموجود في السماء منذ الأزل، قبل أن يحاول البشر تشظيته والاستئثار به... قم بهذا أمام عينيها، فقد تموت إذا لم يعمَّد ابنُنا".

لحظتها تقدم هاريسون نحو زوجة آزاد خطوتين، وبرفق التقط منها الطفل الملاك بقماطه وأخذه نحو الإناء، ومن تلك اللحظة التي غادر فيها الطفل رائحة أمه ورقة يديها، بدأ في الصياح، وابتدأت يدا هاريسون تهتزان بقلق، لكنه تماسك، اقترب من الإناء، ومسح على رأسه وهو في غاية القلق والتوتر، فبكاء الطفل مرتفع لدرجة تلفت الانتباه، ثمّ غرف من الماء، ومسح على رأسه، وغطس قدميه.

دخلت فتاتان صغيرتان كجنيات البحيرات الضئيلات الهشات، تحملان شموعاً معطرة، وبدأتا بإنشاد تراتيل بالأرمنية بصوت منخفض عذب، بينما أجهشت الأم بالبكاء. لحظتها كانت تحت النافذة على الشارع المقابل، ظلال رجل ينصت للترانيم بعمق، وهو يحدس أن هناك طقساً دينيّاً سريّاً يقام، يجيل عينيه في المكان بهدوء، ويسحب نفساً عميقاً من لفافة التبغ، كعشيق يختلس قبلة من محبوبته.

هبّت نسمه شمالية عبقة بندى حقول النخيل، فاهتزّ قنديل الشارع، وتطايرت منه بعض الفراشات، وتطاولت حوله بعض الظلال، بدا طلق بن عيسى الوهابي الأنيق أسفله، مهندماً متعطراً، وقد استحم في العين، وزال عن وجهه كدرة الصحراء، وبرزت تقاطيعه الوسيمة تشبه وعول الجبال الحذرة، ملتفاً بعباءته، وعيناه المتفرستان تبرقان أسفل فانوس الضوء المهتز، كان يتمنى ألا يطول الأمر، وينتهوا سريعاً، كي لا يفطن لهم أحد ويضطر للتدخل.

تمتم: "ليختاروا الدرب التي تروقهم، ليسوا ببُهُم لأسوقهم إلى المراعي التي اختارها قومي للالتقاء بالله، لكن أتمنى ألا يهدروا الكثير من الوقت".

***

عند خروجهم، أصيب د. هاريسون ببعض الهلع والحرج، خشية أن يكون قد التقط طلق شيئاً ما من أصوات تعميد ابن آزاد، في مكان بينه وبين مسجد الجامع أمتار قليلة، فأخذ دون حتى أن يسأله طلق عن أي أمر، يخبره بأن الرضيع يعاني من بعض الجفاف، وهو بحاجة إلى الماء المغلي ببعض الأرز المسلوق، والتدليك قبل النوم حتى يغفو. يحاول أن يرمم المباغتة والريب في عيني طلق بالتفسيرات والتعليلات، فأردف كأنه ينظف لوح آزاد: "الحمد لله أن آزاد قرر المكوث هنا، ولم يَعُد مع جنود الحامية التركية، فوجوده مفيد بالنسبة إليّ وإلى سكان المنطقة عموماً".

ماثيو يسير جوارهما مطرقاً منصتاً، ويستغرب كيف تتشكل الأكاذيب وتتفرع وتجد مسوغاتها، حتى لدى القديسين والمبشرين، فيبدو أن هذا العالم القائم

على الجور والصدف، يحتاج إلى مرهم الأكاذيب لتلطيف خشونته.

لم يناقشهم طلق في أي موضوع، فقط كرر رجاءه بأن لا يتحركوا وحيدين دون حراسة، مكرساً ما يحمل له د. هاريسون من احترام عميق، فهو يظل محتفظاً بتلك المسافة بينه وبينهم، لا يتحدث إلا للضرورة القصوى، لا يطلق نكاتاً مستهجنة، لا يفسد قيافته بتصرفات مبتذلة.

***

ثلاثة أيام لم تكن تكفي لمعالجة جميع مرضى الأحساء الذين أخذوا يتوافدون، من المبرز، والقطيف، والجشة، وإلى جوار المرضى كان بعض الأهالي الذين يترقبانهم عند الباب الخارجي مساءً لاستضافتهما، اليمين المغلظة والرجاء الحار، ليكونا ضيفيْهم الليلة، حتى بات الاعتذار مأزقاً يشبه الرجاء، بينما طلق بن عيسى يترقب من بعيد، دون أن يتدخل، فهو يعلم أنّ رد الاستضافة لدى العربي، بها كسر عنفوان، وتقليل من وجاهته أمام جماعته.

حتى إذا أصاب أهل الهفوف اليأس من قبول الأطباء دعوتهم، أرسلوا لهما ضيافتهم: إما إناء كبير يحمله رجلان، خروف مسلوق بماء الزعفران والبهارات الهندية اللاذعة، فوق أرز حساوي أسمر، أو عذق كبير من بلح الخلاص، أو قدر هريسة باللحم، أو سلة هائلة من التين والعنب.

يتمتم ماثيو: ”الضيافة لديهم هي كود الثقافة المضمر، الذي يحمي النوع من الفناء، ويغرف من قدره ليمنحك يوماً آخر في هذه الحياة“.

***

ليلة الرحيل، رتب طلق بن عيسى حمَّاماً بخارياً في عين نجم، العين لا تبعد كثيراً عن مكان نزولهما، قطرها نحو أربعين ياردة، مسقوفة، وتحفها مزارع النخيل. آزاد رافقَ طلق وماثيو الذي وجدها تجربة تشبه التسلل إلى أحد ينابيع الجنة.

في الداخل، ناولهم صبي الحمام الأسمر ليفاً أبيض من جذوع النخيل، وإناء ترتج داخله رغوة شجر السدر، وغادر وهو يقول: ”إذا احتجتم إلى فرك ظهركم

أو المزيد من الصابون، فأنا في آخر الرواق، لست بعيداً“.

الفضاء المشبع ببخار يتضبب، عندما يلامس زجاج القبة الملون، فيوارب الضوء لجنيات الينبوع يعبثن تحت القبة، ويأخذن من غبش العتمة ذريعة لإثارة الشهوات في جسد الماء.

للماء رائحة معدن طفيفة، يتقهقر بالمستحم لعناصره الأولية، ونشوة تحف ماثيو جعلته يستكين لستائر الضباب، كأنه أول قماط التفّ حول جسده بعد ولادته.

يحاول كسر صمته الطويل، ويسأل آزاد ما الوقود الذي يغذي المرجل النافث، لهذا الكم الهائل من البخار.

فيجيب آزاد: ”مخلفات المزارع من أغصان، وروث، وسعف نخيل“.

وفجأة انقبض وجه آزاد، كأن بومة أنشبت مخالبها في كتفه، واسترسل:

”حطب هذا المرجل الذي يتوقد خلفك كان يوماً ما يشعل من شجر المزارعين العصاة“.

أثار الحديث فضول ماثيو، واستوى في جلسته ليسأله كيف؟

قال بصوت خشن عكّر هيبة صمت الحمام:

”حدثني ابن فضل، أحد كبار مزارعي الهفوف، أن أهل الأحساء اعتادوا ألا يدرجوا أشجار الأترج والنبق إلى قائمة إتاوات المحاصيل المقدمة للترك؛ فهي قليلة، وتذهب جلها لأهل المزرعة، ويكتفون بالنخيل، والعنب، والأرز الحساوي بعد حصاده. فلما عرف قائد الجندرمة بهذا، غضب غضباً شديداً، واجتمع بالتجار ووبخهم، أخبرهم بأن أموالهم حرام، وذكرهم بأن ريع محصولاتهم لا يدخل بيته، وإنما يرسل لعاصمة الخلافة، حامية حمى الإسلام، التي توفر لهم الاستقرار والحماية من كماشة الصليبين في الخليج العربي، وهجمات البدو على أطراف مزارعهم.

ومشهد المزارعين مطأطئين، وقد اختطفت ألوان وجوههم من زعيقه ونثار لعابه، لم يكفه، بل أرسل سرية من الجنود استهدفت بعض المزارع الكبيرة، فقطعت جميع أشجار الأترج والنبق (السدر)، وأخذوا جلّ أخشابها للحمام التركي في القلعة، والبقية كان يشعلون بها هذا المرجل الذي على يميننا.

وعندما رفع وجهاء المنطقة والأهالي رسالة شكوى للباب العالي، كان رد الباب العالي خطاب شكر لقائد الحامية التركية، لأنه أنفذ قانون 1839 خط شريف كلخانة، وهو ما ينظم الجباية المركزية في عهد السلطان عبد الحميد“.

***

كان د. هاريسون قد اعتذر عن مرافقتهم للحمام، وأشار أنه يفضل النوم باكراً، لكن النور المضاء في غرفته شجع ماثيو على المرور به.

وحينما طرق بابه، تقدم ليفتح بخطوات نشطة، لا تشير لشخص يتأهب للنوم. لم يرتدِ منامته، بل ارتدى نظاراته التلسكوبية التي يستعملها عادة في عملياته الدقيقة. كان قد فرش بجوار سريره على الأرض خريطة مرسومة بعناية للجزيرة العربية، وقال وهو يشير إليها بفخر، في طفرة كرم غير معتادة: ”حصلت عليها من مكتبة القنصل البريطاني... انظر شريط ساحلي يرتفع نحو 350 قدماً، ومن ثم جنوب صحراء الصمان، والتي يتدرج ارتفاعها عن سطح البحر حتى يصل إلى 900 قدم، ومن ثم تأتي متاهة صحراء الدهناء الهائلة، لكنها تواصل ارتفاعها حتى 1500 قدم، وهناك فوق هضبة ضخمة تشبه المائدة يسمونها نجد، تتوسطها الرياض فوق عرشها“. ثمّ أضاف وهو يحك جبينه المجعد، كأنه يفكر بمعضلة: ”ولك أن تتخيل الطبيعة الغامضة والمضللة لهذه التضاريس، وندرة آبار المياه التي لا يعرفها إلا أهل المنطقة أنفسهم، وعلى الغالب تكون خاضعة لتوازنات قبلية دقيقة، يشبه التعدي عليها أو الشرب منها دون إذن، اختراق سيادة دولة“.

ثم أردف مستدركاً كأنه تذكّر أمراً ما: ”التقيت الليلة في مجلس الأمير بأحد خريجي مدرسة الرجاء العالي في البصرة، يدعى محمد بن حزام، يتحدث بإنكليزية أنيقة، كان قد وصل من البصرة قبل أشهر قليلة، مع حمولة من أنابيب تمديدات المياه التي ينوي أن يؤسس بها تجارة تنطلق من الهفوف، وتسقي جميع بلدات الواحة الضخمة. وعندما استفسرت منه عن أحوال مؤسس المدرسة جون فان آيس، تحدث عنه بكثير من التقدير، مشيراً إلى أنه ساعده في الأوراق الرسمية، التي تطلبها خروج كمية هائلة من الأنابيب إلى

الأحساء. ويؤكد بأن المكان هنا يشبه المعجزة، واحة هائلة، تنهض في وجه طبيعة متقشفة، ليس هناك أنهار أو بحار، لكن عيون من المياه الفياضة... تفيض وسرعان ما تغور".

ثم تمتم وكأنه يحادث نفسه: "لا أدري هل هذه الأمكنة بكر تماماً من لمسات الدعوات التبشيرية، أتمنى ومضات ولو خفيفة، أو فاترة تظهر على خجل، وهذا يخفف من كمية إحباطي للنطاق الضيق الذي بالكاد أتحرك فيه، والثياب العربية التي يجب أن أرتديها دوماً. لكن سعادتي وعزائي تنبعان من كلمات بولوس في كورنثوس الأولى 15:58: 'إذن يا إخوتي كونوا راسخين غير متزعزعين، مكثرين في عمل الرب كلّ حين، عالمين أن تعبكم ليس باطلاً في الرب'".

صمت ماثيو ولم يجب، لعله كان نعساً، أو ربما لاستغرابه من هذا المرجل الذي يتوقد داخل د. هاريسون... ولا يفتر أبداً.

ما در أين دهر مقيم

في الفجر شقت قافلة طويلة المدينة، ومرت بسوق الرفاع والنياثل صوب بوابة نجد. كان هناك الكثير من التجار، والمسافرين، والحجاج قد التحقوا بالقافلة، وأخذت تمتد وتتكثف، حتى إن من هم في المقدمة، لا يدركون طرفها.

يكتب ماثيو إيدن في يومياته:

> أحسست معها برعدة في أوصالي، ها نحن نتوغل في الجزيرة العربية. رغم حالتَي السحر والنشوة اللتين تسيطران عليّ، فقد بدا لي واضحاً أني إذا أردت الأمور أن تنساب بيسر وسهولة، فهناك ثلاثة أشياء لا بد أن أجعلها واضحة أمام عيني في رحلتنا هذه:
>
> أولاً: النظريات الأنثروبولوجية وعلم الإناسة تثير حفيظة د. هاريسون، ويجد فيها نوعاً من الهرطقة، ويجب أن أوظفها بحذر أمامه، حتى إن كان خريج جون هوبكنز، ويمارس أحدث الأساليب الطبية.

ثانياً: عملية التدوين المكثف، وتلقف أي ما يقولونه لتدوينه، والإعادة والاستزادة، قد تعكس إيحاءات مريبة لرفاق القافلة، فيجب أن أدرب حافظتي على التقاط كل شيء، وأدون لاحقاً في خلوتي.

ثالثاً: إن هذا المكان، وسكانه، وأهله، أكثر تعقيداً مما كنت أتخيل، أو على الأقل ما صوّرَتْه لي كتبُ الرحّالة الذي سبقونا إلى هنا، فلا بدّ أن أحرص على التنقيب والاكتشاف بشكل لا يدعو إلى الريبة.

***

سارت القافلة على درب الحج، وأخبرهم طلق بن عيسى: ألا يتعجبوا حينما يصادفون الكثير من الحجاج الراجلين الحفاة، القادمين من عمق آسيا، قلوبهم تهفو إلى مكة، وصدورهم تخفق باللواعج والأشواق، سيبدون عجيبي الأشكال نوعاً ما، مخطوفين أو مجذوبين، يتكلمون جملاً متقطعة كالنبوءات، ويقطعون مسافات هائلة بلحظات قد لا تصدقها العقول، وينسبون كل هذا لقدرات خالقهم.

رجاهم ألا يتبسطوا معهم كثيراً، فجلهم حجاج، لكن منهم جواسيس الفرس أو الترك، الذين يجوبون المكان تقصّياً للمعلومات، متسترين بإحرام الحج.

حينما سمع هاريسون هذا، شعر بوخزة بين ضلوعه، فهو أيضاً متوقع منه تقرير يدرجه بين أوراقه ومذكراته، حتى لو لم يطلبه ذلك الإنكليزي الذي يقطن المنامة.

وأول توقف للقافلة كان في السهل الذي يمتد أمام قصر خزام، على ضفاف الصحراء غرب الأحساء، قلعة خزام على الطريق الرئيس، الذي يُعَدُّ مدخل الأحساء الجنوبي الغربي، وإن كانت تبدو محطة تزدحم بالقوافل القادمة من عمق الصحراء، لمقايضة السمن وبعض المنسوجات بالتمر، والقهوة، والبنادق، والذخيرة.

ينشطر العالم على حدودها، تخلف وراءها المزارعين، وتستقبل أمامها الرعاة وأهل الصحراء، بوابة الصحراء الأولى لمسيرة 10 أيام بين الكثبان، متصعداً قبل الاقتراب من أسوار الرياض.

***

يغدو طلق بن عيسى مع فجة الفجر للصيد، وغالباً ما يعود متأبطاً بندقيته وخيبته، ليخبرهم مبرراً أنّ طريق الحج الذي يسلكونه مطروق دائماً، فالغزلان تعرفه وتفر منه، وطيور الحبارى تتحاشاه، مضيفاً بأنهم سيعتمدون في زادهم غالباً على رعاة غنم.

يظل طلق بن عيسى يدير عينيه الواسعتين في الأفق، تتسللان بحذر إلى الوجوه، يتقصى التعب، أو التذمر، أو الدوار والوهن، ليتدخل بلطف؛ وحينما يلمح احتقان الوجوه الشقراء، أو ثقلاً في أجوبتهم، وارتخاء في التفاف يديهم حول عقال الذلول، يهرع نحوهم بالماء، يضع حصاة في إناء الشرب لكل منهم، وكانت هذه الحصاة مقياسه، فإذا غطتها المياه توقّف عن سكب الماء من القربة خشية الإسراف، ثم يناولهم الإناء.

يتقصّى الكثبان والأودية المرتهنة لقوانين الصحراء، ويقترب من ذلولَي رفيقَيه أثناء السير، ويشير إلى بعض رجوم مرتفعة من الحصى ويقول: "بعد هذا الرجم، سنخلف مراعي بني خالد وراءنا، وندخل مضارب مطير". كان يتحدث عنها باحترام وإجلال، رجل بروتوكولات لا يظهر ميوله، ويحدد بدقة المسافة التي تفصله عن الآخر.

يسأله ماثيو: "بما أنّ الحدود معروفة وواضحة، لماذا تقوم الحروب الطاحنة؟ هل هي المراعي؟ أم رغبة بسط النفوذ؟".

يستغرق طلق النظر إلى الأفق: "إبليس... إنه إبليس، يتبدّى أحياناً على شكل جوع، طمع، رداءة أنفس، أو على شكل هذا الدرويش، الذي يماشينا منذ الصباح من كثب على شكل حاج، وربما يكون عيناً تتقصّى".

الدرويش اقترب منهم، وبات أكثر جسارة. لم يكتفِ بمماشاتهم، بل أمسك بخطم ذلولِ ماثيو وخاطبه بالعربية، طالباً منه أن ينزل ليقرأ كفه. كان حاسر الرأس، أشعثَ حافياً، يرتدي مسابح طويلة في رقبته، ورغم لغته العربية الضعيفة، فقد كان ظريفاً، يترنم بأدعية، ويزعم أن الملائكة ترفرف حوله. وحينما حادثه ماثيو بالفارسية، بدا أكثر فهماً له، وأخذ يتلو مقاطعَ من أشعار

الخيام، ويرجوه مرة أخرى أن ينزل عن ذلوله ليقرأ كفّه. وعندما تردد ماثيو ورفض النزول، قال له الدرويش: لا بأس سأقرأ جبينك بدلاً من كفّك:

چون نيست مقام ما در أين دهر مقيم
پس بن من ومعشوق خطائيست عظيم

تا لن ز قديم و محدث اميدم و بيم
چون من رفتم جهان چه محدث چه قديم

فهم ماثيو جلّ الكلمات، ولكن لم يدر في خلده عندها أن الدرويش يقرأ سطوراً من كتاب الغيب.

حكايات وسباحون

عندما تهب السوافي الرملية، يتشكل مثلث رملي أسفل كل شجرة شوكية صغيرة من أشجار الصحراء، وفي هذه الحالة يشير رأس المثلث الرملي للجنوب، بينما تشكل قاعدته الجهة الشمالية.

لم يكترثوا للبوصلة التي يحملها د. هاريسون ويطيل التحديق فيها، لا سيما أنها تضطرب أحياناً. فبدلاً من أن تُظْهِر تصعدهم نحو الغرب، تذهب بهم الطريق جنوباً أحياناً، ومن ثم يرتدون شرقاً لساعة، قبل أن تواصل القافلة طريقها نحو الغرب مرة أخرى. دروب الصحراء التي تخضع لمزاجية التضاريس وجغرافية الممرات. وحدها الإبل تحذق تلك المسارات.

كانت القصص والسباحين، هي أهم الآنية التي يقدمها طلق بن عيسى لزوار السلطان، كي يتشربوا سلوم العرب، وبروتوكولاتهم، ومحاذيرهم بشكل لطيف ومموارب، وحتى لا يقوموا بتصرف مفاجئ أحمق دون عمد، تحدث إثره كارثة، كما حدث في اليوم الرابع لمسيرهم.

***

بدايات جبال العارض تلوح، ومع العتمة، تبدأ مواكب النجوم والقمر بالمرور تباعاً فوق رؤوسهم، للنجوم مقاعد للصيف وأخرى للشتاء، يتسنمونها بجلال، ويلوحون للقوافل في الأسفل، عن أقرب الطرق وأسهلها لقوافل الشتاء والصيف.

الغروب رائق، والمساء حلّ مصطحباً نسيماً منعشاً قادماً من الجنوب الشرقي، تحديداً من بحر العرب، وهو النسيم نفسه الذي نقل أصوات طبول، ترفع خفقها أصواتٌ شابة قوية تقصف كالرعد، فترد عليهم أصوات نسائية شجية، متدفقة كأول السيل في فم الوادي.

أشرفوا عليهم من عل، فبالكاد تبينوهم، يبدو أنه فخذ كامل من قبيلة ملأت الوادي، الذي تتشعبه ضلوع جبال العارض.

تقهقرت القافلة كما أمرهم شيخها، وهو يقول: "غضوا البصر واحشموا المحارم"، وتقهقرت القافلة بورع كأنهم قد أشرفوا على سيدة عارية في غدير.

لكن هذا تحديداً ما قدح شيطان الفضول، وغواية التلصص داخل ماثيو، بينما تلمع في الأفق الغربي نجمةُ المساء حميراء ترقص، وتطلق خفقها المغوي.

انتهز التهاء الجمع بالتقهقر والبحث عن مكان مناسب للمبيت، فما لبث أن التقط منظاره، وذهب إلى كومة حجارة، بدت كأنها رجم قديم مكوم على حافة الوادي، وأخذ يحدق في مصدر الطبول. وعبر المنظار، وجد أن الاحتفال يتمركز أمام الخيمة الكبيرة، أكبر خيمة في الشعيب، وخلفها ترتفع الأدخنة من مواقد نيران، وقدور هائلة تطبخ وليمة، بينما في مقدمة الخيمة يقف صفان متقابلان من المحاربين، وقد تزينوا بأسلحتهم، يحملون الرصاص في جرابات جلدية شدوا بها صدورهم، بينما في أيديهم سيوف يلوحون بها، وبين الصفين تتقافز فتيات الواحدة تلو الأخرى، شعورهن مسدلة، وأعناقهن مكشوفة، ويبدأن بالتمايل، لتنتثر شعورهن في الهواء، ومن ثم تعود لتنسدل على أكتافهن وظهورهن، مضمخة بصيحات الأعجاب من صفّي المحاربين الهازجين.

وعلى بعد نحو 50 متراً، مضمار للسباق، وكوكبة من الفرسان تلتز فوق الخيل ككرة هائلة من الغبار، وفي نهاية المضمار، وقفت النساء والأطفال

يهلهلون ويترقبون الفائز.

بدا ماثيو الذي لم يراقص امرأة منذ قرابة ثلاث سنوات عاجزاً عن رفع عينيه، وأخذ ينحدر زحفاً حذراً نحوهم بفضول ونشوة، متسائلاً من أين طفرت ينابيع البهجة هذه! زهر الأقحوان قد تحول لجنيات راقصات مع عتمة المساء.

يتقافزن فوق نداوة الرمل بأقدامهن اللطيفة المحناة، ويلوحن بشعورهن الطويلة ما بين المشرق والمغرب.

أيقظه من دهشته المستلبة صوت أزيز رصاص فرقع جواره، تراجع مرتعباً إلى الخلف، حاول أن يسند نفسه بكوعيه، فارتطما بقوة بالحصى وأخذا ينزفان، وقبل أن يستطيع التحرك، أتاه العيار الثاني الذي مر فوق أذنه اليمنى، ويبدو أنه شطفها، فهو يحس بسائل ساخن على عنقه.

قبل أن يسمع صوت طلق بن عيسى، يأمره من علو الحافة بصوت آمر حانق، أن ينبطح على ظهره ويزحف إلى الخلف صعوداً. ما هي إلا لحظات إلا وطلق زاحفاً، على بعد أمتار يهمس: "أخفض رأسك... أخفض رأسك"، قبل أن يصيح به: "فضولك أثار حفيظتهم، ويعدونه نوعاً من التطفل غير اللائق".

وبالكاد تقهقرا، ووصلا إلى قمة المطل، وانسحبا وهما يزحفان، حتى لا يظهر رأساهما لمن هم أسفل قاع الشعيب.

وبينما كان هاريسون يضع شاشاً معقماً على كوعَي ماثيو، سرعان ما غسل طلق وجهه ويديه بحفنة ماء، وارتدى ثيابه وتهندم، وأخرج عباءته الثمينة، المطوية داخل كيس من القماش مقصبة الأطراف، ومصنوعة من صوف وبري بلون الجمال البيضاء، يحفظها إلى وقت دخوله على أمير أو شيخ قبيلة. نفضها وعطرها هي وشاربه بعطره الهندي الثقيل، وعلقها فوق كتفين نحيلتين، لتنسدل على قامته الطويلة، وأشار إلى طباخ القافلة أن يحمل الكبش الذي ابتاعوه للعشاء، ويلحقه وهو يتجه إلى فم الوادي، حتى يصبح مكشوفاً للجميع. تقدم بخطوات واثقة، وعندما تبينه القوم، صمتوا عن قرع الطبول والغناء، ولم يعد يسمع في هدأة المساء، إلا ثغاء الكبش فوق كتفَي الطباخ؛ عندها بدأ طلق بن عيسى يردد: "السلام عليكم... السلام عليكم... السلام عليكم يا جماعة الخير"، إلى أن وصل إليهم وتبيّن شيخهم، وقدّم

الكبش قائلاً له: ”إن القافلة تتبع لسلطان الرياض، وستمر فقط مروراً سريعاً، وسنغادر صباحاً“.

عندها قبل شيخ القبيلة هديته احتراماً وهيبة، بل ألحّ على طلق بأن يشاركهم حفل عرس أحد أبنائه. لكن طلق اعتذر بتلك اللياقة البروتوكولية، التي تكون لممثل السلطان، وتمنى لهم الخير وعاد.

ويبدو أنه نجح في مهمته الدبلوماسية، فأصوات طبولهم استعادت خفقها، إلى أن تثاءبت النجوم، قبل أن يصمت كل شيء ويتلاشى ويختفوا، فلا يظل منهم سوى رماد قدورهم.

في تلك الليلة نامت القافلة بلا عشاء، وحرص طلق على أن يتحاشى ماثيو، فهو يعلم بأنه سيثقل عليه في اللوم والتقريع، بعد أن خاطر بتصرفه الأخرق وجموحه، بحياة جميع أفراد القافلة.

***

صوت طقطقة شرار الجمر تسبق الضوء. يخرج طلق بن عيسى قبضتين من البن من جراب جلدي في متاعه، ومن ثم يضعه برفق في مقلاة ذات يد طويلة، ويقلبها على الجمر، ويسخر من قهوة الطباخ رميزان، المصنوعة من قهوة قشور البن، مردداً مقولة: ”القهوة إن ما نقلتك خلها في قواطيها“. حتى إذا ما أشقرت دقها، ووضعها فوق دلة الماء المغلي، وأخذ ينصت لثرثرتها وهي تغلي فوق الجمر، ثم يفسح لها مكاناً في حافة الموقد، ويبهرها بالهيل، وينتظرها تركد، كأنه ينتظر امرأة تتأهب له، حتى إذا ما تعتَّقت القهوة وسكنت، أخذ رشفته الأولى، بعدها يصبح جاهزاً للحياة، للشعر وللقصائد، والحكايات، والسباحين، ومنازلة مفاجآت الصحراء.

ولأن رائحة القهوة قد جلبت ماثيو أيضاً، فقد بدت أنها اللحظات المناسبة لسرد الحكايات، فيما القافلة تتأهب للمسير.

حكاية حصان أخوي خضير

طلق بن عيسى كان قد عزم أن يقص عليهم حكاية حصان أخوي خضير، عندما يقتربون من الرياض؛ رسالة ملطفة، تخبرهم أن العرب شديدو الحساسية بما يخصّ نساءهم، وأعين الفضوليين والمتطفلين، لا سيما أنه لاحظ الأميركي الشاب، يتفرس بالنساء بنظرات تتجاوز الفضول، ولا يغض البصر عندما يمر بهن، لكن رصاصات البارحة جعلته يُبكر بها، بعد أن بدؤوا يتصعدون الهضبة النجدية.

***

وارب بوابة الحكاية لتظهر منيفة. ولأن فتيات الحكايات عادة يكن خارقات الجمال، الوجوه كالمرايا، والأعين كزهر النرجس، والضفائر مرسلة يعقدنها على كواحلهن كالخلاخيل، كذلك كانت منيفة، والتي بعد وفاة والديها، رعاها أخوها خضير، وحرص عليها كما قطعة زبدة في كفة، يخشى أن تنسكب.

انتشر صيتها بين البيوتات بالحسن والدلال، فخاف عليها أخوها خضير، فكان في سفراته وجولاته يخفيها عن الجميع فوق إسطبل الخيل؛ وخضير كان مولعاً بتربية الخيول، واقتناء السلالات النادرة الثمينة منها، فكان يخفي منيفة في غرفة سرية قصية تقع فوق الإسطبل.

عاد يوماً من إحدى سفرات تجارته، بعد أن ابتاع حصاناً ذهبياً من سلالة نادرة، أذهله جماله حينما وجده معروضاً للبيع، ولم يثر فضوله رخص ثمنه، فقد كانت رغبة اقتنائه جامحة، ولم يعلم بأنه تعرض لصفقة ماكرة، وأن صاحبه باعه بيع غرر، لكون الحصان جنيّاً قد تبدّى في هيئة حصان.

ومنيفة بنت شيوخ منعمة مرفهة، لا تأكل إلا الليِّن المطيَّب المطرّى من الطعام، لكن في يوم اشتهت أن تأكل جوزاً! وطلبت من خادمتها أن تجلب لها ثمار الجوز، وبعد إلحاح وبحث، جلبت لها ثمار الجوز، فأخذت تحاول أن تقشرها، وتدق قشرتها القاسية بالأرض، فأحدثت ثقباً في أرضية غرفتها، لم يكن ثقباً واسعاً، لكنه يكفي لعينَي حصان جنيّ أن تلمحاها. وكما يقولون: "اللمحة ذبحة"، فهام بها عشقاً، وتحيّن فرصة غياب أخيها في أحد أسفاره، فأخذ يحاول الصعود إليها، يلاحقها ويطاردها بجنون، إلى أن فرت هي وخادمتها

في الصحراء، فلاحقهما إلى هناك، فتسلقتا شجرة، وقبع الحصان تحت الشجرة يهزها بعنف لتسقط منيفة بين أحضانه، فأخذت تقذفه بمقتنياتها، ومنها مقص انفتح داخل حلقه، وعجز أن يغلق فمه، والمقص المفتوح مغروزٌ فيه. فأخذ يطلق أصواتاً تشبه تدحرج الصخر من فوق الجبال، حتى وصلت لمسمع أخيها، رغم أن المسافة بينهما تعادل مسيرة نصف نهار، لكنه أفل مسرعاً خشية أن يكون قد أصاب أختَه مكروهٌ، فوجد مشهد الحصان يحتضر، وأخته وخادمتها تصيحان مولولتَين، فما لبث أن رفع سيفه وأجهز على الحصان ذبحاً.

***

أول ردة فعل لهما على السبحونة، هي شهقة: "أوووووه" مشتركة، صدرت عنهما تأسفاً لمصير الحصان العاشق الولهان.

ولم يبد لطلق أنّ حبكة القصة قد أثارت اهتمامهما، ولم تبدُ منهما بادرة إعجاب للأخ الذي انتصر لشرف أخته، وعرك ماثيو عينيه بغترته ليزيل آثار الغبار عنهما، وتجرع بقايا القهوة في فنجانه، وبدأ يسأل عن الحصان، هل في جزيرة العرب سلالات ذهبية؟ وما نوع السلالات الموجودة في جزيرة العرب؟ وهل هناك سلالة من أحصنة الجن معروفة ويمكن تحديدها؟ ونقلا الحديث لمنطقة الخيول وأنواعها وسلالتها، وعلاقة العرب الوطيدة بها، وأسطورة انهيار سد مأرب، وتشتت الخيل فوق أرض جزيرة العرب.

صمت طلق وهو يجمع "معاميل" قهوته، وينضدها في صندوقها الخاص، ولم يظهر دهشته من خمول ردة فعلهما على حكاية الحصان، ولكن كان يرجو في أعماقه أن يستوعبا أن العربي يصبح جامحاً عندما تصل الأقدام لحرمة نسائه.

لا يدري إن كانت تصلهما هذه الرسائل الصغيرة المضمرة التي يمررها، أم أنهما مأخوذان بحالة زهو تملأ رئتيهما، كونهما من طلائع الرحالة الغربيين الذين توغلوا في جزيرة العرب، وصولاً للرياض، القلعة الغامضة المتمنعة.

لم يبالِ هاريسون كثيراً بالمسامرات، يقابلها بصمت متحفظ يطغى على شخصيته، لربما مرده الحذر، إضافة إلى أن الاهتزاز الرتيب للذلول أصابه

بالغثيان طوال الطريق، ولكن مع تصعد الهضبة النجدية، بدأ الهواء يبترد، ويشف ويهمس بترتيلات غامضة. فقط لفظة "كافر" تستنفر كل حواسّه، يأخذ في تتبع مصدرها، ويعلم أنه قد يتلوها فعل عدواني في أي لحظة.

شخصيته النائية جعلت أفراد القافلة لا يستلطفونه، وينادونه بأبي أربع عيون، إشارة إلى نظاراته.

ذلك المساء، ولأن طلق بن عيسى لا يرغب أن يرقد ضيوفه مع القصص الدموية والخيول الجامحة، أجج شعلة نيرانهم بحطب الغضى، الذي يمنحها رائحة عطرية منعشة، واستلّ ربابته من مخبئها، وعزف لهم لحناً شجياً، رغم تذمر رفاقه من حراس الهجانة، وحراس القافلة، فأخذوا يزمجرون: "المعازف في الليل، ستجلب جناً يرقصون ويأكلون نصف عشائنا، ويسربون لنا أحلاماً مغوية".

سلطانة البيد – 10 يوليو 1918

> الرياض شظية كوكب درّيّ تتجوهر في العتمة. مسيرة نصف يوم تفصلهم عن الرياض، لكن طلق بن عيسى قرر المبيت تحت نتوء جبلي بارز يسمى خشم العان، فليس من اللائق عند العرب دخول البلد ليلاً.

خشم العان من سلسلة جبال العرمة القريبة من الرياض، المكان منبسط، وتتكثف فيه الشجيرات البرية، هاريسون يتأمل غروب الشمس، فيراها تسحب الكون معها إلى مخدعها، وتترك المكان لهواجس العتمة. كان وقتها يعي أن إدراكه القديم للعالم لن يجدي في تفسير معمياته، وهو هنا بحاجة إلى باقة جديدة من الحواس تستقبل الموجودات، دون أن تدرجها في تصوراته المسبقة، فأخذ يحاول أن يوائم بين وصف بلجريف، الذي زار الرياض سابقاً، وما يراه أمامه الآن، حيث من المفترض أن يكونوا الآن في خشم العان، آخر جبل في وادي السلي، وهو الوادي الموازي لوادي حنيفة العظيم، الذي تقع على ضفافه الرياض وجبال طويق.

ويبدو أن انخطافة هاريسون الطويلة طالت، ممّا جعل طلق بن عيسى يقترب منه متقصّياً أحوال مزاجه، لا سيما وهو يريده أن يدخل على السلطان بأسارير منبلجة، تنمّ عن رحلة يسيرة، بصحبة رفاق ثقة أقوياء، فوجدها هاريسون فرصة ليقذف همساً كلمة (خشم العان) كي يصحح له طلق الاسم. ويبدو أنه نطقها بطريقة صحيحة، لكن طلق أضاف متودداً لإطالة الحديث مع هاريسون الصموت المتحفظ: "هل تعرف معنى اسم خشم؟"، فهز هاريسون رأسه نافياً. عندها أشار عيسى إلى أنفه: "إنه الأنف"، ومن ثم أشار إلى السفح الممتد من قمة الجبل إلى القاع قائلاً: "هذا هو (خشمه) خشم جبل العان".

ظل هاريسون طوال تلك الليلة يربط اسم المكان بالخياشيم، كي تظل كلمة (خشم) راسخة في عقله، ولا تنفرط كمئات الكلمات العربية التي تنسرب خلسةً، لأنه لا يستعملها، أو يفكّر، أو يحلم، أو يصلي بها.

***

في الصباح، وعلى أطراف الرياض وهم فوق رواحلهم، مروا بجبل قمته مثقوبة بشكل بيضوي، شعر ماثيو بأنها عين وحش بوابة طيبة، يرصد القادمين إلى الرياض.

ابتدأت الكثافة العشبية، بدأت الإبل ترغي مسرعة، مادة أعناقها بهيام، بعد أن أخذت تصلها مواويل، وشجن دواليب الماء الهائلة، خلف أسوار المزارع. وبدأت أشجار السدر ترتفع وتعلو، وتتلامس رؤوسها، هديل يمام النخل، والبلابل ذات الأجنحة الصفراء التي لا تمتلك ذلك الحذر النافر الذي يكون لطيور الصحراء، وثغاء القطعان التي بدأت تخرج للمراعي من أسوار المزارع.

ومن بين مزارع النخيل تطل الوجوه النحيلة، والعيون الكبيرة الرائقة.

عندها سمح لهم قائد القافلة أن يعبثوا بالماء المتبقي ويستحموا، ووزع عليهم مكعبات صابون ضخمة له رائحة لاذعة، كضروع الماعز الذي صنع من حليبها.

ارتدوا المجموعة الأخرى من الملابس، التي أخبرهم طلق في الهفوف أن يبقوها جاهزة للسلام على السلطان. فمن غير اللائق أن يدخلوا المدن قادمين

من سفر بصورة شعثاء منفرة.

عندما انتهوا من اغتسالهم، أخذتهم نشوة الماء إلى حلقة تدخين متوارية، مجموعة من رجال القافلة بمن فيهم ماثيو إيدن وطلق بن عيسى، يملؤون رئاتهم بالتبغ، لعلمهم بصعوبة التدخين في العاصمة الوقورة.

أخذ طلق يشير إلى سور الرياض، الذي تعلوه زخرفة من الجبس الأبيض، بأطراف مزخرفة قائلاً: ”ماذا تشبه تلك الزخارف عن بُعْد؟“.

وحده ماثيو الذي قال: ”إنها تبدو كصفوف جنود تحيط بالأسوار من الداخل لحماية المدينة“، وكأنه يحدس، أنه خلف أكتاف الجنود، هناك كون يتكون ويرقبه. فصفق له طلق بن عيسى طرباً وقال: ”سألف لك لفافة أخرى من التبغ تستحقها. فالحرب ليس كلها عسكر وسلاح، فبعضها فكرة، ومرة حيلة، وأخرى مكيدة... قد تكون وهماً أحياناً“.

***

انشغل هاريسون من جديد بأوراقه، بحثاً عن المعلومات التي وجدها في مدونة الكولونيل الإنكليزي لويس بيلي، عندما زار الرياض 1865 بالباطن. وهو على يقين، أن هناك دوماً مدينتَين للغرباء! تلك التي تشيّدها الأخبار وأسطر الكتب، والأخرى التي بدأت تتجلى وتنهض أمام الزائر، وأخذ يلعقها بجميع حواسه. وفي برزخ بين المشهدين، يحاول القادم الغريب أن يرتِّق المشهدين، عندها تتجلى مدينة ثالثة خاصة به.

لم يرَ هاريسون سوى بساتين النخيل، التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، حتى تتصل بوادي حنيفة على مسافة ما يقارب الميلين.

***

كان الذي ظل من أفراد القافلة، ما يقارب الخمسة عشر فرداً فقط، والبقية تجار تفرقت بهم المدن والبلدات، بعد أن جمعوا السمن من البدو في فصل الربيع، والخراف الصغيرة والوفرة، لتخزينه في أوانٍ رخامية كبيرة، ليعاد بيعها في الصيف والخريف... سمناً عربياً من أجود الأنواع.

أمضوا طوال فترة الصبح على أطراف بستان شرق الرياض، يترقبون فتح البوابة المغلقة للرياض، فجميع رجالها بالداخل قد قصدوا الجامع الكبير لصلاة الجمعة، ولا تفتح إلا بخروجهم.

وكلما ارتفعت الشمس، تقهقروا قليلاً للداخل، ليتلطف بهم الهواء العبق بنداوة الأشجار، والسواقي التي تنشج بأسرار الآبار، التي أحياناً تغور إلى عمق 80 قدماً.

الترقب والانتظار، والوقت الذي يندفق حول ماثيو غزيراً بلا طائل، جعلته يستجلب سؤالاً يضمره في أعماقه منذ التقى بطلق بن عيسى، ولكن تصرفاته المتهورة كالتسلل للبحث عن السجائر في ميناء العقير، والتسلل في الهفوف لسوق القيصرية... وأخيراً الطامة الكبرى عندما تلصص على فتيات القبيلة الراقصات، منعته من إظهاره.

بلع هذا السؤال في بطنه إلى مشارف الرياض، ولكنه قرر في النهاية أن يجهر به، فهو لا يدري كيف ستكون الأمور داخل الرياض.

فسأله وهو يحاول أن يجيل عينيه في النخيل فوقهما: ”دوماً أتذكر كلام شيخ جالست حلقته في دمشق لعدة أسابيع، يستشهد بالشمس في حديثه عن العلة والمعلول، فيجعل الشمس العلة والمعلول النور! وتحديداً ذكر جملة ’يساوقه مساوقة المعلول للعلة‘. وعرفت أنه كان يردد ما قاله فقهاؤكم في مجمل ردهم على الفلاسفة والمناطقة مثل سقراط وأرسطو، الذين يقولون بقدم العالم. هل لديكم في الرياض شيخ ممكن أن يعطيني المزيد من المعلومات حول هذا؟“.

جمد طلق بن عيسى للحظات، فقد قذف به هذا الأحمر إلى منطقة وعرة، قد تحتوي هرطقة وتجديفاً، كما أن معلوماته ضيقة فيها، لكن لا يود أن يترك رأس هذا اللجوج بلا أجوبه، فقد يستقيها من مصدر جالب للمتاعب.

لذا بعد صمت امتدّ لبرهة قال له: ”هناك شيخ في الرياض اسمه الشيخ ابن هذلول، له خبرة بهذه السوالف، إذا وصلنا هناك... اصطحبتك إليه. لكن إياك أن تذهب وحيداً، لا بد أن أرتب لك، فالأمر لا يخضع للمزاح أو المغامرة“.

***

تبدى لهم بين النخيل صبيٌّ نحيلٌ يلفّ حبلاً حول وسطه، ويتقدم نحوهم بخطى حذرة مستكشفة، وقد حمل بين يديه إناء به ثمار مشمش، ووقف على بعد خطوات منهم يترقب من سيلتقط الوعاء منه.

تقدم طلق بن عيسى والتقط منه الإناء، وحادثه قليلاً، ثمّ عاد وقد انبلج وجهه، ليخبرهم أن والدة الفتى شاهدت الهجانة من حرس السلطان برفقتهم، فأحبت أن تقوم بواجب الضيافة لضيوف السلطان، أثناء غياب الأب في صلاة الجمعة.

شعر طلق بن عيسى بأن رُسل المشمش هطلت عليه من السماء، بعد أن بدأت الوجوه حوله تضيق وتتبرم.

وتحت النخيل وعذوق الرطب، تلوح ببركة الموسم القادم، والمشمش الحلو الذي تلوكه الألسن، أخبرهم تراتبية أنواء الصيف النجدي مع القمر، التي تنقسم إلى أربعة: فقمر الشهر الأول لجني محصول المشمش، وقمر الشهر الثاني لماشمش أي للّاشيء، وقمر يستدير ويتبدر للعنب، وقمر أخير يأتي عابقاً يفور لإنضاج البلح.

ظلوا ينصتون له إلى أن أصبحت الشمس فوق رؤوسهم، واختفى ظل الأشياء، والأغصان ترتخي وتذوب في صهد الظهيرة. فجأة بدأت الأرض تهدر وتهتز تحت أقدامهم، ولاحت في الأفق غيمة غبارية تتحرك بسرعة هائلة، كأنّ في داخلها عفريتاً انطلق للتو من قمقمه.

لم يتبينوا ما الذي يحرك الغيمة إلا على بعد 200 متر، عندما انشقت عن كوكبة من الخيالة، كانت قادمة من بوابة الرياض، تحديداً من القصر... لاستقبالهم.

***

سور سميك مطوي بالطوب الطيني بارتفاع 7,5 أمتار، تبرز منه أبراج حراسة يبلغ عددها 16 برجاً، أغلبها دائرية الشكل، تتسع عند القاعدة وتضيق في

القمة، ويتراوح ارتفاعها ما بين 10 إلى 12 متراً.

كان دخولهم من بوابة الرياض الشرقية يسمونها الثميري، بينما طرقات الرياض تسيل بالمارة القافلين من المسجد الجامع، تلتف رؤوسهم، وتشرئب أعناقهم، ويحملقون فيهم بأعين متفحصة مستريبة، فلم تفلح الأردية العربية، والجلود التي دبغتها الشمس، في إخفاء ملامحهما الناشزة على المكان.

وقفت الركائب في ساحة واسعة تتوسط المدينة، أمام قلعة المصمك. عندها بدأ مجموعة من الرجال، يعقلون الرواحل ويقدمون لهم الزاد، ويساعدونهم في نقل أغراضهم.

طراز المباني، هو بطاقة التعارف الأولى التي تقدمها المدن للغرباء، المساجد بلا قباب، أما المآذن، فهي مربعة الشكل. خمن ماثيو أن غياب القباب هو جزء من موقف حذر من الزخرف، والزينة، والقباب العثمانية فوق القبور. الساحة تحفها الأروقة والحوانيت، الأروقة مثلثة الأقواس وليست مستديرة كبقية العالم، تحضر المثلثات بكثرة في طراز البناء. هل يتوافق المثلث مع الديانات التوحيدية؟ فالرب الواحد المعتلي فوق كل شيء، هو رأس المثلث المهيمن على أضلاعه بالأسفل!

***

توقفت ذلول ماثيو، بعدما شدت خطمها بقوة يد ضخمة بأصابع ممتلئة، شاب بوجه بشوش وشدقين يتسعان بابتسامة، يرتدي ثياباً عربية أنيقة، صاح بصوت مرتفع: "أنا عبد الله أفندي"، وعندما بدأ ماثيو وهاريسون يحملقان به باستغراب، قال بفرنسية أنيقة: "أنا عراقي من الموصل، درست الطب بالفرنسية، ولكن أجيد بعض الإنكليزية". واسترسل دون أن تغيب ضحكته الشاسعة: "يجب أن تظلّا مرتديَين الثياب العربية كفيزا الدخول، الثياب الغربية قد تستفز المزاج العام هنا"، وصمت قليلاً ليقول: "بلا داعٍ. أما الآن، يجب أن نغادر الساحة سريعاً؛ فمربو وملاك قطعان الإبل، سيفدون سريعاً الآن، لمقايضة قوافل التجار، التي تستعد للذهاب إلى الزبير".

ماثيو كان يرغب بشدة في أن يمكث ويشاهد هذه المقايضة، التي ما برحت تتم منذ مئات السنين، وتذكر محيي الدين دليله في دمشق، الذي صرفه عن فكرة اقتناء جمل من سوق دمشق، حيث تبيع قوافل العقيلات النجدية الرأس بعشر ليرات تركية، لأنه سيجده داخل جزيرة العرب أرخص من هذا بكثير.

كان الجميع يمتثل للأوامر بسرعة، خشية إحراج مضيفهم، ولغموض ردود فعل الأهالي تجاههم، لذا كان ينصاع للطلبات دون نقاش، لكنه أضمر نية اقتناء الجمل، والعودة به للبحرين، ولربما سيجد لاحقاً وسيلة لنقله إلى الولايات المتحدة، هذا فيما لو كان هناك طاقم سفينة متسامح مع الحيوانات، كما هو طاقم سفينة النبي نوح.

وقتها لم يكن ماثيو يعلم أن الأقدار تغرز بداخله هذه الرغبة العارمة في اقتناء جمل، لأن هناك مَن سيمتطيه عائداً برفقته إلى البحرين ذاتَ غيب.

***

المسكن الذي قطنوه ملحق بالقصر السلطاني، مشيَّد من الطوب الطيني نفس الذي شُيِّدت به الرياض، لكن تتسع مساحته وترتفع أبراجه، مع وقوف بعض أفراد حرس غامقي الوجوه، يرتدون ثياباً وغتراً بيضاء، تتقاطع فوق صدورهم أحزمة جلدية.

في نهاية دهليز مشمس وسط سور القصر، كانت هناك غرفتان بأثاث بسيط، بسط أفغانية، ومساند محشوة بالقش، حولها بعض المطارح القطنية، ولأن الغرفة الكبرى لها باب على الشارع الخلفي، قرر هاريسون أن يجعلها عيادة الكشف والمعدات الطبية، واتّخذا الصغرى مهجعاً لهما.

هذا قبل أن يطلب منهما عبد الله أفندي، أن ينالا قسطاً من الراحة، استعداداً للقاء السلطان.

***

أخذ ماثيو يرتب الصناديق، ويفصل بين المعدات الطبية والمقتنيات الخاصة، بينما جلس د. هاريسون على الأرض أسفل النافذة المثلثة أعلى الجدار، وشعر

باضطراب وتوتر كلحظة وقوفه أمام بطن مفتوح، لا يستطيع تحديد مصدر النزيف داخله.

هو يعلم بأنه حضر كطبيب بدعوة من السلطان نفسه لكنه على يقين بأنه لن يكون متسامحاً مع مبشّر يتمتم بصلواته سراً فوق رؤوس مرضاه.

وعندما عاد عبد الله أفندي لاصطحابهما، وطلب متابعته، كان هاريسون قد جلب معه كيساً من المخمل محشواً بالبخور الهندي الأزرق الثمين كهدية للسلطان، فسأل عبد الله أفندي: "متى من اللائق أن أقدمه؟"، فقال له بابتسامته الشاسعة: "بعدما تسلّم عليه".

***

الدهليز المفضي إلى مجلس السلطان معتم ورطب، وما إن سارا خطوتين فيه، حتى بزغ فجأة كائن من آخر الممر، لم يتبيّنا ملامحه، جفلا وتوقفا فجأة. قبل أن يقول لهما عبد الله أفندي وقد تمعر وجهه، وحاول أن يخفي ضيقه بابتسامة مصطنعة: "لا عليكما، إنه مستر جون... جون فيلبي، يبدو أنه جاء لتحيتكما بطريقته"، وتقدم مهرولاً لتجنب الحديث معه.

من آخر الممر قال فيلبي بصوت جهوري، وبإنكليزية متقعرة: "ترتديان الثياب العربية وغطاء الرأس بشكل لائق، لكن مهما كانت مهندمة، سيكون من الصعب تصديقكما بهذه العيون الزرقاء كالخرز".

اقترب، فتبدى لهما كقط الكثبان، متوسط القامة، ملامحه غليظة، وأردية ذات ألوان ترابية، تتموه ألوانها مع جدران القصر.

سار فيلبي برفقتهما وهو يهمس ساخراً: "نبدو بثيابنا العربية كالملوك المجوس الثلاثة، الذين أخبرَتْهم النجمة بولادة يسوع".

أجاب ماثيو وقد راقه جو العبث: "لقد مثلت دور أحد الملوك في مسرحية مدرسية، وهم يتحرون البشارات، وينقلون الهدايا لملك السماء، ولكن الصناديق الكرتونية التي كنت أقف عليها كانت تحتوي على القش، ففقدت توازني ووقعت، وانتثر القش على الحضور".

صمت د. هاريسون وطأطأ رأسه، وتبع عبد الله أفندي وهو يلملم عباءته حول جسده، فهو لا يحب السخرية من قصص الإنجيل، كما لم يرقه هذا التعريض الذي يقوم به الإنكليزي بمهمته.

هل تراه يرسل رسالة مضمرة له، يخبره بأنه يمتلك معرفة بخلفيته التبشيرية؟ وأن بريطانيا العظمى تترقب الفضوليين خلسة، وسبقتهم في طَرق البوابات الخشبية، المنقوشة بنقوش متوازية، ومثلثات ملونة كأنها صفوف تؤدي صلاة أبدية، فإذا كان رأس المثلث إلى أعلى فهم واقفون، وإذا أصبح مقلوباً ورأسه للأسفل، فهم ساجدون!

***

أفضى بهم الدهليز إلى بوابتين شاهقتين متقابلتين، تتوسطهما ردهة شاسعة، تنهض بها ثلاثة أعمدة، وفي الأركان المتقابلة للمجلس، توجد نوافذ مثلثة أيضاً لكن مرتفعة، توفر الإضاءة والتهوية للمكان.

أيقظه من تأملاته صوت عبد الله أفندي، يطلب منهما أن يخلعا نعاليهما في مقدمة الرواق. ساروا حفاة إلى غرفة كبيرة مربعة، فرشت بسجاد كشميري، ترتفع بعدد من الأعمدة، متوجة بزخرفة من الجبس الأبيض.

وخلف أحد الأعمدة، لمحوا من كان يتصدر القاعة فوق مقعد كبير، رجلاً مسنّاً بملامح وقورة، ورأس ضخم، ولحية حمراء يعلوها فم مغلق بحزم لا يتوازى مع شيخوخته.

أخذا يقتربان من الشيخ المسن يتقدمهما عبد الله أفندي، مشرعاً يده مرحباً. لم يكونوا ملوك الشرق الثلاثة قطّ. هاريسون يبدو مشغولاً بإعادة نظاراته المنزلقة فوق أنفه إلى الخلف، وبيده الأخرى يقبض على لفافة البخور الأزرق، بينما ماثيو بمشي بخطوات واسعة وصدر عارم، كأنه سيصل إلى من سيعلق فوق كتفه ميدالية اختراق الصحراء، والوصول إلى نجد.

فجأة وقبل خطوات من الشيخ المسن، ألم بهما حضور آخر في الغرفة، تحديداً على يسار الشيخ المسن، ولم يحتج أحدٌ أن يقدمه لهما، فهو من أولئك الذين يقدمهم حضور طاغ قوي. تمتم هاريسون هامساً: ”لا بد أنه هو!“. فهو

يحمل التفاصيل نفسها التي سبق أن وصفها د. ستانلي ميليريا، لسلطان وسيم بطول ستة أقدام، يلبس ثوباً كتانياً فضفاضاً، وعباءة بلون الكثبان، عينان تبرقان خلف ابتسامة ودودة، لكنه يمتلك تلك الأنفة التي تكون للنبلاء عادةً، وقبضة حازمة تلتف حول اليد بثبات عند المصافحة.

ولم يخب حدسهما، كان هو ابن سعود.

لكن عباءته كانت سوداء مطرزة بالذهبي هذه المرة، تسمّرا مكانهما وبدّلا مقصدهما نحو الشيخ المسنّ، وسارا باتجاه ابن سعود.

تداركهما عبد الله أفندي، وبتهذيب بروتوكولي أعاد مسارهما نحو الشيخ المسن، فللسلطان الأب قيمة معنوية، يحرص السلطان على عدم تجاوزها، الذي وقف محتفياً بهما. الارتباك البروتوكولي جعلهما يتقهقران بتعثر وتبعثر، ويصافحان السلطان الابن بوجل، ويجلسان يمين الشيخ الأب منكمشين.

دخول مقدمي القهوة للمكان لطَّف الموقف، ونشر عبق القهوة والهيل في المكان، وخلال رشف ابن سعود فنجانه، تأملهما لوهلة بتفرس الذين حذقوا التعرف على جلاسهم بلمحة، ونبش الولاءات بنظرة، ليحددوا، هل يبنون حصوناً دونهم أم تُشرع الأبواب؟

بدأ يسألهما ببشاشة عن أحوالهما، البحرين وشيوخها، وكيف وجدا الأحساء وأهلها، وتلتمع عيناه السوداوان بالدهاء والسطوة، هذا قبل أن يطلب منهما الشروع في طبابة الناس من حضر وبادية، فقد خُصصت لهما غرفٌ ليجعلاها عيادة.

رغم تبسطه في الحديث معهما، شعر ماثيو بتلك المساحة الغامضة التي تفصلهما عنه، شيء من التحفظ الذي يبقي الجليس داخل مساحة من التهيب والحذر، وانتقاء الردود بعناية، فيتتبعان نبرة الصوت وطبيعة الأحاديث، ويحاولان الوصول لإشارة تقودهما إلى ما خلف هذا الرجل من الأسرار، والمعارك، والأهوال.

قبل أن يمر خادم بمدخنة أبخرة العطر، يتنقلها المجلس كمؤشر بروتوكولي على انتهاء وقت الزيارة.

***

كل خطوة تتعمق بهما في المكان، يتبدى لهما كم هي الحياة متقشفة هنا، على امتداد الفناء، هناك غرفة للضيوف، تقابلها صالة قهوة، تبدو فخمة مقارنة بمحيطها، معتنى بفرشها أكثر من المقدمة، ويعلوها الديوان أو المجلس الذي يدير فيه السلطان شؤون مملكته الوليدة.

العلاقات التي تنتظم المكان غير مألوفة لهما، فهي كما يرويها عبد الله أفندي في طريق عودتهم لغرفهم! "الرياض ليست بلدة إقطاعية ترجع للعصور الوسطى، فلا يوجد مالك أرض وأُجَراء، كلٌ يملك قطعة أرضه، أحياناً يعمل بعض الأفراد بالأرض مقابل جزء من المحصول، وهناك طبقة الصنَّاع، تليها طبقة العبيد.

أما أهل البادية، الذين باتوا يهابون السلطان القوي، ويطمحون في مجالسته وهباته، ينتظمون في فيدرالية قبلية تقوم على التحالفات والتوازنات.

وهناك رجال الدين، غالبيتهم حنابلة شديدو التورع والتقى، وأخيراً الإخوان الزهاد! إخوة من أطاع الله، يبزغون من عمق الصحراء معتمرين عماماتهم البيضاء، وجوههم متوجسة، حواجبهم منعقدة، وقبضاتهم قوية متقشفة، سريعو الحركة، يتلفتون حولهم بتيقظ وحذر، ويختارون من الكلام أقله، النزر اليسير من دون هذر".

***

ولأنه عادة في بيوت السلاطين، تكون الآذان مرهفة وحادة السمع، أخذا يتحادثان بالإنكليزية بحذر، لكن توقهما كان إلى تحسين عربيتهما وجلاء ركاكتها. يذكر ماثيو أن أستاذه في كامبردج د. ويزلي، كان يعتبر الوصول إلى عمق جزيرة العرب مشروعاً لطالما حلم بالقيام به، معللاً هذا، بأن العرب أنفسهم عندما أرادوا تدوين معاجم اللغة العربية في القرن الثامن والتاسع، كان وسط الجزيرة العربية ينبوعهم الأول، يتوغلون هناك، ويجمعون المفردات

واستعمالاتها من قبائل تميم، وكندة، وعبس، التي تتوسط الصحراء ولم تخالط الأغراب، وبمنأى عن جيرانهم من فرس وسريان.

***

أمضيا بقية الأمسية في تهيئة الغرفة، وتحويلها إلى شكل أقرب ما يكون لعيادة. فبدأ ماثيو بصف الصناديق، وتغطيتها ببعض الوسائد والشراشف لتصبح سرير عمليات، وعلق على مشجب في الجدار الطيني مصباح الكيروسين، ورتب أدوات الجراحة جوار غلاية تعقيم تعمل أيضاً بالكيروسين.

بينما جمع د. هاريسون مجموعة من الصناديق الخشبية في الركن على شكل أرفف، وأخذ يصف فوقها سوائل التعقيم، والشاش، والضمادات.

وفي العتمة كان يصلهما ضوء عمود عالٍ فوق الجناح الشرقي للقصر، يعلق فوقه مصباح أبو قوس، من تلك المجلوبة من الهند، يضيئونه بعد صلاة المغرب إلى منتصف الليل، وأحياناً يتركونه للفجر.

***

ليالي الصيف في الرياض قصيرة بيضاء، أهلها يستقبلون الفجر بأذانين، الأول للتنبيه والاستعداد، تورعاً عن فتنة التلذذ بنوم عميق يحجبهم عن وقت الصلاة، والثاني للنهوض الفوري من الفراش، والاغتسال، والتوجه للمسجد.

كلاهما يخترقان ستائر النوم، بصوت يحشرجه النعاس والشجن، كأن مصدره ناي يتقصف بالجفاف، المؤذن يبدو كأنه يناجي اللهَ نفسَه لا المصلّين: "حيييييَ على الفلاااااح"، كالبوق الذي سيوقظ البشر يوم الدينونة... "الله أكبر"... الأخيرة ينفثها بقوة، ثم يصمت منهكاً مُستنزفاً، فتطوف غيمة الأذان فوق البيوت، وتوقد الفوانيس تتلمس دربها نحو آنية الوضوء، وتنهض باحات المنازل على أكتاف أعمدة الضوء البنفسجي المنسكب من السماء.

بعد الصلاة، تصلهم أصوات تلاوة وتراتيل القرآن تئز في المسجد الجامع.

عندها ركع د. هاريسون على ركبتيه، وأخذ يتلو صلاة لوقا الطبيب: "وأي مدينة دخلتموها كلوا مما يقدم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها، وقولوا لهم

قد اقترب منكم ملكوت الله“.

بينما كتب ماثيو إيدن في يومياته ما يلي:

الفجر يبدو رقيقاً منعشاً في الرياض، وتصطبغ الجهة الشرقية من السماء باللون الوردي، والنجوم تمكث طويلاً في السماء، قبل أن تذوب في مسحة حليبية، تصنعها أبخرة شجر المزارع وغلالة من الغبار.

البارحة قبل صلاة الغروب، ذهبنا خلسة برفقة عبد الله أفندي وحارس واحد فقط، للبحث عن أبواب خشبية، من الممكن أن تكون سرياً للعمليات. رغم علمي بخطورة هذه الخطوة، أصررت على المشاركة.

عندما نمر بسكان المدينة، نجدهم يبتسمون بحذر، ويدعوننا للقهوة، التي يتناولونها بفناجين خزفية مع تمر يقطر دبساً.

هذه الواحات العبقة برواء الماء، تجعلني أنقطع عن جفاف الصحراء وتجهمها طوال رحلة القدوم، وألج عالم الحضر، لقد اختفى الراعي البدوي السامي القديم، وظهر الآن المزارع أخوه هابيل. ومن يتأمل طبوغرافية المكان، يبدو واضحاً بأنه في عصور سحيقة كان يلتطم نهرٌ هائلٌ في هذه الأودية، فالمزارع على حافة الأودية مكسوة بالحدائق والبساتين، ليس فقط النخيل، بل أيضاً بأشجار المشمش والرمان، ونوع صغير من التفاح له رائحة شذية، ولمحت في طريق العودة بعض أحواض القمح والشعير.

حواسّي تعاني مأزق الغريب، الذي يجهل قائمة القيم للرموز التي ينقلها له محيطه، فيظل على ضفاف الغرباء للأبد.

ذاب طلق بن عيسى في الرياض، ولم نعد نراه، ويبدو أنه أنهى مهمته كبساط سحري، نقلنا إلى عمق الصحراء وتلاشى دون أن يودعنا. هناك كثير من الفتيان المسلحين، يجلسون على مدرجات تحيط بسور الرياض ليس بينهم طلق، لم أسمع كلمة ”كافر“ التي حذرني منها د. هاريسون، وتشير إلى إمكانية أن يتلوها عمل عدواني ضدي، لكنهم كانوا

يتفرسون بنا كالضواري، وعرفت لاحقاً أن هؤلاء هم فتية الإخوان، بعض من جنود جيش السلطان القادمين من الصحراء.

سوق الرياض مزدحمة، وهي تحتل كل الأرض الواقعة شمال قصر السلطان، ويفصلها جدار إلى قسمين، القسم الواقع بين الجدار الفاصل وجدار القصر مخصص لسوق النساء فقط.

كانت أعين نساء السوق تتأملنا بتفحص، بالكاد أتبينها، تبرق من خلف غطاء الشاش الأسود على وجوههن، كأعين القطط في الظلمة، حيث لا يشاهِدن أو يُشاهَدن، فهن أول من يسبى من المتاع، فلا بد من تنحية وتغطية المقتنيات حتى لا يطمع بهن الغزاة.

ملحوظة: منذ غادرت ميناء نيويورك، أخذت عهداً على نفسي، أن أنجو من فخ المستشرقين، عندما يعرضون المعارف، والخبرات، والتجارب التي تصادفهم في الشرق، على جداول المركزية الغربية، ليتم تصنيفها وفهرستها وفق تصورات مسبقة عن الإنسان والكون، لكن عبثاً يبدو الأمر في غاية الصعوبة، المركزية مغناطيس هائل جبار، لفتى بالكاد يتلمس خطواته في هذا الدرب.

أخيراً، نادر هو مشاهدة النساء هنا، وعلى الغالب يكنّ ملتفات بعباءات ثقيلة تغطيهن بالكامل، وعدا نساء السوق اللواتي رأيتهن بالأمس، لم أشاهد أياً منهنّ بَعْدُ في الرياض.

الرياض 24 يوليو 1918

أنهار البرية

لكل شعب برلمان خفي، يترتب بحسب الانتخاب الطبيعي، والجماعات المتكيفة القادرة على البقاء والتكاثر، وكلما اخترع البشر قوانينَ للمساواة، يغافلهم الكون خلسةً، ويعود يصطفي نخبه، وتراتبية جلوسها، وهيمنتها على فتح صناديق الغنائم، وسل السيوف، وضبط استقرار المجتمع.

وعندما سمع بول هاريسون صوت اللغط في الخارج، أصابه القلق، فهو بالكاد وارب بوابة العيادة، حتى وجد ما يقارب الثلاثين شخصاً، ما بين رجل، وامرأة، وشيخ، وطفل، يتزاحمون للدخول.

من يُدخل أولاً؟ من وصل أولاً؟ لكن ليس أعلاهم أنيناً بالتأكيد أكثرهم حاجةً إلى العلاج.

لا يملك أرقام المقاعد في هذا الكولوزيوم المضمر للمدينة المتحفظة، ولا يستطيع تحديد أماكن النبلاء من العامة.

في مجلس السلطان، جميعهم يبدون متأنقين بعباءات مقصبة، وغترة تنسدل على رؤوسهم بعناية، بعضهم مائقون بضفائر مضمخة بالعطر الهندي الثقيل، غير أنه لاحقاً يراهم بنفس قيافتهم، يسيرون في الطرقات حفاة دون أحذية، يحملون وجوههم أثمن ما يملكون، معبأة بكرامتهم وعنفوانهم، وكل من يندفق ماء وجهه، يصبح ميتاً، أو فأرة، أو سحلية، ويجلس في طرف المجلس جوار الأحذية!

لذا طلب توفير اثنين من حراس القصر لترتيب دخولهم، وجميعهم يدخلون محوقلين متعوذين من الشيطان، يتفرسون بريبة بالطبيب الذي سيمنحهم الخلاص، بعدما خذلتهم القراطيس التي يسطرون آيات قرآنية فوقها بماء الزعفران، وخذلتهم أعشاب الصحراء، والكي في أماكن موجعة، كمقدمة الرأس، أو العنق، أو ما بين لوحَي الكتف.

كانوا يتزايدون مع تصاعد النهار: شيخ يدخل بأنفة مرتدياً عباءة ثمينة وعقالاً، ويطلب أن يعالج دون أن ينزع قطعة واحدة من ثيابه للكشف، أو أطفال هزال يعانون من الحمى، مزارعون يكابدون كسوراً لم تجبر بطريقة سليمة، إثر وقوعهم من نخلة وقت الجنى، أو انحدارهم في بطن بئر لطيّها.

النساء يُبدين حذراً كبيراً، وغالبيتهن يَبدون مرغمات على الحضور من قبل أبنائهن أو أزواجهن، فإذا استدعي الأمر حقنة دواء، فإنهن يقمن بنفس ما تقوم به نساء البحرين، تشق جزءاً من الثوب لتدخل الإبرة عبرها… كأن هناك كوداً سرّياً بينهما.

يفطن ماثيو وهو يغلي المعدات بين مريض ومريض أنّ هاريسون يتمتم صلواته ويكرر من سفر أشعيا: "قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر". فيشعر بالشفقة عليه، إذ لا يبدو أن أحداً هنا يكترث لأنهار أشعيا.

وأوجاع البر تختلف عن البحر، ولكن هاريسون يريد أن يعالج أكبر عدد من شعب ابن سعود، ويبدو نافعاً إلى حد أقصى، لا يريد أن يخذل هذا السلطان الجريء، الذي منحه عيادة تفصلها ياردات قليلة عن الحلقات الوهابية الصارمة، التي تستدير لتتعلم العلوم الشرعية، وتعيد جدولة الكون عبر ثقوبها.

حلقات تهدر بالقرآن فجراً وأصيلاً، فيرون فيه شفاء لأرواحهم، وأمراضهم، وأوجاعهم، وتهمس بآذانهم بوصلة الغد إذا أعتم المكان. ووجود من ينازعهم هذا، لن يكون أمراً يسيراً عليهم.

***

وجود الإنكليزي سانت جون فيلبي، كان صدفة مبهجة لماثيو، لا سيما كونه سبق أن قرأ له مقالاً في مجلة الجمعية الملكية للجغرافيين.

كان يتسلل أحياناً إلى غرفته للتدخين خلسة، بعد التأكد أن السلطان قد غادر المبنى للنوم، وحاشيته ذهبوا إلى مهاجعهم. ولكن تلك الليلة مزاج فيلبي كان عكراً نوعاً ما، فلم يضع كثيراً من الجهد في الترحيب بماثيو، فقط سمح له بمساعدته في تعبئة جداول الأحرف السامية، شرط أن ينقلها بحرص ودقة.

تنتشر حولهما بعثرة غرفته... سرير خشبي، أسطُرلاب، وبوصلة، ومنظار، وخرائط، وتحت نافذة الغرفة المرتفعة المثلثة، خزانة خشبية عتيقة، تشبع خشبها بعطر بخور الصندل، الذي يدور به الخدم والحراس حول الغرفة، خشية أن تتسلل رائحة التبغ للواجهات الأمامية.

وعلى مكتب صغير فوقه مصباح كيروسين، والعديد من الكتب العربية والإنكليزية (تشير إلى طول مكوثه في المكان) شرعا بإعداد الجداول.

تلك الليلة سأله فيلبي: "لماذا لم يحضر هاريسون برفقتك، رغم أنني وجهت له الدعوة مرتين على العشاء وبعده؟".

أجاب ماثيو وهو يحاول أن يبحث عن مبرر لطيف: "ربما لأنه لم يستسغ رائحة التبغ".

تأمله فيلبي لوهلة بعينين ماكرتين جعدت شمس الشرق جفنيهما، قائلاً بصوت منخفض:

"مسكين هاريسون، سيكتشف في لحظة ما في حياته، أنه يبدو كعازف مبتدئ، يبحث له عن مقعد صغير في أوركسترا هائلة. فهذه الجزيرة منذ مطلع التاريخ، كانت تمول العالم القديم بالأنبياء، والأساطير، والقديسين، والمبشرين... لذا بضاعة الأغراب غير رائجة هنا، حتى نسطوريس في القرن الرابع الميلادي، أرسل لهم بعض التلويحات مع الفرس وعرب الحيرة، حول طبيعة المسيح، وصلاة الصبح، وصلاة المساء، ولكنهم لم يمنحوه أُذناً صاغية".

أطرق ماثيو فهو لا يملك جواباً، وهذا الإنكليزي المراوغ يعرف الكثير، فهو رغم هذا التبسط مع ماثيو، كان حريصاً على أن يبقي تلك المسافة الحذرة بينهما، لذا سأله ماثيو عن مقاله في مجلة الجغرافية الملكية في لندن. فأجابه فيلبي: "جلّ ما كُتب عن وسط جزيرة العرب شحيحٌ وغير منتظم، إذ سجلت الجمعية الجغرافية الملكية في لندن أنه ما من رجل أوروبي قط استطاع الوصول لعاصمة نجد، دون أن ينتهي به الأمر نهايةً مأسَوية".

قال ماثيو: "يظل هناك داوتي وبلجريف، وإن كانت رحلة بلجريف تظل دوماً تحت الشكوك. وأنت ذكرت هذا في إحدى محاضراتك لمجموعة الطلبة الزائرين بكامبريدج".

قلب فيلبي شفتيه باستخفاف وعدم ثقة: "ربما". وأخذ يخرج من إحدى الحقائب لفافات ورق، وسمح له بالاطلاع على رسومات بعض النقوش، التي يرجح أنها هي الحالة الطفولية للأبجديات السامية، حيث لم تنضج الحروف تماماً.

وحينما سأله ماثيو حول مقولة رينان، بأن العربية ولدت ناضجة، أجابه باستنكار، وكأنه يوبخه لارتكابه خطأ: "وُجد عددٌ من النقوش شمال جزيرة العرب، ربما هي طفولة العربية. في علم الآثار لا شيء أكيد وثابت، كل شيء يدخل في باب التوقعات والفرضيات. ولكن على الأقل في علم اللغات

المقارن، هي أربعة أمور لا بد أن تتبعها للمقارنة بين لغتين: الصوت، الصرف، النحو، المعجم، فإذا كانت هناك ظواهر تتكرر في لغة واحدة، فهي بالتأكيد من عائلة واحدة، كالعربية، والسريانية، والعبرية، وسواها من لغات جنوب الجزيرة العربية.

عموماً، الأبجديات الأقدم في الشرق الأوسط، هي الطورسينائية، الفينيقية، والآرامية، المسندية السبئية، وبينها الكثير من المشترك، لذا الجداول ستسهم كثيراً في فهرستها وتنظيمها.

ففي طفولة تلك اللغات حرف "ج" ينطقونه: جيم، وهو على شكل جمل، "ب": يصور على شكل بيت، و"و": رَسْمة وتد الخيمة. هذه الطريقة التي نشأت فيها الأبجدية الأولى".

يحاول ماثيو أن يستظهر أقصى ما يستطيع من هذه المعلومات المنهمرة، أما فكرة تدوينها، فهي حتما ستثير ريبة وعدم ارتياح فيلبي. فيعود يسأله مستفسراً: "لكن المشكلة التي تحير أساتذتي في كامبريدج، أن عمر الاستيطان البشري هنا لم يتضح بعد".

يجيب فيلبي وهو يحك جبينه، وقد بدا على وجهه التفكير العميق: "أثناء ترحلي في أودية جزيرة العرب، وجدت كثيراً من المتحجرات، وبقايا الفؤوس والرماح التي تخص حضارات مندثرة تعود لفجر التاريخ. وقد وجدت أيضاً متحجرات تعود لما قبل الإنسان العاقل، الإنسان الذي يعرف باسم أسترالوبيثكس، أيضاً هناك أحافير إنسان أكثر عقلانية منه اسمه هومو هابيلس... جميع هذا يعود للأزمنة المطيرة التي مرت بها جزيرة العرب".

***

لم يكن ماثيو ليحظى بهذا الدفق المعلوماتي من فيلبي دون أمرين، أولهما غياب د. هاريسون الذي يتمعر وجهه عند الإشارة لنظريات النشوء والارتقاء، ويحاول أن يختطف مسار الحديث بعيداً. ثانيهما مزاج فيلبي، فعلى الغالب يكون فيلبي متبرماً ضائقاً، ويطلب من ماثيو الانصراف بغته وبجفاء، متحججاً بأنه متعب نعس.

لكنه لم يفعل تلك الليلة، بل أخرج خريطة أخرى لجزيرة العرب، وأشار إلى الأودية التي كانت أنهاراً تتدفق فوق هذا المكان.

هذا التبحر الموسوعي أبهر ماثيو، فقال:

"في طريق القدوم عندما مررنا بالقرى والمناطق الزراعية، صادفت الإله السامي القديم بعل يطلّ برأسه خلسة؛ فالمزارعون يخرجون إلى الصحراء في مواسم الأمطار، بعيداً من مزارعهم للأودية المحيطة بهم، ويبذرون بذاراً لا يتعهدونه بسقيا أو ري، بل يتركونه للأمطار، فإذا نبت الزرع منها وهو على الغالب شعير، أو قمح، أو برسيم؛ أسموه 'بعل'، وحينما سألتهم: ما معنى بعل؟ أجابوني: الزرع الذي ينبت دون مطر! فخمنت أنه الإله القديم، بعد إزاحة الإله الجديد له في جزيرة العرب، ظل كامناً متوارياً داخل حبة قمح".

أدارت هذه الفكرة رأس فيلبي وأعجبته، ولكنه رفض أن يتقبلها، وتعامل معها باستخفاف المعلم المتشكك. فمحدّثُه محضُ طالبٍ طارئ على المكان، في حين أمضى هو سنواتٍ متابعاً، مدققاً، محللاً، فبدأ يتثاءب، مؤذناً له بالرحيل.

ثم استدرك قائلاً وكأنه أحس بجلافته، وأراد أن يلطف الأجواء مع هذا الشاب الحذق، وفي الوقت نفسه فرصة لاستعراض بعض معلوماته: "كانت عشتار تمر على الحقول تخصبها سراً، لكنها لا تظهر هنا قط، فالدين الصحراوي مسرف في ذكوريته، ولكننا نلمح آثار مرورها بشكل خاطف، كأننا نفكك نصاً حجرياً عتيقاً، بالكاد تظهر فوقه الحروف والعلامات. فهم هنا يبتهجون بالنخلة الأنثى ويحدبون عليها، ويغطون عذوقها، بينما النخل الذكر الفحال لا يبالون به، دوره طارئ ومؤقت. يبتهجون بالبقرة عندما تنبت عجيلة، فهي رموز الآلهة الأم المتوارية خلف رقابة صارمة، وهناك في بعض أماكن جنوب جزيرة العرب، يسمون النبات البري 'عثري'، ولعلهم أيضاً يرجعونه لعشتار".

قال له ماثيو فوراً وهو يريد منه أن يتبحر في هذه الناحية: "عشتار لم تصل وسط الجزيرة، بل ظهرت في العراق واليمن".

فأجابه وهو يعقد حاجبيه الكثيفين باستغراب: "كيف؟ بل هي ظهرت في جزيرة العرب، وهناك جزيرة شرقها اسمها تاروت، على الأرجح أنها ترجع

للإلهة السومرية عشتروت... نعم، نعم، تعرف أن للآلهة أجنحة شاسعة، لذا تتنقل في المنطقة بيسر وسهولة، فقد تجلبها دعوة أو صلاة من العراق إلى جنوب جزيرة العرب“.

ولا يدري ماثيو عندها هل هو صادق أم يسخر كعادته، لكن دون أن تفارقه تلك العجرفة الإنكليزية، التي تجعله قابعاً في منطقة وسطى، ما بين اللورد وقائد القراصنة.

***

هذه المساحة من الثرثرة العابثة، لم تظهر بين فيلبي وهاريسون، بل كانت تزدحم بالشك والحذر، فهو لا يفتأ يمرر له رسائلَ صامتة عن توتر أهل الرياض الحنابلة المحافظين، من أي سلوكيات يرون فيها حساسية كبرى على نقاء دينهم.

لا يبالي هاريسون، بتحذيرات الإنكليزي ذي الأجفان الثقيلة اللزجة الدامعة، والتي لا ينفك عن إخراج منديل من جيبه ليمسحها، ويخبره ساخراً أن الاحمرار والدمع الدائمَين في عينيه، قد يكونان عرضَين لالتهابات العين والتراخوما. هاريسون يغرز رمحاً في أرض العلم التي يقذف فيلبي سهامه منها. ويحدس بأن فيلبي يخشى أن ينازعه أرضاً باتت من ضمن فتوحاته الجيولوجية. ردوده الباردة تجعل أحاديثهما يسيرة ومقتضبة، لا سيما أنه يحاول أن يتطفل على أي اجتماع يجمع الطبيب بحاشية السلطان الشاب.

فيلبي لا يستطيع أن يخفي استنقاصه للكاوبوي، ليس هذا فقط، بل إحساسه العميق بأنّ خلف كل مبشر وداعية روحاً ساذجة، تؤمن بامتلاكها تمام الحقيقة، وثنائية الخير والشر، عاجزة عن الوصول لمفاتيح القفص الهزيل، والتحليق في ملكوت الكون.

لذا أول كلمه خاطب بها هاريسون كانت: ”انتبه، هنا لن يصنعوا من أوراق الإنجيل قراطيسَ للف البذور والتمر، هنا سيكون العقاب أصعب وأشرس“.

استنكر هاريسون جرأته، ولكنه حرص على إبقاء تلك المساحة الرمادية الغامضة بينهما.

***

عند الفجر كتب د. هاريسون في يومياته:

البارحة كان يوماً طويلاً عصيباً، قمنا بما يقارب الـ15 عملية للعيون، فمرض التراخوما منتشرٌ هنا، بل في الخليج عموماً، ومعظم المرضى يحضرون لنا في مراحل متقدمة، بعد أن بدأت الأغشية الداخلية للجفن في الانقباض، وأدت إلى انشداد الجفن والرموش وتغطية العين، مما يؤدي إلى إتلاف القرنية والعمى.

وما يجعل مواجهة هذا المرض صعبةً للغاية تحدّي تفاديه، فهو ينتقل بالملامسة، واستعمال الفوط المشتركة. آثاره تُعالَج بالجراحة عبر إحداث شق في الجلد عند زاوية جفن العين، ثم إعادة خياطة الجفن بواسطة ثلاث أو أربع غرز، كما يساعد شد الرموش خارج العين إلى عودتها للوضع الطبيعي، وحماية العين من العمى، لا سيما أننا يجب أن نقوم بعملية غلي وتعقيم للمعدات بعد كل عملية، فبينما أحد يغلي على نار متوقدة بالحطب، كنا نحاول أن نستعمل الأخرى.

لم أستطع اصطحاب كاميرتي معي، فطلق بن عيسى سبق أن أخبرنا أنها قد تثير الفضول والنفور، كما أن بعضهم قد يظن بها جنّاً يشفط الروح. لكن أجد أن الوضع ليس كما صور لنا، ومعظم من نقابلهم، بعد أن يزايلهم الحذر يصبحون ودودين في غاية اللطف بل كرماء، والباحة الخارجية تضج بثغاء الخراف الصغيرة، التي يجلبونها كهدايا امتنانٍ لنا.

نخل المستهلة

"القلب القاسي يعبد إلهاً قاسياً، والقلب الرحيم يعبد إلهاً رحيماً" – **حكمة سومرية**

أنينُ الجدّة يتسلق الجدران، ويطفح وينحدر منسكباً على سواقي الماء، فتئن معها أشجار مزرعة آل مشرق المستهلة. لم ينم البارحة أحدٌ من أهل المنزل سوى ومضات خاطفة. سهر الجميع، النجم والكلاب النابحة في مغارات الباطن، ويشعرون بأجنحة الموت تحوم فوق رؤوسهم. ابنُها لم يتوقع أن النّهار سيظهر عليها.

تطحن حصة الموسع، زوجةُ ابنِها عبد الرحمن، بذورَ الحلبة، وتخلطها بدقيق، وملح، ودهن الغنم، ومن ثم تضعها في كيس قماشي صغير، وتلصقها (صبخة) على جبينها، لكن لم تنخفض حراراتها.

وتطحن خلسة أيضاً أوراق السدر، التي قد يحتاجونها في تغسيل وتجهيز جنازة أم زوجها، وتتأكد من الصندوق الذي يحوي الكفن، الذي سبق أن جهزته الجدة لنفسها (إزار، وخمار، وقميص، ولفافتان).

بدأت في المطبخ تفرز الأواني التي ستنقل لملكيتها هي ومطبخها، والأخرى التي أوقفتها الجدة في وصيتها للأقارب والمحتاجين، يستعملونها ويردونها.

وستُذكِّر عبد الرحمن لاحقاً في عيد الأضحى بوصية الجدة، خمس أضاحيّ تضحى لها أول عام في القبر! (أضاحي الحفرة) وليمة لرفاق عالمها الجديد تجعل من يأكلها يدعو لها.

***

عبد الرحمن آل مشرق، كبته للهم جعله ينصت لأنين أمه، يصله من كوة عميقة في جوفه، فتنقبض روحه، فز للوضوء، وقرر الصلاة في المسجد الكبير، فهو يريد من الإمام أن يدعو لأمه، فيؤمِّن خلفه جميع المصلين.

كان قد اعتاد هو وجيرانه من آل جمرة أن يصلّوا في مصلّى بسيط تحت شجرة بمبر، شاسعة وارفة بأوراق بحجم الكف، تشبه تلك التي يسير المؤمنون في ظلها ألف عام، فرشوا أسفلها بالحصباء، وجعلوا له محراباً طوقوه بالحجارة، متوسطاً بين المزرعتين، كي يتمكن العمال والحرفية والمارة إدراك وقت الصلاة، الذي كثيراً ما كان يفوتهم قبل الوصول للجامع الكبير.

في الجامع الكبير، سجد عبد الرحمن آل مشرق ونشج، وأسر الكثير في أذن الله عند موضع السجود، وعندما عاد وقبل أن يلج داره، وجد جاره محمد آل جمرة ينتظره مترقباً، بعد أن افتقده في صلاة الفجر تحت (البمبرة). وجهُ عبد الرحمن المكترب الغامق، أخبر الجار عن أمه التي تحتضر.

لذا لم يسأله عنها، فقط وضع يده على كتفه وسأله بصوت عميق هامس: "يقولون إنّ الدختور الأميركي عنده إبر يغرزها في الجلد، وفيها الشفاء من بعد مشيئة رب العالمين".

دار رأس عبد الله آل مشرق، وكأن لفحة هواء باردة لفت به: هل بدأ ربي يمرر لي الاستجابة فوق ألسنة من هم حولي؟

طأطأ عبد الرحمن وهو يفكر: هل هذا هو حل الله؟ ولكن لمَ وضع على لسان محمد آل جمرة وليس إمام المسجد مثلاً؟

محمد آل جمرة سافر البصرة في شبابه عدة مرات، ويدخن التتن خلسة، وقد جلب من البصرة مضخة يدوية من صنع الإنكليز، وصلها بصهريج يخرج من البئر العجوز التي يتقاسمها مع آل مشرق، فتملأ السواقي، وتسقي مزرعته كلها قبل الضحى وارتفاع الشمس، بسرعة تفوق ثمانية حمير، وثمانية دلاء، وسانية تظل تسعى روحة وإياباً طوال النهار، بالكاد تكفي مزرعة آل مشرق.

أصوات لطيور غريبة لم يسمعها سابقاً قط، تغرد فوق أغصان البمبرة، امتقع وجه عبد الرحمن آل مشرق، مما جعل آل جمرة يقول بصوت هامس: "هرول للأميركي الآن قبل طلوع الشمس وازدحام عيادتهم".

وأردف: "على الأقل تكون أمام ربك قد فعلت كل برّ مطلوب منك كابنٍ".

***

قبل أن يلج منزله، وصلت جارتهم أم مبارك، مسدلة غطاء وجهها وعباءتها خلفها، تتطاير أوراق الشجر الجافة حول أطرافها، تحمل ثلاث بيضات بين يديها: اثنتان تأكلهما الجدة، والأخيرة تفقس فوق رأس الجدة نفسها فتتبخر الحرارة.

على غير عادتها، كانت أم مبارك مكتئبة ومزاجها سيّئ، تتمتم بشهقات بكاء: ”طول البارحة ما نمت! أمي وأبي رحمهما الله ظلا طوال الليل يبكيان ويرغيان عند بابي، لأنني لم أُعِدّ لهما عشاء الوالدين في رمضان الماضي“.

سألها عبد الرحمن بضيق صدر: ”ولماذا لم تُعدّي لهما عشاء الوالدين؟“.

فأجابت بحيرة: ”قال لي المطوع يفضل طبخ عشا الوالدين ليلة القدر، وعندما سألته متى ليلة القدر، قال لي:

هي الليلة التي تطلع شمس صباحها بدون شعاع، لأن الملائكة تنزل والروح فيها، وعندما تعود وتصعد فجراً من الأرض إلى السماء، تحجب أجنحتها شعاع الشمس. ولكن لم أستطع اصطياد تلك الليلة، ما كتب لي الله“.

انقبض صدر عبد الرحمن من حديثها وتجاهلها، وأخذ يتساءل في أعماقه، إذا الموتى يتجولون في ليل الرياض، هل هم هنا ليصطحبوا أحداً ما معهم؟ لم يودّ أن يسترسل في المزيد من التفاصيل، فهو يعلم بأن أم مبارك (مخرف الثرثرة) إذا نخزتها لا تصمت، بل تسكب سيل ثرثرتها حتى تغرقك.

صعد الدرج الجانبي ووقف بباب الروشن، فلمح ثلاثة أطياف في غرفة أمه، كانت خالته العمياء المسنة تسند رأسها على الجدار، وقد عبقت الغرفة برائحة منقوع الليمون المجفف والبابونج، الذي يجبرْن الجدة على ارتشافه. وابنته الجازي تتنكس بألم، يداها ترتجفان فوق مرقد جدتها، فهو يعرف أن عالمها المرصوف بالغيوم والنجوم والدمى، سوف ينهار إذا غادرت ماما هيا. بينما زوجته تطلب منها أن توجه وجهها نحو القبلة، فروحها على وشك أن تفيض. اقترب منهنّ ومن بنفسج الضوء الشحيح من النافذة الصغيرة العليا. كان صدر الجدة ما زال يعلو ويهبط، لم تمت، الجميع كان يترقب موت الجدة في أي لحظة، عدا الجدة نفسها، فهي تعرف رائحة الموت عندما يحضر، خبرته وجرّبته جوار مراقد أسلافها المحتضرين.

همس عبد الرحمن: ”يبدو أنها المشيئة الإلهية قد اكتملت، سأحضر الأميركان“. ثمّ قال بصوت جاف مشقق بالتعب: ”استعددن، سأذهب لإحضار الدختور الأميركي من قصر الشيوخ“.

شهقت خالته واعتدلت في جلستها، بعدما كانت تبدو كأنما استغرقتها إغفاءة، وقالت: "أعوذ بالله، أعوذ بالله... الله لا يسخط علينا، تبي ربك يخسف بنا، هم جابوا معهم الأمراض والبلاوي".

قالت أم مبارك الجارة: "اذكر الله ولا تستعجل، اليوم ستأتي أم سعد القراصة، سنوقد ناراً عظيمة أمام المنزل، وننتظر إلى أن تترمد، وسنغطي الوالدة بالرماد، فهو إن شاء الله بيبرِّد الصخونة ويسحب...". لم يدعها تكمل. خاف أن يعلق بجديد من الوصفات العجيبة، التي لم تبقَ امرأة في الرياض لم تصفها لأمه: تتسبح بماء بارد، تغرس كعبيها بثمرتي حنظل، وتنام في جدول ماء.. سيهرول إلى قصر الشيوخ، ويرجوهم إحضار تلك الإبر السحرية، التي تنغرس تحت جلد المريض فيبرأ.

تمتمت زوجته حصة الموسع: "دوا الكفار سمّ زعاف"، وأخفت عنه أنها البارحة انشغلت بإعداد ملابس الكفن والحنوط، والبحث عن ليفة وسدر لترغيه حول جسد الجدة هيا، وقارورة زيت زيتون مخلوط بماء ورد لفرك جسمها، وأخرجت بعض ملابسها النظيفة وعطرتها، فهي تبدو مودعة، متناسية أن من يرتب طابور الذهاب إلى القبر ليس هي، أو المرض، أو حتى توقعات المعالجين، بل أمر مختلف تماماً، فالدنيا لها أقدارها الخاصة، في تنظيم صف الدرج الطويل الذي ينحدر بالبشر إلى العالم السفلي.

***

ملأ عبد الرحمن آل مشرق سلّة من بواكير رطب نخلة (نبتة سيف) اسمها هيا، مسماة على أمه، وتوجه إلى القصر، لعل الله يرأف بهم، ويرسل تدابيره التي تتجلى فجأة وتنبلج، عندما يكون البشر في قاع بئر اليأس.

لغط الزحام حول العيادة وصله وهو ما برح في نخل آل سويلم، فعلم أن مهمة الوصول للعيادة لن تكون يسيرة، ترقباً للدخول على الدختور.

شاهد مسنين منهكين بعمائم بيضاء، فُرشت لهم بسط أسفل الجدار الطيني، وصغاراً عيونهم شبه مغمضة من الالتهاب، وجوهاً أطل فيها ملك الموت وأفزعها وغادر، لكن بقي الفزع. قلب عبد الرحمن الطافح بأنين أمه

البارحة، جعله يأخذ في توزيع التمر عند مدخل العيادة، تمر آل مشرق المشهور بحلاوته، وسرعه نضجه في بدايات الموسم، تخاطفته حشود مصابة بالألم والملل، الحبات القليلة في قاع السلة، كانت من نصيب ماثيو إيدن، بعد أن خرج يلتقط أنفاسه عند باب العيادة، ويبحث عن إمكانية تدخين لفافة تبغ مختلسة في مكان منزوٍ. ويبدو أن د. هاريسون حدس هذه الرغبة فأومأ برأسه له موافقاً، وهو يعقم بطن مريضة سببت لها الولادات المتكررة فتقاً هائلاً، استطاع هاريسون أن يعيد عضلاتها وأغشيتها إلى وضعها السابق، وفي لحظات النشوة التي يشعر بها كل جراح وهو ينازل الموت، استطاع ماثيو إيدن أن يحظى بفرصةٍ لاستنشاق الهواء.

وتلك القطعة من الحكاية التي يسردها البشر الفانون عادة، لعجزهم عن رؤية المشهد كاملاً، وأقدار تستدير وتتحور، لتقود هذا الكاوبوي الفارع لمزرعة آل مشرق، بخطوات واسعة كانت في طريقها لترسم حكاية، سيظل آل مشرق وعوائل الرياض، يردّدونها أجيالاً طويلةً بعد ذلك.

الذيب في القليب

مرّا بسوق الحريم، توجها شرقاً إلى بوابة الظهيرة، كان وقع خطاهما مرتفعاً فوق الحصى، حصى أبيض نظيف، بعد نقل إسطبلات الشيوخ إلى بلدة الخرج جنوب الرياض، باتت هناك مساحة واسعة، تولوها بالترميم والتنظيم بين قصر الشيوخ شمالاً، إلى بوابة الظهيرة.

صوت بول هاريسون ما برح في أذنَيْ ماثيو: "افحص المريضة وسأعودها مساء إذا تهيأ لي الوقت، ولا تسرف في التحليل أو كتابة وصفة، فهم لا يثقون بنا كثيراً، فما بالك مع تشخيصات خاطئة ومتسرعة؟".

خروجهما من بوابة الظهيرة المصنوع من خشب آثل متين، وولوجهما رطوبة الهواء الدافئ بين النخيل، ونسمات تتخلل ما بين عباءة ماثيو وثوبه، استنشقها عميقاً، وشعر بأن النخيل أعطته فسحة من الحرية وبعضاً من الحميمة، جعلته يقول بعربية مرتبكة: "منطقة نجد مرتفعة وهواءُها جافّ، ومن النادر أن

تستوطن بها الحُمِّيات". لم يدرِ عبد الرحمن ما يجيبه، فقط قال له معززاً مدحَه للرياض: "أيضاً مع اقتراب المساء، تهب نسمات الصبا منعشة، ترحم الزرع والعباد من لهيب الصيف".

وعاد عبد الرحمن لصمته، يستغرقه إحساس عارم بالذنب والخشية، وهو يماشي هذا الغريب، فلديه عشرة من فروخ فسائل النخيل سيغرسها غد، ولا بد أن يكون طاهراً متوضئاً خالياً من الذنوب، لكن ما خلق الله من داء إلا وخلق معه دواءه، وستموت أمّه حتماً إذا علمت أنّ مَن عالجها هو هذا الكافر.

ولكن ماذا لو كان الترياق (الذي أرسله ربُّ العالمين لإنقاذ روح الجدة) هو هذا المارد الأحمر الطويل الذي يسير خلفه؟ فيقوم هو بدفق نعمته بيديه، وينصت لوصفات عجائز الرياض؟

***

أصبحت الممرات أوسع حينما غادرا سور الرياض، وقلّ المارة، لكن سكان المزارع لمحوهما يخترقان النخيل، فباتوا يتنادون همساً للتلصص من نوافذ الجدران الضيقة، يسمعان همهمات وضحكات من خلف أبواب المنازل التي تتوسط المزارع، بعضهم يلوحون لهما لضيافة القهوة، بينما الفتيات يكتفين برمي حصى في طريقهما، أو بعض نوى التمر للمعابثة ولفت الانتباه.

كلما توغلا في المزارع، تكثفت الأشجار وارتفع هديل اليمام، وأز صرير عجلات الماء الهائلة التي تديرها الجمال، جالبة الماء من آبار عتيقة. لم يستطع ماثيو إيدن مقاومة رغبة النظر في قاعها، لربما ستلتقي عينيه بجوزيف، الذي رماه إخوته في البئر، فيرطب وحشته بابتسامة. آبار مطوية بحجارة ثقبها الزمن، وبَنَت الطيور فيها أعشاشها لقدمها.

لم يجد جوزيف أسفل البئر، لكن ارتعش قلبه هلعاً، فصفحة الماء تبرق بأضواء غامضة، وأحداق جميع السلالات التي شربت من هذا البئر، وغادرت هذا العالم، وظل توقها للماء يبرق فوق صفحته.

البيوت بين النخيل متجاورة ومتشابهة، إلى أن وارب عبد الرحمن بوابة خشبية مزينة بزرد نحاسي، وقبل أن يلج داخلها، طلب من ماثيو أن يتريث

للحظات، لتتوارى النسوة في مكامن معتمة تحجبهن، وتمكنهن أيضاً من التلصص على الدختور الأحمر الذي سيشفي الجدة.

كان ماثيو مشغولا طوال الوقت، في تحديد النقطة التي يجب أن ينزع بها حذاءه في هذا المنزل، وتحسباً، نزعه عند الباب الخشبي الخارجي. وقف في الردهة يتأمل شجرة سدر صحراوية هائلة تتوسط الدار، وترتفع لتتشابك أغصانها وتلامس الدور الثالث، تلتف حول أسفل جذعها أوانٍ فخارية مغطاة لحفظ الماء وتبريده، وثمار شمام وبطيخ تبترد أسفلها. في تلك اللحظة أحس ماثيو بثقل في أطراف يديه، فقد شعر بأنه سبق أن دخل هذا المنزل، ربما في زمنٍ ما، أو حلمٍ نسيه.

***

كانت لأم آل مشرق، هيا، بنيةٌ قوية وروح مقاتلة، غطاء رأسها يحمل رائحة أعشاب عطرية نافذة، كانت تتأمل طبيبها من خلف الشاش الأسود لغطاء وجهها بعينين متفرستين، كأنها تواجه عفريتاً في الظلمة. بصوت واهن حازم، نقلت أعراضها وآلامها همساً في أذن ابنها عبد الرحمن، الذي ينقلها إلى الطبيب، جاعلاً من جسده موضعاً لتحديد مكان الوجع، خشية أن يمس الطبيب جسد أمه، وتنهار هي من لمسة الكافر، التي لن يطهّرَها من دنسها، ولو توضّأت بماء نهر الكوثر.

تجربة ثلاث سنوات في مستشفى المنامة، جعلت ماثيو يخمن أنه التهاب بالكلى، المنتشر نتيجة حرارة الجو وقلة شرب الماء، ستنهيه بعضُ مدرات البول، وشرب كميات كبيرة من الماء والسوائل. فطلب منهم أن يسقوها مشروبات باردة، ويضعوا على رأسها كمادات تخفض الحرارة الناتجة عن التهاب المثانة، إلى حين ذهابه للعيادة، وصرف المسحوق المدر لابنها.

***

عاد به عبد الرحمن، يحمله في قرطاسة ربطه بطرف شماغه، أعطاه لحصة الموسع، وطلب منها أن تسحن وتنثر قدراً ضئيلاً منه على كأس لبن، وتقدمه

للجدة ثلاثَ مرّات يومياً، والتي لم تلبث طويلاً قبل أن تطلب الذهاب لدورة المياه، ومن ثم غفت وهي تدعو وتسبح، تدعو لابنها عبد الرحمن بالتوفيق وطول العمر، ولم تدعُ للطبيب لأنه كافر، ولم تدعُ لزوجة ابنها حصة الموسع لأنها وضعت كفنها وحنوطها في ركن الغرفة مترقبة رحيلها.

وبعد زيارة خاطفة من د. هاريسون مساءً، أكّدت صحةَ تشخيصِ ماثيو، جلست الجدة هيا في مرقدها وطلبت طعاماً.

***

الدكتور هاريسون قد يمضي جلّ نهاره في الكشف على المرضى، ولكن كان يتجنب القيام بعمليات جراحية إلا للضرورة القصوى، بسبب غياب التجهيزات، ويكتفي بعمليات للعيون والفتاق. طبيعته البروتستانتية المتحفظة تجعله يندر أن يظهر مشاعره، يبدو صامتاً مستغرقاً في عمله.

تصلهما القهوة قبل الشمس مصحوبة بالتمر المدبس، بعدها يقصدان العيادة إلى أن تأتيهما وجبة دسمة من المطبخ الملكي قبل الظهر، وهو عبارة عن صحن أرز وفوقه كتف أو فخذ طلي، وبعض من حساء الخضار، وإناء لبن تسبح قطع الزبدة فوقه.

يحتفظ ماثيو بقطع الخبز والمهلبية التي تأتي بعد الغداء، ويتناولها مع لفافته، فقد اكتشف درجاً خلفياً يمكنه من الوصول لمنحنى البرج الشمالي، يكمن هناك مدخّناً لفافته، متلصصاً من نوافذه على الطريق في الأسفل.

خمس مرات في اليوم تطأطئ الرياض بخضوع، وتسيل دروبها بالقاصدين المسجد، يغسلون وجوههم، ورؤوسهم، وأذرعهم، وأقدامهم، يهجس ماثيو: ”هل تأثروا هنا بالمانوية وعلاقتها مع الماء؟ وكيف يحيّي الجيران بعضهم بعضاً بالدرب بنفس الحماس والود، رغم أنهم سبق أن تلاقوا قبل سويعات قصيرة في صلاة العصر؟“.

نشوة الاستغراق في العمل والنجاحات اليومية الصغيرة، ومشاعر الود التي تنسكب على د. هاريسون من مرضاه، تجعل المساء يحل ومعه نشوته وملائكة تصفق حول كتفيه خلسة، لا يرغب في مغادرة الرياض، يستطيب مجلس ابن

سعود، ويتمنى أن يمضي فيه المزيد من الوقت، فالمعلومات التي تصل وتصب فيه ليست غزيرة فقط، ولكن أيضاً تدار بطريقة يتم التركيز على الأخطر والأهم للمنطقة، ويتم تهميش بقية الثرثرة.

في بعض الأمسيات النادرة، يتمشى معهما فيلبي باتجاه غرفتيهما، وأحياناً يقتحم هدأة الغرفتين، ويستطلع انطباعاتهما عن المكان وسكانه. لكن الطبيعة المتكتمة لد. هاريسون، وترقب ماثيو لمعلومات جديدة منه، يجعلانه على الغالب هو من يتولّى مهمة الثرثرة.

يتحدث عن الملك الشاب، وحكايته مع أربعين رجلاً، استعادوا هذه المدينة، بعد أن أمضوا طوال الليل على مشارفها يصلون ويشربون القهوة التي تساعدهم على السهر. فجراً انقضوا على هذه القلعة بجسارة تفوق فرسان الهيكل المدلسين.

يلتفت له هاريسون يرمقه بنظرة ساخطة قائلاً: ”إذا كان فرسان الهيكل لا يروقونك فهذا شأنك، لكن لا تنعتهم بالمدلسين“، قبل أن يعاود صف المعدات والخيوط وتجهيزها للغد.

الجازي آل مشرق

يقدم النخيل عذوقه الفاخرة اللامعة على مائدة الصيف، وبين سواقي الماء التي تخترق المزارع، تنبت زهيرات بيضاء خجولة تغلق أكمامها في المساء، فتتفتح عوضاً عنها الحكايات، ومغامرات الأولين، وأسرار مخلوقات تكمن في الغرفات النائية، تنتظر غلالة الليل، لتتجول خلف ستائرها، أهازيج الأمهات للسنّ الأولى والخطوة الأولى، وأشواق الفتيات الجامحة للأجنحة.

هيا أم آل مشرق، ينبوع الحكايات، اعتادت النساء أن يندرجن نحو منزلها لينصتن لحكاياتها، من مزارع النخيل المجاورة، ومن داخل الرياض والبدويات راعيات الغنم، وبائعات سوق النساء، فتعيد نسج ما تشابك من خيوط أيامهن، وتمشط ما تعقد من ضفائرهن بالحكايات، وبالحكايات أيضاً تعيد رصف الأشياء

المبعثرة المتطايرة داخل أرفف أدمغتهن، وتردها مغلفة بالطمأنينة والسكينة، تحمل مسوغاً لعبثية الحياة.

***

أم حمد التي كانت تشعر بالغيظ والحرقة من عروس ابنها الصغيرة، فرغم صغر سنها وحيائها، لكنها استطاعت أن تسلب ابنها لبه، فبات يمضي الساعات الطوال برفقتها، وبالكاد يصلي فرضاً واحداً في المسجد، وتسمع أمه صوت قهقهاتهما وضحكهما وهي في أقصى الدار، ينتهي من شؤون المزرعة بسرعة، يروس السواقي، ويكرب النخل، ومن ثم يركض ليقفز الدرج ثلاثاً ثلاثاً، وقد حمل لها من أطايب المزرعة، عناقيد عنب، وعذوقَ بلح، وصرة مشمش، ويمضي بقية يومه برفقتها. في البداية فرحت لابنها، وقالت صبية مليحة تسعده، فهو يتيم لم يحظَ بالكثير من المباهج، لكن طالت الأمور، والعروس نفسها لم تنزل لتساعدها بشؤون المنزل، متحججة أنها برفقة حمد. مرّ شهر وشهران، وشكته لخاله، وشكته لإمام المسجد، وشكتها لأمها، لكن لم يتغير من الأمر شيء، حتى بدت الإشاعات والوساوس تنتشر، أن حمد مسحور من عروسه، وبتدبير من أمها التي يقال إنها "صلبية".

قصَّت هيا أم آل مشرق حكايةَ الخروف المسحور لترطب خاطر أم حمد.

والسبحونة عن "شاب وضيء، اعتاد التجول بين الأودية والشعاب وأطراف المزارع للصيد، فاصطاد يوماً فراخ قميرية! ففجعت القميرية، ودعت ربّها أن يحرق قلبَ أمه عليه. فلم يلبث سوى أيام حتى صادف عجوزاً مسنة في هيئة رثة، تسير وحيدة في البرية، فاستغرب حضورها ونفر منها، لكنها هي اقتربت وأخذت تحدق في وجهه بعد أن فتنتها وسامتُه، وسلبت لبها وضاءتُه، فاقتربت منه وحيّته بابتسامة، وقدمت له 'تولة' عطر هديةً، وقالت له: 'بإمكانك أن تدهن شاربك، ولمتك، وقذلتك بهذا العطر، فهو يطيل الشعر ويكثفه'. فعاد يومها إلى منزله بلا صيد، لكن منتشياً برائحة العطر. وما إن دخل منزله وصعد إلى غرفته وتعطر، حتى تبدلت أطرافه، وضمرت كتفاه، واحدودب ظهره، وطالت أذناه، ونبت الصوف في أجزاء جسده، وتحول إلى خروف! ليس هذا

فقط، بل تحيّن فرصة الباب الموارب، وفرّ خلسةً من منزل أهله ولاذ ببيت العجوز الساحرة، التي كانت تطعمه وتسقيه نهاراً، وتعيده شاباً يسامرها وينادمها ليلاً. فُجع الأهل بغيابه، وظلوا يبحثون عنه شهوراً، ويسألون عنه في الحارات والأسواق، فلم يحمل أحدٌ خبراً حوله. وكانت تلك السنة مربعة ممطرة، سرعان ما انشغل الناس بها عن البحث عن الشاب المسحور، ببهجة الأمطار والخيرات التي مشت بالأودية، فأعشبت بالخزامي، والبعيثران، والأقحوان، عدا قلب أمه المتورم باللوعة، ظلت تسأل عنه نهاراً في الأسواق والدروب، وتدعو ربها ليلاً، أن يعيده لها سالماً معافى. وتظلّ في دعاء طوال الليل إلى مطلع الفجر، فسمع دعاءها طائر الأمهات الأخضر، وشعر بالشفقة عليها، فهو يلمح حينما يمر فوق بيت الساحرة العجوز، خروفاً تقوده العجوز إلى سطح المنزل، حتى إذا ومضت نجمة المساء تكشف لها عن شاب وضيء وسيم. فوقف على سطح الأم وأنشد:

من مبلغ الصبيان عني نصيحةً
من حاضر منهم ومن كان غايب

من لا يحوش المرجلة في شبابه
ما عاد يدركها الى صار شايب

ومن خاب فى أول صباه من الثنا
فهو لازم فى تالي العمر خايب

فلما كثر تردد طير الأمهات الأخضر على جدار سطحها، وترديده أبيات راشد الخلاوي، علمت أنه يضمر رسالة، فسعت لتعقبه في الدروب وبين البيوت، إلى أن أفضى بها إلى منزل العجوز، وأخذ يحوم فوقه، ويقف فوق السور ويردد الأبيات، ومن ثم يعود ليحوم فوق المنزل.

وكمنت الأم في درب معتمة قريبة إلى الليل، وتسورت السور في الظلمة، ورأت بعينيها ابنها يتخلق من هيئة الخروف إلى طبيعته البشرية، فأخذت تصرخ

فرحاً بجنون وشقت ثوبها، فتقاطر الجيران وأهل الحي على المنزل، وساعدوها في إنقاذ ابنها من براثن الساحرة“.

***

تعلم هيا آل مشرق، من أطراف العينين المتقرحتين الذابلتين لأم مسلم الجميلة، بأنها تبكي كلّ الليل وبعض النهار، لاقتران زوجها بأرملة لها أربع بنات، حتماً إذا أحبّها سيزوجهن بأبنائها!

عندئذٍ تقرر هيا آل مشرق أن تسرد قصة ”الجعل، الذي كان متزوجا فأرة، لكنه عشق عليها خنفساء، واتخذها زوجةً ثانية أثيرة له. انكسر قلب الفأرة، وأخذت تتنصت على أحاديثهما، وقالت :

– من ذا حديثه عند الثرمدا؟

فردت الخنفساء:

– حَسْنا وعمران وغلّك يكمدا

فصاحت الفأرة:

– بيض سنيناتي نجل عيناتي والطنا يطني

واحتدمت بينهما المشادة، وكادتا أن تتشابكا بالأيدي، فأراد الجعل أن يوقف المشادة، فقال: خذاني إلى فراشي، فحملته الفأرة على ظهرها لتأخذه لفراشه، بينما اكتفت الخنفساء بحمل نعاله. فأخذ يغني ويترنم قائلاً:

الحب لك يا حسنا يا شايلة نعلتيه
والبغض لك يا فارة ولو زعلتي عليه

فاستشاطت غضباً الفأرة، وقذفته عن ظهرها بعنف، فوقع واندق عنقه ومات. عندها أخذت الخنفساء تصيح وتبكي وتولول جوار قبره، فقالت لها الفأرة ساخرةً: ’افتحي القبر ودسي... عنده‘“.

تقهقه النسوة سعيدات متشفيات بالجعل الخائن، وتحاول أن ترتق هذه القصة معاليق قلب أم مسلم المنكسر، وتعلم أن ما أثقل أكتافك وكاهليك

اقذفيهِ بعيداً وتخلصي منه، فتتنهد تنهداتٍ عميقة، وتخرج من بيت آل مشرق، وهي تعلم بأنها ستقذف عن ظهرها كل ثقل... الفأرة الشجاعة لن تكون أقوى منها.

***

شفاء هيا أم آل مشرق أعاد البهجة حول السدرة، اندفق في عروق المنزل هديل اليمام، وعبق برائحة فوح مياه البابونج التي اغتسلت بها الجدة، غردت عصافير السدرة التي تتوسط المنزل فوق غصونها. من أركانه الدامسة، تقدمت الحياة بمباهجها، ونشرت ثوبها المغوي لتصطف فوقه النسوة من جديد، رصفت المساند، وتبهرت دلال القهوة بالهيل والزعفران، وعاد المكان عبقاً ضاجاً بالزائرات، والأطباق التي تُرْسل احتفاءً بشفاء الجدة، أقراص مراصيع، آنية زبد، ومخرف تفاح الديرة.

قطَّعت الجارات الشمام والبطيخ، وناولن شرائحَ منها للجدة، التي مشطت ضفائرها، وكحلت عينيها، وتحنت، وبات باستطاعتها النزول إلى الدور الأرضي لاستقبال زائراتها. كل هذا ولم تذكر أي منهن اسماً للطبيب الأميركي، وكأنهنّ يخجلن بالمجاهرة به، أو ربما ذلك سيزعج أحدًا ما أو ربما الملائكة ستنفض عنهن.

اثنان حسما الحيرة في قاع رأسيهما تجاه الطبيب الأميركي: الأول هو ولد آل جمرة، الذي همس في أذن عبد الرحمن آل مشرق بعد صلاة الفجر: وضع الله بين أيديهم الحكمة والطب، ونصطفي منه ما يناسبنا. والثاني كان الجازي. حدقت بماثيو بعينيها التي يستدير سوادهما براقاً كمياه الغدران، وتفرست بقبضتي يده وهو يشير إلى مواضع الألم فوق جسد جدتها، ظهره وأكتافه، وارتداد ذقنه مع شفته العليا، وصوته العميق برنة عجيبة تشبه فناجين قهوة تتصافق، تأملته أيضاً السدرة وعصافيرها، فردتي حذائه الكبيرتَين في مقدمة الدار. أكملت بقية الحديث عنه لصبايا مزارع النخيل المجاورة، عن خصل شعره الشقراء، التي كانت تتبدى على أكتافه من تحت غترته.

***

حبال الأقدار

تتدلى حبال الأقدار من السماء، أحياناً تكون بعيدةً مرتفعة لا نطالها، وأحياناً تكون متفلتةً مراوغة، نعجز عن الإمساك بها، وأخيراً قد تكون لينةً رخصة تتقدم منا بلطف، فتقبض على أكفّنا وتؤرجحنا.

الجازي ابنة عبد الرحمن آل المشرق، سماها لحظة ولدت على اسم أمه هيا، فرفضت أمه أن يسميها على اسمها، وهي ما برحت على قيد الحياة، فقالت: "حينما أرحل وزّعوا اسمي كما تشاؤون"، وحملتها وتأملتها في لفائفها، فلم تبدُ بملامح المواليد المتورمة، بل كانت ملامحها منمنمة رائقة؛ أهداب طويلة، وغمازتان، وأنف لطيف رقيق كخطم الغزالة، فأسمتها بالجازي، أي الغزالة.

حلت الغزالة بها، وتلبستها في لفتاتها وسكناتها، في حضورها ونفورها، بشرتها الذهبية اللامعة، وأطرافها الدقيقة، وشعرها الذي يصهل خلف ظهرها، وعندما تروس ماء السواقي، تجري المياه بضفائرها، تنهرها أمها على فعل هذا، فمن يراها سيصيبها بعين.

وتصيح بها جدتها هيا آل مشرق من بوابة الدار الخلفية: "تعالي بسرعة أغسله لك بالسدر، وأمشطه بالزباد، وألمه وراء ظهرك، حتى لا يراك مشفوح لا يملك ثمن مهرك، فيقوم بحسدك".

فترد من بين النخيل: "أحسن، ما أبي أتزوج واحد من عيالكم أو جيرانكم، أبي أتزوج واحد يحوف بي ويدلعني، ويغسل رجولي بماء الورد، مثل بنيات السباحين".

لحظتها هدهدت الهداهد فوق قمم النخيل، فهي تعرف بأن هذا الكلام ليس إلا نبوءة وضعت على لسان هذه الصبية الفاتنة، والتي تزور الشمس حينما تمر فوق رأسها، حتى لا تفسد لمعة المشمش في خديها.

***

أم مبارك تمسك كفي الجازي وتمسدهما قائلة: ”أين الحناء؟ كما أن شفتيك متقشرتان من الجفاف، لا بد أن ندهنهما. سنذهب عصراً إلى سوق الحريم ونبتاع حنّاء وزيت ثمر الهند، ونعود بسرعة قبل المغرب“.

حدست الجازي بأن أم مبارك تزمع أخذها كرفيقة درب مؤنسة كالعادة، للمرور على نخل طليقها، لترطب قلبها من لواعج الشوق له. ترتدي الجازي عباءة جدتها الصوفية، لتخفي معالمها عن الأعين الفضولية، لكن حتما أم مبارك يعرفونها عبر مشيتها العرجاء.

أم مبارك عمرها سلة أوجاع يتناثر فوقها بيارق نصر صغيرة، وما بينهما حزمة أحلام كانت تنقلها من عام إلى آخر، حتى إذا فسدت استبدلتها بأخرى.

أم مبارك لا تبالي بعرجها، تندرج بليونة حجل إلى حيث نخل آل طويع، وعندما تقترب تهدأ خطواتها، وتظهر ارتجافة بسيطة في قاع صوتها ويديها، وتختار زاوية الجدار الطيني التي تفصل نخل آل طويع عن جيرانهم، فتتسورها مستعينة بجذوع ثلاث أثلات تصطفّ هناك. تطلب من الجازي ترقب الدرب ورصد القادمين لتحذيرها، بينما هي تلصق خدها بجذع الأثلة، كأنها توكئه صدر حبيب، وتبدأ في ترقب طيف طليقها وهو يعمل في نخيله، لتلعقه بعينيها بولَهٍ، سواعده التي كانت تلتف حولها، وعنقه الضخم الذي كانت تدس وجهها في، ثمّ لا تلبث أن تبدأ تهزج بأبيات نورة الحوشان:

يا عين هلي صافي الدمع صافيه
وإلا قضى صافيه هاتي سريبه

وأم مبارك لا تعرف هل هي القصة، والقصيدة التي روتها هيا آل مشرق جعلتها فجأة تعشق طليقها، أم أن القصيدة فجرت كوامن وأوجاع داخلها، لتكتشف ندوب شوقها المزمن له.

وبنت الحوشان كانت فاتنة مائقة بحسنها، رفضت أن يوبخها زوجها ويهين كرامتها، فما كان منها إلا أن أخذت أطفالها وغادرته. بعد انقضاء الشتاء جرت الدماء في عروق قلبها، وأطفأت نيران الغضب، واشتهت العودة إليه، لكنه

فات الأوان، فهو قد طلّقها، فصارت حينما تمرّ بنخيله وتتسور حائطه، متمنية أن تلمحه أو تسمع صوته، وتنشد بين حشرجات دموعها:

يا عين هلي صافي الدمع هليه وإلا قضى صافيه هاتي سريبه

ياعين شوفي زرع خلّك وراعيه هذي معاويده وهذي قليبه

امنول خلي قريب ونرجيه واليوم جيتهم علينا صعيبة

إن مرّني بالدرب مقدر أحاكيه مصيبة يا كبرها من مصيبة

اللي يبينا عيت النفس تبغيه واللي نبيه عيا البخت لا يجيبه

تلك الحكاية التي عبثت بعقل أم مبارك، ونقلت طليقها أبا مبارك من مزارع قروي رث في وجهه دق جدري، إلى عشيق يزورها في أحلامها، وتهرول كل ما أتيح الأمر لها، لتتسور حائط مزرعته وتتأمله.

***

أم مبارك ليست دميمة لكي يطلقها زوجان، كما أنها دربت نفسها بحذاقة على طريقة في المشي على أطراف أصابعها، تجعل عرجها نوعاً من الغنج الذي تحرك به وركيها بليونة. مبسمها ظريف، عيناها دعجاوان رغم غشاوة بيضاء رقيقة على العين اليمنى، ويداها منقوشتان بالحنّاء دوماً، أحاديثها مؤنسة، بارعة في ترميم الفجوات الموجودة في صمت المجلس النسوي، قادرة على حشو حادثة يومية بسيطة بالتفاصيل، حتى تتورم وتكاد تنفجر في أذن المستمعين، لذا سمّوها أمّ الهول والهوالات.

زوجها الأول ولد الطويع، كان يشكو من سلاطتها وجموحها، فكان ينخزها بأصابع قدمه لتستيقظ وتعدّ القهوة له، فتضع الدلة وأنية التمر أمامه بعنف، ومن ثم تنزل للحقل تحصد علفاً للدواب، وتروي الماء. يصيح بها: ”متى

سترجعين؟"، فلا تجيبه وتمضي في طريقها. عندها يعايرها أنه يعرف وصولها للبيت من أثر أقدامها في الدرب، فيبدو أثر أكبر من الآخر، ويدعو الله ألا يرث أبناؤه عرجها.

ظلّا في مناوشاتهما وسبابهما حتى افترقا، وكان ولدها مبارك في خطواته الأولى المستقيمة الرشيقة. رغم هذا عادت هي ومبارك لبيت أهلها، وظلت طوال الوقت تبكي، وتنشج، فاحتضنها أبوها وواساها وهمس بأذنها: "بدل الجعري كلب، انزعيه كحذاء، وسيبدلك الله خيراً منه".

ولكن ليس بالضرورة أن تكون المقايضة كما صممها لها أبوها، فزوجها الثاني في يوم دخل المنزل وصاح بأعلى صوته: "عريج أنكبي غدانا"، فما كان منها إلا أن قلبت قدر غداه على الحطب، وقالت له: "ما حلفت قدام أبوي أنك لن تناديني عريج ثانية؟ لو أنك رجال طلقني"، فطلّقها، وظل يلعنها ويصيح بصوت أتى به من قاع حلقه: "أنت طالق"، ويتبعها في السكة حتى وصلت لبيت أهلها.

فهي كانت حين يغيب، تهدد أمه العجوز الكسيحة بأنها ستدحرجها في قليب الماء، أو تطبق مقرصة الخبز فوق مرقدها، وتعود من النخل وقد ملأت خلسة جيبها بالخنافس، فتنثرها في فراش أم زوجها، وهي تتمتم: "شيطانة عجوز الغابرين الله يمحقها، ما تناديني إلا عريج".

لكن لما وصل مبارك ذلك العمر المحير، الذي يتصايحن به النساء هل نتغطى عنه أم لا، قصت هيا آل مشرق حكاية نورة الحوشان، فتورطت بها أم مبارك!

كانت وقتها وحيدة طلقت من زوجها الثاني، ومات أبوها، عندها لدغها عشق زوجها أبي مبارك من جديد بجموح مراهقة، يتكشف لها جني العشق بغتة، وباتت تقفز على شجرة الأثل التي تميل على السور الشمالي لمزرعة آل طويع، وتعيد إنشاد أبيات نورة الحوشان، وتتنهد وتذرف دموع القنوط.

كان أبو مبارك الطويع يلمحها فوق شجرة الأثل، ويسمع مواء التفجع في صوتها فوق السور فيتحمد الله، وهو يعي أنه لطالما كانت هناك خفة في عقلها، فيتظاهر بانغماره في عمله، حتى إذا أتعبتها يداها المتعلقتان، وثبت إلى

الأسفل، ونفضت بقايا الغبار العالق بعباءتها، لتدلف إلى الرياض عبر بوابة البديعة الغربية قاصدة سوق الحريم.

أحياناً تصل بها الرعونة والاندفاع، أن تمرّ بمنزله وتدق الباب لتتشارك وزوجته وأولاده قهوة المغرب، توبخها هيا آل مشرق ونسوة الضحى، ويطلبن منها أن تعز نفسها ولا تزورهم، ويذكرنها بأنها سكبت خلسة ماء بارداً على قدر خروف وليمة عرسهما، لتبرد وترتخي همة العريس لكنه لم يبال، وجمعت من أطراف المزارع شجر العاقول، ووضعته في دربه كي يصبح نومه تلك الليلة جوار عروسه شوكياً، لكنه نام مهتنئاً. والجميع عرف بهذا ويتندر به، بمن فيهم أبو مبارك نفسه وزوجته الجديدة، ويسمونها الساحرة. لكن هذا لم يمنعها مشاركتهم قهوة المغرب، متحججة بأنها تريد أن يكون مبارك حول أبيه، يراه دوماً فلا يأخذه وينزعه من قلبها، وأحياناً تتحجج بأنها تحب قهوتهم، لأنهم لا يطيبونها بالهيل بل بالقرنفل.

أحيانا تسألها الجازي بفضول: "بما أنك تعشقينه بهذا الشدة، وزواجك برجل بعده لم يُنسِك إياه، فلماذا لم تراعيه وتلاطفيه؟". فتجيب متنهدةً: "الحظّ، حظّي طايح الله يلعنه. كلما طقيت في أرض وتد... من رداة الحظ قابلتني حصاة".

الجازي تصحبها منذ سنوات لسوق الحريم، حتى قبل أن تتغطى، وفي كل مرة تسأل أم مبارك بعد أن تنتهي من تلصصها على نخل طليقها: "هل العشق يفري القلوب؟"، فتنبس أم مبارك بأنين وتنهدات: يا ويل حالي.

ويظل الأمر مبهماً للجازي، كالملائكة الذين تراهم جدتها، وتتحدث معهم، ولكن ظلت هي عاجزة عن الالتقاء بهم ولو حتى في حلم.

***

الشمس منهكة تنزلق باتجاه الغرب ببطء، وهبت نسائم قادمة من الجنوب الشرقي، نسمات رقيقة، محملة بندى البحار البعيدة.

بدأت الجازي تعطش، وتشعر بالملل، تؤشر لأم مبارك أن تنزع خدها عن جذع الأثلة، قبل أن تلملم نسوة سوق الحريم أغراضهن ويغادرن، فلم تبالِ أم

مبارك بإلحاح الجازي، واستمرت ساهمة محدقة في نخيل زوجها كسحلية ضخمة تتشمس، والجازي أسفل على مقربة تنتظر.

وكان هناك تحت النخل! لا يشبه أي شي في المكان حوله، عباءته تصل لمنتصف ساقه، ويثبت شماغه بعقال سميك، لا يشبه ذلك المنتشر في الرياض. وجهُه أحمرُ محتقن، مع عبق وصهد يطبخ التمر في أعالي النخل، يحمل في يديه دفتراً صغيراً وقلماً، وقد مضى يتأمل نخلة ويدون تفاصيلها.. مردداً بصوت منخفض أنشودة النبي سليمان عن الأفاعي الطائرة، التي تحمي الأشجار العطرية في جزيرة العرب، وطيور الرخ التي تبني أعشاشها فيها من القرفة واللبان والتوابل.

حينما لمحته شهقت الجازي؛ فهو الطبيب الذي عالج جدّتَها منذ يومين، ودون أن تكترث لمن قد يلمحها أو يضبطها تحادث الرجال الغرباء، هرولت نحوه كأنها تريد أن تتفرس بوعل ذهبي بديع دخل الحقل بغتة. تسمر ماثيو قليلاً وتراجع خطوتين جافلاً، ربما لأنها كانت تجري باتجاهه متغطية تماماً، وحينما وصلته لا يفصلهما سوى أربعة أمتار، أخذ يحدق في الغطاء الأسود وقد عقد حاجبيه. كشفت غطاء وجهها وقلت له: ”أنا الجازي. لقد زرت منزلنا منذ يومين وعالجتَ جدتي“.

رغم اختلاف لهجتها عن عربية المنامة التي ألفها، لكنه تبين ماذا تقول، لم يهمه ما قالت، فقد تعلقت حدقتاه بوجهها؛ عينان شاسعتان تبرقان بالبهجة، وبشرتها اللامعة كثمرة المشمش، وشفتاها المكورتان كخطم غزالة. رفع حاجبيه دون أن يجيبها، وظل محدقاً فيها، وشمس بعد المغيب تقدح عينيه الزرق، كل هذا وفوق وجهه ابتسامة ساذجة تداري ارتباكه.

من تردد وبصوتها بعض من الشغب سألته: ”هل ترى بعينيك الزرقاوين مثلنا، أم ترى الدنيا زرقاء؟“.

ضيّق عينيه وقال: ”أرى الحقيقة تماماً: صبية فاتنة انشقت الأرض وأخرجتها“.

تهرباً من خجلها وإحراجها سألته: ”ما اسمك؟“.

أجاب وعيناه تطوفان بوجهها: "لي اسمان، هناك اسمي الإنكليزي واسمي العربي، أيهما تريدين؟".

فقالت له بخبث تريد أن تعرف عنه المزيد: "الاسم الذي تناديكَ به أمّك أو زوجتك".

فأجابها: "أمي تناديني ماثيو، وعندما أجد فتاةً جميلة تقبل بي زوجاً، ستقرر هي ما تناديني".

تمايل سعف النخيل عندما ابتسمت، فحدق بعذوبة مبسمها ونصاعة أسنانها، وقال وقد بدأت تصيبه تلك الخفة، التي تكتنف الرجال عادة عندما يكونون في حضرة الجميلات، وبعربية يحاول أن يختصرها فلا يقول إلا اليسير من الكلمات، حتى لا ينطقها بشكل عجيب فتسخر منه: "لكنني لا أراكِ زرقاءَ، فقط أراكِ جميلةً، كريحانة في كتب السندباد".

كانت هذه هي المرة الأولى التي سألته هل يرى العالم أزرق أم لا. المرة الثانية التي سألته فيها السؤال نفسه كانت بعد عامين، وهي بالكاد تتبيّنه بين ضباب الحمّى.

***

تحديداً في مثل هذه اللحظات المحتدمة، تصبح الأيام الاعتيادية حكايات.

عندما تخرج من نهر الأيام، وتصب في قوالب حكاية، ويمر عليها وقت طويل، نعرف أن ما أخرج الجازي من منزلها إلى سوق الحريم ليست صرة الحنّاء، أو زيت ثمر الهند، أو اختلاس النظر لطليق أم مبارك، بل أخرجها من المنزل قدراً أكثر اتساعاً وهيمنة، تدفعه قوة قسرية رسمت أيامه بدقة، وألقت حبائلها المغوية في طريقه، وهي تستمتع بأجواء العشق، والأشواق، واللواعج التي يقدحها صوت أم مبارك وهي تهيجن.

***

حينما عاد إلى العيادة، وجد وجه هاريسون متمعراً نوعاً ما. شعر ماثيو بقلق، وانكمش خشيةَ أن يكون وصلته بعض الأخبار حول حديثه مع الصبية الفاتنة،

سيكون هذا صعباً عليه للغاية، لكن كلاهما يعرف بأن اللغم الحساس لديهم هو التلصص على نسائهم، فهو الذي يأخذك إلى منطقة الدماء والسيوف.

د. هاريسون الذي أمضى الكثير من عمره ينشد الوصول إلى الرياض، وكسب ثقة شيوخها، ليس بحاجة إلى كاوبوي أخرق يفسد عليه كل شيء. لكن ماثيو تنفس الصعداء عندما علم أن الأمر كان مختلفاً تماماً، فقال له وهو مطرق قاطب الجبين: "أعلنت الولايات المتحدة قرار الدخول في الحرب، والغواصات الألمانية أخذت تغرق السفن التجارية الأميركية، وصلنا مع بريد اليوم أن آمال فرنسا وبريطانيا بالنصر تتحطم، وهناك ثورة كبيرة قد قامت في روسيا يقودها الجياع، فقد أنهكت الحرب روسيا واستنزفت مواردها، والبطون الفارغة نحت باللوم على القيصر نيقولا الثاني. بينما انسحبت روسيا وفر لألمانيا 400 ألف جندي، استطاعوا أن يقهروا الإنكليز والفرنسيين. لذا الإرسالية أشارت إلى احتمالية كبرى لتقليص النفقات لصالح الجبهة، ولا بد أن نعود إلى البحرين لنتفقد الأحوال هناك، وسنرى إذا ما زال باستطاعتنا تمويل المستشفى إلى الآن أم لا".

طلب منه د. هاريسون أن يجهز الحقائب ويتخفف من الأحمال، والاكتفاء بالضروري، لأن أي حمل زائد سيمثل عبئاً، ولن يجد له مكاناً فوق دوابهما. مُنحا جملان قويان إضافيان سيكونان فقط لحمل المعدات، أما الأدوية فقد نفدت.

إضافة إلى مكافأة يومية عن كل يوم أمضياه في الرياض، وعباءة رجالية فاخرة، مطرزة أطرافها بالخيط المذهب، وقارورة عطر هندي فاخرة، وسيف هدية من السلطان.

ولأن الأشياء تزدحم عادة في الأيام الأخيرة قبل السفر، فوجئ بطلق بن عيسى يطرق باب غرفتهما، مستفسراً عن استعداداتهما وحاجتهما في رحلة العود، فما كان من ماثيو إلا أن استفسر منه عن الشيخ الهذلول، صاحب العلة والمعلول، وإمكانية اللقاء به؟ فتح طلق بن عيسى فمه يحاول التذكر، قبل أن يعقد حاجبيه ساخراً، ويقول له بأنه غادر للحج!

***

كتب ماثيو إيدن في يومياته ليلة رحيلهم:

ورغم الدماثة والورع اللذين يتبديان من خلف نظارات د. هاريسون السميكة، ويديه الرشيقتين الماهرتين نتيجة التدريب الصارم الذي تلقاه من جامعة جونز هابكنز، ورغم نيله براءة اختراع خيوط من مادة حيوية من مصران الماعز، وإجلاله لصنيع الرب في الجسد البشري أياً كانت ديانته، فهو بالنسبة إليّ جندي صليبي مستتر تهذباً وتلطفاً، استبدل بخوذته الحديدية بسمة الطبيب الحكيم. هؤلاء أصحاب اليقينيات المطلقة يخيفونني، أشعر أنهم يفرضون للخلاص درباً واحداً لا بد أن تعبره جميع البشرية.

رغم الفوضى، لم يجد هاريسون ثغرة حتى لو صغيرة بحجم صيوان أذن، ليهمس فيها كلمة الرب، جميعهم صحراويون عتاة، في علاقة متوائمة منسوجة بالولاء، والكثير من التقدير لإله واحد أحد... يشبههم.

بالنسبة إلي بدأت أردد مقولة غوتة: ”الأنوثة الأبدية تجرنا وراءها“. ما زال وجه الصبية يسيطر على عقلي، لمحت الهدهد يبدو بعيداً على كثب بين النخيل، وتعمقت بحماس لعلي أرى عرش سليمان.

ولكن يبدو أن الهدهد استدرجني إلى ملكة، ناعمة مصقولة، شامخة العنق، والمسافة القصيرة بين شفتها العليا المقلوبة وأنفها الدقيق، كالغزلان الخجولة المذعورة، التي كانت تتقافز حولنا في الطريق بين الهفوف والرياض... ماذا حدث لي؟ هل طول البعد عن النساء يخلق هذه الهواجس المحمومة في رأسي؟

ماثيو
الرياض 29 يونيو 1918

الفصل الرابع

عمّة تقطن الرف الأعلى

في مستشفى هاربر فيو في مدينة سياتل، ولد فواز آل مشرق عام 2000، جلبته الممرضة السمراء وعلى وجهها ابتسامة ودودة، تدفعه بسريره الزجاجي، لتناوله عزيزة الواهنة، وتأمرها بنبرة أمومية أن ترضعه. قالت الممرضة مزهوة: ”مرحباً بجيل الألفية“.

وكعادة عبد القادر آل مشرق، لا بد أن ينشر صحائفه السابقة في حضرة أي أميركي، ويوارب الباب كي يطلوا على تاريخه الطويل معهم، فقال بلكنة أميركية حاول أن يجعلها تقترب من لهجة المثلث الشمال شرقي المثقف، ولكنها بدت ثقيلة ”آآآآ آآآآآ“ وتكرار كلمتَي ”You know“.

ولكنه استطاع في النهاية أن يقول للممرضة: ”لن يكونوا أكثر حظاً منا، نحن جيل الستينيات التي رصفت لنا الدنيا بلباقة، بعدما تعافى العالم من حربين عالميتين (Baby boomers)“.

وما لبث أن ذهب يستكمل أوراقه، ويسجل اسم فواز كمولود حاز الجنسيةَ لولادته فوق أرضٍ أميركية. عندها شكرت الله أبلا عزيزة، بأنه لم يأخذ في غناء أغنية ستيفي وندر التي تحتوي على جميع الأعياد الأميركية.

I just called to say I love you

No New Year’s Day to celebrate

No chocolate covered candy hearts to give away

No first of spring

No song to sing

In fact here’s just another ordinary day

No April rain

No flowers bloom

No wedding Saturday within the month of June

But what it is, is something true

Made up of these three words that I must say to you

I just called to say I love you

I just called to say how much I care

I just called to say I love you

And I mean it from the bottom of my heart

No summer’s high

No warm July

No harvest moon to light one tender August night

No autumn breeze

No falling leaves

Not even time for birds to fly to southern skies

No Libra sun

No Halloween

No giving thanks to all the Christmas joy you bring

But what it is, though old so new

To fill your heart like no three words could ever do

I just called to say I love you

ولكن حينها ما كان يشغل مزاجه، هي أربعة أيام فقط تفصل تاريخ ميلاد فواز عن 4 يوليو، يوم الاستقلال الأميركي. انتهى من تعبئة الأوراق، وأرسلها لمكتب الهجرة في ولاية واشنطن، وسرعان ما أصبح فواز أميركيا سرياً، واندرج ضمن 200 ألف سعودي صدف أن ولدوا هناك، ويمتلكون جواز سفر أميركيّاً في أدراجهم الداخلية، فهم لا يرغبون في دفع ضرائب لا يستفيدون من مردوداتها.

لذا عندما قدّم فواز بعد 18 عاماً أوراقه كطالب إخراج سينمائي في أكاديمية نيويورك، فضل أن يقدمها بهويته السعودية.

***

ظلت فكرة التحاقه بأكاديمية السينما، فكرة طارئة عجيبة في العائلة، أخوه فارس رفع حاجبيه وقال هازئاً: "ما معنى مُخرج؟ لأنك سجلت كم لعبة ربحتها في لعبة كول فور ديوتي، وربحت منها أعلى عدد مشاهدات، صدقت نفسك تصير مخرج؟".

بينما أمه المعلمة عزيزة التي تدجنت وظيفياً، بعد أن أمضت في وظيفتها خمسة عشر عاماً مستقراً، بفائض مادي يجعلها تتبضع بشراهة في إجازاتهم الصيفية، دون المرور بمحفظة زوجها، كانت تود أن تثنيه عن هذا الدرب الغامض بأي سبيل. تود له الدرب الآمن الحنون للوظيفة الحكومية، فحينما

تذهب إلى عائلة لتخطب لفواز فتاة جميلة ذكية، ماذا ستخبرهم عن مهنته؟ ما مستقبله الوظيفي؟ وهل له امتيازات؟ هل سيتحصل على راتب تقاعد؟

فورة فواز وإصراره والتحدي لدراسة الإخراج عجيبة غريبة بالنسبة إليها، وهي في هذا توارب إحساساً عميقاً بالذنب، يخبرها بأنها هي من مررت له لوثة هذا الوله بالشاشة، أو ربما هي تظن ذلك، ولكنها لا تعلم إن كان في جينات آل مشرق شيء كامن يوصوص، ويدفعهم ليصنعوا من حياتهم حكاية أو دراما أو فيلماً.

***

الليالي البيضاء الطويلة في إجازة صيف رياض 1985، وعبق الريحان في الحدائق المنزلية، وتيجان زهر ملكة الليل، تنفح الممرات عطرها.

بعد سطوة نهار صيفي شرس في يوليو، تلوذ المدينة بلطف المساء، الأزقة لا تهدأ أبواقها، هدير المكيفات، رائحة شواء المطاعم التي تظل تجهز وجبات مشاوٍ ومطبّق إلى ما بعد منتصف الليل، توزعها على ساهري منازل حي البديعة غرب الرياض، حيث العوائل الرصينة، التي لم تشارك الرياض مغامراتها المتمردة نحو الشمال، وفي البديعة الوقورة، الليل يغدو مغامرة كبرى، فبين أستاره تستيقظ مخلوقات الظلام اللعوب، وعبث الصبا، وتلمس أقفال بيت الغول.

مكالمة هامسة في ظلمة المجالس الأمامية، مقابلة خاطفة من البوابة الخلفية لتمرير قبلة وشريط كاسيت، وما تبقى من الليل يتحول لشاشات تعرض آخر الأفلام.

عزيزة تستعد لهذا منذ العصر، فيزدحم مثلج الدور العلوي بقوارير العصير، التي تظل تمزمزها مثلجة طوال الليل أمام الفيلم، أول الليل للفيلم وقرب الفجر للسباحة، تقفز للمسبح عندما يخلو المكان لها بعيداً من الخدم والذكور، تقفز لانتعاش ماء آخر الليل المشبع برائحة الكلور وياسمين الحديقة، بصحبة جميع أبطال الفيلم، تحادثهم، تواسيهم، وأحياناً توبخ سذاجتهم.

وتظل في المسبح إلى أن يستيقظ جدها عضو لجنة الفتوى السابق، ليتلو قرآن الفجر، والذي ما زال بدخول رمضان، يصل لمجلسه كيلو بخور أزرق نادر، وعباءة ثمينة كهدية، لكن البيوتات الشاسعة التي لها بوابات كثيرة، لا تسيطر على ماذا يدخل أو من يخرج، فالبوابة الكبرى يلج منها المريدون والمستفتون، بينما جهاز فيديو ماركة سوني يتسلل من البوابات الخلفية، وأربعة أشرطة بحجم الكتاب. يتوزع الفيلم الواحد على أربعة منها كفيلم كاري، فيلم أحلام هند وكاميليا، وكميات هائلة من أفلام الأسود والأبيض، التي يؤجرها أسامة المصري، الذي يعمل لدى محل تأجير أشرطة الفيديو بنصف السعر.

تعيد استئجار فيلم "لا أنام" لفاتن حمامة مرة كل ستة أشهر... ولم تكن تنام. كانت تفكر في الجرأة التي جعلت فاتن حمامة تذهب لمنزل عماد حمدي الشاب الأعزب في فيلم "لا أنام". كان بقية أخواتها يتناثرن حولها نائمات إلا هي، يظل ذلك العالم يستدرجها وتغطس فيه.

لاحقاً عندما انتقلت إلى بيت زوجها عبد القادر آل مشرق، بات جهاز الفيديو هو قمر الليالي الطويلة، تدون أسماء الأفلام المرشحة لها من صديقاتها، أو تلك التي تستطيع تمريرها للرياض بعد سفرة للخارج. جاملَها عبد القادر آل مشرق في السنين الأولى، وكان يشاهد الأفلام ليبقى جوارها، ويمرر يده على شعرها ورقبتها، لكن حينما ينتهي الفيلم، مخه المركب من جداول وأرقام، عاجز عن التسلل إلى غرفة المخمل السوداء، التي تشترط عليك قبل أن تلجها بأنها ستكذب! وتعدها كمشاهد أن تصدق أكاذيبها، شرط أن تناولك في النهاية مغاليق غرفاتك السرية أنت، وتنبش أحزانك وتبلسمها، وتربت عليها، وتشير لك باتجاه درب جديدة، تنتظرك آخرها نبتة الأمل المضيئة.

تقول له عزيزة ساخرةً:

"لا تمتلك المسام (شفاه الأرض) عندما ترتشف المطر، والتي خص الله بها متذوقي الفن دون غيرهم، تلك القرنية الشفافة التي تعالج رموز الفيلم وتفك شيفرةَ رسائله الخفية".

لكن يظل عبد القادر يصمهم بالسخف، ويقلد أصواتهم ساخراً، ويبدي مهارته في تحديد لهجاتهم وإرجاع كل منهم لولايته، ويخبرها بحجم الصناعة التي تقوم عليها الأفلام الأميركية وهوليود تحديداً، وثالوث الجنس، والمخدرات، والسياسة، لصناعة الجماهيرية، حتى تتمنى عزيزة لو لم تهيئ له مقعداً جوارها، ولم تدعُه لمشاركتها، فهو يظن بأنها دعوة مضمرة للفراش بعد نهاية الفيلم، فينتفخ زهواً، بينما تتمنى هي لو أنه نام باكراً وفق ساعته الدقيقة المنضبطة كساعة الديك.

لكن بعدما أصبح يغفو في الربع ساعة الأولى من الفيلم ويبدأ في الشخير، وبعدما ضاقت ذرعاً بتحليلاته التي تشبه دفتر الدرجات المدرسية، أوكلت له مهمة أخذ الأولاد لأسِرَّتهم لتُبقي عينيها معلقتين بالشاشة، ولكن هذه المرة برفقة ابنها فواز، يبقى ساهراً معها على الفيلم حتى آخر لقطة، وعيناهما مسمرتان على الشاشة تبرقان في بنفسج الفجر، وفي يده زجاجةُ عصير بشفاط ثلَّجها من المغرب.

كانت ترجو أن ينام، خاصة في الأفلام الرومانسية، وبعض اللقطات الحميمة التي تريد أن تنغمر برومانسيتها، ولكنها تكتشف بأنها يجب أن تصبح ماما، وتطلب منه أن يغمض عينيه حتى لا يشاهد المقطع.

لاحقاً عندما فتر اهتمامها بالأفلام قليلاً، ودفعتها رويداً رويداً غرفةُ المعلمات إلى مضمار سباق آخر، تتسابق فيه المعلمات على الاستئثار بتقدير الموجهات، والأزواج، وأمهات الأزواج.

أصبحت عزيزة عندما تشاهد الأفلام تصاب بالنعاس، ولا تستطيع أن تكمل، وتذكر بأنها تحتاج إلى الاستيقاظ باكراً، وتسلم نفسها للمهام، تطوح بها داخل البيت وخارجه، وأخرى تقذف بها لنهاية الأسبوع، تزور أمها وأباها، تلبي دعوات خالاتها وعماتها، والتحجج بمراجعة الطبيب ليشد التقويم فوق أسنان ابنتها، ومن ثم تدخل خلسة لعيادة الطبيب الذي يجاوره، لتخاتل الزمن في إبرة بوتوكس بين حاجبيها.

كان وقتها فواز قد استلم المشعل منها، وابتدأ في الركض، وانغمر ولهاً بالأفلام، وبات هو الذي يخبرها بالأسماء الجديدة: “A Catch Me if You Can”،

Beautiful Mind“، ويحضر أفلام الألفية لها على أقراص ممغنطة منسوخة، وعندما كان يتوقف القرص الممغنط، يعرف بأنه عندما يغسله بالصابون سيعود ويعمل.

فواز الأثير، لا يغيب عن مداراتها دوماً، حينما تلتفت تجده واقفاً في مكان ما حولها، يستطيع ملاحقة تعابير عينيها، يعرف تلك الانفراجات القليلة في يومها المزدحم، ليثرثر معها ويدللها، وأيضاً يطلب مشترياته.

يجسر على الدخول إلى مجالس صديقاتها، حتى من المعلمات المحافظات، اللواتي حين يزرنها يبدأ عبد القادر بالسخرية منها قائلاً: ”هل من الزائرات اليوم يا أبلا العزيزة؟ هل هنّ من المورمونز أم الأيمش؟“، المعلمات اللواتي يرين أن سن البلوغ للولد هو عندما تكتمل ذاكرته، وتصبح قادرة لاحقاً على استدعاء وجوههن واشتهائها، وبعض المتسامحات منهن يرجئن غطاءهن إذا اخشوشنت الحنجرة. لكن فواز لم يكن يبالي بمواقيتهن، فعندما يزرن أمه، يرتدي ملابس آخر عيد مر به، ويبل شعره ويمشطه، ويرفع ذقنه كأنه في صف عسكري، ويدخل للصالون يسلم ويحظى بالقبلات والأحضان، حتى بعد أن اخشوشن صوته وأعشب شاربه.

كانت المعلمة عزيزة تعلم بأنها يجب أن تفطمه عنها، وتوسع الدائرة التي يتحرك بها بعيداً، وتجز رويداً وببطء الحبل السري، وكأنها تقشر عن قلبها أغشيته.

لا بد أن يذهب هناك إلى مضمار الصهيل لتخشوشن كفاه، لتكبر عقد أصابعه، وليصافح الناس بقبضة شديدة، يلوِّح بها في وجه من يهدد بالعراك، ويأكل بنهم لقمات كبيرة متلاحقة، ويغلق الباب بعنف، ويعود للمنزل بثياب متسخة تفوح برائحة نطاح الأكباش، ويتلفظ ببعض الكلمات النابية، فتوبخه أو تتظاهر بأنها لم تسمعها.

هذا هو جزء من قوانين الأمومة، تماماً يوازي تعقيمها زجاجات الرضاعة، وحرصها على جدول تطعيماته عندما كان رضيعاً.

لكن ماذا ستخبر المعلمة عزيزة أخواتها وصديقاتها في اجتماع نهاية الأسبوع؟ ستقول لهنّ إن فواز رفض أن يصبح مدير بنك، أو طبيباً، أو مهندساً،

وسيدرس الإخراج السينمائي؟ سيجلس على مقعد من قماش يطوى ويفتح، ويحمل في يده مكبر صوت ويصيح وهو غاضب: أكشن؟ حتماً عندها سيطوقنها بالأسئلة والاقتراحات، وخيارات من نوع فليتحصل على الشهادة أولاً ومن ثم يتسلى بدراسة الأفلام، أو أخبريه أن صناعة الأفلام لا تناسب بلادنا.

تصمت وتتمتم: لعلها طفرة المراهقة، ومن هنا حتى آخر الصيف سيغير رأيه. أسرَّت هذا الموضوع في داخلها، وهي لا تعرف ماذا سيجلب المستقبل.

ولكن كما هي العادة، قوالب الأمهات اللواتي تنقش وجه الكعك لا تجدي عندما يكون الفرن حامياً، وفواز سيذهب آخر شهر أغسطس، ليبدأ كفريشمن في أكاديمية السينما بنيويورك.

وعزيزة كانت كجرح مفتوح، متورمة ودامية، فهو سيغادرها لأول مرة.

العباءة والشادور

فواز كان يعلم أن التحاقه بمعهد السينما لن يكون نزهة، وأن شغفه العارم بالأفلام، ليس إلا مدخلاً لمتاهة يقصدها طلاب من آسيا، وأميركا اللاتينية، وأوروبا، جميعهم يحاول أن يختطف سر النار من مجمع الآلهة.

ومن هناك كان لقاؤه الأول مع المخرج فريدريك !

لم يكن فواز وقتها مصغياً تماما لما يقوله د. فريدريك الطاووس في صفه، والذي لا يتوقف عن إرسال رسائل مضمرة، أن تدريسه لهم هو امتياز تاريخي لا تناله إلا النخب.

الجملة الأولى التي قالها لهما في الصف: ”لا تظنوا أنني الساحر الذي سيدخلكم في قبعته، وستخرجون منها وقد أصبحتم سبيلبرغ، هي فقط علامات وومضات، لكن الشيء الوحيد الذي تفعلونه لتعلّم صناعة الأفلام، هو الشروع في القيام بها، تماماً كالكتابة، وعبر التجربة والخطأ، والتصميم على الإتقان، سيتحدد مستقبلكم، وسيتضح إن كان هذا المعهد هو المكان المناسب، وخيار ملائم لكم“.

وتوالت متطلبات وواجبات فريدريك للطلبة، كأنه يقوم بعملية نخل شرسة، كي ينسحب من يود أن يغادر بيسر وسهولة من بداية العام، دون أن يهدر وقته على تدريبه.

فكانت متطلباته:

• اختيار فيلم وكتابة الثلاثة أسطر المكثفة حول الفيلم، التي توضع عادة في مواقع الأفلام.

• اختيار ثلاثة مشاهد متتالية من الفيلم، وإعادة كتابة السيناريو، بشكل يجعل الفيلم يظهر بصورة أفضل بحسب رأيه.

• التوقف عند الدقيقة 11:11 في الفيلم، ودخول شخصية مفاجئة بشكل ينسجم مع توالي الأحداث.

اختار فواز في المرة الأولى فيلم "تيتانك"، أراد أن يصنع حواراً بين بيلي زان، وليناردو دي كابريو، فهو يشعر أن الخطيب الذي يمثل دوره مظلومٌ نوعاً ما، وأحداث الفيلم لم تجعله يفقد خطيبته فقط، بل جعلته شريراً.

لكن ما إن سمع د. فريدريك اسم الفيلم حتى كوّر شفتيه وأنفه علامة القرف، وقال: "ارحمني؛ هذا الفيلم متداول ومستهلك بشكل مستفز مثل ماكدونالدز، وكنتاكي فرايد تشيكن".

أول رسالة تعرَّف عليها فواز في عامه الأول، أن هناك طبقة أنتلجنسيا متعجرفة في صناعة الأفلام، تنظر بشكّ كبير إلى الأفلام التي تحقّق شهرة عالمية، ومردودات شباك هائلة، بعدما كان يظن لفترة طويلة، أن صانعي الأفلام الأميركية، هم محض شركة كبرى منغمرة في صناعة أفلام تبهر الجماهير.

أردف فريدريك: "اذهب وتحرّك يا فتى، وابحث بصورة أكثر مسؤولية".

ودّ فواز وقتها أن يتفلّت عليه، ويناوله بقبضته في حنكه، لكنه مضى خارجاً دون أن يلتفت إليه، واعداً نفسه أنه سيقوم بهذا الأمر يوماً ما في المستقبل.

فكّر وقتها في أن يسأل لؤي يوسف، المتباهي بشعره المرفوع ذيل حصان، وثيابه، وطلاقته الأميركية، عن قائمة أفلام بقيمة فنية كما يسميها فريدريك،

لكن لؤي النزق الذي يبدو متبرّماً من كل ما هو قادم من الشرق المتعثر الحزين، لا يعتقد بأنه سيكون معاوناً مناسباً.

كما أن قائمة الأفلام في موقع "روتن توميتوز" على الغالب، تعتمد على ذوق الجماهير، وسيثير الأمر نقمة فريدريك من جديد.

ممرات المعهد الطويلة، الممتلئة بمارة متحفظين بخطوات واسعة غير مبالين، يشبهون الطلبة في يومهم المدرسي الأول، عندما دخل وحيداً مع قلبه المرتجف، يخشى المعلمات وبوابات المدارس الكبيرة، وأحذية الأولاد التي من الممكن أن تدوسه، وماما وبابا يرقبانه في السيارة، وأبلا عزيزة تخبره طوال الطريق، أنه أصبح رجلاً سيقتحم المدرسة كبطل، لا يبكي كأخته الصغيرة، التي كانت تقبع في حجرها، عمرها آنذاك أسبوعان.

لم يبقَ أمامه إلا أبلا عزيزة، عاشقة الأفلام الأصيلة، حتماً ستعطيه قائمة أفلام تساعد على ذرف الدموع، وهي قائمة ستجعل من فريدريك يبدأ باللطم.

لكنه عندما عاد إلى غرفته بعث لها رسالة واتساب:

– ماما كيفك اشتقت لك؟ تعرفين أسماء أفلام مسؤولة؟

– هههههه، ماذا تقصد بمسؤولة؟

– يعني لها هدف ومعنى عميق؟

– مممممم... هههههه.... هي أفلام يا ماما وليست حلقة تحفيظ قرآن!

– أعرف ماما، لكن دكتورنا علة.

– الوقت لدينا متأخر بالرياض الآن، سأنام، وحتماً سيظهر الفيلم بأحلامي، وستجده بجوالك غداً صباحاً.

وفي الصباح وجد رسالة من أبلا عزيزة، قالت له: "جرب فيلم 'فلورنس فوستر جنكس'، شاهدته من يومين، وجدته رائعاً... جرّب لعل وعسى".

لحظات أمضاها فواز يجوجل حول الفيلم، قبل أن يستحم وينطلق إلى المعهد. انتظر فريدريك عند مكتبه، فلما رآه قادماً، هتف قبل أن يبادره فريدريك بكلمة ساخرة، أو تعليق يثير حنقه: "فلورنس فوستر جنكس".

فأجابه فريدريك وهو يقترب، ويبدو مزاجه الصباحي رائقاً: "هل هي حبيبتك الجديدة؟"، ثم أردف وهو يخرج مفاتيح مكتبه من حقيبته: "انتبه من أفلام

ميريل ستريب، فهي وحش يلتهم الممثلين، والمشهد، والمخرج نفسه.... لكن جرّب... أعجبني حماسك يا فتى“.

فواز شكر الله خلسة أنه قبل بالفيلم، ولم يطلب منه أن يعود إلى كلاسيكيات الأسود والأبيض، أو ”ذهب مع الريح“ الممل، أو ”الطيور“ لهيتشكوك، الذي يطريه فريدريك دوماً في محاضراته، بينما يجده فواز فيلماً غبياً، لم يحرك شعرة في رأسه.

أحبّ الفيلم وبساطته، والحوار المُطَعَّم باللكنة الإنكليزية، وشخصية ميريل ستريب ذكرته بفيلم ”مسز داوتفير“ لروبن ويليمز، حيث السيدة الهائلة التي تمتلك قلب عصفور، وشخصية مزدوجة ما بين الواجهة وحقيقتها متشابهتان تماماً. تمتم: ”سأكتب عنهما بحماس وحرص“.

***

أول كلمة قالها له فريدريك بعد اطلاعه على الحوار:

– ما هذا الهراء فواز؟ هل نحن سكارى على البار لنتبادل هذا الحوار المملّ الطويل؟ الحوارات الطويلة في السينما، هي أبرز مؤشرات فشل تحويل السرد إلى صورة ولقطات. تأكد حتى لو كان المتحدثان شكسبير ودانتي، فليس للمشاهد متسع من الوقت لاستماع ثرثرتهما.

ثم نثر أوراقه على الطاولة، وأشار له خذها، وأعد كتابتها من جديد، أو لن تنجح، وسأجدك في الصف الأمامي الربيع القادم كرة أخرى.

خرج فواز مغاضباً، ولكنه لم يذهب إلى المنزل لتتآكله نقمته على فريدريك، بل قصد مساعد عسيري، ومرا بالسوبر ماركت الصيني تحت منزله، وابتاعا أغراضاً، وطبخا كبسة تخفف عنهما برودة نيويورك. كان فواز ومساعد يجتمعان في نهاية الأسبوع بثلاثة أصدقاء آخرين، يتوزعون أخبار العالم، القوانين، والجامعات، وطرق التواصل مع الملحقية. يخرجون معاً لمشاهدة فيلم أو لعب البولينغ، ويتعشون في مطعم، أو يبتاعون وجبة سعودية شهية تعدها طالبة دكتوراه سعودية، تستثمر في بيع الوجبات الوطنية بأسعار مرتفعة

على الطلبة، كبسة الدجاج بـ200 دولار، إلا أن هذا لم يمنع الطلبة من الاصطفاف للفوز بطبق.

مائدة يرصفون فوقها أطباق وطنهم، هي أحد الدروع التي يرفعونها في وجه الغربة، كأنهم أعضاء جماعة سرية يتهامسون بأسرارهم، يشعرون بالانتقام من محيط يقابلهم بالبرود والتشكيك، والوجوه التي تتمعر حينما يستمعون إلى اللكنة الثقيلة في ألسنتهم.

***

احتاج الأمر من فواز إلى عدد من المحاولات في فيلم ”فلورنس فوستر جنكس“ قبل أن يمط فريدريك شفتيه، ويكتب: ”نايس تريال“ على طرف الورقة، اعتبرها فواز بمقاييس هذا المخرج المتعجرف بأنها بمثابة A+.

ولكن التحدي الآخر كان عندما طلب من فواز أن يختار فيلماً، وينزع عنه الرداء الأميركي، ويكتب له سيناريو من ثقافة الطالب. عندما سأله مستصعباً الأمر، كيف لي أن أقوم بهذا؟ أجابه:

”هناك فيلم للياباني أكيرا كوروساوا، أخرجه عام 1957، بشكل بديع، مستلهماً مسرحية ’ماكبث‘ لشكسبير، شاهده، سيساعدك في مشروعك“.

وعاد فواز يردد بقلق: ”هناك اختلاف ثقافي تام بين المكانين“.

أجاب فريدريك بسخرية: ”انزع البيكيني عن الفيلم، واجعله يرتدي الشادور“.

فنبس فواز باستفزاز غاضب: ”الشادور خاص بالإيرانيين، ولا علاقة للعرب به“.

فالتفت إليه فريدريك بنظرة ساخرة خاطفة ونبس: ”Same species“.

وعاد يتأمل الحديقة من نافذة مكتبة كأنه ينتظر أحداً.

وحينما لم يحر جواباً واضحاً أشاح عنه، وظهرت رقبته المترهلة التي تشبه رقبة الديك الرومي، خرج فواز وأغلق الباب بعنف، وهو يعلم أنه لن يبالي، فعادة حين يعود له فواز يكون قد نسي الأحداث، بل نسي فواز شخصياً، فيحتاج للحديث معه قليلاً، ليذكره بأنه طالب جونير في أكاديمية نيويورك للسينما.

لماذا يرمي دوماً بين يديّ مأزقاً ويستمتع باستفزازي، أي فيلم سأعرِّبه؟ الأمر يبدو كاريكاتيرياً، ويحتاج إلى سهرة مع الشباب لأستمع إلى آرائهم؟ لا سيما أنه يطلب منا مشاهدة عشرة أفلام، ومن ثم نكتب سطراً تعريفياً لها.

***

اشتاق إلى بيتهم في الرياض، الخالي من الأنياب والمفاجآت، وتذكر حين طلبه أبوه إلى مكتبه قبل سفره بخمس ساعات، مكتب عبد القادر عندما انتقلوا إلى بيت العمر، ومسمى بيت العمر لدى تكنوقراط متخرجي أميركا، ينعكس على علاقتهم مع كل الأشياء، فيتسوقون الثمين المتين، تصميم مكاتب وردة الفالحية، مع طقم كنب بأزرار الكابيتونيه، والجلد الطبيعي الثمين، ورائحة سيجار يرفع به عبد القادر مزاجه بعد كل صفقة مربحة، السيجار يعبق في المكتب برائحة فاغمة عميقة، كانت تثير الرعب في قلب فواز عند استدعائه للمكتب.

رغم تعدد الأمور التي يجب أن يقوم بها فواز، التي يتركها عادة للحظات الأخيرة، إلا أن يديه تعرقتا وأحس بالقلق، لا سيما أنه طلب منه أن يغلق الباب بعد الدخول، وهو ما يرافق عادة الأحداث الجليلة الكبرى، والعقوبات القاسية، كاكتشافه أنه يختلس سجائر ويدخن، أو اكتشافه أنه ينام خارج المنزل أحياناً، بصحبة رفاقه في مخيمات الثمامة.

المكتب عموماً تتخذ فيه القرارات المنزلية المحورية، فيجعل عبد القادر بينه وبين أبنائه، مكتب الماهوجني المزخرف الثقيل، ويبدأ في تمرير شرائعه وعقابه بهيبة وجلال.

لكن ذلك اليوم الذي نادى فيه فواز للمكتب، كان فواز ناقماً في أعماقه، لأنه ليس الوقت المناسب لعبد القادر أن يمارس وصاياه العشر، كما كان وأخوته يسمونها ساخرين، بينما هو لم يزل مبعثراً يجمع ثيابه، واحتياجاته، وأوراقه في اللحظات الأخيرة كعادته، ويبحث عن حذاء مريح وفي الوقت نفسه، غير مثير للشكوك، فالجوازات الأميركية بعد سبتمبر 11 تسرف في تفتيش القادمين

من العربية السعودية، وبمصادفة عجيبة كل مرة، يقع عليهم الاختيار، ويُخْرَجون من الصف لتفتيش دقيق في الغرفات الداخلية.

يركض بين غرفته وغرفة الكوي والغسيل لتجميع ثيابه، كل هذا محاولاً تجنب عينَي أبلا عزيزة المغرورقتين تلاحقانه، وفي صدرها حشرجة بكاء. أم لم تجرب أن تستيقظ في صباح لا تترقب فيه خطوات ابنها في المنزل لأول مرة.

عبد القادر آل مشرق كان يجلس على حافة المقعد الجلدي، وقد مد مرفقيه على ركبتيه، كأنه يتأهب لقفزة شاهقة، تأمله فواز باستطلاع قلق، لكن أكتشف إن وجه والده تلك الليلة، يحمل وجه الإجازات!

الوجه الحنون المنصت، الذي لا يلقي الأوامر ويفك عقدة حاجبيه، وعلى وجهه ابتسامة فخورة بعائلته، يشوبها بعض القلق حول ترتيباتهم في الفنادق والطائرات.

خاطب فواز بالإنكليزية بصوته القرار العميق، لكن بنبرة مستخففة، يفهم عندها فواز بأنه يمرر له رسالته الدائمة، بأن أميركا ستظل دوماً حديقته الخاصة التي سبقهم لاكتشافها.

لهجته الأميركية أصبحت ثقيلة مهلهلة، لكنه يحرص على دور العليم، الذي يسيطر على الأمور والتحديات. قال وهو يلوح بكتيب إنكليزي على مكتبه: ”هذا كتاب جلبته من أميركا حينما كنت أدرس هناك، وإن وجدت نسخة إضافية منه اجلبها لي“.

رغم قلق فواز وتوجسه من استدعاء أبيه، لكنه لحظتها شعر ببعض الغضب، هل هذا وقته؟ لماذا لم يعطني إياه بالأمس، ولكنه أحد أمزجة أب، لن يرى أبناءه قد شبوا شباباً أبداً، ولا يبالي به، بل أردف بلهجة توكيدية: ”انظر إلى اسم هذا الكتاب Dawn & Dunes“.

قال فواز بسرعة وارتباك: ”لماذا لم تطلبه من أمازون؟“.

قال عبد القادر بنبرة شبه توبيخية وقد عقد حاجبيه: ”هو نافد، ولو القضية أمازون ما انتظرتك، ولكن ربما ستجده في إحدى مكتبات نيويورك العامة العتيقة. هذا كتاب قديم لمستشرق أميركي، حضر للرياض أيام الوباء الذي أصاب المنطقة عام 1918، وأمضى بيننا أسابيعَ“. وبعد تردد، صامتاً، أسند

ظهره على المقعد، وهمس: "تزوج بإحدى بنات آل مشرق، تحديداً إحدى عماتنا، وسافر بها إلى البحرين، ويقال إنها أنجبت منه ولداً، لكن اختفى أثرهما".

القصة رغم توقيتها العجيب، جعلت عينَي فهد تستديران على غرابتها، لربما سمع نثارها سابقاً، لكنها ظلت غامضة في وعيه.

صور فواز الغلاف بالجوال، وقال له ليغلق الموضوع: "أبشر". لم يستفسر إطلاقاً وقتها عن الكتاب، ولم يعلم لحظتها بأن تلك الصورة التي التقطها ستصنع تفاصيل حياته في السنوات الخمس اللاحقة، وظل يتململ في مقعده ليغادر.

وفي نيويورك لم يحرص على البحث عن الكتاب، تحديداً نسيه، فقد تخطفته شوارع المدينة، ولم يذكره إلى أن قدح في رأسه فجأة، عندما بدأ يبحث عن موضوع لمشروع فيلمه.

وجميع ما سبق كان يدفع بفواز لذلك الطريق الذي جعلت فواز يختار حكاية عمته كمشروع تخرج، في المادة التي يدرسها مع فريدريك.

الفصل الخامس

البحرين 1919

أشرقت شمس عام 1337هـ 1919م على أهل نجد، وقد أقضت رؤيا مضجعَ أحد أبنائها! ففزع إلى شيخ يعبر له هذه الرؤيا.

دخل على المعبر وقال له: "يا شيخ، رأيت أن جميع من في المقبرة قاموا من قبورهم يحملون أكفانهم معهم. فما تفسير هذه الرؤيا، فقد أشغلتني كثيراً؟".

أمسك الشيخ المعبر رأسه وقال: "لا إله إلا الله، هذه في وباء وبلاء، يموت فيه خلق كثير من الناس!".

***

كان صوت آن يرتجف وهي تقرأ صحيفة الوول ستريت جورنال: "في العديد من البلدان لم يتبقَّ شباب يمكنهم إدارة المحال التجارية، أو العمل في المزارع، أو التدريب للمهن والحرف المختلفة، أو الزواج لتكوين أسر، تأخذ مكان الملايين الذين فقدوا".

ورغم أنها نسخة قديمة مضى شهران على صدورها، لكن جلبت أخباراً بائسة عن الوطن، الولايات المتحدة كانت ضمن الدول التي فرضت شروطها في مؤتمر باريس، إلا إن تلك الأمسية كانت معتمة وغامقة بالنسبة إلى د. هاريسون والقس بيننج، أمضياها يتدارسان أنجع الطرق لإبقاء الوباء بعيداً من المستشفى، مع شح التمويل وكثرة الزوار والمرافقين، لا سيما أن مجمع الكنائس البروتستانتية في الولايات المتحدة، بدأ يراجع بجدية ودقة مصروفات الخدمات الطبية المرافقة للتبشير، مقارنة بنسبة المعمدين المحدودة في الخليج... إن لم تكن منقطعة.

فالظن كان يرجح في السابق، أن الفقر والمواجهة العزلاء أمام المرض من الممكن أن يهدما الإرادة الداخلية، ويصبح الأمر سهلاً على حاملي ترياق

المسيح، لكن هذا ما لم يحدث قطّ في هذه المنطقة من العالم.

د. هاريسون يفسر هذا بخوف وتحفظ المبشرين أنفسهم، خشية إزعاج سلاطين الخليج، بينما القس بيننج يرى وسط الجزيرة العربية مصدر الإسلام، يتحدثون لغة القرآن نفسها، ودعوتهم ليس بسهولة تبشير الوثنين في أفريقيا، أي كذهابك للفاتيكان للدعوة للهندوسية، ومن هنا تظهر صعوبة الأمر وعبثية الجهود.

ماثيو إيدن يغوص في مقعده ملتزماً الصمت، مستغرقاً بقراءة ترجمة فرنسية جميلة لكتاب **كليلة ودمنة**، وجدها في صندوق تاجر هندي عالق على المرفأ، بعد أن أوقفت القنصلية البريطانية في الخليج تردد السفن بسبب الوباء.

يود في أحيان كثيرة أن يتغابى، ويمرر سؤالاً حول الدستور الأميركي، الذي يكفل حرية الأديان. لكنه سرعان ما يتقهقر مفضلاً الصمت، محافظاً على فرصة ثمينة في المكوث فوق أرض يحادث أهلها، ويتدرب وإياهم على العربية، ويكمل التتبع الأنثروبولوجي بيسر وسهولة، تحت مظلة هذه البعثة التبشيرية.

ويضمر يقيناً أن التبشير هو محض احتلال سياسي، جندي يتنكر في مسوح القسيس، يحمل في قلبه يوتوبيا مدينة الرب الفاضلة، يجوب العالم بجيوشه، وسفنه، وقراصنته، وبيارقه.

***

كتب ماثيو إيدن في يومياته تلك الليلة:

> أربعة أعوام أمضيتها فوق هذه الجزيرة الصغيرة اللطيفة الوادعة، والمجتمع البسيط من صائدي اللؤلؤ.
>
> الآن إذا تحادث صديقان بلغة عامية، بت أعرف المجمل العام للحديث. فإذا أضفنا له تعابير الوجه ونبرة الصوت، بات باستطاعتي الجلوس في المجلس، والمشاركة ببعض التعليقات. الجميع هنا يبدي

رغبة فائقة في تعليمي المزيد من اللغة العربية، ويطلبون مني أن أحضر ورقة وقلماً لأدون فيها كل الكلمات التي تعلمتها في ذلك اليوم حتى لا أنساها.

أهل البحرين شغوفون بمعرفة ما يتعلق بأخبار المعاهدات القائمة في باريس، والسؤال عن تفاصيلها، والتي انهارت على إثرها 4 إمبراطوريات: الروسية، العثمانية، النمساوية، الألمانية، وتلاشت. وبهذا، وعبر أسئلتهم حول الحرب والحكومة وبريطانيا، كان التجار يميلون للحلفاء، أو تحديداً الجهة التي فيها الإنكليز، نظراً إلى انتشارهم وسيطرتهم على الطرق البحرية، أي فوضى من شأنها أن يختل بها مسار سفنهم التجارية، بينما الشيوخ والفقهاء، كانوا يأسفون لسقوط ألمانيا حليفة الدولة العثمانية، ويأملون أن ألمانيا ستعود وتنتصر في كرة أخرى.

في مارس هذا العام وبعد طول انقطاع، وصلت شحنات من المعقمات، والشاش، وأدوات الجراحة المصنوعة برؤوس ذهبية لا تصدأ. توقف الحرب جعل الدروب أكثر يسراً، ولكن بالتأكيد لم تتوقف مآسيها ومخلفاتها؛ مدن دمرت، وشعوب شردت، وأوبئة انتشرت في العالم، والإنفلونزا الإسبانية اكتسحت العالم. هل هي الطبيعة تنتقم من الإنسان، الذي أحدث كل هذا الدمار، وعبث بتوازن قوانينها؟

كل ليلة يقيم د. هاريسون قداساً وصلاة على أرواح ملايين القتلى، الذين ذهبوا في هذه الحرب في ساحات المعارك، ومن الجوع الأوبئة.

ماثيو إيدن
نوفمبر 1919

***

أول رسالة وصلت للنجدة والمساعدة في محاصرة الوباء، كانت من ميناء بندر عباس، لكن د. هاريسون لم يفكر فيها، فهو لا يريد أن يقوم بأي عمل

استفزازي للإنكليز، الذين ينتشرون هناك بكثرة. الثانية كانت من آل بوسعيد، والذين تقع مدنهم وقلاعهم وسفنهم على فوهة المدخل للخليج العربي. المفارقة أنها بعثت عبر سفينة للقراصنة، يبدو أنه في هذه الأوقات، وحدهم القراصنة يمتلكون جسارة الإبحار في هذه الأجواء القلقة المحتدمة، فاعتذر لهم د. هاريسون كعادته بلطف، فهو يحمل تقديراً كبيراً لآل بوسعيد، ولا يود أن يخسر صداقة أيام أمضاها بينهم، لكن الخليج ليس آمناً.

في النهاية وافق على دعوة السلطنة النجدية مرة أخرى، تحديداً من الرياض بعد أن وصلها الوباء، وعندما تستلم أقدار شديدة المراس دفة القيادة، يصبح من العسير تغيير الاتجاه.

تذاكروا وقتها حكاية الملكة التي ترسل جيوشها لتتصدى للغزاة، فمن أين خاتلها الوباء وغار عميقاً، وصولاً للرياض التي تنام باكراً، وتستيقظ لتكتشف أن نجوم الصبح قد تركت لمساتها المنداة على حفاف السواقي، والجدران الطينية، وإناء الشرب... كأم تلطف جبين ابنها في يوم قائظ.

وعلى شاطئ ميناء العقيق 18 ديسمبر 1919، بدت الأمور مختلفة هذه المرة، فقد خفت النشاط، وقل عدد السفن الراسية، لكن تنوعت بلدان السفن؛ سفن تجارية بريطانية، وهولندية، وهندية، يبدو أنها قد رست بالميناء منذ زمن طويل!

لربما الشبكة الأمنية التي استقرت تحتها دروب القوافل، لم تشهدها تلك المنطقة لقرون طويلة، بدأت توفر للتجار دروباً آمنة، وشواطئ مستقرة.

وأمام مبنى الجمارك، وجدا طلق بن عيسى واقفاً مشرئباً بانتظارهما، ولم يحتاجا إلى الكثير من الوقت كي يكتشفا أن عينيه مشدوهتان، ووجهه بات نحيلاً، كأنه قد خرج للتو من هول العالم السفلي، لكن لفت نظرهما أنه بات يحادثهما بالإنكليزية بيسر وسهولة، لكن لم تعد عيناه تبرقان بعنفوان أحصنة السبق، ظل صامتاً إلى أن تجاوزوا الجشة واقتربوا من الهفوف، فقال: "أمرني السلطان أن نمر على الأحساء، وأن نقدم لأهلها المتاح، قبل أن نصعد باتجاه الرياض".

وعلى أطراف الأحساء الشرقية، كان د. آزاد بمعاونة رجال الأمير، قد أنشؤوا بضع حجرات من لبن الطين، بما يشبه الحجر الصحي (الكارنتين)، وتصطف أمامها قدور القِرُو، وعندما سأل هاريسون عن هذه القدور المصطفة على جدار العزل، أخبره آزاد هامساً باختصار، وهو يعلم أن الأمر سيزعجه: "هذا طقس يسميه الأهالي القرو، خليط، يمرون بقدر على كل بيت من بيوت القرية، ويأخذون قطعة لحم من جمل أو ماعز ذكر!".

إضافة إلى المتيسر من الخضار والحبوب، وأهمها اليقطين الذي عالج قروح النبي يونس، فيطبخ في قدر واحد مع جميع خضراوات الموسم، كي يقدم بعد نضجه مع مرقه، وجبة لأولئك المعزولين في طرف القرية. والأهالي يلتزمون بها لمدة أربعين يوماً، محتجبين عن أكل أي صنف من الأطعمة التي لم تدخل في مكونات القرو، خوفاً من انتكاس حالتهم.

تمعر وجه هاريسون، ولكن لم يأمر بإزالة القدور، متأملاً أن تكون ساعات الطبخ الطويلة كفيلةً بتعقيم كل شيء.

كانت عينا ماثيو وقتها تتسعان وتبرقان (قدر القرو)، وهو يهجس: "أول هدية بادرتني جزيرة العرب بها في هذه الزيارة!".

قدر القرو، متأكد أن خلفه ممارسة وثنية حجبتها الثقافة الدينية، هذه الممارسات الشعبية الغامضة بالتأكيد أضمرتها ثقافة زراعية؛ فجدلية الموت والحياة، هي جوهر الثقافات الزراعية.

هل القدر الذي تطبخ فيه قطع لحم (جمل/ ماعز ذكر) جمعت من كل بيت في البلدة ليأكل منها المرضى، هي قدر الإلهة المصرية إيزيس، يقطعون رَجُلَها أوزوريس (الجمل الماعز الذكر/ الأضحية) وينثرونه في قرى مصر، فتركض هي لتجميعه وتعيد له الحياة؟

قد تكون تسربت لجزيرة العرب من مصر، فجسد الإله أوزوريس قطعه أخوه الشرير (ست) 42 قطعةً توازي 40 يوماً، ونثر في أنحاء مصر، ومن ثم أخذت إيزيس تبحث عنه وتجمعه قطعة إثر أخرى، ليعود للحياة، وتجميعُ قطع اللحم المتناثرة ممارسةٌ رمزية للبعث مرّة أخرى، من بين براثن الوباء.

***

اعتذر د. هاريسون وماثيو إيدن عن جميع دعوات الضيافة التي وصلتهما من أهل الهفوف، وبصعوبة تملصا من دماثتهم وكرمهم، فأخذوا يرسلون لهما عوضاً عن هذا سلالاً صغيرة مغطاة من التمر المكنوز الذي يقطر دبساً، رغم أن الوباء امتص رونق الحياة حولهم، لكنه لم يصل إلى قلوب سكان هذه الواحة.

***

في الطريق إلى الرياض مروا بقرى خاوية، وسمعوا حيوانات تثغو جوعاً في حظائرها، ومواشي تركت هملاً ترعى في الأودية.

وعلى مشارف الرياض، استيقظوا على أصوات مجموعة من الرعاة، يلاحقون الجمال الهائمة التي مات عنها أصحابها فتوحشت، فعادوا يروضونها بطريقة عجيبة، حيث يثبتون الرسن على أكياس من الرمل لمدة ثلاثة إلى أربعة أيام، بحيث كل ما رفعت الدابة رأسها صادفته، ثم يضعون عليها غطائين فالرّحل، وينتفض الجمل ويهدر، لكن في النهاية يهدأ، ويدخل من جديد في طور العبودية الأبدية حتى آخر يوم من حياته.

***

مرّ عامان على رحيلهما عن الرياض، تبدت لهما في الأفق مبانيها تتداخل مع لون الجبال. جدرانها بلون وبر الجمال، ونوافذها مطوقة بجبس أبيض مصبوب من الغيم، صوت التفاف السواني، وانسكاب الماء، وهديل القماري آخر النهار؛ كلّ هذا جلب لماثيو صورة تلك الفتاة التي اسمها الجازي.

تمنى وقتها أن يستطيع رؤيتها ثانية، لكنه خمن حد اليقين أنّها قد تزوجت وبات لديها أطفال، فالوظائفية تحكم مجتمعهم بصرامة، ولا بد أن تُصَف مع الفتيات اللواتي تدفع أرحامهن بالصغار، ليقاوموا أرضاً قاسية، قبورها شرهة.

لم يتخيل وقتها أن أمنيته المتواضعة برؤيتها فقط، تضخمت وتعملقت، وباتت قدراً مختلفاً.

جهزت لهما عيادة قريبة من قصر الحكم، وتحديداً بين البرجين الشرقيين، حيث يبدو المكان أهدأ قليلاً من ضوضاء البوابة الجنوبية، وكثرة القوافل التي ترتادها.

الوباء تغلغل في دروب الرياض، فلم يبقَ باب لم تخرج منه جنازة، والورع منهم يقضي طوال يومه في حفر القبور، لا يشغله عن ذلك إلا وقت الصلاة، أو لقيمات تعينه على عمله.

عرفا في أول يوم لوصولهما، أن المرض أخذ في طريقه ابن السلطان تركي، وأمه، وعُشْر سكان الرياض! ومر بمنزل آل مشرق، فأخذ منهم حصة الموسع أم الجازي وطفلَيها، والجدة بقيت تردد: "الله مستعان، مرت سنتان كلمح البصر على تحضير حصة الموسع لكفني، ثمّ تكفنت هي فيه".

الحسوفة[1]

1 كلمة شعبية تُستخدم للدلالة على الفتاة الجميلة التي يؤسَف على ضياع جمالها سُدى.

وكما تختار أسراب الجراد أكثر الثمار رواءً، وأشد الأشجار خضرةً، كذلك الوباء ينتقي لأضراسه أكثر الأجساد نضارةً وفتنة.

والجازي لم تكن أكبر أبناء عبد الرحمن آل مشرق، كان قبلها مريم وطرفة، وبعدها راشد وحمد؛ مريم عندما برزت سنّاها الأماميتان، أصابتها حرارة، وماتت قبل أن تبلغ سن الفطام، وبقيت طرفة التي تزوجت باكراً.

الجازي يوم حَمَلَها أبوها بين يديه لأول مرة، كانت مكتنزة كقفة ريحان، وبعد سنة لم تبدأ تخطو فقط، بل أيضاً بدأت تحكي جملاً متصلة، وتسمّي الحملان والماعز الصغيرة (أم القنازع، وثريم، والشترة)، فكانت جدتها حينما يزرنها نساء الضحى، وتبدأ الجازي في الحديث وسرد القصص، وتحدق فيها الأعين شاهقة متعجبة، ترفع صوتها بالتسبيح، والتهليل، والاستعاذة من شرّ حاسدٍ إذا

حسد. وعندما كبرت قليلاً وانبلجت وضاحتها وملاحتها، كانت تخفيها داخل المنزل.

والأعين تتلصص على هذه الريم المتقافزة بين النخيل، يضحكون ويحوقلون، ولم يلبثوا طويلاً حتى يتقاطروا، ويطلبوها من أبيها ويضيقوا عليه، كل واحد منهم تجد جدتها هيا فيه عيباً... تقول بثقة: لن نزوج الجازي وندحرجها على أول من يطرق الباب، وسمتها (الحسوفة). تقول وهي تتمطق بلسانها: "ننتظر صهراً من الشيوخ تجلبه الجازي لآل مشرق".

لكن لم يعلموا أن الموت أيضاً ينازعهم إياها. بعد موت أمها حصة الموسع، كانت أم مبارك تعودها وتعتني بها في مرضها، وتطبخ لها، وحين تراها غائبة عن الوعي واهنة، تحوقل، وتهيئها للقبر، تغسلها بماء السدر، وتجدل شعرها ثلاث ضفائر، وتقول هذه الضفائر التي ستشدها منها ملائكة القبر لتجلس ويستجوباها.

وفي الليلة الأربعين لتفشي الوباء، فجأة انقطعت أم مبارك عن الزيارة! فقد باغتها المرض دون أن تتفطن له، وبليلتين قرض عظامها، وهي تئن وتهتف "بسم الله الرحمن الرحيم... يا الله الثبات، يا الله التوبة....". فلما لم يستجب لندائها أحد، غابت عن الوعي، وفي الليلة الثالثة تصعدت روحها، قبل أن يتنبه لهذا ابنها مبارك النائم في الغرفة المجاورة، وكان مبارك الذي جدل شعرها ضفائر القبر الثلاث.

وهي الليلة نفسها التي دخل فيها من بوابة منزل آل مشرق، الدختور الأميركي الأحمر. مع أول خطوة لماثيو داخل باحة السدرة، وجد المنزل كأنه غطس في محلول الفضة الخاص بالمصورين، والذي يسرق الألوان والنبض والبهجة، ويجعلها صور أبيض وأسود، قابضة للصدر، منشورة فوق حبال الأبدية.

وسط المنزل صامت معتم، يسمع دبيب خطوات الأشباح في الرواق، لم يرَ إناء الماء الفخاري الذي ينضد حوله البطيخ وثمر الشمام.

فقط ظلت شجرة السدر المعمرة وأغصانها، تملأ الفضاء المفتوح على السماء، وخلا المكان من عبق القهوة والبخور الشرقي الثقيل، السجاد

الأفغاني، ومخدات البروكار التي كانت تصطف تحت الرواق، طويت بإهمال، وانسكب على كل هذا الغبار والعتمة.

بعد أن اعتادت عيناه ظلمة الغرفة، كانت هناك صبية مسجاة، يتجمر مرقدها من حولها بالحرارة، عرفها من أول لمحة، جس نبضها، وأخذ يتأمل أهدابها التي تلامس أعالي عظام خديها، فيما شفتاها اللتان تشبهان تماثيل آلهات أسبرطة مغلقتان بألم.

سأل الأب ماثيو بصوت يرتجف الرجاء بقاعه: "هل ستعتق يا دختور؟".

لم يفهم ماذا يقصد، ولكن خمن أنه يقصد هل ستنعتق من المرض، فأجابه متمتماً: "لا أعلم الغيب، لكن الأجساد الفتية عادة لديها قدرة على المقاومة".

تبدى له تنين الحمى ينفث أنفاسه فوق رأسها، ويتأهب لاختطافها، وقرر لحظتها أن يشارك الجازي معركتها، تمتم: "لن يفوز بها، سأنازله وأهزمه، وأنجو بهذه الصبية".

تلك الغزالة التي تقافزت أمامه بين النخيل، وسألته هل ترى العالم أزرق، لا يستحقها هذا التنين.

قال لعبد الرحمن معابثاً وهو يقصد الباب: "هل إذا شفيتها تزوجني إياها؟".

فيطأطئ عبد الرحمن آل مشرق هازاً رأسه بانكسار: "يا الله إن الشكوى لك".

لم يكن يظن لحظتها أنه جادّ، حتى عاد يكرر طلبه في اليوم التالي، قائلاً: "جسدُ البنية ضعيف، وواهن، وهي بحاجة إلى متابعة طبية مباشرة، لكن أستطيع أن أضمن لك رعاية فائقة في مستشفى الإرسالية في البحرين".

***

أطوار الموت الغريبة لا تخضع لتراتبية المنطق، ولم يظل في المنزل إلا عبد الرحمن آل مشرق، وأمه، والجازي التي تحتضر. ترك الموت له أمه المسنة، التي تذهب إلى الحمام حبواً، وأخذ أم عياله الشابة حصة، التي كانت قد جهزت كفن حماتها، واختارت من غنم المزرعة أضاحي الحفرة.

لكن جاء الوباء وبعثر تلك الترتيبات، واستأثر بتحديد القوائم التي ستنزلق في الحفرة، والآن يحوم فوق رأس الجازي.

كل ليلة لا يدري من أي منزل في الرياض سينطلق العويل، البارحة قبروا ستة من آل محسن، من بينهم أم ورضيعها، دُسَّا في لحد واحد، متجاورين في رحلة الأبدية.

كان أمام عبد الرحمن آل مشرق خياران: إمّا أن يشرع في حفر قبر الجازي، لترقد جوار أمها وأخويها، ولكن في هذه الحالة يجب أن يحفر قبراً ثالثاً له جوارهما لأن بطنه تورمت بالفجائع، وإمّا أن يلفها في فراشها المتجمر من الحمى، ويسلمها لهذا الطبيب، الذي يقسم بأن مستشفى البحرين سيجعلها تشفى.

***

إذا استفاقت الجازي ترى وجه أبيها الشاحب واهناً يدعو: "يا رب، أن تثبتني على دينك، ولا تجعل الشيطان يشاركني عقلي".

كثيرةٌ هي الهلوسات التي رأتها في مرحلة الحمّى، منها عينان شديدتا الزرقة، فوقهما حاجبان معقودان، وهيئة ضبابية رفعت رسغها ووضعته ثلاث مرات قبل أن تختفي وتتلاشى.

ظنت أن العافية باتت وشيكة، لكن سرعان ما تعود الحمى لتطرحها للهلوسات ونوبات الارتجاف والتعرق، ترى فيها زبانية الموت يصطفون على الجدار ينتظرون المشيئة، لم تخبر أحداً بهذا، خشية أن يبدأ أبوها في البكاء والنشيج كدأبه مؤخراً.

طعم الماء في فمها ما يزال مُرّاً، ولم يغادرها الوهن تماماً، لكنها استمرت في تناول تلك البذور البيضاء المرة من قرطاس دسه الطبيب داخل كف أبيها.

***

فيلبي من شجع وأسهم في الترتيبات من كثب وخلسة، وإذا اقتضى الأمر تدخله سراً، ليعالج الأقفال المغلقة، ولدفع هذا الزواج إلى أقصاه نكاية بد.

هاريسون.

النسوة اللواتي كن يبعن ويشترين تحت جدار القصر اختفين، لا يدري ماثيو من أين يبتاع الحاجيات التي نصحه فيلبي بتقديمها هدية لعروسه.

أسفل الجدار الذي كن يجلسن حوله، لم يرَ سوى بضعِ نساء متلاصقات ككتلة واحدة، فلا تبدو الملامح المتباينة لأجسادهن المغطاة بالعباءات، يستمعن لخطبة إمام المسجد الوعظية.

يومها كان الشيخ في غاية الغضب، وبّخ المصلين لحديثهم مع الغرباء، وخص النساء، وطال توبيخه لهنّ، لا سيما البائعات اللكيعات، اللواتي يخضعن في القول ويطلن الحديث مع المشترين الغرباء، فعاقب الله الرياض جميعها بذنوبهن، فالشر يعم والخير يخص، ونشج حتى ابتلت ذقنه، بعد أن ابتلعت مقبرة العود زهوة أهل الرياض.

***

عُقِد القران، وكتبه المطوع على ورقتين، واحدة صك إسلام ماثيو ناولها لعبد الرحمن آل مشرق، والثانية عقد القران ناولها لماثيو إيدن، والذي كان وقتها قد حفظ أسماء الله الحسنى جميعها، واختار له من بين تلك الأسماء اسم "عبد الشافي الرحال"، ودفع مهر الجازي إسلامه، وسجادةً فارسية، ولحافَ جودري، ودفةً مزينة بخيوط الفضة، وقميصاً طويلاً أحمر، وغطاءَ رأس حريرياً كبيراً مع مقرونة، وسواراً من الفضة.

ولأن مطوع الرياض كان ذلك الوقت مشغولاً بالصلاة على الجنائز، لم يفطن أحد، أو تحديداً لم يتوقف إلى عقد زواج قام به على عجالة بين جنازتين. عبد الرحمن آل مشرق يسير أمام الطبيب الشاب مطأطئاً، كتفاه تضاءلا، وأطراف ثوبه السفلى موحلة، وغطاء رأسه وضعه كيفما اتفق، شأن الرجال الذين يخرجون من بيوتهم إلى العالم الخارجي، دون أن تهندمهم يدا امرأة محبة.

وفي زفافات الرياض يدقون الطَّار لتشيع الأخبار، ولكن الأخبار في رياض 1919، لا تحتاج طاراً لتشيع، أو لربما لم يظل هناك الكثير من الألسن لتطير

فوقها الأخبار، ولكن القصة أصبحت بأن بنت آل مشرق أسلم طبيبُها، واشترطَ الزواجَ بها لعلاجها.

أو هذه هي الحكاية التي سوغ بها عبد الرحمن آل مشرق لمصلّي الفجر في الجامع الكبير زواجَ ابنته، مضيفاً بأن مهرها كان إسلامه، لكنه عندما اختلى بجاره أبو جمرة، قال وهو يغالب نشيجه: ”ليأخذْها الكافر، لقد خيرت بينه وبين الموت“.

ولأن الجنائز كانت أيامها تجعل المساجد تضج بالتكبير، والتهليل، والنشيج، غاب نشيج عبد الرحمن آل مشرق في عتمة غيمة الابتلاء، التي بدورها غيبت الجازي، وهي تخرج بخطوات واهنة في غبش الصبح من بيتهم برفقة الدختور الأميركي، وعادة داخل ضباب المآسي الكبرى، تتخلخل قوانين المجتمعات وأعرافها.

***

لم يخبر ماثيو رفيقه بعقد قرانه، كان ينتظر لحظاتهما الأخيرة بالرياض المزدحمة بالاستعدادات والواجبات والمسؤوليات، مما يجعل مساحة رد الفعل ضيقاً ومحدوداً، لكن حتما فيلبي وشى به، فهو على يقين أنه مغرم بصراع الديكة.

فقبل ليلتين بعد أن ملأ غليونه، سمعه يثرثر لد. هاريسون وكأنه يعرِّض به قائلاً: ”حينما يكون هناك ميلٌ عارمٌ نحو فتاة، فهي الطبيعة متسترة بثوب الحب، تريد أن تحقق أهدافها عبر أجسادنا، وحتماً أطفال هذا الحب يولدون أصحاء أقوياء شديدي الذكاء، فقد ولدوا بتدبير ومباركة من السيدة الطبيعة. عبثاً تحاول أن تثني رجلاً عن قراره في اختيار شريكته، فالطبيعة تريد أن تتحقق من خلالهما، بعد أن تدخلهما في حالة العمى النفسي، الذي يطلقون عليه العشق“.

***

في طريق العودة، شعر ماثيو أن وجه د. هاريسون قد استطال بوصتين، واشتد نحوله، وأصبحت نظاراته تنزلق عن أنفه لعدة مرات، وأنه بات يشيح عنه ولا يخاطبه إلا بجُمَلٍ قصيرة مقتضبة، فهو يشعر بأن الله قد تخلى عنه، بعدما رتب أموره معه.

لكن الآن هل سيسمح له بالعودة إلى مستشفى الإرسالية مع رفيقته العربية؟ هاريسون الذي كرّس عمره ملوحاً بمفاتيح بوابة مملكة الرب، فيجد أن مساعده الخاص ينسرب خارجها؟

ارتكب خطيئتين مغلظتين: الأولى الخروج من ملكوت الرب، والثانية عندما أنشأ علاقة مع مريضة، وتحايل على أهلها... ليخضعوا لزواجه.

***

ماثيو إيدن كتب تلك الليلة في يومياته:

القرد المنتصب الهوموسابين، الذي انطلق يعبث بالعالم زاعماً أنه مركز الكون، عندما يعجز عن مد جيوشه، فهو ينثر بذار أفكاره في جيوب الغزاة الدمثين المهندمين، المبشرين، بينما هم لا يحملون من البشارات سوى الشهوات الإمبريالية القديمة، لمزيد من القضمات الكبيرة من جسد العالم.

يجعلون المسيح في سلة فوق ظهورهم، ويطوفون به مترحلين حول العالم، ليشير لهم بأصابعه النحيلة الذابلة، نحو حظيرة جديدة مرتقبة لخراف الرب.

ماثيو إيدن

جني الدحل

"كي تصل من نجد لخليج العرب، اسرِ ونجم سهيل الجنوبي يسطع في ظهر كتفك اليمنى، ونجم الجدي الشمالي يلتمع على خدك الأيسر".

– **قاص أثر مرّي**

محطة العودة الأولى للمنامة، كانت مجموعة من المرتفعات الجرانيتية السوداء، التي تحيط بوادي العرمة شرق الرياض. كانت الأرض تحتهم مدكوكة بشكل غريب، كأنها درب سار فوقها جيش من المردة. الهواء قارس، والجميع يحذرهم من السقوط في الجنافير التي يحفرها بعض سراة الليل، الذين لا يرغبون المكث الطويل في المكان، وينزلقون داخلها اتقاء للهواء البارد ويغفون، لا يظهر منها إلا رؤوسهم، قبل أن يغادروها مع فجة الضوء.

ولم تصدق تلك الأخبار والمخاوف التي يتناقلها بعض أفراد القافلة، حول مجموعة من الفتية الملثمين، قيل إنهم أبناء عمومة الجازي، يتعقبونهم ويحاصرون القافلة، سعياً لاسترداد من استلبت بحجة المشفى. ومع توغلهم شرقاً، شكك الجميع في صحة الحكاية، ويرجح بأنها من نسج خيال شبيبة آل مشرق، لاستعادة وتطهير ماء وجوههم الذي تناثر، بعد أن دق الطَّار، وشاعت الأخبار حول حكاية ابنة عمهم التي تزوجها الأميركي، وبيوتاتهم التي تهلهلت، واستطاع هذا الرجل الأجنبي أن ينسرب من ثقوبها.

بتر طلق بن عيسى أحاديثهم، كي لا تنتقل لطور النميمة، فالدختور يظل من ضيوف السلطان.

***

ولأن السفن تأخرت في الوصول من الهند. والناس بدأت تأكل خشاش الأرض والثعالب، وانتشر الجوعى والحنشل، كان ماثيو عند محطات الوقوف، ينزل الجازي من على الهودج ويغسل وجهها، ويتأكد أنها تناولت شراب الكاموميل ليهدّئ أعصابها، ويلطف مزاجها. تتلبسه بهجة عجيبة، يشعر بأنها أليس انزلقت له من عالم أوز. في بداية الرحلة عندما كانت واهنة، وبالكاد تتحرك، ربط كاحليها بالهودج حتى لا تقع، وعندما وجد أنه ترك أثراً في الكاحل، أردفها خلفه، وبات يشعر بأنفاسها تنتظم فوق عنقه، الراكب فوق الجمل، يشعر بشيء أمومي حنون كأنه هدهدة مهد، ويشعر أن هذا المخلوق النادر الثمين الذي جلبه من الرياض، ما زال يتقد بالحياة، يفرش مرقدها وسط مثلث؛ الهودج، والناقة، وضلعه الثالث هو، ويحرص على ألا تنام داخل الهودج،

فالحنشل سيقصده أولاً، لعلمهم أن بداخله نساء، والقوارض ستقصد أسراباً زقاق السمن، التي صُبت في ثمار قرع مفرغ.

غفت تلك الليلة الجازي بعمق، وماثيو يتأملها بحثاً عن نجمة فوق خدها الأيسر، وقد زايله القلق مع زوال الحمى عنها، ولم تعاودها منذ غادروا جبال العرمة.

استيقظوا مع غبش الفجر، في تلك اللحظة التي يبدأ يفرق بها أهل الصحراء بين هيئة الذئب من الكلب، يصطفون عندها للصلاة، يهرول ماثيو أو عبد الشافي الرحال للصلاة معهم، فهي أقساط المهر الذي سيظل يسدده طوال حياته، وهم لن ينتظروه إذا تأخر عن الصلاة معهم، كأن الله سيغلق بوابة الدرج الذي يفضي إليه.

ثم يقفل عائداً بسرعة للجازي كي يسقيها دواءَها، قبل أن يصيح قائد القافلة بصوت جهوري مرتفع: "شل يا ولد".

كانت تكره طعم الدواء، وتفرغ جوفها بعد تناوله، فبات يسقيها إياه مع مريسة تمر. يخرج بضع حبات من التمر المكنوز، ومن ثم يذيبها مع ماء في إناء خزفي خصصه لها، ويسقيها إياه. كان يشاهد العرب عندما يسقون مرضاهم أدوية، يقولون: "بالعافية طهور ونور"، فيقبل فاها، ويقول لها: "طهور ونور"، فتبتسم بسخرية واهنة، لأنّه ينطقها بشكل غريب مضحك.

***

في اليوم الرابع استيقظوا على هدير الرعد، الغيم الذي تسلل ليلاً فغطى قبة السماء، عندها راق مزاج الصحراء وتلطف نسيمها.

يقيسون مواقيت الغيم بالرعد والبرق، فإذا سمعوا الرعد فالمطر قريب حولهم وفوق مراعي مواشيهم، وإذا شاهدوا البرق فالمطر ما زال بعيداً محتقناً في الأفق.

وصاح المنادي: "شل يا ولد".

وأحس ماثيو بالحنق، فهم لا يسمحون لروحهم أن تتجذر في مكان أبداً، يتخطفهم المؤقت والطارئ، والدرب هو السلطان الذي يهيمن على

مصائرهم.

كان بوده أن يستمتع بالمطر، ويُعِدّ إفطاراً شهياً للجازي، فشهيتها آخذة في التحسن، لكن انشغل بجمع احتياجاتهم ومرافقة الرحلة.

وحينما لمح التذمر على الوجوه، التي تود أن تتريث قليلاً للاستمتاع بالمطر، وعدهم طلق بن عيسى، أنهم سيمرون قريباً بأحد الدحول الهائلة، لمن يريد أن يرتوي ويغتسل داخلها.

وكالعادة لم يقفوا قريباً من الدحل تماماً، يخشون أن يكون هناك تجمع كبير من قوافل تستسقي، فيشاهدون برفقتهم الأميركيين الكفار، بسراويلهم العجيبة، ورؤوسهم الطويلة التي تشبه الهداهد، فيصبحون مرمى لرصاص طائش غاضب، يعاقبهم على جلب الأوبئة برفقتهم.

أرسلوا قبل وصولهم عيناً تتقصى أحوال الدحل، وعدد القوافل التي أناخت حوله، فعاد المرسَل مطمئناً يقول لهم إنه لا يوجد حوله سوى بعض الرعاة، وفتى ممسوس جلبه أهله، لعلمهم أن جنِّي الدحل يحب الرقص، فظل الممسوس يرقص حتى انطرح أرضاً، وأخذ يزبد وينطق، مسمياً الأشياء التي يجب أن تقدم كهدية لجني الدحل؛ خاتماً، وشماغاً، وثياباً جميلة، وفّرها أهل الفتى الممسوس له، وتركوها على جال البئر، كشرط لشفاء ابنهم حال وصولهم لديارهم. عدا هذا لم يكن هناك الكثير من الحشود، وهذا ما خمنه عيسى، فالقبائل التي كمنت في عمق الصحراء، نحرت الشمال بعيداً عن الوباء، وبحثاً عن ربيع لقطعانها الجائعة.

***

الدحول عادة ضيقة الفم، لكنها تتسع في الأسفل، ويرتفع سقفها تدريجياً بعد الدخول إليها، بحيث يمكن للمستسقي بعد مسافة قصيرة، أن يقف ويمشي فيه منتصباً، فوق حصى غدران المياه داخله... أخذت السماء وقتها تنهمر بقوة، والرعاة حولهم يتقافزون ويتصايحون ببهجة معربدة.

مما جعل ماثيو يلف الجازي بغطاء صوفي ويحملها على كتفه، ويتسلل بها برفق داخل الدحل. كانت أطرافها ترتجف، وصوت أزيز الهواء بالداخل كولولة

قبيلة من النساء المهجورات، تتلفت الجازي مرتعبة، وهو يبحث لهما عن مكان ما في عمق الدحل، هذا قبل أن يلمحا دفق مطر بدأ يتسرب إليهما من فوهة الدحل.

تمتم ماثيو بهدوء: "الصحراء لا تمنحنا هداياها بسهولة، ولا بد أن تكون مغلفة ببعض البطش والقسوة، ولكنها تغدق حينما تمنح".

أجلس الجازي فوق بساط كتاني رقيق، جوار الغدير في عمق الدحل، وأخرج من حقيبة كتفه صابونة لافندر، وأخذ يرغيها على شعر الجازي، ورقبتها، وأطرافها، وقدميها، وبخجل طلب أن يغسل بطنها، يريد أن يرى هل لديها سُرَّة أم أنها كأمنا حواء. ارتعشت عندما جمع الماء بين يديه وأخذ يسكبه عليها، داخلتها نشوة مع رائحة الصابون العجيبة، كانت كرائحة التلال في فجر الربيع، أو لعله عبق الدحل وعطوره.

المنشفة التي غطى بها شعرها المبتل مزخرفة بغيوم، وأخذ الغيم فيها يغني لها ويهدهدها، وقتها تمنى ماثيو أن تظل منتشية مغمضة العينين، لا يود أن تتفرس فيه عن قرب، بشعره المشعث، وأهدابه المتربة كعفريت خرج للتو من عاصفة رملية: تمتم في أعماقه، هل هذا المخلوق البديع مستريب مني؟ تبدو مطمئنة مسترخية. أود أن أتبدى لها كعاشق عربي متدلّه، كأولئك الذين جعلتهم لواعج العشق يملؤون آلاف الصفحات بقصائد العشق. هل لو سردت عليها قصيدة من محفوظاتي ستستمتع بها؟ لكنها واهنة ذابلة، وسأنطقها بعربية مضحكة، ولن تفهم قصائد تفصلها عنها مئات الأعوام.

فقط جلس جوارها وضمها، وأخذ يجفف وجهها ويمشط شعرها، وطلب منها أن تنظر إلى الشلالات الصغيرة المتساقطة من فوهة الدحل، وهمس في أذنها: "تأملي الشلالات بعمق، عندها لن تستطيعي التحديد، هل المياه تصعد أم تنزل؟ وها نحن كذلك مع أقدارنا. عدت للرياض وأنا متوقع أن تلك الغزالة التي برزت لي في الحقل، قد أصبح لديها طفل أو طفلان، ولم أكن أعلم أنني أحيطها بذراعيَّ، كأجمل حورية دفعتها الرياض في طريقي".

ثمّ انحنى ماثيو وقبَّل أرنبة أنفها. لأوّل مرة يلمح وجهها يتورد بالخجل وتتنهد، وتوكّئ رأسها صدره، فتمتم: "شفتاك أيتها الخطيبة تقطران شهد العسل،

والعسل والحليب تحت لسانك“. لم يخبرها أن هذا المقطع من **نشيد الإنشاد**، أراد أن يستحوذ على جماله، تلك اللحظات هي التي يتجهز النول الإلهي، لنسج خيمة تُظِلُّ ذكراً وأنثى، تلملم أطرافهما سوياً بخيوط ميثاقها غليظ، وتطلب منهما الامتزاج، للعودة لسيرة المخلوق الأول.

كان الصمت يعكس قلة المفردات المشتركة بينهما، لكنه أيضاً أتاح مساحة لبقية اللغات، لتتحدث الأعين، والأذرع، والشفاه.

وفجأة التفتت إليه، وحدقت في عينيه بعمق، وهمست عابثة: ”هل ترى العالم أزرق؟“.

هذا المزاج اللعوب، هو الذي جعل مقدمة جبين ماثيو تحتدم وتبض عروقه. منذ غادرا الرياض، كان يحمل جسمها النحيل المندى بالحمى بعناية ورفق، كندفة غيم يخشى أن تتبدد بين أصابعه، لكنها الآن بدأت تغمض أهدابها الطويلة وتشرعها بوله، تعابثه بغنج، غنج لا يحتمل الكثير من التريث، لدى شاب لم يحتضن امرأة منذ سنين.

وغفت في حضنه وهي تتأمل ناراً صغيرة، وحلمت، أو أنها دخلت في حالة الوهن والخدر التي تخللت أوصالها، جعلتها بمنجى عن وحشة البعاد، ولواعج الفراق، بل كنت نائية عن العالم بأسره.

وحلمت فيها بأنّ أمها، تنزع عنها ثيابها القديمة المتيبسة بعرق المرض، وتلبسها ثياباً بيضاءَ مقصبة أطرافها، ومن ثم أعطتها ثوباً وطاقية لطفل صغير.

يقرقع الرعد بقوة، فتفز من نومها، لكنها تعود لتغفو، وتحلم بليلة زواجها في بيت أهلها وجسمها ينتفض بالحمى، حتى إذا تنبهت لوهلة، لا تدري هل هي في القبر أم ما زالت في منزلهم، وباب الغرفة القديم مخلَّع المسامير، الذي نخرت مفاصله وبهتت أصباغه، قد خُلع من مكانه، وسُنِد في الممر، نعشاً نقل إلى مقبرة أمها وأخويها، وفكّاه ما زالا ينتظران المزيد.

الأمر الوحيد الذي جعلها تطمئن أنها ليست في القبر، هو طائر يمام كان يهدل لها بأوقات متفرقة، لا سيما عندما تتهيأ عصافير السدرة وسط دارهم للنوم.

يوم الزفاف، كان أبوها مشغولاً بالبحث عن شاهد آخر مع أبي آل جمرة، ليشهد على الزواج، فلم يجد سوى جد آل معفر المُسن، يجلس كل يوم على الدكة في المشراق، بعباءة ثقيلة تخفي معالمه، ممدداً رجليه، ويجعل غطاء رأسه يتقهقر، ويفتح عينيه المكروبتين، ويفغر فاهُ ذا السن الواحدة، متأملاً الذاهبين والعائدين بالجنائز، فيُسَبِّح ويهلِّل، ومن ثم يجهش في البكاء، ويدعو للجنازة ووالديه. ثم يروح في إغفاءات قصيرة. مات كل أهل بيته وبقي هو وحده، يتفقده جيرانه، وأحياناً ينسونه، لكنه ظل حياً، فكان هو شاهد زواج الجازي.

ليلتها وضعوه في زنبيل كبير وأحضروه، وشهد عقد قران عبد الشافي الرحال، على الجازي ابنة عبد الرحمن آل مشرق.

خيروا ماثيو بين اسم عبد الشافي الرحال، أو عبد الله البري أو البحري، لكنه اختار الرحال، وسطر قدره معه... فقد أتى ورحل بابنتهم.

أما جد آل معفر بعد شهادته على العقد، ألانوا له رقائق قرصان بلبن، وألقموه إياها، وأعادوه للزنبيل، وأرجعوه لدكة منزله.

عندما استفاقت من بين غبش النوم، لمحت ماثيو قد غطته رغوة الصابون، داخل غدير الماء، وعيناه لا تفارقانها خشية أن يصيبها مكروه، أو يخرج لها ثعبان من ثقوب جدران الدحل.

***

خرجا من الدحل والعتمة أُسدلت فوق المكان، وطباخ القافلة قد انتهى من إعداد وجبة العشاء، بينما شرع طلق بن عيسى يسرد قصة هذا الدحل، الذي كان يسكنه جني، يكرمه أهل البادية بطبق من الشعير أو الحنطة. فإذا أصبح الصبح ولم يجدوا الطبق، فمعنى هذا أن الجني قبل هديتهم، ولديه الاستعداد لشفاء مرضاهم؛ فيتركون عند فوهة البئر قطعة من ثياب المريض، شرط أن تكون معطرة بعطر ثمين، فالجني كَلِفٌ بالعطور، فإذا عادوا إلى مضاربهم يجدون مريضهم قد شفي.

وظل هذا الدحل مزاراً لمدة طويلة، حتى صار عمر الجني مئة وثلاثين عاماً، فطعن في السن وأصابه الهزال، وغزت الشيخوخة جسده، وهلهلت الرطوبة أطرافه ومفاصله، فخرج جوار فوهة الدحل خلسة ليتشمس، فما كان من الذئب إلا أن هجم عليه ليلتهمه، لكن الله ستره، واستطاع أن يعود مجدداً إلى الدحل.

ولأن في قصص الجن، لا يوجد عادة متحدث رسمي باسمه ينفي الحادثة أو يؤكدها، لذا وعلى الغالب، يجور للبشر أن يسرفوا في سرد التفاصيل الغريبة، لكن تلك الليلة، أول من صدَّق القصة هو ماثيو! فأريج العطور كان فاغماً في الدحل، ولم تأخذ وقتاً طويلاً حتى خرجت الجازي من الدحل، واقفةً تسير على قدميها، مجلوة كقمر ما بعد المطر.

***

في تلك الليلة دخل الأميركي بعروسه العربية بلطف وحنان، وعينا الجمل الرابض تسترقا النظر لهما من بين أهدابه الواسعة الناعسة.

ومع الفجر اشتهت الإفطار، فذهب إلى الطباخ وابتاع منه بيضتين، وقليلاً من الدهن، ورغيف خبز؛ وأعد لها إفطاراً، بينما هي تتأمل وجه هذا الرجل الذي بات زوجاً لها بغتة، على غفلة من الرياض وأهلها.

وريثما ينتهي من إعداد إفطارها، أخذ يحاول البحث عن أحاديث تبعث البهجة في قلبها، ويقول مشيراً إلى الغيوم: ”إنها مواكب الغيم، أتت تبارك لنا، هذا على شكل طائر أو لعله ملاك، وذاك على شكل حوت هائل، والأخير على شكل جبلين متقاربين عاشقين“.

ابتسمت وقالت له بصوت مرح خافت: ”احذر أن تحاول أن تشرح لأحد ما تراه في السماء أو بين الشجر، فقد اجتمعت الغيوم والظلال والأنوار، لتتبدى لك وحدك دون العالمين، وحاملة رسالة تخصك فقط، فإذا كشفتها للآخرين فسدت“.

الجبال العاشقة

مذ غادرت قافلتهما بوابة الثميري، وطلق بن عيسى يتحاشى النظر أو الاقتراب من ماثيو وبنت آل مشرق، ورغم أن الرياض لم تلغط كثيراً بزواجهما، فقد عقد قرانهما قبل أيام يسيرة من سفرهما، لكن هو شخصياً رفض أن يبارك لهما هذا الزواج واستهجنه، ولم يبال بما يقال حول أن إسلامه كان مهراً لها، فالكثير باستطاعته أن يتمتم بالشهادتين، والله أعلم بالقلوب، لا سيما وقد رافق هذا موقفه السابق من ماثيو، الذي يتفرس بالنساء بفضول عندما يحادثهن، لا يغض بصره، بل يواجههن ويحدق فيهنّ، مستكنهاً ما خلف الغطاء.

لكنه أخذ يلمح ماثيو يقفز عن ذلوله، عندما ينيخون لاستراحة، ويفرش متكأً لزوجته، ويهرع ليذيب تمرتين في وعاء خزفي من الماء، ثم يذرو فوقها مسحوقاً أبيض، ويضع رأس بنت آل مشرق على فخذه، وبلطف يرفع ذقنها، ويبدأ يطلب منها بحنو أن تحسوها رويداً، ويبدي صبراً وسعة بال، حتى آخر قطرة من الوعاء الخزفي، عندها يجفف فمها ويقبلها قبلة خاطفة، كأنه ينفث فيها من روحه دون خشية العدوى. أمتار قليلة التي يبتعد فيها عنها للصلاة، يؤديها مستعجلاً كنقر الغراب، ليعود يجس حرارتها ونبضها، ويدلك قدميها بزيت الخزامى، ويستيقظ فجراً والنجوم ما برحت في السماء، ليجهّز إفطاراً لها، يلقّمها إياه بحرص.

ثلاثة أيام من هذه المشاهد المتتابعة، ألانت قلب طلق بن عيسى، فشرع يسرد لهما حكاية الجبال العاشقة، عارفاً أن للعشق سلطاناً وجبروتاً، تعجز عنه حتى الجبال الراسية.

قال: "عندما يذهب تجار العقيلات من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، بعد غياب طويل في عمق الصحراء، يبش ويسعد بهم تجار الشام، فيقولون لهم: 'آآآآيه جبل على جبل ما بيلتقوا ولو من نفس النبع استقوا، وبني آدم على بني آدم بيلتقوا' فيطرق العقيلات لوهلة، يستعيدون فيها تفاصيل الحكاية، ويقولون في ديارنا تلتقي الجبال، شرط أن تكون عاشقة!

ويسردون قصص الجبال العاشقة في صحرائهم، التي تعشق بجنون، وتتسلل خلسة لتلتقي في مواعيد حب أزلية، كحكاية الجبل طمية، التي ألهبها

الشوق ولواعج الحنين للجبل قطن، فتفلتت واقتلعت نفسها من منطقة أم الدوم، مخلفة وراءها موقعا متلألئاً ما زال يسمى مقلع طمية، وطارت لتجاور الجبل، قطن وقد أذهلها الوله، وللهفتها واضطرابها، تناثرت منها حاجياتها، وظلت على شكل كتل بازلتية ضخمة على امتداد الطريق إلى عقلة الصقور، حيث جبل قطن، أسماها العرب حاجيات وأغراض طمية".

وعندما استدارات الأعين دهشة، وهي تستمع لطلق بن عيسى، سوّى من جلسته ورشف من فنجان قهوته، وأخذ يحرك سبحته حول إصبعيه السبابة والوسطى، كعادته حينما ينسجم وقال:

"وأجا وسلمى جبلان توأمان، شمال غرب مدينة حائل، أسفل سفح أحدهما رفات العاشق أجا، الذي قَبَرَه الرجال هناك، وأبعدوه عن قبر محبوبته سلمى في الجبل المقابل، ونامت القبيلة يومها مطمئنة أنها فرقتهما، لكن لم يعلم أحد بأن همسهما وأحاديثهما ظلت تلهم الشعراء القصائد، وعازفي الربابة الطرب، فتسقي عروق الجبلين. فأخذا يتقاربان بدأب وحرص على امتداد السنين، حتى التحما في باطن الأرض، بعدما عجز ظاهرها أن يجمعهما. وجعلتهما قوافل الشتاء والصيف محطة لها، يسردون أسفلها قصة حب، كتب لها الخلود جيئة وذهاباً".

***

انقشعت موجة الوباء عن الصحراء، ولكنها ظلت مستوحشة، وما ظل من سكانها فشا فيهم الوهن والاعتلال، فيردد أفراد القافلة: "ربي يرفع عن عبيده".

البيوت المهجورة التي مروا بها في طريق القدوم، بدأت تمتلئ بالسكان، لا يدرون هل هم سكانها الأصليون أم هم من الطارئين، الذين بعثرهم ونثرهم الوباء والجوع فوق وجه الصحراء، والحقول تبدّت بها أطياف كالأشباح، تقترب وتلوح للقوافل من كثب، لعل لديهم فائضاً من الزاد.

وطلق بن عيسى يردد: "خُلق الإنسان في كبد، قبروا أمواتهم، ونفضوا عن ثيابهم تراب المقابر، وعادوا يحصدون ويزرعون، ويدفعون عربة الحياة... الله

مستعان... رحمٌ تدفع، وأرضٌ تبلع".

***

منذ ذلك الفجر الذي أوقف به المحمل أمام بيت آل مشرق، وأركب الجازي فيه، وقلب ماثيو يغني. في البداية ظنّ أن مصدر بهجته الفائقة، هو حصوله على هذه المخملية كتذكار ثمين من جزيرة العرب، كما حصل هوبلز وأويتنج في كشف أثري نادر، على مسلة تيماء، نقش فوقها طفولة الأبجدية، لكن سرعان ما تستدركه أحاسيسه، ويتيقن أنه حين يتأمل أهداب فتاته الكثيفة، تشرق أركان روحه، ويعلم أن العالم من حوله قد انشطر قبلها وبعدها.

كان يحزنه عدم اكتراثها للهدايا التي يخرجها من حقائبه ويقدمها لها: معضد الفضة، والثوب الأحمر، شيلة مطرزة، ولكن سرعان ما أعشب قلبه، عندما بدأ يلمح عينيها تبرقان بوله حين تلمحه قادماً نحوها، فتُخرج من جيبها عدداً من الحجارة البلورية المستديرة، جمعتها بحرص في قطعة قماش، ومن ثم تنثرها بين يديه لتشاركه لعبة اللقطة، تقذف بواحدة في الهواء في اللحظة نفسها التي تلتقط ما انتثر من حصى بلوري، وما انكمش بداخلها في حضرة الرجل الغريب.

***

في آخر يوم قبل أن يكملا طريقهما للمنامة، رافقت الجازي النساء مع مجموعة من الثياب الجديدة، لعين عذاري الساخنة بالأحساء للاستحمام، تردد ماثيو في السماح لها بالذهاب، كان يخشى عليها وعلى هشاشتها، وعلى رقبتها المتلفتة دوماً كظبي مذعور، لم تغب عن عينه للحظة منذ ليلة زفافهما في نخل آل مشرق.

طلب من امرأة سمراء لطيفة اسمها نمشة، كانت تمر بهما أثناء الرحلة، وتضع يدها على جبين الجازي وتتلو صلواتها، ألا تجعلها تغيب عن عينها، فأجابته نمشة وهي تهز رأسها ضاحكة: "آآآه الحب له شنشنة والبغض له ونَّة، الحب له شارة من شارات الجنة".

لم يفهم ما قالته، ولكنه خمَّن أنه أمر إيجابي، فالجازي تبسمت بحياء وأغضت ببصرها.

***

عندما عاد ماثيو إلى موضع راحلته وأغراضهما، وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع د. هاريسون، الذي كان يعامله بتحفظ، ويتحاشى الاقتراب منه أو الحديث معه طوال الرحلة.

وعندما يسمع أفراد القافلة ينادون عليه عبد الشافي، ليشاركهم اصطفافهم للصلاة، لأول مرة يشعر د. هاريسون، أنه بات يخشى على توازنه النفسي بعد هذه المصيبة الفادحة، فالصحراء الساهمة الغامضة التي دخل إليها مبشراً، اختطفت خروفاً من حظيرة مملكة الرب.

وقد تطلب الأمر من د. هاريسون أن يقوم بصلاة عميقة، يسأل الرب أن يجعل من حديثه مع ماثيو هادئاً، يرده عن غوايته، ولا يجعله عاصياً كابن نوح.

فحاول أن يبادر بنبرة ساخرة، تظهر كأنه يسرد نكتة تعرض به فقال: "الوضعيون الملاحدة، يؤمنون بقوانين الطبيعة والضرورة النفعية، فما الضرورة التي تورطك بامرأة، لتقتلعها بعيداً من أهلها وبيئتها، ولا تدري هل ستعيش للغد أم تموت؟". ومن ثم بعد برهة صمت وبصوت أكثر جدية قال: "هل يستحق هذا خروجك من مملكة الرب؟ واستغلالك لضعف مريضة بحاجة إلى العلاج؟".

أراد ماثيو أن يجيبَه جواباً حارقاً قارصاً ويقولَ له، لا أعتقد أن هناك ما هو أكثر دناءة وغياب للمروءة، ممن يتاجر بأمراض البشر، ويستغل أكثر أوقاتهم ضعفاً، ليجرعهم صلوات ربه. لولا كمٌ وافرٌ من الإحساس بالجميل، يحمله بأعماقه تجاه هاريسون، الذي أسره طول مكوثه معهم بحفاوته وترحيبه، ومنحه عملاً في إرسالية البحرين، فاستقر هناك كفرصة ثمينة لإتقان العربية والفارسية معاً، وجعله ينسى مشروعه في استقلال الباخرة بنسلفينيا، التي كانت في طريقها إلى ميناء شنغهاي.

ورغم عدم حمله شهادة رسمية، من أي منشأة طبية، عدا كونه طالبَ دراسات استشراقية أميركياً طموحاً ومتطلعاً، ويملك روحاً متدفقة.

كان يحتاج أخاً أكبر في التيه الكبير الذي يعيشه، منذ غادر الولايات المتحدة، فقام هاريسون بهذا الدور على أكمل وجه، على الأقل ليخبره أنه ذات يوم سيصلان إلى الأرض الموعودة، لكن ما فعله ماثيو جعل المعبد ينهار على رأسيهما.

لا يذكر آخر مرة فتح فيها الإنجيل، على حين أن علاقته مع مواطنه هاريسون، بها الكثير من المشترك، الذي ما من داعٍ لإهداره في مماحكات فلسفية لاهوتية. فيظن د. هاريسون أنه خرج منتصراً، وأن ماثيو بات شديد القرب من الأنوار.

من هنا بدا حوارهما في الأحساء صعباً وغريباً، كأنهما مخلوقان يحاولان التعرف على بعضهما من جديد في الظلمة.

عاد هاريسون يقول: "من الذي اختطف روحك يا بنيّ، هل أغواك الملعون؟".

أجاب ماثيو بنبرة باردة متهكمة، لكنها تشي بفوران داخله: "لعل حرية المسافات الصحراوية الهائلة المنداحة بلا حدود، تجعلنا نحاول القفز خارج سور الحظيرة".

عاد هاريسون يكرر بهدوء من بين أسنانه: "ما أنت صانع بنفسك يا بني؟ هل بعت روحك للشيطان؟".

فتريث ماثيو قليلاً، ثم أجاب بجرأة: "يبدو أن الشيطان أذكى مني ومنك د. هاريسون، فهو يدرب أصابعنا لتشير إلى جهة ما كمصدر للخطيئة الكبرى، فنتناسى من يحاول أن يستثمر في عذابات الناس! ألا ترى د. هاريسون أن الاستثمار في شرور ميدوزا، فقرهم، وجهلهم، ومرضهم، لمقايضتها بأرواحهم وتنصيرهم! ألا يلخص التبشير هنا مقولة فاوست في مسرحية غوته: 'أعطيك الشباب الدائم والمال مقابل روحك'. وهذا بالضبط ما تفعلونه، تسربون أرواحهم وتختطفونها، لتضعوا بدلاً منها في صدورهم مادتكم الثقيلة".

لم يشأ هاريسون لحظتها أن يكمل، فقد وصلا بحديثهما لمشارف مرعبة، لكنه عرف بأن أوّل أمر سيفعله عندما يصلون المنامة، أن يعدّ خطاباً رسمياً

يطلب من ماثيو المغادرة.

وكي يلطف هاريسون من حدة الموقف قال:

”هم لا يتقهقرون بل نحاول جذبهم نحو حرية الإرادة والفردانية، لترسيخ إنسانيتهم، بدلَ مشاهدة الخيبات ترافقهم إلى القبر. فهل هذا سببك الوحيد للارتباط بهذه الفتاة؟“.

أجابه ماثيو بنفس النبرة العابثة الهازئة التي كانت على لسان فيلبي:

”الطبيعة تريد أن تتحقق من خلالنا“.

عقب هذا الحديث، ظلّ هاريسون صامتاً مكلوماً، يرفض التحدث إلى ماثيو أو حتى النظر إليه.

تألم ماثيو في أعماقه، لكنّ هناك شيطاناً ماكراً يقهقه في أعماقه، يخبره أنّ المبشر مهما ادّعى المثالية وحب البشر، فإن خروج خروف واحد من حظيرته، من الممكن أن يطيش بصوابه.

وكان قد تأهّب لترتيبات طرده من الإرسالية.

***

حين وصلوا البحرين، انسكب فجأة سائل النسيان فوق كل هذا، وانشغلوا بجناح كامل، ظهرت به سبع من إصابات وباء الإنفلونزا الإسبانية، وسعوا لعزلهم ومحاصرة المرض، وهاريسون لم يكتفِ ببلع غضبه وسخطه، بل شرع في صناعة مبررات ومسوغات للإرسالية، والتي جعلت من ماثيو يتزوج بمريضته العربية، بحجة أنها كانت على وشك مفارقة الحياة، وتحتاج عناية مباشرة ومستمرة من طبيب، والأمر ما كان ليتحقق دون أن يتزوجها.

لم يبالِ ماثيو بالبحث عن مسوغات للآخرين، فقط كان مشغولاً بالبحث عن سرير ملائم للجازي، يكون قريباً من مكتب الاستقبال والتمريض.

سكن الإرسالية كان مكوناً من ثلاثة طوابق: عائلة بيننج تقطن الدور الأرضي، وعائلة د. هاريسون الأول، الممرضات كورنيلا، وإليزابيث، ومارلين، الدور الثاني، وكانت غرفة ماثيو تحتل نصف الدور الثالث، يشاركه فيها جورج، الممرّضُ الهندي، ولكن جماعته من الهنود الكاثوليك، لم يكونوا في غاية الرّضا

لنزوله في إرسالية بروتستانتية، فدبروا له حيزاً بينهم، وسمحوا له فقط بالعمل في المستشفى إلى أن يدبر له مصدرَ رزق مختلفاً عند أول فرصة.

بينما ظل الجزء المقابل في السطح، غرفاً لتخزين الأدوية في مستودعات مرتفعة، لتحصل على قدر من التهوية والهواء النقي، حفظاً لها من الفساد. ورغم أن رائحة الفينول والمعقم كانت تعبق في الدور الثالث، قرر ماثيو المكوث هو والجازي هناك، إلى أن يجداً منزلاً مستقلاً ملائماً. وبالإضافة إلى ندرة الأسِّرة الشاغرة في المستشفى، لم يَعُد هناك من مسوغ لوجودها كمريضة داخل المستشفى تحتاج لطبابة، فهي قد خرجت من دحل الجني كفينوس، وقد انبلجت عنها صدفتها.

وإذا أحبّت الحمامة ذَكَرَها، صنعت من الغصن العلوي للشجرة عشاً وثيراً، ودعوات جدتها "اللهم سخر لها جنود الأرض وملائكة السماء"، فالملاك الذي نقل لها عافية السماء، وبريق عينيها وصفاءهما، هو الذي كان يرفرف حولها في السطح، فطلبت من ماثيو التخلص من خزانة ثياب قديمة كانت بدأت تأكلها العثة، وابتاعا خزانة جديدة مع سرير، وأغطية من الكتان الهندي الحنون بألوان فاقعة، ووضعت ساتراً من جريد النخيل على زاوية السطح التي كان ماثيو يستحمّ بها.

فرشت سجادة فارسية ثمينة، وجدتها بين مقتنيات ماثيو أسفل الجدار، ورصفت المساند حولها، ووضعت قطرات من ماء اللقاح في زير الماء، لجعل مساحة السطح المحتشد بالخردوات، مكاناً لطيفاً لأمسيات ندية مقمرة.

المياه في البحرين مالحة ونادرة، تعتمد على الينابيع العذبة التي تصب في البحر قادمة من جزيرة العرب، عندها يمد البحارة عيدان قصب، تسحب الماء العذب وتصبه في القرب المصنوعة من جلد الماعز أو علب الصفيح، ولكن الإرسالية لديها طاحونة الهواء، التي تستخرج الماء العذب من بئر في الإرسالية.

وفي بداية المساء يتقابلان، بينهما سفرة صغيرة ومقاعد من القش، تلك التي يصنعها العميان في مدرسة الأيتام بالمُحَرَّق، وتقدم له تمراً ولبناً وخبزاً، وبعض ما ترسله لهم مسز بيننج من طعام اليوم، أو ما تحاول الجازي أن

تطبخه، فالمرأة حينما تطبخ لرجلها، فهي تقوم بفعل حسي مكمّل لعلاقتهما الحميمة، كأنها تحتضنه، أو تقبّل شاربه أو تعطّره.

***

سفينة النقل الهولندية الهائلة (فيلهلمينا)، حينما رست في ميناء المنامة قبل عامين، كانت متكدسة بالبضائع، منها أدوات ومعدات صحية، وأجهزة لترميم مستشفى الإرسالية أرسلت من نيويورك، هناك تمديدات صحية، وقيشاني، ومغاسل خزف، ومن ضمنها حوض استحمام مزخرف بديع، بمقابض وأرجل من نحاس، ولأن دورات المياه في المستشفى كانت ضيقة لم تتسع له، بقي في الساحة الخلفية بين مخلفات البناء، حاولت السيدة بيننج أن تستعمله في غسيل الشراشف والأغطية وتعقيمها، لكنّ بُعْدَه عن تمديدات الصنابير، جعل الأمر صعباً، وظل فترة طويلة خلف المستشفى، بين كراكيب ومبعثرات أثاث قديم، إلى أن فوجئت به السيدة بيننج فوق السطح، وقد التمعت مقابضه وأرجله النحاسية.

وفي بعض الأمسيات، وبحسب توفر المياه، يملؤه ماثيو بالماء وحزم الخزامي والريحان الجافة، ويغطس فيه، بينما تبدأ الجازي بتمشيط شعره الذي طال، وأصبح باستطاعتها أن تفرقه من المنتصف في ضفيرتين.

ضفائره الشقراء تروقها، فتضع في مفرقه معجوناً عطرياً من قرنفل، وبابونج، ومسحوق اللبان معجون بماء الورد، وقليل من زيت جوز الهند، وتضمخ به فروة رأسه.

حتى إذا خرج من الحوض، أشعلت فحماً في مدخنة عطور، وعندما يتجمر، تضع فوقه بعض خشب الصندل، وتُلْبسه عباءة خفيفة، تتخلل طياتها غيمة العطر.

أو هذا ما وشت به الممرضةُ مارلين المتلصصةُ لمسز بيننج، كان ماثيو في الحوض، يريح رأسه على صدر فتاته العربية، وقد ذهب فيما يشبه الإغفاءة، بينما تركع هي خلفه خارج الحوض، وتغرف من الماء والصابون بليفة تمرّرها على كتفيه وذراعيه، ثم تجفف جسده بشعرها.

وجه مارلين المحتقن، وشعرها الأحمر الذي يستدير واقفاً حول وجهها كأسياخ من نار، وصوتها المتهدج... لم يتطلب الأمر من مسز بيننج الكثير، كي تخمن أن مارلين تكابد لواعج مضنية، واستيقنت أن الغيرة تفح وتنفث نيراناً داخل روحها المهجورة.

تشفق عليها، وتربت على كتفها وتحتضنها، وتصلي للرب ليلطف بها، فلا لهب كالغيرة يرمد القلب بلحظات، فنفسها يكاد ينقطع. قالت لها وهي تمسح على جبينها لتدفعها إلى رحمات الرب: "أؤووه عزيزتي مارلين، ذكَّرتِني بمشهد المجدلية، وهي تجفف جسد المسيح بشعرها الطويل، وتدهن جسده بزيت الناردين".

وبدل أن ترمم قصة المجدلية خدوش مارلين، انسكبت حارقة في جوفها فصاحت:

"منعطف الدرج الذي يفضي إلى غرفنا، يسكب عليّ أصواتهما بوضوح، ولطالما هرطقا معاً، فهي تحدثه عن حوض ماء كبير تحت عرش ربها، يشرب منه المؤمنون، وترجوه أن يصلي صلاة المسلمين بإخلاص، ليلتقيا بالآخرة عند الحوض".

همست مسز بيننج مستغربة: "لكن ما سر كمية الضحك والقهقهات المرتفعة بينهما، والتي تصلنا للدور الأول؟ من أين تنبع، وما بينهما من لغة لا يتجاوز 40% من عربيته، و5% من إنكليزيتها؟".

قالت مارلين وقد بدأت تنتظم أنفاسها، وتوقفت عيناها عن الزوغان يميناً ويساراً: "هي مجرد شهوة ستزول، ليس حباً حقيقياً، إن لم يتشاركا أعماق الثقافة".

تلك الليلة صلت مارلين طويلا لربها: "يا ربُّ، أنرْ قلبي بنورك، رطّبه برحمتك، أنا ابنتك الضالة وسط ظلمة الشهوات، لا أمل لها إلّا... قناديلك".

***

في نوفمبر يتلطف الجو كثيراً في المنامة، ولا نعلم هل هي نسمات البحر، أو شريك متدلّه هو من أعاد ماء الحياة إلى وجنتي الجازي، لكن باتت خطواتها

أسرع وأكثر رشاقة وغنجاً، وعندما يطلب منها ماثيو أن ترافقه لقلب المدينة القديمة، كانت ترتدي عباءتها، ويخرجان، يتأملها بشبح ابتسامة ويقول: ”انزعي العباءة، بودي أن يرى الجميع هذه الزوجة الفاتنة التي تماشيني“، فلا تفعل، تشعر بالعباءة إحدى طبقات جلدها.

يذهبان على الغالب يوم الثلاثاء للسوق، فعمليات د. هاريسون الاثنين، وعيادته الأربعاء والخميس، والثلاثاء بعد جولته الصباحية يهدأ العمل في المستشفى نوعاً ما، ويصبح هناك متّسع للتسلل وتمضية الوقت مع الجازي، أو الذهاب معاً لتسوّق بعض الحاجيات، ومنذ البداية قررت الجازي أمرين: ألا تنزع عباءتها في السوق، وألا يمسك ماثيو يدها. تقول إنّ الشارع سيستريب من أميركي أشقر، يرتدي بنطالاً يمسك بقوّةٍ يَدَ عربية. عادةً حينما يمر بهما مجموعة من الصبية يصيحون ببعض الجمل، فيلتفت إلى الجازي ويسألها: ”ماذا يقولون؟ يبدون عدوانيين“، فتجيبه: ”إنّهم ينشدون أغنية شعبية متداولة يعيرون بها الشقر (حمر عطر عيون العنز). هم أيضاً يتمنون أن تطير بك الشياطين“.

يقهقه ماثيو بصوت مرتفع وهو يلقي برأسه للخلف، ثمّ يهمس للجازي: ”لماذا؟ ماذا صنعت لهم؟“.

فتغمض بخجل وتقول: ”ربما لأنك لا تشبههم“، ثم تهمس بدلع: ”أو يمكن لأنك أخذت بنتهم“.

فيقول بإنكليزيةِ الوايلد ويست الشّرسة: ”بودّي أن أوقف هذا الشارع وأعانقك، وأزأر بصوت تردده أشرعة الخليج بأن هذه الثمينة لي، ولن يأخذها أحدٌ منّي... طارت الشياطين بكم أنتم“.

***

تظل الرياض جرحاً لا يندمل داخل الجازي، قد تنساه لسويعات ثم يعاودها الأنين. تشعر بأنها في داخل حلم طويل، ستستيقظ منه فتجد نفسها وسط النخل، تسمع صوت السواني، بينما أمها تُعِدّ جريشاً لإفطار العيد، وجدّتها تفك اللفائف عن يدها لترى الحناء، وتسمع الصبية يهزجون في الخارج (أبي عيدي...

عادت عليكم... في حال حسنة)، ولكنها إلى الآن تبحث عبثاً ولم تكتشف الباب الذي يخرجها من الحلم ويعيدها إلى الرياض.

في قلب المنامة دكاكين تزدحم بالبضائع الهندية؛ من أقمشة حرير مطرزة، وأحذية نسائية لطيفة مشغولة مقدمتها بالأصداف، وأساور فضية وعطور، وأسطوانات الغرامفون. عند المرور تستوقف الجازي ماثيو لتنصت لصوت الغرامفون: تجفل... وتشعر بيمامة تنوح في جوفها، ترتجف أطرافها، وتهمس في أذن ماثيو: "مشتاقة إلى الرياض، أود أن أعود إلى هناك". كان صوتها يرتجف وهي تكابد الحنين الجارف لأول مرة، لحظتها يتمنى ماثيو أن يتحول إلى ذلك المارد، الذي نقل عرش بلقيس بلمح البصر، ليأخذ الجازي بجولة فوق الرياض، ومن ثم يعيدها برفقته، فهو لا يطيق المكوث وحيداً بعيداً عنها. وليرمم ثقوب قلبها، ابتاع لها آلة غرامفون وأسطوانات شمعية لموسيقى فارسية وهندية. وابتاع لها مراوح تعمل بالغاز، فالجو أحياناً يصبح خانقاً ورطوبته لزجة، وتشعر الجازي التي ألفت جفاف هواء الهضبة النجدية بضيق النفس، وتصبو إلى نسمات صبا الرياض، التي ترق مع المساء بعد أن تمر على واحات النخيل.

أشار على د. هاريسون أن يبتاع المزيد من المراوح للمستشفى، فالعمليات تجرى بغرفات حارّة خانقة، مع رائحة المعقمات والأدوية القوية، وهم يخرجون من غرفة العمليات، وقد ابتلوا من رأسهم حتى أخمص قدميهم.

***

في تلك الأيام تحديداً، توثقت علاقة الجازي مع كوثر، وكوثر صبيةٌ بحرينية يتيمة، قد حضرت في البداية كمرافقة لوالدتها التي تعاني من غبش النظر، فقام د. هاريسون بعملية لإزالة الماء الأبيض، ومن ثم أصبحت تتردد على المستشفى، لتتعلم من كورنيلا كيفية تعقيم الشاش وتغييره لعينَي أمها، قبل أن تصبح صديقةً للجميع.

استلطفت الجازي لهجتها العربية المشبعة بهواء البحر الثقيل، وهرعت كوثر نحوها، تحادثها وتسرّ إليها كجارة قديمة.

وبما أنّ كوثر من أولئك البشر الذين يوجد خلف قفصهم الصدري مقعدٌ شاغرٌ لجميع من يمر بها، توقفت عن صنع الدمى من عصى شجرة التين وأعوادها الناشفة، وجعلت من الجازي دمية لها.

تزوجت كوثر عندما كانت في الحادية عشرة، وأجهضت في الثانية عشرة. بعدها سافر زوجها للهند ولم يَعُد. بعضهم يقول إنه توفي هناك، وبعضهم الآخر يقول إنّه تزوج بهندية وظل هناك، لكن كوثر لم تكترث، كانت تدعو رب الزهراء في كل خطواتها، ألا يعودَ ويأخذَها لبيته الذي يشبه الدهليز.

ماثيو يبهجه سماع العربية تتدفق من لسانهما، فيسمع كشكشة ربيعة من كوثر، وكسكسة تميم من الجازي.

ولأنه يعرف بأن الكوثر هو أحد أنهار حديقة المسلمين العلوية، بات ماثيو يناديها كوثر نهر الجنة، وهو يشعر بامتنان فائق لها، وهي تجالس الجازي، وتسايرها، وتلطّف وحشتها.

وحينما سألت الجازي عن سر حضورها هنا بعيداً من أهلها، أجابتها الجازي وهي تتطلّع إلى السماء، كأنها تقرأ سطوراً خطت هناك: ”مثل هذا الأمر يتطلب مشيئة علوية، أو حدثاً عظيماً، أو وباء، يجعل رائحة دروب الرياض تعبق برائحة الحنوط، والأكفان، وعويل الفقد“، وتكمل: ”أو لعله قدر عبد الشافي الذي شاء له الله شهادة أن لا إله إلا الله“.

عبد الشافي يجري إليهما في آخر المساء، كسلطان يهرول لحريمه، ليشاركهما الطعام، هرباً من كآبة شرفة الليمونادة. يأنس بقهقهاتهما، وأحاديثهما، وأحياناً يجدهما وقد تشعلقتا بطرف جدار السطح المرتفع، فبيت الإرسالية هو المنزل الوحيد المصنوع من الطابوق في تلك المنطقة، بينما المنازل حوله مصنوعة من طوب الجير البحري، ومسقوفة بالخشب وسعف النخيل.

الفتاتان تحدقان في الأفق، ترقباً للساحرات الفاتنات اللواتي، تقول كوثر ”إنهن يحضرن من عمان وهن يمتطين جذوع النخل، ويلتففن على جبل دخان، ويأخذن قبضة من ترابه التي بها جذوة الخلود، ويَعُدَن إلى عمان“.

وعندما لا تشاهدان شيئاً كهذا، تفسر كوثر غيابهن، بأن الساحرات ينطلقن من عمان مع عتمة المساء، فلا يصلن إلا متأخرات منتصف الليل.

***

ولأن الجازي انسحبت من جلسة الليمونادة، وباتت تنكمش مساء في غرفها العلوية، كسوسنة تغلق بتلاتها وترفض النزول، أصبح ماثيو يتخلف عن الشرفة أيضاً، ويفضل المكوث جوارها، ومحاولة تعلم منها كل يوم عشر مفردات عربية، ويعلّمها بدوره عشر مفردات إنكليزية، وعلى الغالب يخالطه بعض الضحك والعربدة، وأسماء أمور خاصة وحميمة في علاقتهما. وكلّما ارتفع صوت الضحك، ظهر عدد من الوشايات الصغيرة ضد الجازي، باتت تلتف داخل سكن الإرسالية كعفاريت ماكرة.

لم يكن مصدر الوشايات جميعها مارلين العاشقة، لكن قد تكون عين التفرس المستريبة التي تسلط على الغرباء، أو عيناً باتت تزعجها مشاركة ماثيو لهم خمس دقائق صامتة، بتعليقات مقتضبة حول المرضى، أو خبر عجيب التقطه من الصحف القديمة، قبل أن يهرول صاعداً لفتاته.

ومسز بيننج ما برحت تبحث عن تلك المنطقة البشرية الرخوة، أو ربما ثقب تستطيع أن تسكب ضوء الرب ورحمة يسوع من خلاله، ولكن لم تجد هذا الثقب في روح الجازي. قد تقف جوارها على طرف البيانو للحظات مترنمة، عندما تبدأ في عزف "Nocturne" لشوبان. ومن ثم سرعان ما تهرول بخطوات قافزة كظبي مذعور إلى غرفتها، عندما يلج أحد الرجال المكان.

لا تطبخ جدياً بلبن أمه

"أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك. ولا تطبخ جدياً بلبن أمه" – **سفر الخروج**

تذهب الجازي إلى أروقة المستشفى أحياناً بحجة نقل غداء ماثيو، ومن ثم تحاول التسلل إلى المريضات العربيات لتثرثر وإياهن، تجدهن جميعاً يتمتمن بمحفوظاتهن البسيطة من القرآن، تضحك، وتخبرهن أن غرفتهن تذكرها ببيت المطوعة أم راشد في الرياض. وعندما يعلمن بأنها كانت تقصد مطوعة، يرجونها أن تقرأ على رؤوسهن القرآن، وتجيبهن بأنها تحفظ جزء عم فقط، فيرجونها أن تكمل التلاوة، فكل ما أتى من كتاب الله هو خير.

***

كانت من المرات النادرة التي يعقد فيها د. هاريسون حاجبيه، وتنتفخ أوداجه، ويستدعي ماثيو إلى مكتبه متسائلاً: "هل زوجتك تطيل الثرثرة مع المريضات حول طقوسهن الدينية؟".

من جملته الأولى، فهم ماثيو أن هناك أموراً بدأت تتشعب خلسة من خلفه، ولا بد أن يحسمها بقوة، قبل أن تتطور. فنظر إلى د. هاريسون وسأله كمحقق شرطة لئيم: "مصادرك؟".

ويبدو أن لهجته كانت من الحدة والاستفزاز، ما جعل د. هاريسون يرسم ابتسامه باهتة على وجهه ويجيبه بمقطع من سفر الأمثال: "عينا يهوه في كل مكان، تراقبان الصالحين والطالحين".

احتقن وجه ماثيو وأخذت عروق صدغيه تنبضان بعنف، وقال: "هل هذه الخطيئة الوحيدة التي رآها يهوه؟ ماذا عن جروح المرضى التي تُترك أيّاماً دون تغيير ضمادها؟ ماذا عن المبولة في جناح النساء التي تُترك من الصباح حتّى المساء دون تغيير؟ ماذا عن أكياس السكر والشاي التي يقدمها شيوخ المنامة للمرضى، فيسرق نصفها الممرّضون والخدم؟ لماذا لم يرَ يهوه زوجتي عندما تنازلت عن طبابتها في المستشفى، وأكملت رحلة التعافي في المنزل، وأفسحت سريرَها لمريضٍ آخر؟".

أخذ د. هاريسون يلملم الأوراق التي على مكتبه، كأنه يسعى إلى لملمة هذا التراشق بسرعة، وبأقلّ قدر من الخسائر. ثمّ تمتم وهو يتنهد محاولاً تجنب التقاء عينيه بعيني ماثيو: "الشيطان يكمن في التفاصيل...".

عندها رنّ الهاتف الداخلي بصوت ملحّ ومتتالٍ، مزّق الصمت وجوّ الغرفة المثقل بالريبة. وبعد عدة كلمات في فوهة الهاتف، طلب من ماثيو أن يهرع إلى البوابة، فهناك صياد سفينة لؤلؤ ينزف ويده مبتورة، وهو بحاجة إلى جراحة عاجلة، قبل أن يلتهب جرحه ويتجرثم دمه.

***

الحادثة الثانية، ويتضح من خلالها ملمس الأيام التي قضتها الجازي في سكن الإرسالية، عندما بدأت الممرضة مارلين تتقرب منها، بعد أن أتقنت بعض العربية، وباتت تحاول أن تحادث الجازي بها، متذرعة أنه نوع من التدريب على العربية، وبدأت من هناك طريقها لتتعمق في التفاصيل. سخنت أرنبة أنف الجازي بخجل، فهي تسألها عن تفاصيل عميقة دقيقة في علاقتهما الحميمة... بشكل يومي وملحّ.

وفي غرفة الشاي بالمستشفى، كانت مارلين تلمح مراسلات ماثيو المكثفة مع مندوب السلطان في الرياض، بهدف استخراج أوراق ثبوتية للجازي، ووثيقة سفر، تمكنها من السفر للولايات المتحدة. فسألته بصوت منخفض، وهي تنظف صينية الشاي من فتات السكر: "منظر ضفائرك على أكتافك يبدو مفجعاً، هل طاقية العمليات تغطيه تماماً؟ ورائحة معجون الأعشاب والعطور الثقيلة ستصبح خانقة في غرفة العمليات، عطور الشرق تصيب الأعين بالاحمرار والحكة". ثم صمتت لبرهة قبل أن تسأل: "هل د. هاريسون موافق على هذا؟".

حاول ماثيو أن يتلطف مع فضولها، ويستجيب لسؤالها الغريب، فقال لها بنصف ابتسامة: "لا تبالي، لقد اعتاد د. هاريسون وتآلف مع ضفائري، هو فقط حين يراها يبدأ في ضرب فمه والصياح كالهنود الحمر، ليخبرني أن الرجال البدائيين وحدهم يطيلون شعورهم، ويعقصونها ضفائرَ خلف ظهورهم".

أجابت بنبرة وعظية كأنها تتلو صلاة: "نحن نريد إنقاذ أرواحهم".

رفع ماثيو أحد حاجبيه بسخرية وقال: "من هم؟".

أجابت بصوت خافت: ”من قطعْنا البحار وخلفْنا الأوطان وراءَ أكتافنا من أجلِهم“.

أجابها ماثيو بتهكم، وهو يحاول أن يعلق ابتسامة على وجهه: ”هل سمعت صياح أحدهم في قاع الجحيم يريد النجاة... ساعديني مارلين؟“.

قالت: ”سمعت صياح التخلف، والأمراض، والفتك الذي يفتك بهم وهم في طريق الضلال، لننجو بهم عن هذا، وننجو بأجسادهم بالطب“.

لامس ماثيو كتفها بأطراف أصابعه، فقد اغرورقت عيناها وكادت تبكي، وقال: ”عزيزتي مارلين أيتها الروح النقية، ولكن هذا نتاج العلم وليس الكنيسة، بعدما قمنا بشنق آخر قسيس بمصران آخر ملك، نهض العلم، بينما التبشير الذي نقوم به الآن هو عين كاشفة لنهم السياسي للاستحواذ“.

تحول أسفل عيني إليزابيث إلى الأزرق الكامد، وبات صدرها يعلو ويهبط. لم يتضح لها ما يقصد تماماً، لكنه كلام مزعج لم تألف سماعه.

وخشية أن ينفض هذا الحوار، دون أن تسأله السؤال الذي يلحّ في رأسها دوماً، سرعان ما أردفت، وهي تحاول أن تحك شفتيها الناشفتين المتقشرتين دوماً، بأسنانها البارزة المتفرقة: ”لمَ أنت حريص على استخراج أوراق زوجة لامرأتك؟ على حين بالإمكان أن تكون جاريةً لك؛ فدينُ العرب يسمح لهم بهذا“.

هذه الكلمة كانت كطلقة رصاصة مرت جوار أذنَي الوايلد ويست، وعرف أنها ستستمر في استفزازه ولن تصمت، فاستدار إليها وعيناه تقدحان، مزمجراً، ومن بين أسنانه همس: ”أيتها البلهاء، يا زوجة الرب، أنت تزوجته، أين أوراقكما الثبوتية؟ أنا عندما تزوجت الجازي كان هناك شهود من عائلتها وصكّ ثبوتي“.

تقهقرت خطوتين، كان يبدو منفعلاً وعنيفاً، قالت بعد أن استنشقت نفساً عميقاً، وعرفت فداحة ما تفوهت به: ”أنا آسفة لفضولي وتطفلي، لا بأس سأصلي لك كي تتحكم بفورات غضبك ماثيو“، ثمّ أضافت بصوت خافت: ”سأصلي للجازي أيضاً، لعل روحها تتفتح لأنوار يسوع“.

***

في أول أيام وصوله المنامة، تشارك والممرض الهندي جورج غرفة علوية، فكان ماثيو وقتها يحرص أن يوزع مهام تنظيف الغرفة وترتيبها بينهما بعدالة، ليمنع الأمور أن تنزلق، فتخضع الأدوار لتراتبية شكلها التقليدي، فيصبح هو السيد الأبيض، وجورج الأسمر التابع المنغمر في خدمته. ويبدو أن هذا الأمر جعل جورج يحترمه بعمق وامتنان، فهو من نقل لماثيو همساً دون أن يحدد أسماء، بأنه عندما يرون الجازي تلتف برداء أحمر لتصلي به خمس مرات في اليوم، وأينما تختار، يتهامسون حولها كقطة غير مدربة تتبول في زوايا المنزل.

في تلك الليلة قرر ماثيو أن يطيل الجلوس والحديث في شرفة الليمونادة، لرغبته في أن يستكنه المزاج العام للمجموعة، فقد حدس أن هناك شبكة من النميمة تحاك خلف ظهره.

ولم يخب حدس ماثيو، فقد اقتربت منه الأخت كورنيلا تلك الليلة بجسمها الضئيل، وعروق رقبتها المشدودة حتى أثناء الجلسة المسترخية، وحاجبيها الباهتين، وشعرها المرتب والمشبك بدبابيس بعناية، وقالت: ”لا شيء صديق للإنسان وجسده كالليمون! فهو ينعشه صيفاً، ويطرد عنه الرشح والزكام شتاءً“.

فقال لها ماثيو: ”صدقتِ“ وهو يتناول كأس الليمونادة منها، وقد ارتاح للطاقة التي ينشرها حضور كورنيلا عادة، فكل شيء هادئ مستقر في مداراتها. وهمست وهي تلوح بإيشارب حرير مطبوع بورد إنكليزي، أخذت تلفه حول شعرها: ”انظر، سأضعه على رأسي لأشارك الجازي حتى لا تشعر بالوحدة والغرابة، وأعدك إذا شاركَتنا زوجتُك أمسيّتنا، سنتحدث بالعربية احتراماً لها. وبإمكانها أن ترتدي الغطاء الذي يروقها، مع أننا هنا كأخوة، ولا أعتقد أنّ الشهوات ستجد حيزاً لها بيننا“.

ظل لوهلة مأخوذاً وممتناً للطفها ودماثتها، ولكن شعر بأنه يجب أن يوضح لكورنيلا أمراً، قبل أن يسعى في هذا الاتجاه مع الجازي، فقال لها مسوغاً أو مبرراً: ”الجازي تربّت ونشأت عليه، وما برحت تجد صعوبات في التخلي عنه،

وأنا أحبها ولا أود أن أرغمها على أمر خارج إرادتها. عموماً الحجاب هو فكرة اقتصادية وليست دينية، تصاحب المدن والوفرة، فالشعوب المستقرة في المدينة توزع الأدوار ما بين الفضاء المدني والمنزل، بحيث يصبح الرجل الذي بات يمتلك فائضاً من الثروة (نساء، ماشية، عبيد، ذهب) بحاجة إلى التأكد عندما يموت، من تمريرها إلى أولاد من صلبه؛ فجاءت فكرة الحريم، لتقييد حراك المرأة، والحدّ من اختلاطها مع الغواة في العالم الخارجي".

ثم حك شعره أسفل ضفائره وقال: "وبحكم دراسة الأنثروبولوجيا، اكتشفت أن الحجاب موجود لدى جميع شعوب الأرض، حتى اليونان، بل هو وَرَدَ في سفر التكوين، في العهد القديم، إصحاح 24 العدد 65، وفي الإصحاح 38".

لم تُبْدِ كورنيلا شكاً أو استنكاراً، أو على الأقل لم يظهر هذا على تعابير وجهها، فقط كانت تهز رأسها بنوع من التفهم. وحدها مارلين وجدتها فرصة للمشاركة بالحديث عند هذه النقطة. حدقت بماثيو، وكانت عيناها تبرقان، وباغتتهما بسؤال: "هل الحريم باستطاعته أن يضبط تحركات المرأة ويضمن نقاء النسل؟".

أجابها ماثيو: "لا شيء يضبط سلوكيات المرأة سوى العشق، عشق هائل جامح يستحوذ على وجدانها، ويعميها عن رجال الأرض". ثم نهض واقفاً فجأة وهو يغمز لمارلين بعينه خلسة... وغادر.

***

الأمر لم يَرُق ماثيو ليلتها، بل شعر أن هناك حديثاً مضمراً بين المجموعة، حوله، وزوجته ولباسها، وغرابتها، وقد يرافقه استنتاج حوله، أنّ شابّاً أخرقَ جامحاً، تنكّر لماضيه وتاريخه، وتزوج بعربية نتيجة فكرة طائشة.

وقرر أن يخفف من مشاركتهم وهو يتمتم في نفسه: "نعم، نعم، أعرفهم هذه الرؤوس أسيرة الجواب الواحد، سرعان ما يلوحون بوجهك بتهمة الهرطقة، إذا حركت مسلّماتهم من على الأرفف".

احتقنت هواجسه وحواره الداخلي مع نفسه، وبات يتوقع في أي لحظه استدعاء من القسيس بيننج، وطرده من فريق الإرسالية، هذا إن لم يسْعَ أيضاً

إلى الوشاية به لدى السلطات البريطانية، بحيث توقع عقاباً، أو ترحيله في سفينة إلى أصقاع الهند، أو الوشاية به لدى سلاطين الخليج أنفسهم، بأنه قد اختطف إحدى رعاياهم ومريضاتهم وتزوجها.

ولكن ظلت جلسة الليمون على هدوئها ووقارها، ولم تنزع أيّاً من ثيابها الرسمية، ولم يقم أي طرف بأي من التحركات العدوانية، بل مرروا هذا الملف العسير إلى يسوع ليبتّ فيه، وبقيت صلواتهم منتظمة وعميقة وفي أوقاتها.

ولكن عادة هذه الفترات المستقرة الهانئة الوقورة، لا تعجب الأقدار العابثة، فتسعى إلى معابثة البشر ومشاكستهم من جديد، ولم تمر سوى أيام، قبل أن يعلن ماثيو للجميع بأنّهما، الجازي وهو، يترقّبان مولوداً.

انقلب مزاج جلسة الليمونادة ومسارها تلك الليلة، فترقُّب حياة جديدة عادةً ينعش أي مكان ويبهجه، حتى لو كان في ثكنة عسكر. ولم تَعُد الأعين مترقبة متفحصة، بل باتت جلسة الليمونادة تفور بالأحاديث والتعليقات المتحمسة، حول تعميد الابن، واختيار عراب له، والقس بيننج يتلو: ”وباركهم الله وقال لهم أثمروا، وأكثروا واملؤوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض“.

تيقّن وقتها ماثيو أنّه آن الأوان ليجد بيتاً مستقلاً له وللجازي.

مع اقتراب موسم أعياد الميلاد، وتناقل خبر حمل الجازي، بدأ الجو يرتاح، وترتخي الأعصاب المشدودة بالتوجس. جو من الفرح والترقب يعم منزل الإرسالية الأميركية. مع بدء الترتيبات، أعلن الممرض جورج رسو السفينة ذات العلم البريطاني في الميناء، التي تحمل عادةً بريد أعياد الميلاد.

ذهب جورج لجلب البريد صباحاً، ولم يعد إلا في نهاية النهار، وهو يحمل كيساً ثقيلاً من الكتان على ظهره.

كان هناك جزءٌ كبير من الهدايا مرسَل من الكنيسة، ومعظمها عبارة عن دمى لجنود صغار، ودمى توزع على الأطفال عادة مع حكاية المسيح، فتغدو كل دمية هي مسيح صغير، تربّيه الطفلة بأعماقها وداخل وجدانها.

وكانت السيدة بيننج، وآن، والأخوات إليزابيث وكورنيلا ومارلين، مشغولات بإعداد وجبة عيد الميلاد، فهن عادة يَدعونَ العائلات الفقيرة التي تجاور الإرسالية، ولا يتجاوز عددهم خمسة عشر شخصاً، ولكن في النهاية، يجدن أن عدد الحضور يرتفع ليصبح خمسةً وثلاثين.

الوجبة تتكون من أرزّ يعلوه لحم ماعز مزيّن بالزبيب والمكسرات، منضد فوق صينية، يصل قطرها أربعة أقدام تتوسط حصيرة، كان هناك العديد من الصواني في الغرفة، وصحون تمر صغيرة، وعندما تحاول الأخوات دسّ فطيرتَي تفاح على طرف المائدة، فلا تحصل على شعبية وتظلّ كما هي لا تمسّ.

اقترحت الجازي على كوثر أن تشاركا في إعداد الوليمة، عبر طبخ خروف صغير، بجريش القمح المشرب باللبن.

ولوَلَت إليزابيث حينما سمعت بهذا الاقتراح قائلةً: ”في سفر الخروج: ’أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك. لا تطبخ جدياً بلبن أمه‘“، فتجيبها الجازي بتعجب: ”لكننا لن نطبخه بلبن أمه، فقط سنطبخ مجروش القمح باللبن“، فتشيح إليزابيث بوجهها قائلة: وما أدرانا، لا بد أن يكون عشاء عيد الميلاد مطهراً من كل دنس“. ثم وضعت يديها على خصرها الثخين وقالت بنبرة يشوبها التحدي: ”إذا أردتما المساعدة بإمكانكما تقطيع البصل، فنحن بحاجة إلى الكثير منه“.

لم تخبر الجازي ماثيو بهذه الأحاديث، فهي تعلم أنه سيذهب على الفور ليتعارك معهنّ. أمضت ليلتها في تلك المنطقة التي تظن فيها أنها داخل حلم تنتظره ينتهي لتبدأ حياتها. هرمونات الخلق التي تمور في عروقها، تجعل روحها بهشاشة قشر البصل الذي طلبت منها إليزابيث أن تقطعه. الروح التي تتحرك وسط رحمها وسوائلها ولبنها وجديها الصغير الذي يطبخه رحمها... ارتفعت حرارتها بالرعب، ولم تغادر مرقدها في اليوم التالي.

***

كتب ماثيو إيدن في رسالته لأمه ليلةَ عيد الميلاد:

ما زالت الجازي على موقفها، ورفضها الانسجام مع مجتمع طاقم المستشفى.

كنت أعلم أنكِ لن تدهشي كثيراً لزواجي، فقد اعتدت أن أعود للمنزل برفقة مخلوق! قط أو طير، أو فرع شجرة، أو صديق، فتسمّيني بجامع الخردوات؛ لكن هذه العربية ثمينة ونادرة.

شكراً على ما بعثته لي، وسأعد ما فيه كما طلبت، للتأكد من وصول كل شيء، فلصوص الميناء زادت أعدادهم مع مجاعات الحروب، وقد وجدت زيتاً من علامة "مارس"، وألواحَ صابون، ومناديلَ، وجواربَ، وعلبَ تفاح مجفف، وكعكاً، ودببة، وكنزةَ صوف حمراء لابني القادم، حين رأيتُها، شعرت برغبة في البكاء.

أهم من كل هذا الصندوق، عبق برائحة منزلك ماما، وصرر الخزامي المنثورة بين الأدراج، وشجرة الطالونيا التي تطل على غرفة الجلوس.

أموري تسير على ما يرام، ومن يعلم، قد نمضي الكريسمس القادم بينكم... ابنك المحب.

ملاحظة: والدتي الغالية، ما من داعٍ أن تنبهيني هذا التنبيه المزعج والمؤلم معاً! أن للعرب ذيلاً في مؤخرتهم، ورجالهم يرتدون الثوب/ الدشداشة، ونساؤهم الفساتين الطويلة لإخفائه! هذه خزعبلات جهلة ومهرطقين، ولا أدري كيف وصلَت لرأسك، أنتِ المسيحيّة الورِعة.

ماثيو إيدن
المنامة 1919

لم يشر لأمه أنه أشهر إسلامه على يد شيخٍ وهّابي، وأنه بالكاد نجا من الختان، لأن الحلاق الذي كان يقوم بهذا الأمر في الرياض قد مات في الحمى الإسبانية، ولكن الشيخ أشار لها في صك إسلامه كفعل مؤجل، لا بدّ من تنفيذه لإتمام طهارته.

نافذة زرقاء

مذ عرف ماثيو بخبر حمل الجازي، بات يخشى عليها بشدة، جسمها الرقيق الخارج للتو من حمى مهلكة، وغربتها، والحنين الذي يقضمها، والكون الذي يتكون بداخلها.

فهم باكراً ما يشعر به الآباء تجاه أولادهم، هو ليس عطفاً وشفقة، بل نوعٌ من الزهو، هو الانتصار الأول في نزال الحياة/ الموت. الحرب المضمرة داخلنا ضد المادة والفناء والتلاشي هي توق حفظ النوع وتجذيره ونشره.

البيت الذي رشح لهم للسكنى قريب من المستشفى، وفي الوقت نفسه تتوفر به التهوية الجيدة التي تكفل للجازي رحلةَ حملٍ سعيدةً يسيرة.

كتب في يومياته تلك الليلة:

> عملية الصعود اليومية من وإلى السطح عدة مرات، لا أعتقد أنها فكرة صائبة، ومع أن الجازي تقوم بها برشاقة، وعرقوب الغزال بالكاد يلامس الدرج، لكنني أعتقد أن في أحشائها الآن نطفة أنجلو ساكسونية من غابات بفاريا، وتريد أن تنمو وتتمدد مستجيبة لشفرة سلالتها.
>
> أول من قصدت لمساعدتي في الحصول على منزل، كان مثقف المنامة أبا عبد الله، الذي ما برح يكابد حزن هزيمة ألمانيا، ولم يكن مزاجه يسمح له أن يقدم خدمة لأميركي، ساهم جيش بلاده في هزيمة ألمانيا. ولكنه تكرماً، ومع نبل الأخلاق والدماثة البحرينية المعهودة، أحالني على بو يوسف، الذي قال إنه سيستفسر ويردّ عليّ، لكنّه سألني: "ما شروطك؟"، فقلت له أن يكون منزلاً مضيئاً، منعشاً، متيناً، نظيفاً... ومكتمل المرافق.
>
> ولم يتأخر كثيراً، ما لبث أن حضر في اليوم اللاحق، وهو يقول: "لقد وجدت لكَ منزلاً قد سبق أن نزل فيه قبطان إنكليزي ورفيقته الهندية، ولم يمكثا فيه طويلاً بعد أن تم نقل القبطان إلى الجبهة في بلجيكا".
>
> ولكن عندما شاهدته الجازي لأول مرة، لم يبرق وجهها، ولم تلتف داخله بخطواتها الرشيقة التي تلمس الأرض بلطف، فقط أحبت نوافذه العلوية، خشبية زرقاء، مزخرفة بزهور وأوراق شجر، وكانت عالية،

ينسكب هديل اليمام منها، والكلمة الأول التي قالتها: ”سأشعر هنا بالوحدة والوحشة بعيداً من ضوضاء الإرسالية“، ويبدو أن هذا الذي جعلها تلح على كوثر أن ترافقها هناك، لتمضيا أيامهما معاً: تصعدان السطح وتتأملان عمق ضفاف الخليج... ترقباً للساحرات.

كان هذا المنزل هو مسقط رأس آدم ابننا، ونافذته الشمالية الزرقاء هي التي فاضت منها روح الجازي، طافت بها النسائم حول جبل الخلود، ومن ثم تصعدت بها نحو الأبدية.

بنيتها التي أنهكها المرض، مع مخاض طويل لخروج هذا المارد الأنجلو سكسوني منها، أنهك القابلة التي جلبتها كوثر لمساعدتها، مما جعلني أهرع للإرسالية، فتطوعت مارلين لمرافقتي.

***

بعد شهور من موت الجازي، تهامست إليزابيث وكورنيلا بوجل: ”لقد أخطأنا بإرسال مارلين لتوليد الجازي، لم تستطع السيطرة على النزيف، كما أن المنشفة التي سدت بها رحمها سببت لها التهابات وتقرحات“. أما قضية أن مارلين تعشق ماثيو بجنون، وتعتبر الجازي غريمتها، فلم يتلفّظا بها، ظلّتا صامتتين مع شعور ذنب يقرص أعماقهما. لقد سهرتا تلك الليلة مع حالة ولادة عسيرة في الرفاع، فلم يبقَ إلا مارلين لتقوم بالمهمة. كانت تردد وهي تولدها: ”وباركهم الله وقال لهم أثمروا، وأكثروا واملؤوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض“. لم تكن تتصور أن يصبح هذا الفتى مسلماً... تتمتم: ”ولد ماثيو وإن لم أنجبه أنا، لا بدّ أن يصبح مسيحياً صالحاً“.

***

التقم ماثيو حوت الحزن، أطلق لحيته، أشعثت ضفائره، بات كرجل الكهف، يمضي كالمذهول وقته فوق سطح منزله، يترقب النجمة التي تبرق على الخد

الشمالي، ينتظر الساحرات، جنيّ الغار الأبيض، أيّهم أخذ الجازي؟ ومن منهم سيعيدها، ليرتفع العالم حوله، ويرفع عنه هذه الخيمة الثقيلة السوداء.

يسترجع كم خطَّط ورتب لأوراق الجازي، وجواز عبور لها لأميركا. كان سيعيش في مدينته الصغيرة قريباً من كاليفورنيا 1000 سنديانة، وسيسمي بيتهما 1001 سنديانة ونخلة، إلى أن تألف الجازي أجواء أميركا، ومن ثم سيقدمها للمدن الكبرى رويداً رويداً وبحرص. لا يريد أن تكون تجربتها منهكة، كتجربتها في الإرسالية.

لا يشعر بكوثر عندما تتسلل وتلتقط آدم، وتغسله، وتغير قماطه، وتلبسه ملابسَ جديدة، ومن ثم تطوف به على أمهات المنامة، يحوقلن ويحضننه، وتنسرب دموعهن، ويتدفق الحليب من صدورهن. حتى اللواتي فطمن أبناءهن من ثلاث سنوات، يرضعنه من جديد، إلى أن يضحك ويتجشأ هانئاً ويبتسم وينام. تهرع به لد. هاريسون، فيقيس محيط رأسه ويزنه، ويتفحص أجزاء جسمه، ومن ثم يقول: ”بنية قوية تفيض بالحيوية، اهرسي له بعض البطاطس مع لبن الماعز، وحاولي أن تطعميه عندما لا تكون هناك مرضعة، وبإمكانك التنسيق مع آن، لترتب له حفلة تعميد بسيطة“.

***

آخر رسالة لماثيو إيدن قبل أن يغادر المنامة، كانت موجهة لأمه كتب فيها:

> أن تصبحَ أرملاً وأنت في الخامسة والعشرين، تحتاج أن تطور ميكانيزمات جبارة، تعيد ربط وشد عجلات روحك التي تناثرت، فأصبحت كحقيبة من الخردة والبراغي الصدئة.
>
> أنا أرمل، وهناك طفلٌ صغير تتناوبه المرضعات، وحزن كبير أنهكني، جعلني أتمنى أن أصعد جبل دخان وأقذف بنفسي، مع إحساس عميق بالذنب لموافقتي بأن تكون مارلين قابلتها، رغم أنه لا توجد تهمة واضحة ضدها.

أطرد الوساوس لأهدأ، وأعرف أنني لن أستطيع ذلك، إلا إذا غادرت هذا المكان، كما أن د. هاريسون شخّصها بحمّى نفاس شديدة، لم يستطع جسمها مقاومتها.

الكون الماكر يلوح بغوايته، ونحن في قاع الحزن، جعلني أستيقظ ذات صباح لأكتشف أن آدم خطا خطواته الأولى. طفل يتقد حيوية، فَرِح بأربع أسنان في الأسفل، واثنتين في الفك الأعلى، انسكب في عروقه حب أمهات المدينة، فبات مدللاً نزقاً، يصيح بصوت عالٍ، ويغضب إذا لم نحقّق له رغباته.

ذراع نسوة المنامة تحولت إلى حضن نسوي كبير، كوثر والمرضعات اللاتي تتدفق كل سوائلهن برؤيته... حليبهن، ودموعهن، وريقهن، وآن، وكورنيلا، ومسز بيننج، كان بالنسبة إليهن كالملاك الذي سقط من سلة بابا نويل، كلٌّ يريد أن يفوز به ويحتفظ به لليلة.

صياح آدم في أرجاء المنزل وقوته وشبقه للحياة كجميع أبناء فراش الحب... هي نفثة الحياة في رئتيَّ المختنقتَين بسائل الحزن الأسود الكريه، وإن لم أعد أستطيع المكوث في الشرق بأثواب عبد الشافي الرحال، فهو ثوب منهك ممزق، يريد أن يلتف في قبر، وينام جوار الجازي.

الحلّ الوحيد هو البحث عن ماثيو إيدن، تقشير الجلد عنه، ليظهر الويست المتوحش، ويخوض عباب البحر من جديد.

هذا الصبي البهيّ الضحوك آدم، الذي يرفس برجليه ويبتسم، يستحق أن يمتلك حياةً جديدة.

سأعود قريباً إلى المنزل يا أمي، وهذه المرّة مع ابني آدم.

***

حينما وصل آدم بين يديها في 1000 سنديانة، انخرطَت أم ماثيو في بكاء ونحيب طويلَين، فالطفل البهيّ الجميل يتدفق حيويةً وذكاءً، يبرق كملائكة

الأيقونات. لكن هذا لم يمنعْها من أن تقلبَه عندما غيّرت قماطه، لتتأكد من أن ليس لديه ذَنَبٌ في مؤخّرته.

الفصل السادس

الليالي جدايد

في منتصف الأربعينيات، بعدما صمتت مدافع حربين عالميتين مروعتين، وتفتت إمبراطوريات، وظهرت أخرى على ركامها، وانحسرت أوروبا إلى حدود قارتها، وتكورت على نفسها تلعق جراحها، وترمم مبانيها، وتكنس شظايا لم تترك قلباً في أوروبا دون خدش... وقتها كانت هناك دولة فتية، اهتزت وربت في جزيرة العرب، وبزغت مدنها، ومآذنها العتيقة، وسقوفها الوردية من تحت الكثبان، وأخذت تنفض عن نفسها الرمال وبقايا السبات، وتبحث عن ملامحها المضمحلة.

واربت بواباتها، وتحدت توجسها من الغرباء، وأطلت... على العالم.

وكما كان هناك باب للقادمين إليها، أصبح هناك آخر للخارجين للتجارة، وقطف المعارف، وتأسيس السفارات، بحسب ما انتهت إليه خرائط العالم الجديد.

وبعدما بدأ النفط يسري في عروق اقتصادها، كانت بحاجة لكتائب من الأطباء، والمديرين، والمستشارين، والموظفين، والمدرسين، والعمال، والصنايعية، وصولاً إلى مأموري بدالات الهاتف.

***

استدار الفلك بعد رحيل الجازي عن نخل آل مشرق، واستدارت معه خمس سنوات فوق منزل السدرة، الذي تغص ظلمته بالأشباح، ذرات تكتنف الأجواء، وتحوم فوق الوسائد والبُسُط، ودبيب خافت لتحركات الجدة، ودخول وخروج ابنها عبد الرحمن آل مشرق من وإلى النخل، وهو يسبح ويحوقل. الوجوم والكآبة جعلا العصافير تهجر السدرة، وجف ينبوع فم الجدة، بعد أن غابت الجارات المهمومات، اللواتي أجرين القصص على لسانها، فلم يزل على لسانها سوى بيت واحد من الشعر لا تفتأ تردده:

نعد الليالي والليالي تعدنا
العمر يبلى والليالي جدايد

ولكن في السنة الخامسة، سالت الرياض سيلاً عارماً ثلاث مرات متوالية، وسالت معه مزرعة آل مشرق، وارتوت الأرض وتفتحت عروق الآبار التي كادت تجف، وامتلأت حتى بات المار يستطيع أن يلمس الماء داخلها بأطراف أصابعه. غيم وديم أخفيا الشمس لأسبوعين متتالين كانا كافيين لأن تزهر الهضاب المحيطة بالرياض، فبات لكل هضبة لون! أخضر، وبنفسجي، وأخرى بزهور صفراء.

هو العام الذي انتشل عبد الرحمن آل مشرق من كهولته وكآبته، واشتاق أن يتوسد صدر امرأة، امرأة تفتح الغرفات المهجورة، وتوقد نار قدره، وتطل في وجه أمه كل صباح، لترى إن كانت ما زالت على قيد الحياة.

حضرت زوجته الثانية، ولمَّعت الفوانيس وأضاءتها، وأوقدت النيران تحت الدلال والقدور، وزعت المقتنيات القديمة على من يحتاجها، وصفَّت البطيخ والشمام حول الزير أسفل السدرة. ولأن النساء عادة لا يحضرن وحيدات، فلم يلبث أن خرج من تلافيف ثيابها طفلان متتاليان، الأول أسموه عبد المحسن، وطفل العام الثاني أسموه راشد، صياحهما وعبثهما أعادا الطيور إلى سدرة المنزل... وعادت الليالي "جدايد" بهما.

***

أَبٌ كهل، وأمٌّ تمضي وقتها ما بين الدور الأسفل والعلوي، تحاول أن ترمم كآبة سرت في جدران منزل آل مشرق، ولم يُشفَ منها. شب عبد المحسن جامحاً حانقاً يرفض أن ينصاع لقدر المزارع الأبدي، المنحني على أرضه، فانشغل بصيد الطيور، ورجم المارة بالحصى، والتسلل خلسة مع مجموعة من الصبية لتدخين أغصان كرمة العنب.

بينما أبدى راشد ذكاء وفطنة تبز أقرانه، فرشحه الشيخ العبد اللطيف (شيخه في حلقة المسجد)، لإكمال تعليمه بدار التوحيد بالطائف، وحاول أن

يقنع أباه بنجابة ابنه، أن مدرسة دار التوحيد، تمنح طلابها مكافأة شهرية قدرها 100 ريال.

قاوم الأب عبد الرحمن آل مشرق بضراوة ذهاب ابنه للطائف. لا يريد أن ينثر أبناءه في المدن، ندبة ابنته الجازي لم تبرأ، ما برحت تَنِزُّ داخل صدره. أخذوها للعلاج، فوجدت القبر ينتظرها هناك.

لكنّه بعد عامين رضخ لإلحاح ابنه، شرط أن يتزوج، فزوّجه وسْميّة لتُحْصِنه. بكت أم وسْميّة وقتها وناحت وهي تقول: "وسْميّة صغيرة نحيلة ما تنطح الرجل"، فقال لها أبو وسمية بصرامة: "الرجل الكفو ما ينرد... والزواج يطلع لها قلب".

من تلك البوابة مرق أول مبتعثي آل مشرق راشد، أما أبوه، فاستأجر عاملاً حرفياً، يساعده في المزرعة بدلاً من راشد.

حديقة تطوف بالكعبة

فوق سفوح جبال السراة، تأسّست مدرسةُ دار التوحيد بالطائف عام 1944، تحفها أشجار الورد، ويزورها الغيم والمطر بعد كل عصر، واستُدعي ليديرَها علّامة الشام وريحانتها، الشيخ محمّد بهجت البيطار.

فحضر هو ورفاقه، ثلة من الأولين، سدنة عقيدة السلف، يردون بضاعة جزيرة العرب إليها، بعد أن طافت على الحضارات حولها، وتشربت من علومها، وتخضلت بمائها، وسقت غراس حلقات بغداد، والشام، والقاهرة، جف الحبر، ورفعت الصحائف.

عاد الركب إلى أرض نبيهم، يُدَرِّسون شرائعه بين قومه وفوق أرضه، وبالقرب من قبور أهله وصحابته، تحديداً إلى الطائف. وهي المدينة التي استجاب الله بها لدعوة إبراهيم عليه السلام، عندما دعا الله "أن يرزق ابنه وزوجته من الثمرات، بعد أن خلفهم في واد غير ذي زرع، فأمر الله جبريل بقلع قرية من الشام، فاحتملها من تخوم الثرى؛ بعيونها، وأشجارها، ومزارعها، ثم طاف بها سبعاً بالكعبة ووضعها في مكانها... فسميت بعد طوافها بالطائف،

لكنّ ثمارها أطيب رائحة، وماءها أكثر عذوبة من تلك التي في الشام، لأنها طافت بالبيت العتيق".

***

وبعيداً من مراقبة شيوخ دخنة الصارمة، رصف المعلمون، والأساتذة، والشيوخ، مكتبات دار التوحيد بالكتب، التي طلب منهم أن يوفروها، وهرع الأمراء والأعيان يمدّونها بالنفائس واللطائف من مكتباتهم الخاصة: **الصّحاح**، و**تفسير ابن كثير**، و**الآجرومية**، و**جواهر الأدب**، ومعلقات كانت تكتب بماء الذهب، وتعلق على أستار كعبة العرب، أو حفظت فوق الألسنة والصدور، ومكتبات الأوقاف المهجورة، وتلك التي تداركها لاحقاً المستشرقون وحققوها، قبل أن تفنى في ماء النسيان، وهكذا بدأت السنة الأولى في دار التوحيد.

فنُضّدَت المقاعد، واصطفت الصفوف، وأُشرعت النوافذ، وبدا المشهد شيئاً يتوسط ما بين انضباط الثكنة، وحدائق العلم، ورتابة الكتاتيب.

والشيخ الأزهري الجليل أبو المعاطي، أحب أن يمنح صفوفه المتوجسة المترقبة بعضاً من ظرافة أهل مصر وحلاوة نيله. فقال: "يا أبناء نجد والحجاز، وسائر جزيرة العرب، كما أعلم، قدمتم من جميع أنحاء جزيرة العرب، فليخبرنا كل طالب المنطقة التي قدم منها، عبر بيت أو قصيدة من عيون الشعر العربي، ولينحَزْ كل طالب لبلدته، ويُباهِ بأبيات لصفوة شعرائها العرب القدماء... وسنحاول جميعاً تخمين بلدته".

فقز أحد الطلاب قائلاً: "أنا من بلدة أول من وقف واستوقف. قفا نبكِ".

خريجو ثقافة حلقات المسجد مدجون بالثقافة الكلاسيكية، لم يَدَعوه يكمل، تصايحوا: "امرؤ القيس أول من وقف واستوقف، هذا الفتى من بلدة مرات".

فعابثه الشيخ أبو المعاطي قائلاً: "شاعركم هو حامل لواء الشعراء للنار".

فرد عليه الطالب بزهو: "بل هو من قالت فيه العرب: الشعر كان جَمَلاً، فأخذ امرؤ القيس رأسه، فتسنم طبقة فحول الشعراء".

وما لبث أن قال طالب صاحب صوت جهْوَريّ مجلجل: أنا قادم من...

يا دارَ عبلة بالجواء تكلّمي
وعمي صباحاً دار عبلة واسلِمي

فهدر الجميع: هو قصيمي.
وصاح راشد آل مشرق من قاع صوته ليسمعوه وسط الضجيج والجلبة:

فأعرضت اليمامة واشمخرّت
كأسياف بأيدي مُصلِتينا

وابتدره الشيخ أبو المعاطي معابثاً قبل أن يجيب الطلبة: "عمرو بن كلثوم... آآآآها... إذاً أنت من اليمامة، حنفي، وفيكم ظهر مسيلمة الكذاب".

فرد عليه بسرعة، وضحكة تملأ وجه راشد الأسمر النحيل: "نحن خرج منا مدّعٍ للنبوءة فقتلناه، وأنتم خرج منكم فرعون إلهاً، وقال أنا ربكم الأعلى، فعبدتموه".

قهقهة أبو المعاطي الذي تطربه دوماً روح النكتة والجواب الحاضر، وقال: "تالله إنّك ماكر مراوغ يا صاحب اليمامة".

***

بعد توجس وحذر بداخل الشيخ أبو المعاطي طوال الليلة السابقة، تحرزاً من تدريس طلبة جفاة غلاظ، أمضى حصته الأولى يحاول أن يكفكف الضحكات، خشية أن تشي بها نوافذ دار التوحيد الواسعة المزخرفة بوقار، لبقية الصفوف، وعلم وقتها أنه يجب أن يكون حذراً مع هؤلاء الصحراويين المشاكسين، فهو إذا لم يدفع لهم بالمدهش الجديد، وينقب في بطون الكتب، سيتفلت هذا الفصل الجامح من سيطرته، فهم يعيشون في جزيرة رسمت خرائطها بالقصائد، والطالب المتربع إجلالاً في حضرة شيخه، يكمن بين تلافيف ثيابه، بدوي قديم بنعرة وشوكة، يبدأ يصول ويجول، وينازل مع أول استفزاز.

***

بينما كان راشد آل مشرق يغرف من نهر بردى، ويرشف من النيل، الذي يتدفق على ألسنة شيوخه المصريين والشوَام، كان أيضاً يغرق في أحضان أمهات الكتب، يتقلب في حجورهن، ويتسلق متونهن، وفي تلك اللحظة التي يظن فيها أنه قد اكتملت وتمت معارفه، تلوح له قمة بعيدة، فيشهق قافزاً إليها وهو يقول لنفسه: ”ما أنتِ إلا بقل في أصول نخلٍ طوال“.

بينما انشغلت وسْميّة زوجته الصغيرة المستوحشة، بنتاج بطن ولادة خصبة، تطرح كل عامين طفلاً. ولأنها لم تتقن العض على لفافة شاشة بيضاء مرطبة بماء الورد الطائفي، تستعملها نسوة الطائف لتخفيف المخاض وجلاء الكرب، فقد أخذت تئن أنيناً ترتجف معه نوافذ حي قروى، فترتجف قلوب جاراتها، وتنقبض أرحامهن، فهن يعرفن تماماً أنين ذلك المخاض، فلا يلبثن يتقاطرن نحوها يحففنها.

جاراتها التركمستانيات والأوزبكيات، اللواتي فرّت عوائلهنّ من طغيان الروس البلشف، ولاذت بروح وريحان الطائف، يحففنها كالملائكة، ويضعنها على محفة ترفع هذه الطفلة من ظلمات المخاض إلى أرض الأمهات.

لتستيقظ وبجوارها طفلها، مغتسلاً ملفوفاً بمهده، والصحون ملئنها بالأطايب؛ منتو، وهونان، وشوربة حب، ترمم عظمها، ولحمها، وحوضها، وظهرها... بعد مغامرة الأمومة الباهظة. فإذا أتمت أربعين يوماً، ساعدن وسْميّة لتغتسل من النفاس غسل السنة، بغسل يديها ثلاثاً، وأعضائها التي تلوثت بدم النفاس، وتتوضأ وضوءاً كاملاً كوضوء الصلاة، قبل أن يرغين السدر على رأسها ثلاثاً، ويفضن الماء عليها، ويضعن الحنّاء بيديها وأقدامها الصغيرة، ويجهزنها عروساً من جديد.

ولأن الحليب لم يجرِ فوراً في عروق وسْميّة، تكفلت أم محمد تركستاني بإرضاع حاتم بلبن ابنها ياسر، وأصبح ولداً لها.

وتعمقت خطوات حاتم في بيوت عوائل آسيوية مجاورة لله وبيته، تملأ محيط منزلها تراتيلَ، وذاكرة خارقة، ومقدرات معجزة في الرياضيات، ونساء

يطرزن كل ما يمر تحت أيديهن؛ مساند الجلوس، أسفل السراويل، غطاء إبريق الشاي، والمخدات، وصولاً لتلال الشفا.

***

راشد آل مشرق كان جاهزاً للعودة إلى الرياض، عندما أصبح سن طفلهما الأول حاتم ثمانية أعوام، طالباً في الصف الثالث، ولكن مواقيته لم تعجب من هم حوله، رفضت وسْميّة العودة، وتريد أن تعاقب والديها عقاباً طويلاً مريراً لتفريطهما بها طفلةً وتزويجها، وحاتم يبكي ويصيح لا يود مغادرة الطائف، وبقية الصغار يشاركون حاتم البكاء، لحدسهم أن أمراً جللاً سيفسد هناءتهم هناك.

ولأن راشد قد وجد عملاً في دار التوحيد نفسه، يدرّس الوافدين الجدد تجويد القرآن، رضخ لهم، وظلوا في الطائف، ملاذ الغرباء، وبستان الحجاز.

الصباحات المنعشة في الشتاء، المدفئة بالقهوة ورائحة خبز التميس، وصيفه المرصوف بأواني الثلج والبَرَد، يغطِّسون بها التين والرمان، وتُشفي أرواحهم النسائم الباردة القادمة من جبال الشفا.

اكتفى راشد بزيارة سريعة إلى الرياض، شارك في جنازة والده عبد الرحمن، وأخذ حصته من بيع الورثة لنخل آل مشرق... وعاد إلى الطائف.

***

حاتم الذي أسماه أبوه على اسم حاتم الطائي الذي كان موضوع درسه يوم ولادته، حاتم آل مشرق يمضي أوقات ما بعد المدرسة في لعب كرة القدم، فقط يوم الخميس يرافق ياسر تركستاني، يضعان حقائبهما المدرسية في المنزل، ويتحججان بالذهاب للعب كرة القدم، ولكنهما يتسللان إلى بستان عم أبو كلف، ليتمكنا من مشاهدة الفيلم الذي سيعرض.

بعد صلاة العصر، تبدأ العوائل المكية تتصعد من عبق الوادي الحار عوائلَ وفرادى، إلى الطائف، بستانهم الأثير عبر التاريخ، برفقة قهوتهم، وشايهم، ونقولاتهم. الدخول للبستان بريال، يصطفون فوق المقاعد، الصبايا المكّاويات

يرتدين فساتينَ طويلة طُرّز أسفلها، وحزاماً يشد خصورهن الدقيقة، والطرحة الملونة الموشّاة، والأطراف المحناة. حينما تُفرط إحداهن بجمالها ويُفتن من حولها، تتلثم وتأخذ لها مكاناً قصياً، تستمع فيه للفتى طلال المداح فوق المنصة، ينثر الورد الطائفي بين أيديهنّ، بأغنيته: "وردك يا زارع الورد".

ويترقب الجميع الفيلم الذي سيعرضه القائم على البستان بعد الوصلة الغنائية.

***

وحاتم آل مشرق يظل بعيداً متوارياً، يرفض دعوات ياسر تركستاني له بالاقتراب، خشية أن يلمحه أحدهم ويخبر أباه المعلم في معهد دار التوحيد الوقور. لكن هذا لم يمنعه أن يعقره شغف الأفلام، ويسيطر على رأسه ووجدانه، فأصبح يصنع كل ما في وسعه لدخول جنة الفيلم، تلك المغوية التي تتثنى فوق شرشف أبيض، يهفهفه نسيم بستان طائفي.

فيلم "النمرود" لفريد شوقي، و"أيام شبابي" لشادية، و"يا حلاوة الحب" لمحمد فوزي. يراهم ينقلونها مع مكينتها 16 ملم، وبكرات أفلامها كلّ أربع في شرشف لونه مزرقّ باهت.

***

لاحقاً أصبح في الطائف ثلاث محلات لتأجير الأفلام؛ بلجون، وجمجوم، والثالث الغدير. الغدير كان يديره عايش، بائع يماني ضئيل وحاذق، يعرف أن الخمسة والعشرة ريال التي تخفض أسعار تأجير الأفلام في محله، تصنع أمامه طابوراً من المستأجرين، بينما كان حاتم آل مشرق هو الشريك المتواري عن الواجهة، يذهب كل صيف إلى مصر، ويجلب بمعيته بضعة أفلام وحقوق توزيعها، يمرر عليها مقصه الرقابي، بحيث لا تجلب له إزعاجاً رسمياً، ولكن يستبقي نسخة أصلية خاصة له ولدائرته الضيقة.

وقتها كان أبرز زبائنه نادي عكاظ الرياضي، الذين كانوا يستأجرون منه فيلماً يعرضونه نهاية الأسبوع، في سطح ناديهم في حي قروى، والذي كان في

السابق قصراً لأحد الوجهاء، تبرع به لنادي عكاظ.

الأفلام تستقطب العمال الأجانب، فيحقق النادي دخلاً إضافياً، فإذا دهمتهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنذرهم الحارس بالأسفل عبر جرس صغير يوصوص كصرصار الليل.

عندها يهبون لإطفاء الفيلم، ويجمعون البكرات والآلة ويلفونها كيفما اتفق بشرشف، ويدلونها إلى الأسفل كمومس هاربة حتى لا تُصادر، فيتلقفها صاحب سيارة داتسون بحوض، ويعيدها سالمة لعايش في محل أفلام الغدير، بينما ينتصب الذي كان يشغل الآلة، وسط المكان الذي كان ينشر فيه الشرشف/ الشاشة، خطيباً يحدث العمال الآسيويين، وأعينهم التي استدارت بالعجب والهلع، عن أهمية السنن الرواتب، والنوافل في الصلوات.

***

حاتم آل مشرق عندما دخلت أشرطة الـ"كارتردج" ولاحقاً الـ"في أتش أس"، انحسرت تجارته، فتداركها بمحل تأجير أشرطة أفلام، ولكن السوق ظلت تتفلت من يديه، ودخلت الأطباق اللاقطة. ولأن أسعارها في البداية كانت باهظة لا يطيقها إلا القلة، أصبح الأهالي يوصون بصناعتها في الصناعية، طبق خمسة أمتار بثلاثة، ويبتاعون من سوق الصواريخ في جدة LNB وأسلاكاً له، ويرشقونها فوق الأسطح، تقلِّب وجهها في السماء، لتسكب في تلفازهم ثرثرةَ العالم، وأهوالَه، ومباهجَه.

ظلت الأفلام تتفلت كمخلوقات زئبقية، لم تجد شبكة تقتنصها، ولم يكن حاتم يفطن إلى أن تلك الفتنة فد تفشت فيمن حوله، وأصبح الولع بالأفلام يقصقص العالم على مقاس تلك الشاشة الفضية.

عصر الصورة يتسلل ببطء، كما تتغلغل غيمة غابة، خلخلة وانزلاقات طفيفة، اقتنصت مخيلة البشر داخل الشاشات، باتت السينما تعيد إنتاج العالم كحقيقة موازية، تستلب المشاعر بثقة ووقاحة رافضة للجدل.

الشاشة هي قدرٌ أبديّ، التهم نصف حياة حاتم، قبل أن ينتقل الولع لفرع آخر من بيوتات آل مشرق.

نصف صورة

في عام 1946، كانت الخطوط الجوية الإمبراطورية البريطانية (BOAC) قد سيرت عدة رحلات عرضية إلى جزيرة العرب، تحديداً إلى مدينة جدة، ومطار المحرَّق في البحرين، وتلك هي الرحلة التي اختارها آدم وماثيو أيدن للعودة من جديد.

توسل ماثيو أمام آدم بكل الحجج المتاحة ليثنيه عن زيارة مسقط رأسه. طوراً بأنه كساد وعقابيل حرب عالمية ثانية، وأيضاً هدده بأنّه إذا ذهب إلى هناك، فسيقومون بختانه، لأنه نصف مسلم، وأمه عربية!

لكن لم يبالِ، إلى أن وصلا إلى مرحلة لم يَعُد آدم يتحدث مع أبيه، واكتفى خلال السنة الأخيرة في الجامعة برسائل منتظمة، تتضمن خطة السفر، محدداً ميزانيتها، جامعاً ما يقارب الـ700 دولار، من عمله الإضافي كمرشد في متحف الجامعة، أكمل ماثيو باقيها.

تضج أسئلة آدم حول أمه، التي لا يملك لها سوى صورة وحيدة، التقطها قبطان إنكليزي زار الإرسالية وصور بعض أفرادها. شخصية القبطان غامضة تقترب من القرصان، ولكنه كان أميناً، بحيث أرسل نسخة من الصور من ميناء إمينجهام بعد أن استظهرها.

كانت صورة الجازي واضحة، لكن لا يبدو فيها سوى نصف وجهها، وهي تتأمل ساهمة فوق سطح سكن مستشفى الإرسالية، وقد ظهرت في خلفية الصورة المروحة العملاقة التي كانت في فناء المستشفى... وجهها الساهم، وضفيرتها المرسلة على ظهرها، كأنها ترفض أن تتحدث لآدم.

والحقيقة أن إديث زوجة ماثيو إيدن، التي في أحضانها تربّى آدم، استطاعت أن تنشئه شاباً صالحاً. صبّت أنهار أمومتها في عروقه، فشب ببنية قوية وفطنة، ونباهة؛ وتهجين الدماء يصنع نسلاً قوياً. كأنّ دماء العرب شمسٌ قبلت تقاطيعه السلافية، فأعطته تلك السحنة الذهبية، مع شعر أشقر، ورقبة متينة كمحارب روماني.

كانت إديث كل ليلة عندما تأخذه لفراشه، تشير إلى نجمة في السماء، وتقول له: "هذه أمك تتأملك، لوِّح لها بتحية المساء"، ومنذ صغره كان يجيبها: "لا، أمي هناك في بلاد العرب، مشيحة بوجهها عني، لا تود أن تحادثني، لأنني ابتعدت عنها، وسأعود لها يوماً ما وأتحدث إليها"، قبل أن يستفسر منها: "لم هي مشيحة بوجهها عني؟".

لم يكن آدم يعلم وقتها بأنه يتلو نبوءَته.

***

كتب ماثيو إيدن في مذكراته يوم 10 ديسمبر عنواناً جانبياً:

العربية السعودية مرة أخرى.

بعد أن قَذفتُ بتلك الحكاية في صندوق العلية، لا أزورها إلا لماماً، ها أنا أنوي العودة للكثبان والمتاهات التي تنبت الحوريات والحكايات الموجعة، ربّما أعيد اكتشاف جزء غامض من أناي؛ فكل شيء لا يدرك إلا بنقيضه. ها هي دعوة كوبلي الموظف في شركة النفط هناك أمامي على المكتب، كإشارة كونية تأذن لنا بالسفر.

لا أزعم أن النية للعودة إلى الجزيرة العربية كانت قراراً مفاجئاً، بزغ لحائك الريح بساطاً، كإحدى طفرات الشجن التي تدفعك للمرور بمكان قديم في قاع ذاكرتك، بل كان يبنى على مدى سنوات انتظرْتُ فيها أن أخطو فوق رمال تلك الجزيرة الدافئة، وبيوتها الجيرية المزخرفة النوافذ، وشطآنها المشغولة باللؤلؤ والسكينة، دون أن يتلف قلبي؛ عندما أكتشف أن يدَ الجازي المطيبة برائحة الحناء والزعفران، قريبةٌ لأمسكها.

***

انتظر ماثيو وآدم إيدن أسبوعين لموعد إبحار سفينتهما، قطنا أحد فنادق لندن المتقشفة، التي تقدم سريراً وإفطاراً سخياً مكوناً من خبز ساخن وزبدة،

وعدة أنواع من المربّى، مع بيض مسلوق، وشاي وقهوة، بسعر زهيد لا يتجاوز الجنيه، اسمه "البحار القديم"، وهو بالفعل كذلك، فغرفه لا تتجاوز قمرة في سفينة!

اضطر ماثيو وآدم أن يتشاركا سريراً بطابقين، فنام آدم فوق وماثيو بالأسفل، نفس ترتيبهما لاحقاً في "الكوين ماري"، التي مخرت بهما الأبيض المتوسط نحو الشرق.

يأويان لغرفتهما باكراً، بسبب الضباب الثقيل الذي يحط على لندن فيدفعهما للمهجع، يستلقيان على السرير ذي الطابقين. غمّ الغرفة وعتمة الليل جعلا ماثيو يستجير بإشراقات قصته هو والجازي، ليسردها على آدم: اليوم الأول الذي رأى فيه أمه، وعندما سألته هل تشاهد الدنيا زرقاء، والينبوع الذي سيجتمعان حوله يوم القيامة، والضفائر التي كانت تجدلها بمعجون الأعشاب المعطرة. يشعر أن أحاديثه، هي مرور جندي عتيق على جرح قديم لم يبرأ تماماً منه، محاولاً أن ينقل له أوسع مساحة من الماضي، أو ما سمحت له قوانين الذاكرة بعد المحو والاصطفاء، حقيقة أو ما توهمه الذاكرة بذلك.

لا يريد أن يلفق أمراً لآدم في حكايته وأمه، فهو وعد بمعالجتها وإرجاعها، والزواج يشرعن هذا ويجعله مقبولاً، لكنه لم يكتفِ بعلاجها، بل سمح لنفسه أن يروي شبابه ووحدته من نضرتها وبشرتها وشفتيها. لن يخبره بأنها كانت الأميرة ياسمين وبأنه علاء الدين، ولكن كان طوال الوقت يحاول أن يوارب الحديث بينهما، ليترك له مساحات كبيرة للسؤال.

***

أخيراً احتضنهما دفء مطار المحرق ذي المدرج الوحيد، في نهايته مبنى بسيط، يرتفع بالقرب منه برج مراقبة، أسسه الإنكليز عام 1937 كمحطة ترانزيت، عندما كانت الأساطيل الجوية بحاجة إلى مهبط يزودها بالوقود، في طيرانها المستمر بين بريطانيا العظمى ومستعمراتها الآسيوية.

كثيرة هي الرياح التي دفعت شراع مركب ماثيو إيدن باتجاه جزيرة اللؤلؤ الدافئة، قد يكون آخرها معرفته بعد مراسلتهم، أن د. هاريسون ما برح يعمل

في مستشفى الإرسالية.

بوابة المستشفى المقوسة ما برحت قائمة، بهتت أحرفها وصدِئت، لكن لم يبهت قطّ استقبال د. هاريسون لماثيو إيدن. كان كاللقاء بصديق طفولة قديم بحفل تقاعد. جرى ترحيب جامح يتجاوز طبيعته المتحفظة الصامتة، ويتجاوز الموقف الذي غادرهم فيه، مشكوكاً في نقاء مسيحيته، عندما اختفى وطفله فجأةً بعد محاولتهم تعميده.

لم يكن بحاجة إلى أن يعرّفه بآدم، فملامحه نصف العربية وشت به، شعره الأشقر، وقدح نقاط زرقاء متوهجة في قاع عينيه البنّيتيْن.

عبث الزمن بهاريسون، فقد خلت مقدمة رأسه من الشعر، باتت مخارج حروفه غير واضحة بسبب طقم أسنان يرتديه، الجلد الأبيض أنهكه الحر والرطوبة، لكن خصال المبشر النقي الهائم في عوالم المثاليات ما برحت لم تغادره.

وعندما عرف برغبتهما في زيارة الرياض، قال بحماسة كأنه ينقل لهما بشارة: ”الآن بعض المراكب باتت تعمل على موتور سريع، وستذهب للظهران مباشرة، وهو الميناء الذي أنشأته شركة النفط الأميركية سوكال هناك بدلاً من العقير“، ثم نظر في قلب عيني ماثيو، ورفع حاجبيه الشائبَين وقال: ”هل ما زلت تذكر...ماثيو؟“. فردّ ماثيو: ”وكيف أنسى د. هاريسون، ونتائج تلك الرحلة (أشار إلى آدم بكلتا يديه) ما برحت ماثلةً أمامي!“.

ترك ماثيو آدم يهتم بالتفاصيل بحماس، وانطلق وحيداً إلى المحرق، يبحث عن البشاشة والدماثة القديمة، يهمس في نفسه: ”وقّع الحلفاء معاهدة فرساي، وجُرِّدت ألمانيا من مستعمراتها، وفرضت عليها ضريبة 56 ملياراً، فلن يرغب أحد في أن يسألني عن ألمانيا الآن“.

لم يعلم وقتها أنّ الشوارع القديمة تظل محتفظة بأسرارها ونكهتها. قدم للجدران نفسه محاولاً أن يذكرها بمروره هنا، وخطواته ودراجته، وأنه تزوج ثقافتهم مع ابنتهم، لكنها بالمقابل ناولته شجناً مثقلاً بالأسى.

وكان قد أزمع مذ كان في أميركا، أن يعامل دفق الصور في رأسه بفوقية ساخرة من نزوات شاب طائش، تخلصه من لواعجها في صدره. لكنه اكتشف

أن الصور تتوالد وتتشظى بأطراف مدببة في أعماقه، وعبق أنفاس الجازي يتردد في أذنه، ربما لأنها غادرته وهو متدلّه ببريقها، وغنجها، وخجلها النافر من تعلقه المفرط بها، ولم تدجنها الأيام كزوجة أليفة.

الشوارع لم تَرُد إلا بالوجوم، وتحديق بعض المارة بفضول، وعندما اتسع الشارع قليلاً، عرف أنه وصل منزل تاجر اللؤلؤ النجدي مجبل الذكير، فهرول شرقه، لأنه كان يعرف بأنه كان يقع على الطرف الآخر منزلُه مع الجازي.

كان جزءاً من أهداف الرحلة التي خطط لها أن يقف أمام باب منزلهما ويقول لآدم: "من إحدى نوافذ هذا المنزل فاضت روح أمك". لكنّه لم يجده.

الجزيرة العربية البعيدة

"أصوات باردة تقول لي: إنه مسحور بسحر الجزيرة العربية البعيدة،
لقد سرقوا عقله بعيداً" – **الشاعر الإنكليزي والتر دي لامار**

صباح اليوم الرابع لوصولهما المنامة، استقلا مركباً بموتور صغير، بالكاد يكفي أربعة أشخاص وأمتعتهم، وأبحرا لعالم ينبثق ويتشكل بين التلال.

لم يصادفا أثناء إبحارهما أي بارجة تحمل فوقها العلم البريطاني. كانت السفن سابقاً ترسو في البحر، ويقوم الدهو بنقل البضائع. الآن شركة سوكال أنشأت ميناءً كبيراً عند تلة الظهران التي كانت تتبدى من البحرين في السابق.

زحام من الرافعات تنقل كميات هائلة، من البضائع فوق أرصفة الميناء. كل شيء جديد كأنه نزع عنه قرطاسه للتو، أسفل التلة أخذت الطريق حرف T، ميمنه يذهب إلى بلدة صغيرة معظم سكانها من العرب اسمها الدمام، ويساره يذهب إلى كامب شركة الزيت.

مع أول خطوة لماثيو إيدن فوق تراب العربية بعد ربع قرن، تيقّن أن المكان انتقل من القرن السابع للميلاد، الذي كانته المنطقة عند زيارته الأولى، إلى القرن العشرين. الغرباء الذين انتشروا في الميناء معظمهم من الأميركيين، تلاشى وجود الإنكليز، قراصنتهم، وسفنهم وجواسيسهم.

***

تحت عنوان خمسة أشياء في الظهران 1945 تغيرت، كتب ماثيو تلك الليلة في دفتر ملاحظاته:

1– لم يعد علينا أن نستعمل الثياب العربية عند الدخول، فالبنطال والقميص منتشران، والجميع ينتعل صندلاً أو حذاءً، إلى الدرجة التي من الممكن ألا يكترث لنا أحد في الطريق، ولا يتوقفوا لتأملنا. أصبحت السجائر متاحة بحذر، لكنهم يطلقون عليها "بول إبليس"، وتذكرت دراجة الأب زويمر التي كانوا يسمونها في المنامة "حمار إبليس"... يبدو أن إبليس يشاركهم دراما الخير والشر بكثافة.

2– كان هناك الكثير من الآلات والسيارات، وقرقعة وغبار مثار في الجو، ولم تَعُد السيارة نادرة، بل الجمل هو من بات كذلك.

3– أصبح التعامل بعملة اسمها الريال، ويصرفونها في مكتب صغير عند البوابة، مسكوكة عام 1935م، تحمل الاسم الجديد للدولة السعودية. تلاشى التالر النمساوي، والذي كان معروفاً محلياً باسم "الريال الفرنسي".

4– بات البحر يهدر، والصحراء تنشد، لكن ظل العربي في مكتب الجمارك، يرسل لنا رسائل مضمرة لكنها متصلة، حول الأسلوب والطريقة التي يرغب فيها التعامل معه، وأهمية الاحترام لهيئته ولحيته، وجميع الأفكار التي يحملها عن الحشمة والاحترام له ولمقدساته.

هل ما زالوا على العلاقة الحميمة نفسها مع ربّهم الصحراوي الصّارم الذي أعجز هاريسون أن يجد ولو ثقباً واحداً يتسلل منه لصحرائه؟ رفيقهم في وحشة الكثبان، والجوع، والعوز، حيث تضيء جنانه في صدورهم، ها هو ينزل عليهم المن والسلوى، ويرتق قلوبهم بعد قرون من الإهمال.

5– شركة النفط، أصبحت فهدة سوداء هائلة، تستلقي على الساحل الشرقي لجزيرة العرب، وتمدّ أثداءَها لمئات من الذين كانوا يقبعون

عميقاً، يكابدون الخوف، والجوع، التنازع على غدير ماء، وسبياً تسرقه مني الصباح وأستردّه منك في المساء، وأترك خلف خيمتك قتيلاً، فتترك خلف خيمتي اثنين.

نظام الندرة الاقتصادي، الوهب والنهب، لأول مرة ينهار ويتفكك، القبائل السامية استقرت، والأرض تهتز على وقع زمجرة هذه الفهدة الهائلة، وحليبها الأسود الذي يسقي العالم.

***

مراسلات ماثيو مع نورمان كوبلي لم تتوقف، لذا وجدا بانتظارهما شاحنة "دمينتي" حمراء ضخمة، حملت أمتعتهما، أفردوا لهما مقعدين بجوار السائق العربي، بينما جلس عدد من المسافرين في حوض السيارة، للوصول إلى أقرب نقطة من هدفهم قلب الصحراء.

الطرق ممهدة لكن ليست معبدة، وكانت قطعان الجمال ما زالت تتحرك حولهم، والسائق يقول: "الجمل خطر في طريقك، إما تقصه أو يقصك". عرف ماثيو إيدن أنها ملامح الحرب بين المطية الآفلة وتلك القادمة: "إما يقصك أو تقصه"... حدة المفردات تشي بطبيعة النزال بينهما.

وظلت سحابة الغبار تتابعهم لقرابة ميلين، قبل أن يصلوا لبوابة الكامب، التي تفتح بمزلاج حديدي، يقوم عليه حارس ممشوق برونزي البشرة، ببزة خاكية، وقبعة قش، وابتسامة مرحِّبة.

توغلت بهم الدمينتي قليلاً، قبل أن تطوقهم رائحة شواء وتبغ، قوية طاغية في المكان، شعروا أنهم داخل فيلم ويسترن لجون وين: شارع رئيس معبد تقوم على جانبيه بيوت، يتبدى واضحاً أنها أُنشِئَت على عجل، حدائق منزلية بمسطح أخضر، زهور ضئيلة، تتحدى ملوحة المياه وسطوة الطقس.

مساعد السائق، يطرق زجاج السيارة من الخلف، وصوت يصيح ويلوح للسيارة. لمح ماثيو في مرآة السيارة رجلاً طويل السيقان يهرول خلفهم، يرتدي قميصاً قطنياً أبيضَ يعاني بعض الرثاثة. لم يحتج ماثيو إلى الكثير من الوقت حتى يتعرف عليه: نورمان كوبلي. ما برح يرتدي نظاراته الأنيقة، التي

يعدل وضعها على أذنيه دوماً، لكنه ترك طبعه الأكاديمي الدقيق، وأصابعه القلقة، وكرّاسه الذي يضمه على صدره، وأخذ طابع مغامر، في رحلة سفاري مترعة بشهوات المكتشفين والمستعمرين.

***

معرفة ماثيو إيدن بكوبلي طفيفة وحذرة، بدأت عندما طرق باب مكتبه، عندما كان أستاذاً زائراً في قسم الدراسات الشرقية في هارفرد حيث كان يستدعى بعض الأحيان لتقديم محاضرات حول الجزيرة العربية، قدم فيها بعض الفصول في أنثروبولوجيا الجزيرة العربية، وأطروحته للدكتوراه سجلت تحت اسم "محطات دروب الحرير في جزيرة العرب"، وكعنوان فرعي "الممالك المغمورة بالرمال وأسرار التاريخ". وقد بدأت تلفت انتباههم أطروحاته التي ينشرها في دورية جامعة كامبريدج، حول الصورة النمطية، التي تجعل الشرق لا ينحصر في اللافنت ومصر فقط، وتصورات معتقلة داخل إرث خرائط، يتحرك فيها الاستعمار البريطاني والفرنسي، وما يتوافق مع أفكار النخب هناك، بعيداً من الجزيرة العربية العتيقة، والتي عبر هجرات قبائلها المتواصلة مررت للعرب لغتهم، آلهتهم، أنبياءهم وأساطيرهم.

***

كان ماثيو وقتها منخرطاً في العمل الأكاديمي بكثافة، بعد أن أصبحت لديه عائلة. خمس سنوات منذ عودته من المنامة جففت جراحه، ولم تَعُد تنزّ وجعاً وحسرة، وعرف أنه لا بد أن يأخذ آدم من أمه ويحتضنه في منزله. تزوج بإديث الشقراء النيويوركية؛ عيناها الشاسعتان ونظرتهما المتفحصة دوماً، لا تمنع المسحة الملائكية التي تظهرها كآلهة الفصول في لوحات بيتشولي. احتضنته كحزمة هو، وجراحه، وآدم، وفوقها أنجبت له كارولين، وصنعت بيتاً نضراً تفوح رائحته بكعك التفاح والقرفة. وعندما اقتنت جرو غولدن رتريفر مرحاً، تيقّن عندها ماثيو، أن إديث صنعت منهم عائلة برجوازية صغيرة، كان عليه أن يضع طعاماً على مائدتها.

بعد مراسلات طويلة مع كوبلي، حضر لمقابلته في المكتب، ولم يقدم نفسه كأكاديمي، بل كمندوب لشركة سوكال، يود المزيد من المعلومات عن المكان والزمان، بعد أن وصلت أطروحة د. إيدن إلى أيديهم، والتي حرص في مقدمتها على عدم الإشارة إلى قصة ارتباطه بعربية هناك، وإنجابه آدم، لسببين:

فهو لا يود أن يستثمر في خصوصيات حياته، طلباً للرواج وجلب الأنظار، التي قد تكون مزعجة لآدم نفسه، فقد تأخذ الأبحاث والتجارب منحى آخر، يكون آدم جزءاً منها، والتجربة النازية في وضع البشر في أقفاص فئران التجارب، وقياس محيط رؤوسهم، ما برحت طازجة في الأذهان.

والسبب الآخر، قضية زواجه بعربية قد تسلب منه موضوعيته العلمية، وحياده الأكاديمي، فبات كتابه "Dawn & Dunes" كتاباً علمياً صارماً ومملاً، فطبعته الجامعة في 100 نسخة فقط، لا يقترب منها سوى المتخصصين وطلاب الدراسات العليا، هذا قبل أن تبدأ المراسلات بينه وبين كوبلي، والتي دفعتها الأقدار بإلحاحٍ مفرط من آدم، الذي دك آخر حصون مقاومته لزيارة العربية السعودية من جديد.

***

استطاع نورمان كوبلي، أن يوفّر لهما سكناً لا بأس به، كوخاً خشبياً يستعمل عادة للضيافة، بينما وجده ماثيو يشبه الأكواخ المتقشفة، التي تستعمل للمستودعات، وحفظ أدوات الزراعة في وسط الولايات المتحدة. أرض الكوخ قد صب بأسمنت، لم يمنحه صانعه حتى رفاه البلاط، مع نوافذ زجاجية مغلقة بإحكام، كأن من صنعها يخبرك ألا تعبث بها كثيراً.

لكن الغرفة أيضاً مزودة بمكيفات هواء بدائية الصنع، مكونة من مضخة صغيرة، تجعل الماء يدور في غرفة مبطنة بالقش، تبرد الهواء داخلها لتنفخه مروحة داخلية خارجاً. هناك سريران ومنضدة يتوسطهما مصباح ضوء ضعيف. لكن رغم تقشف الغرفة، لفتت نظرهما ستائر دانتيلا نظيفة على نافذتَي الغرفة، ومفارش السريرين من اللنين البنفسجي، مكوي، ورائحة مسحوق

الغسيل تفوح منه. وهو مسحوق الغسيل نفسه الذي تفوح رائحته في مناشف موجودة في دورة مياه صغيرة ملحقة بالكوخ.

كانت هذه التفاصيل التي أخذ آدم يتتبعها، وهو يحلم بفراش وثير للنوم بعد رحلة طويلة. سأل أباه: ”هل منزل أمي وأهلها يشبه هذا المنزل؟“. فردّ على الفور: ”لا... هذه أكواخ ومنازل الطارئين، لكن أهل أمك يبنون منازلهم من تربة وصخور أرضهم، حتماً ستشاهد الكثير منها، عندما نقصد الرياض“.

يومها حل المساء سريعاً، وما هي إلا لحظات حتى توقفت الآلات عن الهدير، وبزغت نجمة المساء وأخواتها، وقمر صغير أبيض شاحب. للصحراء نجومٌ خاصة بها، لا تشبه أيّاً من الموجودة في العالم، تحضر كقبيلة، تنتشر في قبة السماء فجأةً، وتبدأ في البريق، والرقص، والنشيد طوال الليل. حيّاها ماثيو بلهفة كصديقة قديمة، وردت التحية بعاصفة من الذكريات (الجازي، ورائحة عنقها، الدحل الصحراوي الواسع، وعيون الماء في أرضيته، وحوض الاستحمام... والنافذة الزرقاء التي انسربت روحها منها). بداخله شعور جارف، الجازي الغزالة المذعورة النافرة ستبزغ له من خلف كثيب رمل. أحسّ لحظتها بالذكريات واخزة، غير محتملة لقلب مدخن، شارف على الستّين.

اختار كوبلي فترة العشاء ليعرفهما على بقية المجموعة، حتى يضمن عودة الجميع من حقول الحفر. لباس ماثيو وآدم كان يبدو أنيقاً إلى حد التكلف، مقارنة بالشورتات الكاكية، وقمصان الكتان التي تغلب على أردية الجميع.

مجموعة جيولوجيين ومهندسين يلتفون أسفل مصباح كمجموعة من الفراش، تتوسطهم طاولة قريبة من المقصف والمسبح. عتمة المساء لم تُخفِ وجوههم البرونزية الملوحة، هبوا واقفين مع اقترابنا لتحيتهما. مقاعدهم تشبه تلك التي وضعت للتمدد على الشواطئ، وتعالت صيحات البهجة عندما عرفوا أن صناديق البيرة التي استطاع ماثيو أن يمررها خلسة، أصبحت باردة، لترتخي الأجواء، وتتسع دائرة الأحاديث.

دخل ماثيو في برهة صمت، وتذكر شرفة الليمونادة في مستشفى الإرسالية، وترقب للأسئلة التي ستنهال عليه حول الولايات المتحدة، وأجوائها بعد الحرب، ورحلة قدومه، واتفاقية مارشال. بلهفة الغرباء المنفيين خلف

الكثبان، فضولٌ وتشوق، يشبه ذلك الاحتفاء الذي كان ينهال على أي قادم من البحر إلى مستشفى الإرسالية... حتى لو كان قرصاناً.

لكنهم لم يكترثوا لسؤال ماثيو وابنه عن أحوال العالم الخارجي، فكانوا مشغولين بالتندر على تجربة صاحبهم الذي أسموه ساخرين "البسكوتة"!

شاب جيولوجي حديث الوصول، دخل في مزاج صعب، تعتريه نوبات غضب مفاجأة، تجعله يصرخ بشكل هستيري فجأة من شدة الحر، وتصيبه أحياناً هلوسات، فيبدأ في مخاطبة الهواء حوله مستفسراً: "كيف باستطاعتك أن تمشي حافياً في درجة حرارة فرنية، تسخن أجزاء سيارتي، حتى بِتُّ عاجزاً عن الإمساك بمقودها أو دفعها؟".

ويبدأ العرب العاملون مع القافلة بالضحك، لأنه يبكي بدموع كالأطفال. أمّا إمامهم الذي يقود صلاتهم، فينتظر أن تهدأ نوبة غضبه قليلاً، كي يتسلل ويهمس في أذنه أنّ ما يمر به الآن أمرٌ يسير، لا يقاس بالنيران التي تنتظره في جهنمّ إذا لم يُسلِم!

عندها لا تلبث أن تعاوده نوبة الغضب الهستيرية، فيلقي بالمفاتيح المزيتة التي كانت في يده، ويقصد تلاً رملياً قصياً ويبدأ في البكاء من جديد، ولكن هذه المرة بصوت مرتفع.

ولم يهدأ إلا بعدما علموه كيفية لف المناشف المبتلة على أيديهم، ودفع السيارة العالقة في الرمال من جديد، بمساعدة جَمَلين قويَّين، ولحظات قبل أن تهدر فوق الرمل من جديد، وخلال كل هذا، تعود الصياهد والحقول ترسل بإغراء كل المؤشرات الجيولوجية التي تشير إلى أنها تختزن كنوزاً أسفلها.

تمتم كوبلي مبتسماً: "ما من سبيل لضبط الفوضى والصياح، التي تجعلهم في المساء كمجموعة من المعربدين المنفلتين"، فقال بصوت عميق: "الجميع الآن منشغل بتأسيس ميناء آخر غير الظهران، في فرضة الخبر".

ماثيو صمت فجأة، وغطس بفضوله المترقب يرمقهم وأحوالهم، ويستمع كثيراً، ولم يَعُد ذلك الوايلد ويست الصعب المران، ينازل العالم بنطاح الكباش، وترويض الخيول، وتصفيق المشاهدين، وكل جديد طارئ على مجلسهم،

سيفطن له بالتأكيد من الدقائق الأولى، وأن ماكس ستاينكي، هو الذي يديره، ويحرك تياراته، ويلون مزاجه.

ستاينكي كبير الجيولوجيين، يقلب بين يديه علبة تبغ عليها صورة ريتا هيوارث، وهو يلف منها سيجاره كمكافأة المساء. التفت فجأةً نحو ماثيو إيدن بحذر، فهو لا يثق كثيراً بالمصادر التي أرسلته، فقد يكون أحد أعضاء مجلس إدارة سوكال نفسها في كاليفورنيا، وإن كان كوبلي قد رشَّحه بقوة كأكاديمي قد خبر المنطقة بعمق، وأمضى سنوات من شبابه بها، وأطروحته في الدكتوراة حولها، لكن ستاينكي لا يثق بكوبلي، ويراه أحمق باستطاعة أيٍّ كان خداعة، والضحك عليه بسهولة، لكن في النهاية، هذ الرجل الذي أهداهم صندوق بيرة، حملها بين مقتنياته خلسةً، وهو يستحق بعض المجاملة.

باغت ماثيو بسؤال، بعد أن التفت إليه بكل جسمه، وبرقت عيناه الضيقتان بذكاء وسط وجهه الذي التهمته لحية شقراء مشعثة: ”على حد علمي، لم تكن هذه زيارتك الأولى للمملكة للعربية؟“.

فأومأ ماثيو بتردد: ”أجل“.

فردّ عليه بفضول: ”ماذا كنت تفعل في هذا المكان قبل خمسة وعشرين عاماً“.

أطرق ماثيو وقال: ”مساعد طبيب“. ثمّ سكت لوهلة قبل أن يضيف: ”ومرافق لحملة تبشيرية“.

صاح ستاينكي مهرطقاً: ”بحق السماء، ماذا جلبت ربك يفعل هنا؟ ستصيبه حروقات وضربات شمس، لن يستطيع منازلة الرب الصحراوي الصارم“.

ولما لم يردّ ماثيو سوى بابتسامة مجاملة باهتة، أكمل ستاينكي سرده وهو يتأمل البحر، وقد ضمن أن صيحته جعلته محوراً للاهتمام، وبدأ يسرد قصته المعتادة، لكن هذه المرة في حضور د. إيدن، فيحاول أن يفتق بنبرة درامية، معلومات مثيرة وجديدة:

”منذ فترة الكساد العظيم 1929 وأنا أحمل هذا الجنين والمشروع في صدري، أبعده عن الأقطاب الدولية المتصارعة حوله.

أنا ومئة من الرجال، كانت سوكال في كاليفورنيا ترسلهم تباعاً. جميعهم يحلمون بالذهب، ولكنهم أيضاً لا يرغبون أن يصبحوا شطراً في أغنية القراصنة ’مئة رجل ماتوا من أجل قنينة روم‘.

كنت أخشى أن يشتمّ جنرالات الحرب رائحة الوليد الجديد، كما تشتم الضباع الدم، أضمه إلى صدر وأنأى به، وأنا أعرف أن بارجات أساطين الحروب، ستزدحم وستتلاطم هنا أمام هذا الخليج، إذا عرفوا عن المنجم الذي يتلاطم تحت هذه الرمال. كما أن ألمانيا أصبحت في مصر، وهناك مناوشات في الخليج، فقد أعتدى الإيطاليون على المكان، وأسقط البريطانيون طائرة إيطالية للمحور فوق الظهران... ومن هنا كانت الرسالة واضحة، الإنكليز صحائفهم مسودة بالثارات والإرث الاستعماري السيئ في المنطقة، بينما ظلّ الأميركان بعيدين بلا إرث في قارة قصية، منخرطين في بناء العالم الجديد، غير مبالين بالعالم الخارجي.

في تلك السنوات، ظل الإنكليز وقراصنتهم، وعيونهم، يمخرون الخليج جيئة وذهاباً، مسيطرين على طرق التجارة، والممرات المائية.

لذا عرض التنقيب الوحيد الذي قبله ابن سعود في أراضيه، كان لشركة بريطانية غير رسمية، ويقال إنه قال لأتباعه: ’ابتعدوا عن الحكومة‘. لكن تلك الشركة البريطانية لم تمض وقتاً طويلاً، فبعد عدد يسير من المحاولات غادرت... ويبدو أن الإمبراطورية العجوز عندما تكبر تتهلهل جميع أطرافها؛ لم تكن تملك اللياقة والروح المتوثبة، كتلك التي للكاوبوي الأميركي الشاب، الذي تجيش في صدره حمى الذهب.

فأتى عرض شركة ستاندرد كاليفورنيا سوكال الأميركية، الولايات العطشى بعد الكساد العظيم، وهي أيضاً بحاجة إلى نهر يسقي المصانع الأوروبية، وينتشل أوروبا من حرب مروعة سوتها بالأرض... وكان الأمل في هذه الصحاري.

أمضينا وفريد دايفس أسابيعَ نصعد جبل دخان في البحرين، وننزل من جبل الظهران، ونتبادل النظرات مع هذه التلال القاحلة وهي ساجمة، تبادلنا النظرات بفتور ولا مبالاة، وتأبى أن تفصح عن مكنوناتها.

وانطلقنا في المغامرة، حيث كنا نبدأ باكراً والنجوم ما زالت تبرق في السماء. ونمسح الأماكن حول جبل الظهران، الذي يمتلك نفس الطبيعة الجيولوجية للبحرين. وسرعان ما نكتشف أن الكثبان الرملية تخاتلنا وتلعب معنا الغميضة، وتعيدنا في دائرة مؤزلة، إلى المكان نفسه الذي انطلقنا منه؛ كان ذلك يصيب الفريق بإحباط شديد، ويبدأ المهندسون الشباب بالتذمر والصياح.

كنا نعلم أن هذه الصحراء منذورة لأهلها، خرائطها منقوشة في صدورهم، ورملها يحادث بطون أقدامهم. عدا ذلك، ستدخل لعبة المتاهة، ولن تسمع سوى قهقهة الكثبان الساخرة حولك.

كنا كمجموعة من الصبية العابثين، نفتش في بيت غامض أقصى القرية، ونشعر بأن هناك مخلوقات تراقبنا من بين الستائر وخلف النوافذ، دون أن تفصح عن هويتها. أعينهم تتفحصنا بدقة قطيع من الذئاب يترقّب ضبعاً هائلاً قد دخل أرضهم. فالغرباء عادة يحملون الأمراض والدمار، ويزاحمونهم على اقتصاد الندرة، وشح الموارد. رغم أننا كنا نحرص على التزود بكل عتادنا قبل أن نغادر الكامب، فلا بد أن تأتي تلك اللحظة المباغتة، التي نحتاج فيها إلى الاستعانة بهم، نحتاج إلى دليل حذق، نحتاج إلى لحم أو سمن، ونصمّ آذاننا عن كلمة الكفار.

ولكن بعدما أصبح بعض أبنائهم يعملون معنا كأدلاء، بدأ الأمر يتلطف نوعاً ما، بل بات بعضهم يقطع ما يقارب 15 كيلاً، سيراً على الأقدام من مواقع قبائلهم في عمق الصحراء، إلى موقع الكامب. لنكتشف بأنهم بسهولة يتحولون إلى أصدقاء مخلصين، في غاية الفطنة، إذا أمنوا ردود فعلك نحوهم.

في بداية كل أسبوع كانت جانيت (وأشار بذقنه إلى امرأة خمسينية نحيلة معروقة اليدين)، تجلس بعيدة نوعاً ما عن المجموعة (لم تتنازل عن الدهان اللامع الذي يبقي الشعر ثابتاً، ولا الجوارب الحريرية الشفافة، والحذاء الذي يغوص في الرمل، وهي تأتي وتذهب) تجلب لنا تلغرافاً من سان فرانسيسكو، يخبرنا فيه، أن مجلس الإدارة يبدي تحفظاً على المصاريف، وهناك اتجاه داخله قوي بإلغاء المشروع برمته، والخروج من السعودية.

كنت أفتح الرسائل بصعوبة، بيدَين أدمتهما القروح والتسلخات، والكثير ممن هم حولي يعاني من الخذلان والخيبة. الوجوه ساخطة متهدلة، عندما تكتشف أن المكان الذي وضعوا فيه المسبار، لا يشير إلى وجود أي كمية من النفط، مع تمرير رسالة تذمر خفية ساخطة، تشير إليَّ كجيولوجي فاشل، اختار هذا المكان ليستنفد طاقات الرجال عبثاً، ولندرة العتاد والتمويل، لم يَعُد باستطاعتهم سوى استهلاك سيجارة واحدة في اليوم.

حتى العرب الذين كانوا يبرزون فجأةً من عمق صحرائهم، ويطلبون المشاركة في العمل، بدؤوا يرتدّون ويتقهقرون، ويتلاشون عميقاً في صحرائهم. وكنت في الليل أصحو فزعاً عندما أسمع حالات بكاء ونشيج، وتمتمات وإحباط بين المهندسين.

لكن في الدراما الكونية، عادةً الأمل ينبلج من قاع بئر اليأس، وكما قال تشرشل: ’الحلم الذي لا يفارقك ويلازمك كل يوم، هو الذي سيتحقق‘.

وكما يحدث في الحكايات الأسطورية، وحكايات الأنبياء والقديسين، فإن الرقم سبعة لا يخذل أبداً، وذلك عندما أعلنت البئر رقم سبعة عام 1938، بأنها قادرة على جلب ماء الأحفوريات، الكامنة تحت طبقات الأرض من قبل التاريخ، لتسقي بها العالم“.

كانت البيرة وقتها قد أنعشت شاربيها، وجعلتهم أكثر جرأةً وحماقة، فصاح أحدُ الجلاس، وكان برأس عريض وأطراف ضخمة، يشبه سلطعون ضخماً، وقال: ”هيييي ستاينكي، لا تسرف في البطولات، وتجعل من نفسك بطلاً للمسلسل، فأنت شخص واحد من ثلاثة عشر رجلاً حضروا هنا عام 1933. أنا قطعت 11 ألفَ ميل من سان فرانسيسكو، وصلت هنا حيث لم يكن سوى الحر، والذباب، والدوسنتاريا. وجدت الجيولوجيين في بداية الأمر يعيشون في خيام، ثم انتقلوا إلى العيش في أكواخ من الطين، وبعد ذلك الوقت، بدأت وسائل الراحة في الانتشار“.

رمقه ستاينكي بنظرة خاطفة مزدرية، ومن ثمّ همس في أذن ماثيو:

”هذا النمس الهرم، ما برح يتبجح ببطولات وهمية، فهو لم يكن سوى دون كيشوت يحارب طواحين الهواء، ولم يستطيعوا اكتشاف قطرة نفط. ولو

وضعت خطابات اللوم والتقريع التي كانت تصلني من سان فرانسيسكو، لأصبحَت تفوقه طولاً".

ثم ارتشفَ بضع رشفات من البيرة، قبل أن يقول:

"ولولا أسلوب الهيكل الذي اخترعته أنا في الحفر، وسجل باسمي عالمياً، لما اكتشفنا بئر رقم سبعة. ليس فقط سوكال من آمن بنا، بل أيضاً رجال القبائل الأشداء حولنا، أصبحوا أقل عدوانية ضدنا، والأدلاء من قبيلة بني مرة لم يعودوا ينظرون إلينا بريبة". ثمّ التفت إلى رجل يجاوره بجبين شاسع، وتقاطيع أرستقراطية لم يفسدها شظف الصحراء، وقال له: "هل تذكر يا باركر العام الذي وصلت فيه إلى هنا، 1938، هو عام البشارات؟".

عدل المهندس باركر من جلسته، وعلم أن ستاينكي أذن له بالحصول على جزء من منصة الحديث، وقال بصوت هادئ: "غادرت ميناء نيويورك في أول يوم من ديسمبر 1938، بعد أن وعدت جارتي نورما بالعودة قريباً لنتزوج. وكان العالم يضج بالأحداث الكبرى: فهو من ناحية ينصت لزمجرة الحرب، وهتلر قرر أن يعصي نصيحة المسيح 'من ضربك على خدّك الأيمن، فأدِرْ له الأيسر'، فلعقت ألمانيا جراحها في الحرب العالمية الأول، وهجمت بعد أن أسس هتلر منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة... وتقلده، بآلية حربية ضخمة وهائلة، وأيضاً عطشى للنفط.

أيضاً كان السلطان ابن سعود وقتها قد أمن حدود مملكته، سد الشقوق والخلل، وأغلق الثغور، أسّس جيوشاً نظامية، طرقات معبدة، وأغرى قبائل الرعي، التي أمضت آلاف السنين في التيه تطارد الغيم، وتخاتل السحاب. فالبدوي عندما يرتبط بحقل لإطعام ماشيته، سيرتبط بالأرض، ولن يعود عابراً أو مؤقتاً، وسيُدجن، وتغادره شراسة ذئاب البرية، وحينما يستيقظ صباحاً ستلوح له النخلة العطشى بسعفها أن أسقِني، فيشق سواقي من البئر نحوها ويجلس تحتها بانتظار بلحها، وعندما تؤوب الخراف مساء من المراعي سيطوقها بحظائر تختلف عن تلك التي لجاره، عندها سيشبع أبناؤه وتتكاثر مقتنياته فيبني فوقهم سقفاً، وبعد ثلاثة أجيال ستصبح هناك بلدةٌ صغيرة تومض فوق الخارطة.

كان مجتمعاً صغيراً من الجيولوجيين الحائرين، مهندسين، وميكانيكيين، ووفود متوالية من سكان المكان، يطمحون للمشاركة برشفة من هذه الآبار السوداء الهائلة، التي تفجرت في صحرائهم.
كل هذا تحميه كتيبة صغيرة، ترقب بأعين الصقور فوق كثيب قريب، سخَّرها أمير الأحساء، للحماية من قطاع الطريق، أو المردة الرملية، التي ترتفع لولبية عالياً في السماء.
أذكر أول كلمة قالها لي ستاينكي يوم وصلت: ’لا نريد أن نستفز العرب أو نزعجهم، أو نثير ريبة سلطانهم... أو نرتكب خطأً يجعلهم يعرقلون مهمتنا‘“.

الليدي الحمراء

ضوء الصبح في الصحراء سلطان، يتقدم بألويته وجيوشه فيكتسح المكان، لن تحجبك عنه خيمة أو بيت خشبي بناه مغامر جيولوجي على عجل. فتح ماثيو عينيه بكامل نشاطه، قبل رشوة أكواب القهوة والحمّام الساخن. لم تغادر آدم إلى الآن حالة الهيجان والتوتر العاطفي، منذ وصلوا، يستيقظ باكراً يُعِدّ قهوة له ولأبيه، ويتسلل إلى الخارج.
ذلك الصباح سمعوا أصوات محركات سيارة تهدر، تحت سماء ما برحت تحاول الاحتفاظ بآخر نجومها. وعندما وقفا بباب الكوخ، كان هناك على بُعْد ما يقارب 300 ياردة، فورد حمراء كبيرة، التفّ حولها ستاينكي وبعضٌ من رفاقه.
أخذوا يلوحون لهما اقتربا، وستينكي يصيح: ”اقترِبا تعالا، لا يكتمل صباحكما في الصحراء دون رشفات من حليب الجمال“.
تدفقت من وجهه ابتسامة كبيرة نشطة وعيناه تبرقان، لم يكن يشبه ذلك النعس المتثائب في البارحة، يربت على الفورد كأنها كائن صحراوي هائل، وهو يقهقه: ”البحث عن ماء لها ولتبريد سخونتها، أهم من البحث عن ماء شرب لنا. هذه الليدي القوية، التي قطعت البحار إلى قلب جزيرة العرب، باستطاعتها أن تجر وراءها قاطرة تتسع لجيولوجيين، وميكانيكي، وثلاثة جنود، وطباخ، علاوة على راديو، وجهاز مقياس زمني، وثلاث قرب مصنوعة من جلد الماعز، وماء

مقطر، وفرش وأطعمة، وخيام، تتسع الواحدة لسبعة رجال مع دليلهم... البوصلة التي لا تخطئ، بإمكاننا أن نجد حيزاً لكما".

وهناك شاهدا خميس الرميثان لأول مرة، قدَّمه لهما توم باركر قائلاً:

"وحينما تفرد الخرائط، لا بد أن يكون هذا الرجل، ابن رميثان، حاضراً! فرأسه بوصلة عجائبية تنازل الكثبان الماكرة المتبدلة وتهزمها، ويذكر أماكن قد مر بها مرة واحدة عندما كان في الخامسة عشرة. فما إن تحدق بنا الرمال بوجهها المحايد الساهم، حتى يصيبنا الذعر، لا سيما عندما نكتشف بأننا ندور في منطقة واحدة، عاجزين عن الوصول لدرب أو ممر قوافل من الممكن أن نسلكه. عندها، يبدأ في التندر علينا، ويسخر من آلاتنا، ويؤكد أن الصحراء لا تمنح أسرارها إلا لأبنائها".

لاحظ ماثيو، أن الفريق يعامل هذا الرجل العربي الصموت بود واحترام يفوق بقية العمال. كان يقف بين توم باركر وكوينتسي، يرتدي الرداء العربي، ونظراته تتنقل فوق الوجوه بحذر.

استرسل توم باركر:

"نحمد الله بأنه انضم لفريقنا، فقد كان فاراً بالعراق أثناء حروب توحيد هذه البلاد، ولم شعث قبائلها في جديلة الدولة. ولكن وصل عفو للرميثان من السلطان، بعدما امتدت دولته على مساحة مليونَي كم مربع، من القبائل البدوية النافرة المتلفتة، العصية على المدنية".

قال ستاينكي مقهقهاً: "أملى شروطه علينا من أول يوم حضر هنا، دعانا خميس من فوق راحلته أن نتبعه، زاعماً أنه يستطيع السير في خط مستقيم، فتبعناه ما بين مشككين ويائسين. وبعد خمسة عشر كيلومتراً تقريباً، أكدت لنا الأجهزة، أن خميساً لم يَحِد عن الخط المستقيم سوى عشرين متراً أو أقل قليلاً، بلا بوصلة ولا أجهزة".

تعلقت عينا ماثيو بخميس الرميثان، وهو يطرق عميقاً في بئر الذاكرة: من يشبه؟ ولم يحتج كثيراً من الوقت... كان شديد الشبه بعبد الرحمن آل مشرق أبي الجازي: وجه صحراوي مستدق، بعينين متّسعتين لامعتين وملامحَ حادة،

وجه تراه كثيراً في جزيرة العرب. صافحه ماثيو بحفاوة ووقار، وظل ابن رميثان على حذره، قبل أن يشير لآدم: ”هذا لك؟“.

لم يكن الوقت وهدير السيارة ولغط الرجال يسمح بإخبار ابن رميثان قصة ابنه آدم، فقط أومأ برأسه نعم. فتمتم ابن رميثان وهو يتفحص وجه آدم: ”فيه دمنا“.

وبات الأمر يتكرر، لا سيما مع الكشافين الذين يرافقون حملات التنقيب من قبيلة مرة، التي تقطن صحاري الربع الخالي، وهم أشرس رجال جزيرة العرب وأشدهم فراسة، ولهم قدرات عجيبة في الكشف عن الأثر، يميزون بين آثار قدم الجَمَل الأسود والأبيض، وآثار المتزوجة والعذراء، وقَدَم المحارب من قدم الراعي.

***

في الكانتين المخصص للطعام بعد مغادرة قافلة الليدي الحمراء، كان الجو هادئاً، عدا بعض من السيدات الأميركيات، اللواتي كن يرتدين ملابس قطنية موردة، التي اشتهرت بين قرويات الوسط الأميركي، وبعضهن أكثر أناقة، يرتدين بنطالاً ضيقاً، ونظارات شمسية مع قبعة قش.

حيوا القادمين بلطف متحفظ وبعض الفضول، أما اللواتي برفقة أطفالهن، فقد خصصت لهن طاولات قصية، بمقاعد للأطفال المرتفعة.

شعر ماثيو أن هذا المكان المستزرع وسط الصحراء، تحت وطأة نموذج متخيل يظل يطارده، ويحاول عبثاً القبض عليه، لكنه يتفلت، كالنماذج العليا لأفلاطون، كان يحاول أن يشبه التوب هيل في سان فرانسيسكو، لكن عبثاً يستطيع.

أقرب طاولة لهما كانت تجاور آل أرنوت، إيزابيل وبول أرنوت، من المستقرين الأوائل، اللذين اعتادا أن يكررا حكايتهما، لكل قادم وزائر إلى صحراء ترفض أن تحادثه.

كان على بول أرنوت في بداية وصوله، أن يتولى متابعة الآبار الجديدة في بقيق وتشغيلها، تشييد المخازن، ومحطات فصل الغاز، والإشراف على العمال

العرب.

بينما تجد إيزابيل أن أهم بطولاتها أنّها أول امرأة تمشي مكشوفة الوجه في بقيق، وهي تدفع عربة ابنتيها أمامها، إيزابيل الصهباء، ورموشها البرتقالية، وجهها المنمش، وتقاطيعها الرقيقة، نسوة بقيق كن يستوقفنها ويتأملن ثيابها، كما يتأملن الطيور المهاجرة البديعة، التي تحل فوق واحات جزيرة العرب في أكتوبر بحثاً عن الدفء، وتعود إلى مواطنها الشمالية في مارس. ويحملن ابنتيها ويقبلنهما، ويطلبن أن يجربن نظاراتها الشمسية، وقبل أن تغادر، يشرن لها بلطف وابتسامات خجولة، أن تغطي ذراعيها احتشاماً.

***

تذكّر ماثيو تلك الحملان المطبوخة باللبن، التي كانت الجازي وكوثر تتساعدان على طبخها. سأل عن هذه الطبخة اللذيذة في مطعم الكانتين، لكن لم تكن متوفرة. تبرع الفتى ذعار، أحد الطباخين العرب بطبخها إكراماً له، وصنع إلى جوارها أرزّاً أبيضَ مزيّناً بالزبيب.

لكنها لم تكن بلذّة تلك التي سبق أن أكلها من يدَي الجازي، استوقفته لفتة الفتى ذعار اللطيفة، وذلك الكرم الذي لا يندثر لديهم.

همس لآدم: "الكرم قيمة عليا لأخوالك، تطعم جائعهم، وتغيث مقحطهم، ولولاه لأفنتهم الصحراء".

وعاد ليسأل ذعار بودّ: "أين تعلمت هذا الطبخ اللذيذ وهذه اللمسات الشهية؟ من أهلك؟".

حدق فيه ذعار لوهلة، وقال وهو مطرق: "لا، تعلمتها هنا، فأهلي غاضبون مني، وعمي الذي أتيت هنا لأجمع مهر ابنته، حين عرف أنني أعمل طباخاً، رفض تزويجي، ووهب حبيبة الطفولة لابن عمّ ثالث لنا، لا يملك أي ميزة، عدا كونه لا يعمل طباخاً!".

قبل أن تغطي حدقتيه غلالةُ دمع، فتجمدتا كالزجاج.

شعر ماثيو بنخزة أسفل رئته السفلى، وكيف تنتثر فوق جزيرة العرب مئات قصص العشق الذبيحة، فحتى الجبال العاشقة... تفرقت. تذكر كيف أن الجازي

سربها وأخذها، متستراً خلف غيمة الوباء السامة، بعيداً من الموت، وبقية أهل الرياض. وحينما رأى ذعار الغلالة نفسها تلتمع في عينَي ماثيو، حاول أن يكون متماسكاً قليلاً وقال: "الله يعين".

وقتها همس آدم: "لنذهب يا أبي، فأنا أشعر بأن هذا العاشق يريد أن يختلي بلواعجه، ويرسل دموعه التي تحشرجت في صدره واختنق بها صوتُه".

***

أخذ ماثيو يبحث عن وسيلة مواصلات تقله إلى الرياض، مروراً بالأحساء أيضاً شاطئ العقير، بعد أن أبدى آدم تبرماً ومللاً واضحاً داخل الكامب، ولم تَجْدِ مغامرة الليدي الحمراء في إثارة فضوله، أو الإجابة عن خزانة أسئلته التي راكمتها السنون.

قال له كوبلي، بعدما وجده يبحث بإلحاح عن وسيلة تقله وآدم إلى الرياض: "بالنسبة إلى الرياض، فطاقم الطيارة الداكوتا، التي أهداها الرئيس روزفلت للملك عبد العزيز، يزورنا أحياناً، ويمضي ليلة في الكامب، ويقوم ببعض الصيانة للطائرة، وبإمكانك أن ترافقه، مع بعض الترتيبات والأذونات. أما الأحساء والعقير، فأنا شخصياً، الرجل الوحيد الذي آمن مرافقته لكما، هو خميس الرميثان".

لم يتردد ماثيو عندها لحظة واحدة على الموافقة على هذه الخطة، فمرافقة خميس الرميثان، واستنطاق صمته، فرصة لا يستطيع جعلها تطير من بين يديه.

***

حين وصلوا الأحساء وجدها قد تكثف زرعها، وطال نخيلها، والتمعت خضرتها. أخبره خميس الرميثان أن ستة وعشرين ألفَ فدان جديدة قد أهِّلت وخصبت، وهي قيد الفلاحة، وانتشرت بها بيوت النحل، بينما السهول الخلفية جعلت لزراعة العلف وبرسيم المواشي.

وعندما تقصى في سوق القيصرية عن الطبيب الأرمني آزاد، أخبروه بأنه مات قبل سنوات قليلة، وبقيت عائلته من بعده مستقرة في الهفوف، وتزوجت بناته بعرب من أهل الأحساء.

***

ميناء العقيق كان قد هُجر، ولم يبقَ حول البحر سوى غرانيق الماء، وممر الميناء، والقلعة المهجورة، لم يجسروا أن يناموا داخلها. لكنهم اقتربوا من الشاطئ، وأوقدوا نارهم، وأخذوا يتأملون مياه الخليج والسفن التي تمخره؛ يتحازرون: هل هي تجارية ناقلة للنفط، أم لصيد الأسماك؟ ولم يَعُد باستطاعة القراصنة أن يعربدوا في المكان.

آدم مضى مع خميس الرميثان، يتجولان في المكان بانبهار واستسلام، كأنه يتفقد ألبوم الصور القديم، يتفحص ويشم كل نبتة صحراوية صغيرة ويسأله عن اسمها ليدونه، ويضع غصناً منها في جيبه، لعلها تكون من تلك النبتات العطرية التي كانت أمُّه تعطّر بها شَعرَ أبيه.

تسامروا طويلاً، ونجوم البحر تبدو مغتسلة لامعة، ومع منتصف الليل، بدأت نوافذ القلعة تعكس أضواءها، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب.

ماثيو لم يستطع استرجاع المكان، ولم يميز تفاصيله، عدا النخلات الثلاث، اللاتي سبق أن جلس تحت ظلالها هو والجازي، ما برحت هناك!

النخلات الثلاث تنظر للقادمين بسهوم وصمت وتضمر الكثير من تفاصيل الحكاية. كانت تعرف أن الجازي حينما مرت بجوارها لن تعود، وأن الشاب اليافع الذي برفقة هذه المجموعة أيضاً سيظلّ هنا، ولن يغادر هذه الأرض.

***

وصول طاقم طائرة الملك الداكوتا لكامب الشركة، اتّخذ طابعاً احتفالياً نوعاً ما، فمنيو العشاء يتبدل، وتزاد بعض الأصناف للكابتن جو غرانت ومساعديه، ويخرج السيجار الهافاني الفاخر لما بعد العشاء.

بعد العشاء، تحلقوا حول طاولات خارج الكنتين، أعدت لهم لتدخين السيجار، يهمّهم لم شعث الأخبار التي تصلهم متقطعة، حول مشروع مارشال، ومدى حاجتهم إلى النفط لإعادة بناء أوروبا، التي حتما ستحتاج هذا النفط البكر الساخن عالي الجودة، سهل الاستخراج، لإعادة إعمارها، لا سيما أن مصانع السيارات الأميركية، أبقت على سيارات 8 سلندر، كي يظل الاستهلاك مستمراً، ويظل مشعل الزهو الوطني الأميركي متقداً.

ليلتها أخذوا يتضاحكون ويتندرون على ستاينكي، بعد أن علموا أن العرب يسمون تل أم رقيبة الشديد الانحدار ”إصبعَ ستاينكي“، إشارة إلى إحدى أصابعه التي بُتر جزءٌ منها جراء إصابة عمل.

بينما ماثيو كان طوال تلك الليلة، يبحث عن فرصة للاختلاء بالكابتن قائد الطائرة، ليسأله عن الرياض، والذي وجده يتحدث بإعجاب وانبهار عن السلطان نفسه، وجعله الألفا، الذي تظل الجينات تصطفي وتنتقي أجيالاً متتالية، لتحصل على نسخة مكتملة منه، نسخة تقوم بزحزحة عربة التاريخ العالقة في هذا المكان المنسي تحت الرمال.

تأكّد ماثيو لحظتها أنّ غرانت أصابته تلك الحالة المباغتة، التي تصيب عادةً زواره ومجالسيه، فيسعدهم عندما يوليهم اهتماماً، ويستعيدون مقاطع الحوار بينهم وبينه، كأنهم تقلّدوا ميدالية.

***

دفع ماثيو الحديث باتجاه الرياض، وسأل جو غرانت: كيف هي السلطانة التي تشرئب فوق عرشها على ضفاف وادي حنيفة، أحوالها، أحياءُها، ونساءُها الجميلات؟ والبهجة التي تعصف بأشجارها عندما تمطر؟ ونساؤها النافرات كالظباء، يغمرن أوراق النعناع وحبات الهيل بالماء طوال الليل، ويرشفنها الصباح، فتخرج نكهته من أنفاسهن ومسام جلودهن؟

صاح الطاقم: ”هيهي مستر إيدن، من أين أتيت بكل هذا؟ عمَّ تتحدث؟ نحن لا نراهن إطلاقاً، فهن قابعات في المنازل دوماً، فإذا خرجن نجدهن متشرنقات بالعباءة السوداء. أخبرنا أين رأيت كل هذا؟“.

خجل ماثيو من اندفاعه وانهماراته الشعرية، تعرّق صدغاه واحمرت أذناه، ولكن بنظرة خاطفة لعينَي آدم، وجدهما تبرقان بإعجاب كبير، لم يره في عينيه قط.

عينا آدم، كانتا ترسلان دائماً رسائل مضمرة له، أنه الأب العشوائي المندفع، الذي يتخذ قرارات جامحة وغير مدروسة، وبحاجة إلى المراجعة والتعديل، أو هذا ما كان يظنه، ولكن نظرات التقدير والإكبار في عينَي آدم تلك اللحظة، رممت تهريج وتندر الجلساء.

لحظتها عاد الكابتن جو غرانت، يحاول أن يضبط عبثهم وعربدتهم، وأدار بوصلة الحديث باتجاه ابن سعود من جديد قائلاً: ”ما كان أيزنهاور وتشرشل سيدعوانه لمشاركتهما بعد مؤتمر تقسيم العالم في مالطا، لولا تيقنهما آنذاك، أنه بات رجل المنطقة القوي. أثناء لقائه مع أيزنهاور 14 فبراير فوق البارجة كوينزي، لم يكن يكترث كثيراً للبروتوكولات. فعندما حان موعد الصلاة فوق سطح البارجة المزدحم، صاح بوفده: ’صلّوا‘، فاصطفوا أربعة صفوف وأدوا الصلاة باتجاه مكة“.

شعر وقتها ماثيو، بأنه لا بد أن يقول شيئا كعالم أنثروبولوجي، من المفترض أنه خبير في المنطقة. وكنوعٍ من الامتنان لتكفل الشركة بمصاريف رحلته إلى العقير والأحساء، قال وهو يرجع ظهره على المقعد: ”الملك لا بد أن يملأ مساحة عرشه، الألفا الذكر، والذي تحمل له الشعوب السامية في أعماقها احتراماً فطرياً. الإذعان والالتفاف حول القوي المهيمن، الذي سينجو بها، وسيلة عتيقة للشعوب الصحراوية لمواجهة الفناء“.

قال ستاينكي وهو يمسد لحيته الحمراء الكثيفة: ”المفارقة ليست هنا فقط! لكن بتضافر الكون والطبيعة في مشروعه، فعندما أصبح بحاجة إلى مورد يحمي وينمي مساحات مملكته، وبعد ست محاولات فاشلة، انبجس البئر رقم 7 في عام 1938، الذي يسقي جميع أحصنة الحديد، التي ستعيد إعمار أوروبا المدمرة، واليابان التي رفعت شارة الاستسلام“.

قال باركر: ”كما قال آينشتاين: ’الإله لا يلعب النرد مع الكون‘“.

أجابه ماثيو: ”بالفعل هي طفرة تاريخية، فهيغل يقول: ’التحولات التاريخية الكبرى، تحدث عبر طفرات، من طبعها أن تختصر مئات السنين، تنقل شعباً اعتاد عبر آلاف السنين على نمط رعوي شبه زراعي، وتدفعه للدخول إلى المدنية‘“.

قال ستانكي ضاحكاً: ”لماذا شطبت دور اليانكيز من المشهد؟ كان لهم دور كبير في هذا، حينما كان رجالي يصابون بالإحباط، وأسمع نشيجاً هنا وهناك، فكنت أصيح بهم: ’يا رجال، عندما تحط سفينة على المريخ يوماً ما، ستجد هناك أميركياً يحفر في الرمال بحثاً عن بئرٍ نفط... نحن أحفاد المكتشفين الرواد الأوائل، خرجنا من بين أيدي كولمبوس وطاقم سفينته“.

سردية الرياح

في السرديات التاريخية الكبرى، ما تحجبه الأبجدية، تعود الرياح وتسرده.
جاور ماثيو في مقعد الطائرة المقلعة نحو الرياض شاباً ضئيلاً، يرتدي ثوباً وعباءة بطريقة رجال الدين، يداه صغيرتان مشذبتان، لا تخبران بأنه سبق أن مارس الفلاحة، أو قبض لجام فرس. كان يكثر التلفت، ويبدي لباقة وتودداً، لا تنسجم مع الحذر الذي يبديه أهل المكان عادة للغرباء.

يتحدث العربية بكلاسيكية متقنة، مما جعل كلامه واضحاً لماثيو، الذي أخذ يسترسل في حديثه معه، بعد أن قدم نفسه، حمد الجاسر، أستاذ لغة عربية في مدارس شركة النفط التي كانت ترعى برنامجاً في التعليم الديني، للشباب الملتحق بالمدارس الصناعية والإعدادية، والتي تُعِدّهم ليشغلوا المناصب الدنيا والمتوسطة في أرامكو، وكان الجاسر يشرف على هذه المدرسة. وسرعان ما استخرج من حقيبته دفتراً مستهلك الغلاف والأوراق، يحوي أبياتاً من الشعر، ورسومات لخرائط وتضاريس، وأخذ يشير لماثيو على بعض تفاصيلها، كمواضع تاريخية للبلدات، والغزوات، والشعراء، والوقائع الحربية التي دارت في الأسفل.

لكن الحديث داخل الطائرة مع صوت الموتور كان صعباً، رغم أن المعلم كان يظهر معرفة علمية واسعة، ولكن صوت المحركات الذي يصم الآذان جعل الحديث صعباً.

فأخذ يشير عبر نافذة الطائرة قائلاً: "انظر أسفل، هناك مناطق حضرية مستقرة في قلب الرياض، وبنيان وعمران؛ تقول المصادر إن المباني في الرياض قبل ألف عام، كانت ترتفع ما يقارب 20 ذراعاً". كانت المعلومة عجيبة أثارت دهشة ماثيو، فعندما زار الرياض كان أعلى ما رأى هو أبراج قلعة المصمك، ولكن كما اعتاد، هي مدينة كتومة، لا تمنح أسرارها للغرباء.

عند الوصول، اتفقا على اللقاء في الرياض، وبما أنّ سكان الرياض بلغوا وقتها 30 ألف نسمة، لم يحدّدا كيف وأين، ولكن كانت للأقدار ترتيبات أخرى.

الرياض من الجو ما زالت تمتلك الأفق المزْرَق مع مسحة قرمزية، لمح لحظتها صدر آدم يهبط ويصعد، وأنفاسه تتلاحق وقد احتقن وجهه، فصمت، وجعله يختلي مع مشاعره في هذه اللحظة المهيبة.

***

يرتفع نبض ماثيو، يشعر به في حنجرته، لا يدري هل هو مشروع بكاء ليكتمه وينفثه من رئتيه، أو هو غصة يبتلعها، استغربه هو نفسه إلى الآن، يعجز عن الوصول إلى أجوبة عن أسئلته، هل أعود إلى الرياض تلبيةً لإلحاح آدم؟ أم نداء قاهر وغامض، للمرور بأرواح وأطلال ما برحت أسمعها تهمهم في أرجاء روحي؟

الشيء الذي لم يحسه سوى أمام باب الرياض، تزوج إحدى فتياتها، أمضى 25 عاماً يدرّس حضارتهم ويدرُسها، يدوّن ويرصد في فهارس وجداول، لكنه عجز عن القبض على الروح المتفلتة العصية على اللغة، التي تنبض حوله! ذلك الشيء المخاتل المتبدل يقصر الكلام عن اقتناصه، ولا يقبض عليه إلا عبر كمائن الشعر.

***

عند النزول من الطائرة، لم يكونا بحاجة إلى التوقف على أعتاب سور المملكة، وتبديل الملابس لدخول الرياض للمرة الأولى بثياب نظيفة وهندام مرتب.

نسيم الصحراء المرافق لنجمة المساء، سقسقة طيور ضئيلة وفضولية تحاول أن تتوارى خلف شجيرات الشوك حول المدرج.

كانت سكرتيرة كوبلي قد أبرقت للوزير ابن سليمان تخبره بوصولهما، فوجدا مستقبليهما أسفل الطائرة، وركبا مع طاقم الطائرة في جيب CJ، وطوال الطريق كان ماثيو يتلفت حوله بفضول بحثاً عن جبل المخروق، عين الوحش العملاق، الذي يحرس الرياض، كما يحرس طيبة وحشها، لكنها باتت مدينة أخرى.

وصلوا إلى بيت الضيافة مساء بين صلاة المغرب والعشاء، وكان أهل الرياض كعادتهم يستقبلون المساء بصلصلة أقداح القهوة، وأحاديث ترتفع دون وحشة العتمة، البعض يستقبلها بالمزيد من الركعات يسمونها بالمؤنسات، تكفكف وحشة الظلمة ما بين المغرب والعشاء.

في النّهاية حلّ ماثيو وآدم في أحد منازل الضيافة الكبيرة القريبة من قصر المربع الملكي، سورها الهائل وبوابتها الضخمة تشيان بعمران جديد يتسلل للرياض، لكنهما شعرا بالخيبة، عندما عرفا أن الملك ليس حاضراً، بل في مخيمه البري في بلدة عفيف غرب مملكته.

***

أول أمر صنعه ماثيو صباح وصولهما، بعد أن وضعا أمتعتهما في غرفة مشتركة، هو البحث عن بوابة الظهيرة، ونخل آل مشرق، ونخل آل جمرة، ليكتشف أن الأسوار تلاشت، وتكاثرت المنازل ذات النوافذ الزجاجية بمصراعين من خشب، والتهمت الكثير من الأخضر الذي كان يحتضن سور الرياض، وبقيت بوابة الثميري الجنوبية، جوارها مظلة مصنوعة من الخشب مطلية بالأبيض، يقف داخلها جندي بزي عسكري نظامي، تقترب تفاصيله من أردية جنود المحور، ومنها ينحدر شارع مرصوف، مرقت أثناء وقوفهما على

رصيفه سيارة أولدزموبيل مسرعة، على نوافذها ستائر مخملية، فخمن أنها لنساء الأسرة المالكة.

وجدا هناك أيضاً مكتباً للهاتف والبرق، يبرز في باحته عمودان هوائيان كبيران، يقدّر ارتفاعهما بمئة وخمسين متراً تقريباً، أرسلا برقية لصاحبهما كيبلي في أرامكو، يعلمانه بوصولهما.

كان عامل بريد التلغراف عربياً له شدقان عريضان، تنفرش عليهما ابتسامة ودودة، استطاع ماثيو أن يخمن أنه من اللافنت، فسأله فأجاب: "نعم... أنا من سوريا". واسترسل قائلاً: "كنت جندياً عربياً في الجيش الذي حرر العالم العربي من الأتراك". ثمّ رفع كفه اليمنى التي لم يبقَ بها سوى الإبهام والإصبع الصغيرة: "وهذا وسامي".

لكنّه كان يعمل بمهارة، يرسل ويستقبل بإصبعين، وهو الذي أخبرهما أنّ باستطاعتهما سؤال حارس مكتب البريد، عن عنوان بيوتات آل مشرق، فهو من أهل الرياض القدماء.

كم تمنى ماثيو وقتها وجود طلق بن عيسى، كم سيبدو المكان يسيراً برفقته، لكن خطوات آدم الواسعة باتجاه ما يسمى درب الظهيرة، كما أشارت له خريطة بلجريف، لم تفضِ بهما إلى نخل آل مشرق. هل الذاكرة الماكرة راوغته، اتسعت الدروب، ونبتت على جوانبها الكثير من المنازل، والمدينة قد بدأت تقضم نخلها، وتزرع بدلاً منه منازلَ؟

ما زالت الدكاكين الطينية المتجاورة وأسقفها المصنوعة من جذوع النخل، ولكن المعروضات اختلفت تماماً، ملامح للوفرة بدأت تظهر بوضوح، ومنتجات معظمها من الهند وفارس.

ابتاعا سجادة فارسية بـ22,50 ريالاً عربياً، ونسخة من خريطة جزيرة العرب المطبوعة في بريطانيا. قال آدم: "لا فائدة منها"، وأضاف أنه يكره اللورد أثلون البريطاني. فالتفت إليه ماثيو باستغراب وسأله: "من أين تعرفه؟".

أجاب وفوق وجهه ابتسامة ماكرة: "لا تعلم المساحات التي توغلت فيها وأنا أبحث عن عروق أمي". وقبل أن يجيب، كانا قد وصلا إلى رأس شارع دخنة (عقل الرياض). لم يجدا البوابة التي كانت في مقدمة حي دخنة. يذكر ماثيو

أنها كانت أكبر من بقية البوابات، ولها ميزابان للمطر... اختفت... كانت مرتفعة، وقبل عشرين قدماً، يبدأ قاصدها في سماع أصوات المرتلين، ومرددي ألفية ابن مالك، والآجرومية.

مساجد دخنة، عادة يتضبّب سقفها الطيني المكلس، بعبق احتراق قطع العود والصندل ونكهة القهوة. الرؤوس المطأطئة المستغرقة بتتبع سكنات شيخها، ووقفاته فوق أسطر الكتب التي في حجورهم، فيما يتلصصون على أجنحة الملائكة تحف رؤوسهم.

باتت تلك الحلقات تستدرج أيضاً مربي الماشية والرعاة، من نشوة الانفلات الرعوي بين الأودية والفياض، إلى انضباط الأبجدية، وصرامة الشرائع، بعد أن كانوا يرون في التعليم شأناً معيباً يخص ليونة الحضر.

***

ومع ثلاث خطوات متوغلة في الحي، سحبت جميع الأنظار نحوهما، وبدأ يفكران بجدية هل فكرتهما صائبة في الدخول أم لا؟

الصبية الصغار يحدقون فيهما، ويرتلون بصوت مرتفع كأنهم فراخ طيور كاسرة، تتخابر عن غرباء دخلوا غابتها.

لم يغامرا بالتوغل في الشارع، حدس ماثيو يجعله يعرف بأنهما بحاجة إلى بعض الترتيبات المسبقة، لكن هذا لم يمنعهما من الاقتراب من إحدى المكتبات الصغيرة أول الشارع، قبل أن يغادرا.

تبدو المكتبة كالممر، وتزدحم بالكتب، وقبل خطوتهما الأولى داخلها، سرعان ما لمحا في عمقها المعلم الشاب، صاحب الدفتر المزدحم بالقصائد والخرائط الذي صادفاه بالطائرة. عرفهما لأول وهلة، وتقدم نحوهما مبتسماً، وأعاد ذكر اسمه وهو يسلم: "حمد الجاسر"، ويطلب منهما إعادة اسميْهما ليتذكرهما.

ولأن هذا المشهد جعل من المكان آذاناً مشنفة، تترقب طبيعة الحوار بينهم، ومحاوِلاً ألا يفرط في هذه الفرصة الثمينة، طلب ماثيو إيدن من حمد الجاسر

خمس دقائق بعيداً من اكتظاظ دخنة، راغباً في أن يستفسر منه عن بعض الأمور.

وفي المسافة بين المسجد الجامع ودخنة، وقفوا في زاوية بعيدة عن ضوضاء السوق، حيث لفت أنظارهم رجلان يجلسان على طاولة صغيرة أمام بوابة المسجد الجامع الكبير، الذي يقع شمال قصر الحكم. يعتمران غترَتين وثوبَين بيضاً فوق كلٍّ منهما عباءة مقصّبة، وأمام أحدهما دفتر كبير مفتوح، تجدولت صفحاته، وجُلِّد غلافه بعناية.

يحدّقان في المصلين الخارجين، ويلوحان لهم بالاقتراب لتدوين أسمائهم. لكنّ المصلين عندما يلمحونهما، يسارعون بالفرار، ويهرعون إلى أقرب زقاق يندسون فيه، وبدا واضحاً أن الرجلين يتبعان دائرة رسمية، فهناك جندي ببزة عسكرية وغترة على الرأس، يقف على مقربة منهما، وعلى الطاولة مجموعة من الأختام.

ومن يقرر الاقتراب منهما بحذر، يسألانه بعض الأسئلة، ويشرعان في تدوين اسمه وملامحه بحسب ما يتبدى لهما، فيكتبان: أعور، أو أحول، كية نار في جبهته، "كريم عين"، خشمه "منفعص" أو "سلة سيف"، خشته كبيرة، "برطمه" العلوي منشرم من يمين... وهكذا.

قال لهم حمد الجاسر مبتسماً: "الدولة في بداية مشروع لحصر أسماء مواطنيها، وأبنائهم، وعوائلهم، وتحديد عناوينهم، كي تتمكن وزارة المالية من توزيع ميزانية الدولة".

بينما الخارجون من المسجد، يظنون بأنهم سيسحبون بعدها بالقوة من مزارعهم، ومواشيهم، وأعمالهم الأخرى، ثم يساقون إلى ميادين التجنيد الإجباري! فيفرون، أو يضللون موظفي النفوس بتقديم أسماء وهمية، أو عنوان غير حقيقي، مثل: مكان الإقامة في البر... أو يجعلون لهم أسماء عجيبة تعود للعرب البائدة، كعاد وثمود.

ومع التعليقات الودية المرحة، وجدها ماثيو فرصة ليستفسر من الجاسر عن آل مشرق؟ فرفع الجاسر حاجبيه متسائلاً حول المزيد من المعلومات: "من تقصد بآل مشرق؟ هل هم آل مشرق القبيلة أو الخضيرية؟ أهل الرياض؟ أم

أهل الدرعية؟ أم أهل الدوادمي؟ هل هم الذي يشتغل أبوهم في الجندية، أم الذي سافر ولدهم للطائف؟". وقتها قرر ماثيو أن يتوقف عن الاسترسال في السؤال، لأن خيوط الأسئلة تلتف حوله وستبعثره.

صافحا حمد الجاسر بود، ودس آدم في يده عنوان شركة الزيت، في حال صادف أحداً من آل مشرق، يرغب في التواصل معهما.

انسحبا وهما يتأملان الخارجين من المسجد، يراوغان نظراتهما الفضولية.

***

يقبل المساء، ومع الخطوات المنهكة الأخيرة التي تتقهقر بهما إلى قصر الضيافة، ما زالا يبحثان عن شجرة بمبر كبيرة بأوراق بحجم الكف، ومضت الذكرى في رأس ماثيو لحظتها كفرقعة: إنها البئر التي كان يتقاسمها آل مشرق وآل جمرة في سقاية مزارعهما. هو يذكر تفاصيلها بدقة، فقد ربط جوارها ذلوله عندما حضر هنا، وجلب مهر الجازي... فوهتها الواسعة، وسانيتها التي ربط بها ثمانية جمال، وأعين الأسلاف التي تحدق فيك من قاع البئر.

لكن البيت لم يعد موجوداً، يتأمل حقول النخيل حوله، وسلالات جديدة من العصافير منغمرة بالتقافز، لا تبالي باستدارة الأفلاك حولها.

اعتصر قلبه على آدم، لم يكن يستحق هذه النتيجة بعدما قطع 8000 ميل. ربت على كتفه، وأراد أن يقول له هذا الكلام الذي يقولونه عادة للمواساة كثرثرة، فهو لا يُذْهِب الحزن، من نوع: لا بأس، هي في قلبك، هي تراك الآن، إلخ، لكنّه فضل الصمت، لأن بعض الثرثرة قد تحوِّل الخيبة إلى حرقة.

وبصعوبة عادا لساحة الرياض. كان الفتية والمزارعون يتهامسون: "إنهم من النصارى"، فشعر ماثيو ببعض الأمان، فالنصراني وقعها أخف من الكافر.

ولا يدري وقتها، وهما في حيرتهما للحصول على أي خيط يشير إلى آل مشرق أيّ طريقٍ يسلكان. خيبته لم يوازها سوى خيبة علمه أن السلطان لن يعود إلا بعد أسبوعين. تأمله مدير مكتبه بفضول، وأخبره أن صاحب الجلالة في الحجاز، ولكن سيظل مرحباً بهما في بيت الضيافة.

في المساء طرق باب غرفتهما صبيٌّ أسمر، يرتدي عمامة ويحزم وسطه بقماش حريريّ مقلّم، وأشار أنه سيمر بهما بعد عشر دقائق ليأخذهما إلى مائدة الطعام.

فوق المائدة كان هناك حساء مرق لحم الضأن مع البطاطس، ودجاج محشي، وأرز محشي، ولحم الضأن المحمر بالزيت، وفطيرة حلوة جداً، وفاكهة المانجو المعلبة، وبرتقال، وتفاح فلسطيني طازج.

كانت غرفة كبيرة أضيئت بمصابيح نحاسية هائلة، وعلى طاولة الطعام، وجدا الوجوه المألوفة التي رافقتهما في الطائرة، عدا الأخوين مارلي، أميركيين من ألينوي، أشارا أنهما يعملان في حفر الآبار، وهما الآن ينغمران في حفر بئر أمام قصر البديعة.

فجأة قال الأصغر من الأخوين مارلي، بصوت حاد يشبه صفارة قطار، ساخراً: ”لا أدري لماذا لا تنتقل صفوفهم المنضبطة جداً، وأوقاتهم الملتزمين بها التزاماً قوياً في الصلاة، إلى مكان آخر، فانضباط العمال الذين يعملون معنا، صعب للغاية“.

استغرب ماثيو تعليقه هذا، وسط قصر يكون عادة محتشداً بالعيون والآذان. أيضا هو أول مرة يجالسه، فما الذي جعله يتيقن أنه يضمر موقفا سلبياً ضدهم، كما أنه يتحدث بصيغة نحن وهم، بينما هو جالس يلتهم الطعام فوق مائدتهم.

تعليقهم المستفز جعل ماثيو وآدم ينكمشان، ولعل هذا المدخل الذي جعل أحد موظفي أرامكو يسأل الأخوين مارلي بنبرة ساخرة: ”ماذا عنكما، هل ما زلتما تحفران بئر البديعة؟ انتبها، لا تصلا إلى الطبقات العميقة فهي خاصة بنا“.

بعد العشاء طلبا من ماثيو وآدم، مشاركتهما تدخين السيجار، في باحة خلفية في بيت الضيافة غير مطروقة، لكنهما كانا متعبين بعد نهار أمضياه في التجوال، كما أنه ليس لدى الأخوين مارلي ما يستحق المشاركة.

***

تلك الليلة كتب ماثيو لرئيس قسمه وبروفسور الدراسات الشرقية، د. نورمان كي:

لن يكون الولوج القبلي عبر بوابات المدينة، وممرات الدولة، وسياقاتها، وبيروقراطيتها أمراً يسيراً سهلاً لذلك الصحراوي الذي ألف الأوقات المنسابة المتفلتة بلا ضوابط، الآفاق المنداحة، عدا الحدود الوهمية للمراعي، بينما القبيلة هي تلك الرحم الكبيرة التي كانت تحتضنه. الآن احتوته جرة الدولة، أصبح جرة داخل جرة، وستسكب عليه عصارتها لعسفه وترويضه، لن يكون أمراً سهلاً، هو تماماً كصراع بين عصر الصيد والالتقاط، وبدايات الثورة الزراعية.

الآن الدولة الإدارية بدأت تتضح ملامحها، في رحلة ظلت أبد الدهر أمام تحديين، الأول بلدة تجارية التوجه كالحجاز بقداستها الدينية، والقطيف والأحساء متعددة الإثنيات، بينما الثاني منطقة الرياض والعارض عموماً، بالإضافة لسدير والقصيم، هي صحراوية دينية قبلية، يتطلب حكمها أدوات مختلفة.

في بداية تأسيس الدولة، الوقتُ الذي كانت تمضيه القبائل في القتال بين بعضها، على مورد ماء أو ناقة، تم تقليصه مع وعظ الشيوخ الذين توازعوا مساجد نجد، يبشّرون بحرب أعظم وأجلّ تحت راية الله، للفوز بجنانه الشاسعة، وأنهار من خمر ولبن.

لكن عندما استقروا، بدأت مؤسسات الدولة الحديثة تلتقط النجباء منهم، وأقلهم نعرة ورعونة؛ تدرجهم، وتسوسهم، وتطهمهم، وتعدهم لجيش نظامي جديد ومنضبط، ينفّذ ولاحقاً يسأل. وجيش آخر من الموظفين، الموظف بكل كياسته وانضباطه، وبلادة أحاسيسه تجاه المغامرات، وتقديس التراتبية الوظيفية مع مديره، ورئيسه، ووزيره. كما أن شركة النفط تدرب موظفيها بشكل يقترب من المعسكر.

عزيزي نورمان، هناك نقطة، سبق أن أشرت إليها بشكل طفيف في نقاشاتنا السابقة، ولكن لم نتوقف عندها، وإن كنت أود أن أفرد لها فصلاً كاملاً في كتابي.

منذ عمق التاريخ، اليمامة والحجاز تتبادلان مركزية جزيرة العرب، ومحطات طرق الحج وقوافل البخور، القادمة من عمان واليمن، هي

مثلث درب القوافل؛ مكة، اليمامة، وبالميرا.

في فترة ما، فاز الحجاز بممر قوافل الشتاء والصيف، وأسس عبر السطوة الدينية مركزية أبدية، قلبها الكعبة، لكن يبدو الآن أن يمامة بني حنيفة، تستعيد هذه المركزية بيسر عبر نبع الوفرة السياسي، الذي يغذيه النفط، وملك ذكي بكاريزما هائلة.

وكما تعرف، كلما دخل التاريخ في حالة صمت وسهوم نظنها أبدية، في لحظة كونية خاطفة، يحدث زلزال مباغت، يبعثر انتظام الأشياء... من أجل أن يحقق غاياته.

ماثيو إيدن
1946

***

تلاشت واضمحلت ملامح نخل آل مشرق، واختفت معالم الدروب التي كانت تنطلق من بوابة الظهيرة، والوجوه الجديدة تتوقف عندهما للحظات، ومن ثم تواصل سيرها، سكرتاريا القصر تعاملهما بتحفظ وريبة، ولم تحرص على مدهما بالمعلومات، فلم يلحّ ماثيو؛ إنّه الآن محض ضيف طارئ يقف على الأطلال، وتعبث به النوستالجيا.

حدس ماثيو وقتها أنها الرياض وقد تمنعت عليهما، وأدخلتهما في متاهة، تفضي إلى ممرات تعيدهما إلى نقطة الانطلاق الأولى.

وتيقن وقتها ماثيو أيدن، أن آل مشرق ليسوا في الرياض، حتى وإن كانوا كذلك، فلن يكونوا حريصين على اللقاء به، ونكء جراح العمة... وهذه نهاية الحكاية، التي سمحت له الرياض بالحصول عليها.

***

ودَّع ماثيو الأرض التي منحتنه يوماً ما صبية فاتنة وابناً، دون أن يقبضا على خيط يقودهما لأخوال آدم. تأبت الرياض عليه وأغلقت بابها دونه، مشاعر

الشجن تتهدل فوقه كشبكة ثقيلة، لكنها حتماً لا تحوي ذلك الخفق والفوران اللذين رافقا زيارته منذ 25 عاماً. هل هو الصبا وقد ذبل؟

أعادتهما طائرة فيرتشايلد 71 للظهران، وعلى متنها مجموعة من العمال السعوديين، يحملون الكثير من علب قصدير زيوت المحركات، قبل أن يكتشف ماثيو أنها مجرد علب صفيح، يستعملونها لتخزين التمر، وبسكويت محشو بالدبس يسمونه كليجا، يأخذونه معهم كهدايا، وكزاد لهم في مواقع العمل.

وعبر فوضى الهواجس فوق الغيم، يكتشف أنه مشتاق إلى إديث، مشتاق إلى غرفتها المنظمة، وأمشاطها، وروب الحمام المعلق خلف الباب، وكريم لانكستر الذي تضعه على وجهها، وإفطارها الذي تسيل فيه صلصة التوت البري على البان كيك، وتيقن عندها أن الزوجة في مرحلة معينة، تصبح أُمّاً تلبي الغرائز البدائية الأولى، خاصةً إذا كانت تمتلك خصائص إديث المتدفقة.

أنبوب

> "احفظوا شرائعي، لا تولِّد بهائمك من نوعين، ولا تزرع حقلك من صنفين، ولا تلبس ثوباً منسوجاً من صنفين" – **سفر اللاويين**

على ضفاف دروب القوافل، تبرعمت حضارات وممالك، واستوطنت شعوب استأنست المكان ومخلوقاته، وحينما حضر الجيولوجيون بعد ألف عام، بأجهزتهم، ومعداتهم، ومسبارهم، ليختاروا طرقاً لشاحناتهم، اكتشفوا أنهم ليسوا بحاجة إلى الأجهزة الطوبوغرافية، لكنهم اكتفوا باللحاق بجمل يتقدمهم، يسير في التضاريس الممهدة عبر آلاف الأعوام، بمسارات قوافل يقصيها القحط ويدنيها الحنين، وليضعوا بموازاتها أنبوباً هائلاً ينحدر بين الكثبان، ليصل موانئ الأبيض المتوسط بوابة أوروبا.

أوروبا المتشظية المنهكة بعد حرب كونية مروعة، يغرسون في عروقها أنبوب نفط هائلاً، قادماً من الشواطئ الساخنة، قاطعاً الصحراء، متلوياً فيها

كثعبان عظيم، يمتلك بين أنيابه ترياقها.

قبل تأسيس خط التابلاين، كان الجميع في الكامب، يتحدث عن الفكرة الطفولية الخرقاء المسرفة في جموحها، وكيف أنهم سيحتاجون إلى آلاف الأمتار من الصهاريج الضخمة، تمتد 1600 كيلو، ليصلوا ضفاف الأبيض المتوسط، وفي الوقت نفسه، يختصرون رحلة 9 أيام، تبحر بها ناقلات النفط عبر ثلاثة مضائق، مهددة بالحروب والقراصنة.

وصلا الظهران، وكان فريق العمل ضاجاً بالحديث حول خط التابلاين. ستاينكي وباركر قالا لهم: "سنستمر، الطفرات التاريخية تحدث هكذا. عندما مد الفراعنة ماء النيل، لينقل الحجارة الهائلة التي بنت أهراماتهم، استمعوا إلى مثل ما تقولون، والكثير من تفَّه وسخر من حمقهم، وعندما بنى الرومان أقواسهم، وممراتهم المائية التي تسقي روما الماء، كان البعض يرقبهم، وينتظر أن يقهقه من فكرتهم الخرقاء المجنونة".

ولكن ما اعتبره ماثيو جنوناً بحق، هو طلب آدم ابنه المكوث هنا، بعد أن وجد له عملاً في أرامكو، محرّراً صحافيّاً في مطوية، كانت تصدر داخل الكامب، تحتوي أخبار العالم، وأخبار الكامب، والواصلين الجدد، وأولئك المغادرين، واكتشافات الآبار الجديدة.

ماثيو أصيب بالحنق، وشعر أن ابنه يستغفله، وأنه استدرجه إلى هنا كي يبقى، ظل كل ليلة يسير وإياه لمسافات طويلة يتحدثان، ويحاول أن يثنيه عن عزمه، مذكراً إياه، أنه الآن خاضع لطفرة شعورية سرعان ما ستتلاشى ويحل بدلاً منها الندم، ولكنه أصر ورفض أن يجعل حتى الموضوع حيزاً للنقاش.

وكلما حاول أن يأتيه من مدخل العمل، والمستقبل، والفرص، يرد عليه آدم بحنق: "لقد كنت أصغر مني سناً عندما حضرت إلى هذا المكان، ولم تكتفِ بهذا، بل تزوجت دون أن تنتظر من أحد رأياً ومشورة".

كان التصميم في عينيه حاداً ومتشبثاً، إلى الدرجة التي جعلت ماثيو يعزف عن نقاشه، ويشعر أن هناك قوة أكبر منهما تستبقيه.

***

ويبدو أن هذا القرار كان مضمراً داخل آدم، عززته زياراتُه المتصلة لمهاجع العمال العرب مع خميس الرميثان، يحادثهم ويتناول عشاءه معهم. اكتشف أن العربي لا بد أن يمضي الدقائق الخمس الأولى، وهو يسألك عن صحتك، وأحوال أهلك، قبل أن يباشر حديثه معك. كانوا لطفاء وكرماء، لا سيما عندما يعرفون أن الدماء العربية تجري في عروقه. ولكن بعد انتهاء وقت اللطف والمجاملات، يبدؤون يتحادثون معاً بلغتهم الخاصة، ويلعبون الورق، ويشربون الشاي. لحظتها عرف آدم، أنه سيظل طوال عمره فوق البرزخ الذي يفصل عالمين، شأنه شأن الأبناء المهجنين الذين يدفعهم كل عالم باتجاه الآخر، بتهمة الاختلاف.

وعبر إنكليزية متعثرة، يظل خميس الرميثان يعابثه قائلاً: "أنت ولدنا، وفيك دمنا، لم لا تبقى هنا؟".

وفي يوم أجابه آدم: "أتمنى أن أبقى هنا، لكن خارج هذا الكامب الممل... هل تظنّ بأنني سأحصل عملاً؟".

أجاب خميس الرميثان بحماس يخالف وقاره وشخصيته المتحفظة: "بالتأكيد ستجد، وهناك في الشركة كثير من الفرص، أسمعهم يتحدثون عن أنبوب هائل لنقل النفط، سيمتد من الظهران إلى ميناء البحر المتوسط".

نهر يسقي العالم

أول محطة عمل فيها آدم عند تأسيس التابلاين اسمها عرعر، التف حولها الكثير من بطون قبائل الرعي المتنقلة، فطوقوا كامبات الشركة وعمالها، وبعد فترة لم تطل أمضوها في ترقب وتمحيص شؤون المخيم، تقدموا يستفسرون عن فرص العمل.

كانوا لطفاء، بسطاء. وجوه مستدقة وشوارب معقوفة يعملون ما بوسعهم ليثبتوا للمشرفين أن وجودهم هام ومنتج، وليس ثقلاً على الفريق. فتراهم في حفر ورصف الطريق تحت الأنبوب، في المساعدة في لحام الأنابيب الهائلة، وحفها بالرمل من الداخل لإزالة شوائبها، وتهيئتها لتدفّق نهر سيسقي العالم،

فإذا حل المساء، لفوا سجائر التبغ، وأخذوا في نفثها مع همومهم. وأخرجوا آلتهم الموسيقية الربابة، وبدؤوا في الغناء بأصوات شجية، رققتها نسمات المساء.

***

يبدأ الاستقرار البشري، وتتبدى ملامح الحضارات جوار البحار والأنهار، لكنها هنا تمردت على قوانين العمران البشري، ونبتت متتابعة جوار محطات تقوية الضخ في الأنبوب، بئر ماء، وأرفف مقاصف، ومحلات صغيرة يحشدونها بالمعلبات والسجائر، ويبيعونها على المهندسين والجيولوجيين.

قطرات عملاقة تساقطت من كفّي الإله، فاتسعت دوائرَ، وغدت بلدات مستقرة، تجذرت بالأرض لتتحدى قدر الترحال الأبدي.

وكانت البلدة منها عندما تتضح ملامحها، وتتقد قناديلها، تختار اسم أبهى نبتة فوق أرضها، وترشقه على بوابتها اسماً لها. فالقيصومة شجيرة زهور عطرة، تتجاور في ضمم صفراء صغيرة براقة كرأس صولجان، هي أول مدينة تنشأ بمحاذاة الخط.

وفي وادٍ احتشدت فيه شجيرات الطرفاء، بأوراقها المتهدلة كشعور جنيات فاتنات، ملتفات حول أسرارهن، فأسموها طريف.

وفي عمق يحتشد بشجر العرعر الصنوبري المعمر الحكيم، دائم الخضرة، نبتت مدينة عرعر، وإن كان بعضهم يعزي تسميتها إلى الشاعر امرئ القيس، الذي مر بها وهو في طريقه لقيصر الروم، فقال:

سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا   وَحَلَّت سُلَيمى بَطنَ قَوٍّ فَعَرعَرا

بَكى صاحِبي لَمّا رَأى الدَربَ دونَه   وَأَيقَنَ أَنّا لاحِقانِ بِقَيصَرا

فَقُلتُ لَهُ لا تَبكِ عَينُكَ إِنَّما   نُحاوِلُ مُلكاً أَو نموتَ فَنُعذَرا

عرعر تبدو الآن من الطائرة مربعات متناظرة متساوية، كرقعة شطرنج، لكن ما برح شجر العَرار يبسق في ساحاتها.

***

كتب آدم لأبيه ثلاث رسائل فقط... قبل أن يختفي.

الرسالة الأولى في كريسمس 1951:

ما زال السؤال المعتاد يتربص بي هنا: "هل أنت من دمنا؟".

نعم نعم نعم... تجري في عروقي دماؤُكم.

لا أدري لمَ يختار العرب الدم للتعبير عن القرابة. لمَ لا يختارون كلمة السلالة أو الأسلاف؟ الدم لعله هو الأكثر صدقاً في التعبير عن تواشج الأنسجة.

بدأ شحن النفط عبر خط التابلاين، هذه الأنابيب الهائلة التي يقف داخلها رجل فارع، من شرق العربية السعودية إلى الأبيض المتوسط، تصل ما يُقارب 1213 كم. مغامرة مجموعة جيولوجيين أخذتهم شهوات الإنسان في الاكتشاف.

في بعض الأماكن يحفرون ليظل الأنبوب مستوياً، وفي الأماكن المنخفضة يرفعون الأنابيب بأعمدة من حديد، وطائرة تمر فوقها جيئة وذهاباً، خشية أن يصيبها عطب، فتتوقف أوروبا عن التنفس، ولتبقى أوروبا سوقاً لجميع مصانع أميركا، ولا تعود السفن التجارية فارغة من أوروبا، بل تحتشد بالمخترعين، والمفكرين، والأدباء، والفنانين... التواقين إلى عدالة العالم الجديد.

في رسالتك لمست نبرة القلق عليّ، لكن تأكّد أنا بخير، بداخلي شعورٌ عميق بالأنس والطمأنينة، تحفّني مجموعة من رفاق العمل، ووسائل ترفيه أنشأتها شركة خطوط التابلاين، إضافة إلى مقار للإدارات الحكومية، أي الإمارة والشرطة، وبُني عدد من المدارس، ملاعب كرة قدم وسلة، ملاعب جولف، وصالات بلياردو، تنس طاولة، وصالات

عرض سينما، تُعرض فيها الأفلام من السادسة إلى الثامنة مساء، وفي نهاية الأسبوع عرض مسائي من الثامنة والنصف إلى العاشرة والنصف.

غرفة السينما متقشفة، لكن يجتمع فيها الجميع، كبار المهندسين والموظفين وزوجاتهم، يحتلون المقدمة، والبقية من العمال والحرفيين بالخلف.

وعادةً في منتصف الفيلم ومع تصاعد الإثارة والحماس، إذا هدرت الشاشة بمشهد طائرة على وشك الهبوط، اختبؤوا تحت كراسي السينما الخشبية، وهي الكراسي نفسها التي كانت موجودة في الكانتين الصفيح، الذي يصبح في الصيف فرناً صغيراً، بطاولة معدنية وأرفف، يقدمون فيه شطائر الجبن والبيض، وثلاجة بها قوارير الصودا، وفَّرَت لنا الماء البارد والمثلج.

لكن المريح في الأمر، والذي يدعوني للاستمرار، ليس تحسن لغتي العربية بشكل تكاد تختفي فيه لكنتي، لكنهم يخططون في المستقبل لإنشاء محطة للمياه والكهرباء، ومركز بث تلفزيوني يغطي منطقة الشمال، ومطار إقليمي من الممكن أن يصل إلى بيروت وعمان.

حياتي الاجتماعية متواشجة مع محيطي، أحرم نفسي من ذلك الأنس والراحة التي أشعر بها في محيط الأميركان. أشعر بأنهم بيتي القديم الممل، وأنغمر في محيط العرب، فبتُّ كجسر مشدود بين مكانين.

هناك طرفة تتعلق بهذا الموضوع أود أن أرويها لك، فالعرب رفضوا أن يفرغوا صناديق الموز أو الاقتراب منها، ظناً منهم أنه نوع من القنابل، تشبه تلك التي تستعمل لشق الطرق، ولكن يبدو أنني استطعت أن أنال ثقتهم، عندما بدأت آكلُ الموز وأرقص كالقرد، فشاركوني الضحك والرقص، وانتقلت في النهاية صناديق الموز لمستودعات الطعام.

استقروا، لكن أعينهم ما برحت معلقة بالأفق، تترقب غيمة، أو وميضاً بارقاً واعداً بالمطر، يطلقون على المطر الحيا، فهو بوصلة رحلتهم الأبدية، عندما يصبح القوم وقد فكوا أطناب البيوت، وحملوها على

ظهور الجمال، وركبت النساء الهوادج والمحفات، وامتطى الرجال الجمال والخيول، وسبقوا النساء بحثاً عن الحيا. إنهم يفعلون هذا منذ آلاف السنين، نبع من الهجرات التي شكلت ملامح المنطقة عبر التاريخ.

لكن أنبوب نفط يتلوى وسط الصحراء كتيتان هائل، يغيِّرُ ديموغرافية المنطقة، باتت القبائل تلوذ به وتستقر حوله، حيث مصدر موثوق للرزق الأكيد، لا يبالي بالأنواء والغيم.

يعملون باليومية عند رب عمل منضبط، كل الذي بينك وبينه هو ساعات، تتحول آخر النهار إلى قروش تتكثف في الجيب، وتصبح طعاماً وثياباً، والعام الذي يليه تتحول إلى أخشاب، ونوافذ، وأبواب، ترتفع شاهقاً في وجه البدوي الرحَّال، وترقق الحبل السرّي الذي يربطه بقبيلته، الرحم التي تحميه وتطعمه، ويجد أنه بات وحيداً في مواجهة العالم، في بيت تغلق نوافذه، لتستيقظ أشباحه، وهدير شاحنات بعيدة، ترسم عجلاتها خريطة جديدة للمكان.

آدم إيدن
عرعر 1951

الرسالة الثانية:

الربيع كان مغدقاً وافراً هذه السنة، المزاج العام للعمال مستبشر فرح، يترقب مواسم الرعي والصيد.

الأجواء تتلطف حولي، مقارنة بأول أيام وصولي، حيث كان هناك احتقان وغضب عارم، وجماعات متهافتة على العمل بلا خبرة، وأصحاب الخبرة في حالة تنمر وتأفف دائمين. كانت الدولة قد اشترطت وقتها، أنه مقابل كل موظف أميركي، يجب أن يتم تدريب عشرة موظفين محليين.

صديقي المقرب الآن فريح، الذي اشتهر بمعرفة الضغط والأرقام داخل الأنابيب، كان أمياً عندما التحق بالعمل، لكنه يستطيع بناء الطوب

باحترافية كبرى، ويستدل على المفكات والبراغي من شكلها، وكنت أسمع المشرف الأميركي رامسفيلد يسميه ابن الجنيَّة.

أنبوب التابلاين لم يغيِّر سلوكيات البشر، بل أيضاً الحيوانات التي باتت تستظل به من حرارة الشمس، عندها يسعى الصيادون لاقتناص الغزلان اللائذة بالظلال، فيسبب الرصاص ثقوباً في الأنابيب، فيستشيط المهندسون غضباً ويشتبكون معهم، ويتصعد الموضوع، ويصل إلى ولي العهد في الرياض، الذي غالباً ما يحسمه بطريقة ودية.

لكن يظل غضبهم حذراً ومدروساً، فهم حريصون على أن يبقوا العلاقة هادئة ودية بينهم وبين الحاكم ورجالات القبائل، فلا أحد يستطيع التنبؤ بردود فعلهم.

كل يوم أجد دائرة الاستقرار المدني تتسع، حفرت الآبار للمياه العذبة، والخيام وبيوت الشعر بدأت تتلاشى، وتحلّ بدلاً منها بيوتٌ من الحصى والطوب.

لعل هذا الأمر هو ما يستبقيني، ويجعلني لا أستجيب لإلحاحك بزيارتكم، مشهد المدن وهي تولد مهيب، يستحق أن نستغرق فيه يوماً إثر يوم، نبدأ بمحطة ضخ، سكن العمال ومنازلهم، وكافتيريا لوجباتهم، ثم تتسع بحلقات شاسعة، بسرعة هائلة، حتى لتبدو أنها كانت موجودة منذ الأزل.

أتأمل منها هرم الحاجات الإنسانية في التجمعات البشرية، الشبع، والأمن، المقايضة؛ إما أقايض بجهد شخصي أو مقتنيات أتاجر بها، أو شوارع لنقل المقتنيات، معاهد تدريب ومدارس، وأخيراً عندما تشبع حوصلة الإنسان وينام آمناً، يصبح هناك مكانٌ للفنون ورؤية فيلم سينما.

لا أحد يتقاتل على عمل وسط الصحراء، عملت بالخدمات اللوجستية أنا وسائق شاحنة عربيد يسمى بارجر، وعندما أضجرني مزاجه العجيب ومغامراته، استقلت.

عملت بعد ذلك في عدد من الأعمال، أذكر منها أرشفة سجلات المسح بالراديو، وفصل المولدات، وإصلاح السيارات، مراجعة مخازن

المياه والغازولين، ترتيب وأرشفة تقارير جيولوجية، مواعيد رواتب العمال، ومصروفات الطعام.

آدم إيدن
عرعر 1952

الرسالة الثالثة والأخيرة كانت مجرد صورة بالأسود والأبيض، وهو يرتدي الثياب العربية، وقد أطلق لحيته، ويضع قدمه فوق جثة ذئب مسجى تحت قدميه. كتب خلفها:

أغمق لوني كما يبدو في الصورة، ولو ذهبت لتكساس لأسموني "زنجي رمل".
كمنت لذئب واصطدته، فلم أطق اعتداءاته المتكررة على قطعان الظباء؛ لا أطيق منظر خطمها الدقيق اللطيف، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

آدم
عرعر 19/1/1954

وهو التوقيت نفسه الذي اختفى به من الكامب، إلى أن اختفى من السجلات والمكان فجأة، ولم يَعُد أحد بقادر على الإخبار عنه. وبما أن غرفته قريبة من غرفة فريح البلوي، فهو يقول: "قد أنصتّ لخطواته وهو خارج تلك الليلة، فظننته قد خرج لصيد الأرانب، كما كان يحلو لنا في بعض الليالي، واستغربت أنه لم يرتب معي لرحلة الصيد تلك كالعادة، ولكن لم تكن خطواته وحده، كان لديه رفيق يمشي معه بخطوات غير بشرية، وأظفار تخمش الحصى".

***

لطالما كان آدم يذهب وحيداً يتيه في الصحراء، تناديه أمه من الآبار، ووراء الجبال، ولكنه كان يعود... وتلك الليلة وجدوا فراشه ساخناً، وقهوته في

منتصفها، وكتابه مفتوحاً على منضدة صغيرة تجاور رأسه، وباب كبينته موارباً، ولكن لم يعثروا عليه قطّ.

واختلفت الآراء في سر اختفائه، استبعدوا أن تكون سرقة أو جريمة، ولكن اختفى، وكل يدلي بقصة، بعضهم يقول إنه اضطر للرجوع للظهران في شاحنة، لاحتياجه لإرسال بعض الرسائل، لكن لم يشر أي من السائقين إلى أنه استقل السيارة برفقتهم.

بعضهم كان يقول إن قبيلة الذئاب بعد قتله قائدها، استدرجته وخاتلته، وأدخلته إحدى متاهات الكثبان، فلم ينجُ منها.

وبعضهم الآخر شطح، ويقول إنه عاد إلى الولايات المتحدة، الأمر الذي ينفيه ماثيو إيدن، فسجلات الدخول في المطارات الدولية لم تسجل دخوله، لكن الغريب في الأمر، أنه لم يفكر في أن يعود يوماً للبحث عنه، وكان متيقناً أنه سيفتح الباب في لحظة مفاجئة، وسيجده أمامه.

***

آدم من أولاد الهجنة، يقبعون بين عالمين، يعلمون في النهاية أنهم لا ينتمون إلى أي منهما. بل لهم أرض خاصة بهم تسمى أرض البرزخ.

نادته الجازي، لن تسمح له بالمغادرة أبداً. حُفظ ملفّه، بعد 3 سنوات من البحث الدقيق شارك بها رجال الشرطة، والمرية، وقصاصو الأثر، وزملاؤُه في عرعر، جعلوا من يوم الجمعة كل أسبوع، عملية تمشيط واسعة حول المكان، بحثاً عنه، لكن لم يجدوا أي أثر له، ولم يصل أحدهم إلى حقيقة بدهية وبسيطة، أن الجازي لن تسمح له بفراقها خمسة وعشرين عاماً أخرى.

فأفسحت له مجالاً ليصبح أحد مخلوقات الصحراء، التي تعيش بين أبدين، كالنخلات الثلاث، والفتى الأبيض الذي في الدحل، ولا نعلم عن الهيئة التي اختارتها الصحراء له، أو الحلة التي ستخلعها عليه.

وفي عام 1955، أُغلق ملفّ البحث عن آدم، وختم عليه: مفقود.

كتيبة الضباط الأحرار

الرياض 1955، وهو العام الذي التحق فيه عبد المحسن آل مشرق بأرامكو. تفتح وعيه، ونخلهم يلعق جراحه، ويذر رماداً على آلامه، وأبوه عبد الرحمن يشرع في غرس المزيد من فسائل النخل، ولكنه يعزف عن أن يشاركه. كان يتسلل من الفجر ليصطاد العصافير (بالنباطة)، ويجمع جراء الأرانب ويبيعها في السوق، ومن ثم يتسلل إلى حلقة المسجد، ويجلس في طرفها حتى لا يشعر به الشيخ، فيطلب منه تسميع أحد أبيات ألفية ابن مالك أو الآجرومية، متوقعاً منه حافظة كحافظة أخيه راشد، المنخرط في الحلقة منذ الصباح.

وبعد صلاة المغرب يعود بصحبة راشد، محاولاً أن يستتر خلف وقاره وتقديره لحلقات العلم، ولكن رأسه فارغ، إلا من التفكير بموقع مناسب يعرض فيه بالغد صيده للبيع، دون أن يلمحه أبوه، الذي يناديه "عبد المحسن نزغة الشيطان".

كان في العشرين، نحيلاً، كتفاه محدودبتان لرقة عوده، لكنه حادّ الذكاء، يمشي بخطوات سريعة كأنه يلاحق شيئاً فرّ منه. التحق بشركة البترول، دون أن ينتظر موافقة أبيه، أعلمه بهذا عبر خطاب أرسله مع سائق سيارة نقل، على خط الرياض الدمام.

وهناك ترقى من عامل مبتدئ تم تدريبه كفني أنابيب. سريعاً تشرب المهنة وصادق المادة، وبات يعرف المطارق التي تلينها ولكن لا تهينها، والبراغي التي تمنع قسوة الدهر عنها، والأوقات التي لا بد أن يسكب عليها جرعات من الماء الحلو، حتى لا يفترسها الملح. كل هذا كان درجاً يصعد به لكامبات كبار العمال، فلما خرج مع المظاهرات العمالية التي تحتج على معاملة الأميركان الدونية لهم، تم توقيفه.

دخل التوقيف لبضعة أيام غاضباً، وخرج بعد أن طلبت الحكومة في الرياض من الشركة إطلاق سراحهم، ورفع رواتب العمال، لكنه خرج من التوقيف أشدّ نقمةً، وسهرات السجن الطويلة التي كانت تملأ السقف بالثرثرة، ظل بعضها في جيوبه على شكل رايات عربية، تمتد من المحيط إلى الخليج.

عندما عاد عبد المحسن لكامب العمال، وأخذ يحدثهم عن فلسطين السليبة، كانوا منهكين غير مبالين، طلبوا منه أن يكبح حماسه ويترفق، وأن يعدل اتجاه

بوصلة النضال، وليبدأ بمارد الرمل، وسعالي الجوع، وغيلان العصبية حولهم، فهؤلاء أقرب له من فلسطين.

لكنه لا يكترث لهم، ويعود ليجعل بوصلة نضاله فلسطين السليبة، لدرجة أن العتب والصدمة في أعماقه جعلاه يغادر العمل في أرامكو، ويرفض تلطيف رفاقه للأمر بأنه مجرد توقيع على تعهد بحسن السلوك...

كان في بداية عمله هناك مشرعاً وجهه لغابة العالم آمناً مطمئناً، لذا عندما بدأ صدغاه بتلقّي صفعات الخيانة والغدر، أخذ يتمتم: ”كيف يصنعون بي هكذا وقد واليتهم، بل صرت صانعاً عندهم؟ ألنت لهم الحديد، وأحببت المكان كبيتي، وكنت أدرب العمال حديثي الوصول بلا مقابل!“.

بعد ذلك، تعلّم ألا يمنح الكون وجهاً مشرعاً، أو ظهراً أعزل، فهو لا يعلم من أين تأتي الصفعة، أو تباغت ظهره الطعنة.

قرّر أن يعود ليستقر في الرياض، لكن ليس إلى نخلهم، حتى لا يبادره عبد الرحمن آل مشرق: ”محيسن نزغة الشيطان، ورا ما تقابل حلالك... ونخل أجدادك!“.

جمع رواتبه وابتاع شاحنة صغيرة، كان ينقل بها البضائع من ميناء الدمام إلى الرياض، استبدل بضجيج مسبار النفط والآلات في أذنيه هديرَ صوت الرئيس عبد الناصر، أبي خالد، الصادر من قرار رخيم، أول حاكم مصري يحكم مصر منذ زمن الهكسوس، فأصبح هواء الأثير ما بين مصر والعالم العربي، يهدر بسنابك الخيل، ويخفق بالرايات، وخيول خالد ابن الوليد، وألوية موسى بن نصير.

عاد إلى الرياض، وجيوبه ممتلئة بقصص بطولات العرب وأخبارهم، لا يستطيب المجالس أو ليالي السمر دون أن يردد: ”السكان المحليون في أميركا اللاتينية، قبلوا الأرض بين أيدي الإسبان، لكنهم عجزوا أن يروا الخناجر التي تلتمع بين تلافيف ثيابهم، وها نحن عاجزون عن رؤيتها.

انكمش الترك من فوق الأراضي العربية، وتركونا عزلاً مستباحين لسكاكين سايكس بيكو، أرض الترك تروّت بدماء الشباب العرب، الذين انتُزعوا من بغداد، وطرابلس، والبصرة، وقذف بهم فوق تلة شاناغلة ليدافعوا عن عاصمة

الترك، بينما بلدانهم تتخبطها الفوضى، وشتات الهويات، وجيوش المحتل، لكن تأكدوا في أي لحظة ستمر بأي مدينة عربية، وستصيح ببيت المتنبي: ’على قدر أهل العزم تأتي العزائم‘، سيجيبك الشطر الثاني من أقصى المدينة: ’وتأتي على قدر الكرام المكارم‘“.

ولما وجد عبد المحسن أن أحداً لم يهرع إلى ديوان المتنبي، ليبحث عن بقية القصيدة، وأن الجميع بات منشغلاً بالشاحنات الهائلة، التي تقصد الرياض محملة بالأسمنت، والطوب، والحديد، ومكائن الكهرباء، استأجر دكاناً صغيراً له في نهاية شارع الثميري، لبيع مستلزمات البناء والتعمير.

وهو العام نفسه الذي بدأت تظهر فيه مكائن بلاك ستون في المزارع، بدلاً من السواني، وحش شره، بفكين عريضين نهمين لا يرتويان.

وعلم وقتها أن ذلك الانتظام الأبوي الحريص، بين فوهة البئر وحوض النخلة، سيختل مع مكينة العطشى، دوماً صنعت جوار الأنهار لا الآبار المتقشفة.

صوت عجلات السواني ينخفض، وأنين المحالة يتلاشى، وطرقات مكينة بلاك ستون يتصعد في الفضاء، المزارع تمد أنابيبها وتَعُب الماء عباً من جوف الأرض، شرايين تهدر بالحياة، وتسترد النبض في عروق واهنة جافة. فانشغل عبد المحسن آل مشرق باستيراد أنابيب المزارع من جميع الأحجام، وسراً كان يحادثها قبل أن يربط براغيها ويغرزها في الأرض، فهو يعي تماماً أنه إذا خالف مشيئتها وغرسها برعونة ولامبالاة، تمردت عليه وصدِئت، أو تفتتت، أو تجمعت بداخلها الضفادع.

تماماً كما كان أبوه عبد الرحمن، يمر بأفراخ غرسه الجديد كل صباح، ويرحب بهم، ويستفسر عن أحوالهم، آملاً أن يطيب لهم المقام.

***

ظلّ راديو عبد المحسن هو حصانه الخشبي، خاض فوق أثيره جولاته وغزواته. يستقبل إذاعة مصر ولندن، وأغاني مصر والعراق، وترتيل القرآن من الشيخ رفعت ليلة الأربعاء والسبت.

كان في إحدى زياراته، قد اكتشف في بيت النخل، راديو من طراز فيلبس، تذكر أن أباه قد ابتاعه من شيخ مصري، كان يدرس في قصر الشيوخ بالمربع، ولكن عندما سافر عائداً إلى مصر عام 1938، أخذ ببيع مقتنياته، ومنها هذا الراديو الذي عرضه للبيع بخمسة جنيهات، وكان له هوائي إيريال، وبطاريات كبيرة بحجم الحقيبة ثمنها 15 ريالاً، والده عبد الرحمن آل مشرق، دفع ثمنه بأريحية، يومَ كان الجنيه 23 ريالاً، ومهر العروس 20 ريالاً.

كان والده عبد الرحمن قد صمّم له صندوقاً خشبياً، وأقفل عليه داخله كعفريت القمقم، وأودعه عند آل جمرة، فخبأه ناصر آل جمرة في الطاية، حتى لا يفطن الجيران أن الشيطان قد دخل منزله، لا سيما أن الأنظار ترقبه، سواء عندما يلمحون مجموعة الكتب التي يجلبها من خارج الرياض، ويختلي بها تحت أشجار النخيل بعيداً من حلقات العلم، أو سيره وحيداً بالليل، قاصداً إحدى مغارات ضفاف وادي حنيفة، فيتهامس الجيران أنه يذهب ليحادث الجن المخبئين في كتبه. وعندما يصل عمق الغار، يلف لفافة تبغ ويدخنها داخل العتمة باستمتاع، بعيداً من الأنوف الفضولية.

كل هذا تجمع ضده، قبل أن يستيقظ ناصر آل جمرة ذات فجر، على طَرق شرس فوق بابه في الأسفل، فوضع عليه ثيابه، ليجد النائب الديني وبرفقته رجلان طلبا منه بصوت جازر أن يصحبهما للتوقيف، لأن جيرانه يشكون من صوت معازف تصدر من منزله. ظل في التوقيف لمدة يومين، وكتب تعهداً، وأقسم بالله العظيم ألا يعيدها.

الغريب أنهم لم يأخذوا الراديو، خشية شياطينه التي قد تتفلت عليهم، فظل في صندوقه كما هو، وكان أول شيء بحث عنه عبد المحسن عندما عاد للرياض، ومر بنخلهم، حاول إصلاحه، لكن الصنايعي البخاري في شارع الثميري، الذي كان يملك دكاناً يصلح فيه كل شيء، من الساعة إلى الراديو، أخذ يسخر منه، ويهز رأسه ويغالب ضحكته، ويقول: "هذا صُنِع زمن حفروا البحر، ولا يوجد له قطع غيار". فقطب وجهه وسار مغاضباً وتركه عنده، وأخذ يستفسر سراً عن مكان من الممكن أن يبتاع منه راديو، فاقتناء راديو في

1955 يُعَدُّ من مخارم المروءة، ومن يمتلك جهازاً يدسه في غرفة قصية في عمق المنزل، ويخفيه تحت الأغطية.

وقتها وجد راديو فيلبس، استعمال خفيف، صناعة هولندية، وابتاعه بلهفة دون أن يساوم بثمنه الباهظ، فجودته هي التي ستلتقط إذاعة صوت العرب، وهو من سيخبره هل وصلت دبابة عبد الناصر للقدس، أم أنها ما برحت بالطريق.

الصورة واضحة ونقية، لا تحتاج إلى الكثير من التفاصيل... ستتقدم الدبابات، ومن ثم ستتبعها الجيوش العربية التي ستكنس إسرائيل للبحر، وتعيد شتات الفلسطينيين لوطنهم، ومن ثم يتحول العالم العربي إلى ورشة عمل، لأمة واحدة ذات رسالة خالدة، إذا التفتوا يميناً سيشربون من نهرَي دجلة والفرات، وشمالاً من نهر النيل، ويزرعون محاصيلهم في حوضها، ويصطافون، ويطبعون كتبهم في لبنان، بتمويل من بترول العرب.

يحتفظ بملف سري في منزله، يجمع به قصاصات الصحف المتضمنة أخبار الضباط الأحرار وانتصاراتهم وأسماءَهم، حتى أخبار غرامياتهم، وعلاقة عبد الحكيم عامر مع الممثلة برلنتي عبد الحميد، كان يراها من سمات الرجولة، ومسلك الفاتحين العظماء، الذين يستأثرون لأنفسهم بأجمل نساء المدينة.

وساعات خلوة عبد المحسن الطويلة، أوصلته إلى مثلث لا بد أن يرتب أضلاعه حوله: العمل، الصلاة، الزواج، حتى تنتظم فوضاه، ويفسح له المجتمع حيزاً في فسيفسائه.

فدثر نفسه بأضلاع المثلث، توسع في تجارته، وتزوج، وحاول أن ينتظم قدر المستطاع بصلاته. وظل وفياً لأحلامه، يترقبها من فوهات الأخبار. عندما ولد ابنه الأول أسماه جمال، والثاني ناصر، والثالث عبد الحكيم، وخشية أن يلفت الانتباه إلى أنه لديه كتيبة من الضباط الأحرار المصريين في حفيظة النفوس، أطلق على ابنه الرابع الذي ولد عام 1964 اسمَ عبد القادر.

***

عبد القادر زاغ عن تراتبية صف الضباط الأحرار، لذا كره بشدة الزعيق الشعاراتي، الذي كان يصله إلى الدور الثاني في منزلهم بحي الوشم، عندما يبدأ المساء في حل واجباته، والدمع الذي يبدأ في التقاطر من عيني أمه، عندما يطلب منها أبوه أن تجهّز لهم صينية فوقها كؤوس ووعاء ثلج، ويشعر أن رفاق أبيه، الذين يجتمعون للحديث عن الأخبار والسياسة، مجموعة من الغوغائيين بلا إنتاجية ولا فاعلية.

عندما أصبح عبد القادر في الثانية عشرة، وأحرز تقديراً عالياً في المدرسة، وكان الأول على صفوف الثاني متوسط، ابتاع له أبوه دراجة، ورافقه وهو يمسكها ويوازنها له، وهما يحاولان أن يبقيا بعيداً من شارع الخزان وسياراته المسرعة ورعونة سائقيه.

استغل عبد القادر هذا اللطف والزهو المفاجئ، ليحاول أن يخبر أباه، أن رفاقه أولى لهم أن يذهبوا إلى منازلهم باكراً ليناموا، ويستعدوا ليوم عمل نشيط منتج، بدلاً من إزعاج أهل البيت.

توقف أبوه فجأة، وحدق في عينيه وجفناه يرتعشان، قبل أن يتمتم بصوت خافت متعثر: "لنعد إلى البيت".

لاحقاً تمنّى عبد القادر أنه لم ينبس بهذا الأمر قط، فقد استشاط عبد المحسن آل مشرق، وهو يرى الديالكتيك التاريخي يتحداه وسط منزله، فنقيضه يولد منه كي يقتلعه، هو وأسلوبه في الحياة.

حُرم عبد القادر متعة مرافقة إخوته للعب الكرة في الشارع بعد الغداء، وبات يجبره على مشاركته بيالة شاي ما بعد الغداء، محاولاً أن يستدني مخه الشاطح قريباً منه، فيقول: "الترك أخذوا أبناءنا رصاصاً رخيصاً، ودروعاً بشرية مستباحة للدفاع عن إمبراطوريتهم، أخذوا من مخازننا حتى الملح وحبة التمر. مع احتلالهم لم تنمُ المنطقة، بل كانوا يستنقصونها وأهلها، ويتكسبون من ثرواتها، وتركونا هملاً مشتتين، فاستباحنا البرتغال، وبعدهم الفرنسيون، واحتلنا الإنكليز متسترين برداء الاستعمار، وما هم سوى حملة صليبية، من حملات لم تتوقف منذ القرن العاشر الميلادي. فلما حضر عبد الناصر، كان العالم العربي

قطعاناً تتداولها المراعي والرعاة، فاستنهض الهمم، وقدح العروبة في أرواحنا".

ينصت عبد القادر بصمت، ويمرّ في رأسه على وجوه رفاق أبيه المتهدلة، بعد أن غادرها البريق، محاولاً أن يطابق أيهم مصدر هذه الثرثرة، فلا يجد، لكنه يصمت، وهو يعلم أن للأمر حكاية أخرى لم يسردها أحد إلى الآن.

***

غاب عبد القادر في أميركا خمسَ عشرة سنة، وعندما امتلأ صدره بنستولجيا الغربة، شعر بامتنان جارف نحو أبيه، الذي لم يحاول أن يقصقص جناحَيه، أو يقتطع ثانية من الأوقات التي كان يمضيها أمام التلفاز، لمشاهدة فيلم "الهارب" أو مسلسل الكاوبوي بوننزا. لم يفتش جيوبهم، أو يشمّ أظفارهم تقصياً لرائحة الدخان، ولم يترك جيبه فارغاً قط. لم يكن يدلق على رؤوسهم الماء البارد لإيقاظهم لصلاة الفجر؛ كان يقول: "إن الصلاة كالغدة، لا تنضج إلا في عمر معيَّن". زودهم بالبوصلة إلى الله، وألا ملجأ منه إلا إليه، وتركهم يستبينون دربهم نحوه، فقط التقصير في تلبية متطلباتهم هو الخزي والعار بالنسبة إليه.

ظل مخلصاً لقوميته وعروبته، كالترياق الذي يمنح هذه الحياة مسوغاً.

وعندما عاد عبد القادر بعد خمسة عشر عاماً، وجده قد تبدل، وبات هشاً مستوحشاً، يستقبل تبدلات المواسم بشجن، ويقول بطريقته التعليمية كأنه يخاطب قطيعاً من البلداء: "إنه موسم الصفري، تكثر فيه الأمراض لتقلبات الجو؛ فلا تَنَم في السطح".

أطل في وجه عبد المحسن آل مشرق موسم الوسمي سبعين عاماً، وما زال يترقبه مع غيمه وأمطاره. كان قد سمّى أولاده على أسماء الضباط الأحرار، وجلس إلى جوار الراديو يستمع إذاعة صوت العرب، التي ستبث قريباً خبر تحرير فلسطين، ولأنها لم تفعل، فقد بات ينتظر أن يقوم صدام حسين بتحرير فلسطين، ففي اجتماع قمة العرب وعد بذلك.

ولأنه لم يحررها، وأرسل بدلاً من هذا صواريخ سكود روسية على الرياض، تحطم معها زجاج واجهة منزله وتشظى بعدد شظايا أحلامه. فكّر في أن يبتاع له شقة في مصر يكمل فيها تقاعده، لكن لم يعزم على ذلك، وتلاشى المشروع في رأسه. في النهاية ابتاع بفائض تحويشة العمر، مزرعةً قريبة من الرياض، وأصبح يذهب إليها كلّ صباح.

وإذا لمحه عبد القادر رائقاً ناكفه قائلاً: "يا أبي، أنتَ إلى الآن لم تستطع تقبّل أقربائك الذين هاجروا إلى العراق، وقطنوا الزبير وقت الجوع والفقر، ومن ثم عادوا مع بداية الطفرة، فأنت تصمهم بالهاربين، المتنصلين من مسؤولية المشاركة في النوائب والمصائب، فما بالك إلى الآن تقول: 'أمة واحدة ذات رسالة خالدة'؟ دعك من هرطقات ميشيل عفلق، جميعهم أفواه كبيرة مليئة بالثرثرة، لم نرَ منها إلا الخيبة وخداع السراب".

وكان يغضب ويحتد ويلعن ابنه عبد القادر، ويصمه بالمتأمرك اللعين. فيردّ الابن معابثاً: "والله يا أبا جمال ما أعطانا كرت مرور للمستقبل إلا الحمر العطر، جونا هم وطقطاقاتهم ومواصيرهم، وطلعوا البترول الذي كان بعيداً تتبول فوقه الإبل". فيتهدّج صوت الأب بالغضب: "الإمبريالية العالمية مضمار لا ينتهي، دولة تسلم المشعل لأخرى، وعندما تفككت بريطانيا العجوز، ناولت المشعل لأحفادها الغزاة في الجانب الآخر من العالم". يسوّغ عبد القادر هذا: "يبه، أميركا أمة هائلة تهدر بالبشر، والحقول، والمصانع، ومجموعة صغيرة من الدهاة الماكرين يشعلون حروباً صغيرة ودائمة هنا وهناك، لتصريف فائض مصانع الأسلحة، وإنعاش دورة رأس المال في الاقتصاد الأميركي"، ويضيف معابثاً: "لا تلومهم يبه، فحروب العالم هي جزء من الأمن القومي الأميركي".

وعندما يلعنه أبوه مرة أخرى سوياً مع أميركا، يهرع عندئذٍ عبد القادر لتقبيل رأسه والاعتذار إليه؛ فهو يخشى عليه الجلطات، مع ارتفاع الضغط والسكر الدائمَين لديه.

***

مطعم 77 من أوائل مطاعم الهمبرغر التي افتتحت بالرياض، وأول مغامرة تجارية لعبد القادر، لم يجد رواجاً وينتشر، ويصبح سلسلة مطاعم كبرى، ولكنه أيضاً لم يفتقد طعامه جودته وسمعته بين رواده، فقائمة الطعام لديه محدودة، تحتوي عدداً من الوجبات المرغوبة، أدخل إلى جوار الأطباق الأميركية طبقاً إنكليزياً، الفيش فينقر مع الشيبس، بالإضافة إلى أكواب من اللبن المخلوط بالزبد يشربه الآباء والأمهات الذين يضطرون لمرافقة أبنائهم لمطاعم الوجبات السريعة.

وهو بالكاد دخل هذا المشروع بعد تردد كبير، وإحساسه بالندم لأن جمعاً كبيراً من أبناء جيله ورفاقه، استطاعوا أن يحققوا صفقات كبرى، إما عبر العمل في المقاولات، وإما عبر الاستثمار في مواقعهم الوظيفية، بحيث تمكنوا من إدخال تجارتهم على الدولة بأسعار هائلة. فأخوه عبد الحكيم كان يعمل بالبلديات، وعندما فرضت البلديات مظلات أمام الدكاكين، قام بالاستحواذ على فرنشايز بلجيكي، وأصبحت لاحقاً من أهم المظلات الرائجة في الرياض، وأكثرها جودة ومتانة، بينما هو ظل أسيراً للوظيفة البنكية، ما يأتي منها يذهب ولا يعود.

لذا في النصف الثاني من عمره، تدارك نفسه بمطعم الطعام السريع 77، وعندما انتهى من جميع تجهيزاته، دراسات جدوى، ورأس مال، ومكان، وآلات، وعمال، ظل فقط الاسم!

طلب منه أبوه عبد المحسن أن يسميه اسماً عربياً أصيلاً، يشير إلى ثراء اللغة العربية، وقدم عدة اقتراحات: رزق، كرمة، جنيا، الأنعام، قائلاً: "يا بنيّ، إن الكلام الطيب مثل البذرة، لا تدري بأي أرض تتجذر وتبسق، وكذلك الكلام الخبيث، احذر أن تكون أُذُن أحد أبنائك مسرحها".

ولكن عبد القادر آل مشرق، الذي لم تخذله الأرقام قط، بداية من رقم تذكرة الطيران التي ساقته إلى أميركا، وصولاً لحسابه البنكي، كان يرى أن السبب الرئيس لخراب العرب، هو ثرثرتهم وتمضيتهم ساعات طوالاً في قيعان صمغ اللغة، التي تمنعهم من التحليق في سماوات العقل.

كان يقول لأبيه محسن آل مشرق: "لقد دخل العرب دهليزاً لغويّاً دامساً، عندما أصبحت جلّ مغامرتهم الفكرية نصّاً مكتملاً، يحاولون الوصول إليه والتماهي معه، وهو لا يقدح شرارة العقل، ولا يزيل غمامة الخرافة".

وبعد إلحاح وسخط من أبيه، رضخ في النهاية أن يسميه 77، فهو يدل على السماوات السبع والأرضين السبع، اكتفى بالاسم "سبعة وسبعون" نكاية بتلك الأرقام المهولة، التي كان يقرؤها في الكتب التراثية كمسيرة ألف عام، وما بين المشرق والمغرب، ويشعر أنها عربدات الخيال، الذي لم ينضبط بعقل. وتوقف عن القراءة بالعربية، وانحسرت قراءاته على الإنكليزية.

***

عبد القادر يتيقن أن أباه مهما وصفه بالمتأمرك، فهو فخور به، ويعيش عنده دون إخوته الكبار، فقد بنى له ولأمه أم جمال بيتاً يلاصق منزله، يفصلهما ممر مسقوف بتعريشة من الورد، أسماه الأب "ممر قدسي"، وقدسي ضابط تركي مر بالرياض عام 1918، متنكراً بزي درويش، وحاملاً رسالة للحامية التركية في اليمن، كتب في مذكراته: "إن أهل الرياض لا يهتمون بزراعة الورد في مقدمة منازلهم!".

تشابكت أشجار الورد، ومداد ياسمين فوق ممر قدسي، وعندما يشذبه ويقصقصه، كان عبد المحسن يخاطب كل شوكة تصادفه: "هذه شوكة نغز بها عين الجاسوس التركي قدسي".

وحينما رحلت أم جمال، لم يبق منها سوى سقف غرفتهما، الذي كانت تملؤه بالتسابيح، انتقل عبد المحسن آل مشرق إلى مزرعته التي في العمارية، تبعد عن الرياض 25 كيلو، ومساحتها 20 ألف متر. ولطمأنة أحلامه القومية، أوكل أمرها إلى فلاحين مصريين يتولون شؤونها، وعند المغرب، عندما يهدأ الكون، تقف الشمس على حافة العالم منهكة، وتبدأ الطيور بالتزاحم على الأغصان.

عندها يمر به العمال المصريون الذاهبون لمهاجعهم، يعابثهم قائلاً: "لولا عبد الناصر، لكنتم إلى الآن أنفاراً في إقطاعيات الترك والألبان". فيبدأ العمال بالشكوى والأنين من لواعج الشوق، ووخز الغربة، ويشرعون بإخراج آخر

الجوابات التي وصلتهم من مصر من جلابياتهم. يضعون الجوابات داخل جيب فوق القلب، كتعويذة أو ضمادة لنزيف الشوق، ويطلبون من عبد المحسن آل مشرق قراءتها، فتنسكب في قلبه مع العتمة أقداح الشجن والغربة، والعائلات الصغيرة المنشطرة، النساء المهجورات اللواتي يزرعن القيراطين، ويزوجن فاطمة، ويدخلن عزّ المدرسة، والجدران الشاحبة من دون صوت الأب، جفت أجسادهن بغياب رجالهن، وتحولن إلى مخلوق يندغم فيه الأنثى والرجل.

متولّي يقول له: "ليس المهم القراريط، بل أبناؤه الذين يكبرون بعيداً من عينيه، وعدد الخطابات التي بلغت 115".

عبد المحسن يرقب بصمت وخذلان، كيف تتلاشى اللغة المتوهجة المحتدمة، التي كانت للخطابات الأولى في البداية، حيث الأشواق واللواعج والمنازل الخالية، والأعين المعلقة على النوافذ والأبواب بترقب العودة، ومشترك النهارات التي تصنع لمّة وأسرة. وكيف مع الوقت تفتر هذه اللغة وتتلاشى، عندما يتحدثان عن عالمين منفصلين، وتجارب لا تتشابه، تتباعد الخطابات، وتقلّ صفحاتها، وتنشف لغتها، وتصبح تتوسل المتاح المتداول الناشف من الكلام، فيعلم عندها عبد المحسن، أن برزخ الغربة قد شطر العائلة نصفين، ولن تعود قط كما كانت.

يصمت عبد المحسن مطأطئاً، ويأخذ الحديث باتجاه البازلاء التي بذروها ذلك اليوم. يزرع بازلاء، وبصلاً، وسبانخ عضوية من دون أسمدة كيماوية، ومن ثم يجلبها للمنزل كحزم صغيرة مرصوفة في كرتون قوارير الماء، ولم يَعُد يزعجه أن حلمه العربي الشاسع من المحيط إلى الخليج، قد انكمش بحجم مزرعة بازلاء وبقوليات.

لكنه يتعجب، كيف عندما تقرر أحلامك أن تحرن كبغل أنهكه سحبك له على دروب العمر الطويلة، وتصل إلى ذلك المقعد الذي تطل منه على الماضي، ستعلم عندها أن عذابات العالم لم يكن ترياقها مع... ناصر.

الفصل السابع

تلك السنة عندما كنت في أميركا

طائرة الداكوتا التي أهداها روزفلت للملك عبد العزيز، أثارت الغبار الكثيف وهي تهبط فوق مدرجها الرملي، كانت ثاني كائن هائل، يحط من السماء فوق جزيرة العرب بعد العنقاء، وبعدها توالدت تلك الطيارة، وأصبحت شركة أقلت مجموعة من الطلبة السعوديين ليتدربوا على قيادتها. كان مدربو الأكاديمية الجوية في ميامي، يتندرون على الطلبة القادمين المقرطسين داخل الصناديق الصحراوية، لكن وسط دهشة طاقم التدريب، حلّق هؤلاء بلا طيار مساعد، بعد ثمانية أشهر من التدريب فقط. وهم أنفسهم من تولّوا مهمّة نقل أفواج الطلبة السعوديين، ونثرهم كمبتعثين في جامعات العالم.

وإن كانت الطائف محطة أولى للبعثات، لكن لاحقاً ولحبك نسيج دولة مترامية، مشدودة للجهات الأربع فوق جزيرة العرب، بدأ العالم حولها يمتد، والخطوات تتسع... مصر، تليها بيروت، بينما الطائرات هي من توقفت في لندن للتزود بالوقود، ومن ثم قطعت بهم الأطلسي لأميركا... وكان من تلك الأجيال، عبد القادر آل مشرق، ولاحقاً ابنه فواز.

***

في أواخر الأربعينيات، توجس أهل نجد من ذهاب أبنائهم بعيداً إلى ما خلف جبال طويق، حيث دار التوحيد بالطائف، منتصف الخمسينيات. بعدها تسابق وتقافز الشباب باتجاه بعثات أوروبا وأميركا، بمدونات بيضاء وأسطر معدودة، لكن تصحبها ذاكرة ثقيلة، لشعب غادرته القوافل منذ قرون ولم تعد، فظل متوجساً من الحدود التي تَلتَهِمُ الأحباب فلا يعودون.

شعب يتعبد إلهاً قوياً مهيمناً، يشطر عالمهم ما بين بياض خير مطلق، وسواد شر مطبق، ولكن المقاعد في الجامعات الأميركية، ستخبرهم أن هناك ما هو

وراء الخير والشر... من الشكوك والظنون، والأجوبة الظنية الناقصة التي لا تكتمل، وتحتاج إلى المزيد من التدوير في المختبر، وتحت المجهر.

يعودون للوطن تباعاً كل عام، ليكوِّنوا طبقة خاصة بهم، تتبدى واضحة في النسيج الاجتماعي، طبقة تكنوقراط، تتنافس بين أروقة الإدارات الحكومية، ولها قوانينها، وقيمها، وكودها الثقافي.

"تلك السنة عندما كنت في أميركا" تصبح فارزة عملاقة، يرددونها في أحاديثهم، قبل الذهاب إلى أميركا وبعده.

والرجوع بحقائب أحلام ثقال، لتحويل مساحات الرمل الشاسعة إلى مدن بميادين، ونوافير، وحدائق، وواحات، باتت تستوطنها الطيور المهاجرة، ما بين القطب الشمالي والجنوبي.

"ذيك السنة يوم كنا في أميركا"، وتذمر وتأفف من صعوبة التغيير، ومقارعة لزوجة الأنظمة الإدارية وتخشبها في ظل دولة يافعة، ولكنها وقورة لا تميل للمغامرات، فيدرالية قبلية عمرها آلاف السنين، مع بعض بقع من بلدات الاستقرار الحضري قررت أن تصبح دولة.

مبتعثو أميركا يخوضون المنازلات الفلسفية، والمساجلات القانونية في الشأن العام، وكأنهم يجدون أن شاهداتهم التي عادوا يتأبطونها من هناك، تتيح لهم الخوض في كل شأن، والتبرم مما كان... طمعاً فيما سيكون.

يترقبون المناظرات في الانتخابات الأميركية بحماس ويحرصون على مشاهدتها، ويتحازرون المرشح بالفوز، وخلفيته حول القضايا العربية. ويثرثرون في مجالسهم المغلقة، حول الأميركان الذين يتظاهرون أمام البيت الأبيض، ومن ثم ينفضون دون أن يضايقهم الأمن، وحول الهدايا التي حصل عليها الرئيس الأميركي أثناء فترة ولايته، يجب أن تترك في خزينة البيت الأبيض.

ولكن مع اقترابهم من الكهولة مثقلين بالامتيازات، تضمحل أحلامهم الكبرى، وتنحصر في عمل تجاري جانبي يدرّ دخلاً دسماً، واقتناء فيلا فاخرة تتجاوز مساحتها 700م في شمال الرياض، وإدخال الأولاد مدارس خاصة، من التي قسطها السنوي يفوق الثلاثين ألف ريال، وفي النهاية تبرز حتمية أخذ الأولاد

لزيارة ديزني لاند، فبعضهم يختار تلك التي في باريس، لأنها أقرب، وأيضاً تستطيع العائلة أن تدمج زيارتها لباريس بديزني لاند، وبعضهم الآخر يفضل تلك التي في لوس أنجلس، وبهذا تنتهي القوائم المطلوبة منهم، بالانضمام للطبقة المتوسطة العليا، من شريحة التكنوقراط خريجي أميركا.

عبد القادر آل مشرق، المتأمرك الذي ولد عام 1964

لم يكن عبد القادر مقتراً، واكتنز حسابه بالأصفار الستة باكراً، لكنه كان حريصاً، يرى أن هذه الثروة الريعية المتدفقة في عروق المكان، لا بد أن تُضبط وتُقنن، لحظة جيولوجية خاطفة انبثقت فجأة بعد دهور من الفاقة والشح، وسرعان ما ستتلاشى.

وحده قبول ابنه فواز في جامعة أميركية، فتح محفظة عبد القادر آل مشرق حتى قاعها، فهو يرى أنّ شهادة جامعة أميركية هي أقوى الأجنحة التي تحلق بك للدرجات العُلَى، شهادة أميركا هي التعويذة التي تفتح طلاسم بوابة الحياة العملية، شهادته المرشوقة خلف مكتبه متخرجاً من جامعة أوريغون عام 1991 هي الشاحنة المتينة التي قطعت به وعورة درب مستقبله.

لكنه لم يكن هو ذلك اليقين، الذي جعل عبد القادر آل مشرق ينزلق في مشروع ابنه السينمائي، بقدر قناعاته أن شهادة أميركية في ملفك الوظيفي، تكتسح كل التحديات.

***

عبد القادر ابن الستينيات، ذلك الجيل العجيب، الذي يقف على برزخ عالمين، تفصله ثلاثة أعوام فقط عن آخر قحط أصاب الجزيرة العربية، سبعة أعوام عجاف، من عام 1955–1961، وتلتها طفرات اقتصادية هائلة، كان الناس فيها يبحثون عن جوعى يرغبون في صحون الخراف بعد الولائم... فلا يجدون، فينثرونها في الصحراء، وعلى الجبال للطيور والسباع.

عبد القادر المشرق، قدمه اليمنى في الشح والتقشف، ومصروفه اليوم أربعة قروش ثمن قارورة البيبسي للفسحة، والقدم اليسرى خطت، لتتحول فيها بطاقة الفيزا إلى مصباح، يستجلب العالم بين يديه.

وعيه تأسس على خطيئة الهدر، أبوه عبد المحسن، وجَدّه عبد الرحمن، كانت أسمارهما المفضلة استعادة حكاية الأسلاف مع الجوع والخوف. يبكي جَدّه عبد الرحمن عندما يذكر رحلته إلى الشمال سنة الجوع 1928 مع قافلة، عندما باغتهم الجوع، وكادوا أن يذبحوا رواحلهم ويأكلوها، لولا أن الله لطف بحالهم ورزقهم كلبة وجراءها.

كذلك حكاية جارهم عبد الله ورفاقه، عندما تربصوا بضبعة كانت تغير على الماشية، واصطادوها، وأولموا لرفاقهم لحمها.

فلما مات الجد، استمر الأب عبد المحسن آل مشرق في ترداد هذه الحكايات، مع كل ريال يخرج من الجيب، والاستعاذة من أيام الفاقة، رهبةً وخوفاً، الأزمنة المتقشفة التي كان الشبع إمّا في موسم العيد، وإمّا موسم صرام التمر. أمّا بقية أيام السنة، فكانت تبقى على الكفاف، وما يجود به كريم السماوات والأرض.

وأخت لهم كان اسمها الجازي، سنة (الرحمة)، أشرفت على الهلاك، فاضطُرّ جدّهم أن يزوّجها بطبيب أميركي، رحل بها إلى البحرين يعالجها، وانقطعت أخبارُها.

***

البيوت والمنازل في رياض الستينيات هي أول ما رمم ذاكرة الشح والفاقة، فزينت نوافذها بأعمدة الصلب المزخرفة، واستبدلت بأبواب الخشب حديدَ الزّهر الملوَّن، وعُلّق مصباح كهربائي فوقها.

1964م هو عام التغيرات الكبرى. ففي هذا العام، كانت الرياض قد حسمت أمرها تجاه ردائها الطيني، وانزلقت من ثقوبه المتآكلة، تلوذ بصلابة ومتانة الأسمنت، تمتد وتتباعد المنازل، وتتسع الفراغات بينها، ونبتت في هذه

الفراغات، شوارع بنايات، وزارات، مدارس، وأعمدة نور، دكاكين فوقها شقق، قَطنَها الكثير من الغرباء.

وقتها تقبّل أهل الرياض فكرة أن يجاورهم شخص غريب، لا يعرف الجار سلالة جده السابع. بدأ أهل وسط الرياض يطلقون على القادمين من خارجها الجنبا، طالبي الرزق، ونهَّازي الفرص، والقادمين من القرى، الذين يقطنون على أطراف المدينة، ويؤسسون أحياء جديدة تخصهم وتحمل أسماءهم.

***

عبد القادر آل مشرق الجيل الثالث، في منزلهم الطيني بحي الوشم، يتعامل مع رفاه النعمة بحذر وتوجس، كأنها قروش منسية في جيب حقيبته، تعثر بها في صدفة لن تتكرر.

وعندما يخرج في الظهيرة، ويتجمع الصبية عند دكاكين الحي، ليبتاعوا من الدكان المزيد من العصائر، وباكيت سجائر يتشاركون ثمنه ليدخنوه خلسةً، كان هو يحثّ خطاه سريعاً نحو المنزل، لأن قاع الجيب خالٍ.

كان يعرف أن حقيبته لا بد أن تظل برفقته إلى آخر العام، حتى لو اضطر نهاية العام إلى ربط دفتيها بحبل، فلن تُشرى له جديدة، لم يكن يكترث، فكل طلبة المدرسة المتوسطة في حي الوشم، يلفون كتبهم بسجادة صلاة وحزام من البلاستيك، بينما هو يمتلك شنطة سامسونيات، جلبها له أبوه من سوق البطحاء، وإن كانت حقيبة وحيدة، تكون رائحتها في بداية العام جلداً فاخراً، وتنتهي رائحتها بقايا سندوتشات، ونشارة أقلام رصاص، وبعد أن تظهر النتائج، تحشى بكتب ودفاتر العام الدراسي المنصرم، ومن ثم يطوح بها في أحد الأحواش المظلمة المهجورة.

كان يعرف أن نوعاً وحيداً من الخبز سيتم تناوله صباحاً على الإفطار، ويسخن باقيه للعشاء، أما خبز الأفران الأوتوماتيكية، فلا يجلب إلا نادراً، أو في حال وجود ضيوف طارئين.

وكذلك عندما سكن مع آل ميلر في أميركا، أصبح التدبر ليس فقط حذراً وتقشفاً، بل قانوناً صارماً، وتصميم ميزانية، والتأكيد على أن التبذير هو جزء

من خطايا الأغنياء، التي تجعلهم لا يدخلون الجنة، حتى يلجَ الجملُ في سَمّ الخِيَاط.

في الخامسة عشرة من عمره، طوحت به الأقدار إلى قارة تقع على طرف العالم، فتلقفه ذلك البيت الأميركي البروتستانتي المتقشف، الذي كان يحسب عدد حبات البيض التي يجب أن تستهلك في كل أسبوع، مع بعض الزيادة الحريصة، في الأسبوع الذي ستخبز فيه الأم كيكاً لمناسبة عيد ميلاد أحدهم.

ورغم أن عبد القادر عندما عاد السعودية في بداية التسعينيات، كانت حكايات الجوع والعطش قد قُبِرَت داخل أفواه المسنين، ولم يظلّ في المدينة سوى منازل وفلل الأسمنت المكيفة، تَصُفُّ الخادمات على موائدها ما ازدحمت به المستودعات والثّلاجات، لم ينزلق إلى مهرجانات الاستعراض في المقتنيات والمآدب، التي كان يسميها "السيرك الصحراوي للأعراب"؛ فعندما تبتاع أبلا عزيزة خلسة ثوب غوتشي باثني عشر ألف ريال، وتقوم خبيرة تجميل بطلاء وجهها بالمكياج، كان يطيش صوابه لأربعة آلاف دولار تهدر على ثوب سترتديه مرة واحدة، بينما يرى زينتها وأصباغها عجيبة منفرة، شوهت جمالها، فغدت كأولئك المشجعات المبتذلات، اللواتي يصبغن وجوههن، ويصطففن على مقاعد ملاعب كرة القدم.

***

ليلة سفر فواز لنيويورك، عقرت عبد القادر نوستولجيا ثقيلة، وتذكر حقيبته السمسونيات الزرقاء، وبدلته البنية ذات القطع الثلاث، وقميصاً بيج ابتاعه له خاله مجاملة، حتى لا يثقل على أبيه بالمصاريف، فظل يستعمل البدلة في المناسبات، بينما رفاقه يسخرون منه، وينادونه عندما يرتديها: "شاي بحليب"، قبل أن يصبح اسمه عبد القادر المتأمرك.

كان عمره خمسة عشر عاماً، عندما غادر إلى الولايات المتحدة عام 1977، مرافِقاً لخاله المصاب بفشل كلوي، ويمتلك أمراً من الديوان الملكي بالعلاج في الولايات المتحدة، لكن ليس لديه مرافق يتقن الإنكليزية.

كثر الذين رُشِّحوا للخال المريض كمرافقي سفر، لكنه اختار ابن أخته نورة، عبد القادر آل مشرق مرافقاً في رحلة علاجه، فهو ما برح يافعاً، لكنه ذكي، وحفظ جملاً إنكليزية من الكارتون والمسلسلات الأميركية، التي يحرص على متابعتها: بوننزا والهارب. عرض الأمر على عبد القادر فطار صوابه من الفرحة، وباستيحاء عرض الأمر على عبد المحسن آل مشرق شاكاً بموافقته، عبد المحسن الغاضب دوماً على أميركا. لكن إلحاح عبد القادر الذي وصل لحد الهوس، انتهى به مع خاله داخل طائرة الخطوط البريطانية، متجهين إلى لندن، ومن لندن إلى منيابولس، وأسفل الطائرة كانت هناك سيارة إسعاف نقلت الخال إلى مستشفى مايو كلينك.

أمضى هناك مطلع صباه طالباً، إلى أن عاد عام 1991، والرياض تقرع طبول حرب تحرير الكويت، والجيش الأميركي الذي سيسهم في تحرير الكويت، كان قد سبقه إلى هناك. بينما تأبط هو الدكتوراة بأطروحة عن "الفرص الاستثمارية داخل الاقتصاد الريعي" ابناً مخلصاً للثقافة البروتستانتية الطهرانية، الشغوفة بالعمل والتقشف.

يتذكّر قبل أن يسافر ما قال له أبوه عبد المحسن آل مشرق، الذي كان يحمل عروبته كابنةٍ كسيحة، وينقلها من كتف إلى كتف، دون أن يجد دواء خارقاً ينهض بها: "لا تنبهر بالأميركان، فهم امتداد المستعمرين الرومان، عشنا بهم ومن دونهم، قوافل تجارة نهرول فوق صحرائنا هنا وهناك، وكنا نتاجر مع جيراننا ولم يضرنا شيء، ونردد كلما عضتنا سعلوة الجوع: 'الشام شامك، ليامن الدهر ضامك، والهند هندك إذا قل ما عندك، وسدير سديرك لي ضاق صديرك'".

***

في الأسابيع الأولى لوصوله إلى مدينة منيابولس، رتب له الملحق الصحي في السفارة السعودية أمور دراسته، ولصعوبة الحصول على عقد إيجار منزل، ليافع دون السن القانوني، نزل عبد القادر لدى آل ميلر؛ منزلهما قريب إلى المستشفى. كانت حياتهما مشعة مهندمة، بشكل يجعله يخشى لمس مفارش

الطاولات النضرة، وأغطية الأسرة المكوية. كل ما حوله يجعله يشعر أنه يسير فوق آنية قابلة للكسر، فكان يتنقل في أرجاء المنزل بهدوء، ويتحدث بصوت منخفض، ويكابد وحشته وشوقه للرياض بالمزيد من التعلم. كان يشعر بأن التعلم هو جزء من مفاتيح الكون الغامض حوله، في الصباح بمعهد اللغة، وبعد الظهر يحل واجباته جوار خاله في غرفة غسيل الكلى، بين الأنابيب والإبر الموصولة بأيدي خاله.

يشارك آل ميلر العشاء، ومشاهدة برنامج عجلة الحظ، ويتحمسان له ويتحدثان حوله. يخبره السيد ميلر: "إنّ التطور في تعلم اللغة يتصعد فجأة على نحو مدهش، فقد تظل شهوراً تشعر أن اللغة مستعصية ومستحيلة، لكن فجأةً تحدث لك قفزةٌ مفاجِئة، فتجد نفسك قد انطلقْتَ في الحديث والفهم".

لاحَظَ هذا، عندما وجد أن لغته المرتبكة، باتت تمكنه من فهم أحاديث الطاقم الطبي عن حالة خاله، فيحرص على إخفاء الأخبار السيئة عن أهل الرياض، يسجل كل كلمة جديدة تعلمها، لربما يحتاجها يوماً ما. يسأله الخال الواهن بين إغماضة وإفاقة: "ماذا تقرأ يا قادر؟". فيحاول أن يردد معه بعض الجمل والكلمات الإنكليزية، لعلها تبث في أنفاسه المتثاقلة البطيئة بعض الحيوية.

فخاله هو الخيط الذابل الواهي الذي يربطه بالرياض، وصباح العيد في مزرعة خاله، وجريش أمه، وصناديق حصاد الرطب آخر الصيف، يجلبها لمنزلهم من مزرعته.

مستر ومسز ميلر يزوران خاله كل أحد بعد خروجهما من الكنيسة، ويجلبان معهما إما فطيرة تفاح أو يقطين، وأحياناً يكتفيان بباقة من قطاف زهور حديقتهما المنزلية.

لذا بعد عدة أشهر، عندما توفي خاله، وجدا نفسهما يعاملانه كاليتيم، وظلت الملحقية في واشنطن تدفع له أقساط معهد اللغة، فلا يملك عندما تدق عليه السيدة المسنة باب غرفته كل صباح، إلا أن يهب واقفاً ويستعدّ للمدرسة. أمومات متلاحقة، جعلت من أميركا الرحم الكبيرة لعبد القادر.

يشعر أن الزّوجَين ميلر هما شريف وهدى فوزي في مجلة الكوميك سوبرمان، فيما هو سوبرمان اللقيط الذي وجداه داخل مركبته القادمة من كوكب كريبتون.

ظلّ يناطح الكتب الإنكليزية ويشاهد التلفاز، ليراوغ الساعات الطويلة في تلك الولاية، التي يبدأ فيها الثلج بالتساقط من منتصف شهر أكتوبر، والشمس تغيب في الرابعة عصراً، وفي عيد الشكر بات يفهم شذراً من حوار آل ميلر معاً، وأصبح يستطيع أن يجيب عن بعض الأسئلة بإيماءة، فلا يظلّ يتلفت فاغراً فمه، محاولاً أن يفهم عبر تعابير الوجوه فحوى الحديث.

بات يقارع كآبة عشاء عيد الشكر الذي يتناوله صامتاً، بمساعدة السيدة ميلر بغسل الصحون وتجفيفها، بينما هي تثرثر له عن عيد الشكر، عيد المهاجرين الأوائل، الذين قطعوا نصف الكرة الأرضية، وغرسوا أعلامهم هنا، وواجهوا الجوع والخوف، يحتفلون بعيدٍ للشكر، ويذبحون الديكة الرومية، إلا واحداً يهدونه لرئيس الولايات المتحدة ليعفو عنه.

أحاديث وقصص تسردها مسز ميلر، تحاول أن ترمم روح هذا الصبي، الذي تشعر أنه يتضور شوقاً لوطنه، وحشة الغرباء عندما يقفون على ضفاف مدن غامضة، لا تمدهم بالكثير من الذكريات. واستمر مع عائلة ميلر إلى أن تخرّج في الثانوية، يسهم في جلب الأغراض من الدكان، ويقص أعشاب مقدمة المنزل، ويوزع الصحف لزيادة طفيفة في دخله، تمكنه من مرافقة صبية الصف للعب البولينغ.

لم تتوقف أميركا عن أمومتها له، فبعد أن استقل عن الزوجَين ميلر، ظل يزورهما في الأعياد، وكانت أم آل ميلر التي أصبحت أرملة منذ عامين، قد وقعت في فخ لغز عمة عبد القادر البعيدة التي تزوجت أميركياً، ثم تلاشت أخبارها.

كان عبد القادر قد حدثّها عنها بشكل طفيف، ليصنع علاقة متينة مع آل ميلر، ولم يعلم بأن تلك القصة الرومانسية قد اعتقلت السيدة ميلر داخل قضبانها، فتظل تسأل عن أخبارها، وهل حاول العثور على ولد عمته البعيد الأميركي آدم ماثيو إيدن؟

يتحجج بانشغاله بدروسه ومحاضرات الجامعة، ولا يخبرها أن هذا أمر لا يعنيه، فلا تكفيها أو ترضيها هذه الإجابة، بل تذهب إلى المكتبة المركزية في منيابولس، وتراسل مكتبة الكونجرس، إلى أن استطاعت الوصول إلى عدة أسماء تحت اسم ماثيو إيدن، ترشح أن أحدهم بالتأكيد هو زوج عمته التي تزوجها ماثيو إيدن في الرياض عام 1919، وذهبت معه إلى البحرين للعلاج.

مسز ميلر تنغمر بالإثارة والمتعة، حالمة بمشهد عاطفي غامر، عندما يلتقي الأقارب البعيدين ويتعانقون في ساحة منزلها. حماس مسز ميلر لم يفضِ إلى نتيجة، ربّما لتخاذل عبد القادر، وعدم جديته في البحث عن زوج عمته، وهو يظن أنها محض نزوة، مساعد طبيب تجاوز أخلاقيات مهنته، واستغل ضعف مريضته.

لم يعلم حينها أن قصص الأسلاف لا تفنى، وإن حسب أنها اندثرت؛ تظل تحوم في فضائنا وفوق رؤوسنا، إلى أن تجد ثقباً تنسرب منه، باحثة عن لسان تتحدث عبره، أو سطور تنسكب فوقها، أو شاشة تبرق فوقها.

ومع ابتعاد عبد القادر آل مشرق عن آل ميلر، وانتقاله إلى مدينة ريتشموند لدراسة إدارة الأعمال في جامعة ولاية فرجينيا، ومن ثم انتقاله لاحقاً إلى ولاية أوريغون، بدأت تشحب وتتلاشى الصلات التي تصنعها الألفة اليومية، لا سيما بعد أن ظهرت في الأفق باربرا، حضن أميركا الوثير، أو على الأقل أكثرها عذوبة وجاذبية.

سنوات باربرا

تشارك عبد القادر وباربرا صف الأنثروبولوجي، مادة حرة، دخلها عبد القادر ليحسم موقفه من قبوله بالقرد كجدّ له، ودخلتها باربرا لأنها من المواد الاختيارية القليلة، التي تكون في ساعات الصباح، فعادة المواد الحرة تكون بعد الظهر، حينها تكون وراء كاونتر المخبز الذي تعمل فيه.

لم تكن باربرا النموذج السائد لفتاة جامعية رقيقة، تحتضن كتبها إلى صدرها، وتكوي قميصها بعناية، وكنزة من الموهير تلقيها على كتفيها برقة.

باربرا التي تعمل بدوام جزئي في فرن على ناصية الشارع، تشرب كأس البيرة حتى آخر قطرة، ثم تعيدها بقوة على الطاولة، وتقهقه بصوت عالٍ مع الزبائن، وتلبس خواتم فضية رخيصة في جميع أصابعها، قمصانها جرسية، تبرز تفاصيل صدرها الشاسع، تزيل حذر الغريب وتردده.

عندما يمر عبد القادر ليبتاع مخبوزات إفطاره، تحيّيه بصوت هادر كأجراس عيد الفصح: "هاي عبدول". وتخصّه بقطعة خبز فرنسي مخمرة طوال الليل ولم تُضَف له خميرة صناعية. ويوم تمرر له مافن بالشوكولاتة الغامقة، كان يأخذها بتردد وخجل، ويظن أنها نوع من التسويق، لمحلها بين طلبة الجامعة، فيبتاع منها بضع حبات مافن تلطفاً.

ويوم قدمت له فخورة نوعاً من الباستري الفرنسي، قالت له إن هذا يبدو شهياً مع القهوة: "ولكن مع الأسف ليس لدينا قهوة هنا، ولطالما طلبتُ من صاحب المخبز مراراً أن يؤسس لمكينة قهوة، فلم يصغِ لي، ولكن بالإمكان أن نشربها معاً في مقهى قريب بعد أن أنتهي من دوامي". تأملها مشدوهاً، ومن ثم بعد تردُّد، أخفضت عينيها وقالت همساً: "إذا كان هذا يناسبك؟".

وقتها فقط فهم أنّ باربرا كانت لا تسوّق لمخبوزاتها، فقط تنثر الحب للعصفور. أشرق وجهه بابتسامة شاسعة، واختلس النظر لشفتيها المبتلتين القانيتين، وصدرها الساكسوني المرتوي، وعينيها الخضراوين بلون قمم السنديان، وابتلع ريقه وقال: "يسعدني هذا".

في المقهى تأملها مشدوهاً، كانت مختلفة تماماً عن تلك التي كانت تربط المآزر حول خصرها، وتتحرك بسرعة لتلبّي طلبات الزبائن.

ارتدت فستاناً صوفياً أخضرَ يضاهي لون عينيها، ويحيط بانحناءات جسدها، وصبغت شفتيها بأحمر قانٍ، ونثرت شعرها البلاتيني حول كتفيها، وعندما قال لها: "تبدين مختلفة"، أمالت رأسها بغنج وقالت: "كيف؟"، فأجاب: "أصبحت كفتيات دعايات الشامبو"، فقهقهت عالياً حتى كادت تختنق من الضحك، وأخذ يرجوها أن تخفض صوتها، فالأنظار تركزت على طاولتهما، ومن بين دموعها تسأله: "حتى أولئك اللواتي يقدمن دعاية عن شامبو القشرة؟".

والضحك المشترك على حماقة ترتكب في أول لقاء، عادة إما تصيب بالإحراج، أو تولد ألفةً عميقة مشتركة نبتت بينهما، وأججتها القدرة على الإنصات، والفضول لمعرفة عبدول المرتبك، الذي كان وقتها يبدو خجولاً ومتحفظاً مع الفتيات.

سألته عن عائلته، ووطنه، ومدة بعثته، وعن النساء في حياته، فاخترع لها بعض القصص الخيالية، ولم يكن يريد أن يبدو أمامها غراً جاهلاً، ولكن حتما اكتشفت هذا لاحقاً، عندما كانت تقوده بحنان ولطف، وهو يغرق في بحيرة صدرها الأنجلوسكسوني العارم.

كان خائفا خجلاً، وليخفي اضطرابَه قال لها: "الغرفة مظلمة"، فاقتربت وقبلته على عينيه قائلة: "لا بأس، فالحب الآن سيضيء الغرفة".

عبد القادر دقيق منضبط، مسز ميلر أصَّلت فيه الانتظام أكثر من أمه، الانتظام ليس صفوفاً أمام الكاشير أو السينما فقط، بل خزانة منظمة، وأحذية ملمعة، وجدول أولويات، وجدول أسبوعي، وشهري، وسنوي، يجعل الحياة تنزلق بسهولة ويسر وإنجاز.

فبات صحراوياً متقشفاً بلمسات بروتستانتية، حريصاً على كل ما يخرج منه، سواء عواطف، أو كلام، أو مال. وحين دخلت باربرا كإعصار في حياته، وعبثت بها وخلخلتها، ظلّ متأرجحاً يلهث، متعثراً خلفها كبدايات تعلمه التزلج على الجليد.

ريفية هيبية لم تدجنها المدينة، كانت لديها سيارة فولكس فاجن خضراء معروفة بكل الجامعة، يسمونها الطلبة ساخرين بالسيدة بقة، مليئة بحاجياتها، وحقائبها المزركشة ذوات الخيوط الملونة، وملابس متعددة، وأمشاط وفراشي أسنان، فيما لو اضطُرت أن تنام بمرتبتها الخلفية التي لطالما شهدت ليالي غرامهما الملتهب.

كانت تصطحبه أحياناً برفقتها، إلى مجموعات هيبية تعيش جنوب المدينة، في كارفانات مكونة من حلقات، ثيابهم مهلهلة، وشعورهم وشعور أجسادهم لم تطلْها موسى الحلاقة لسنين، وأغانيهم عذبة.

حفاة، لكنهم يظهرون وعياً سياسياً عميقاً، ويشتمون الساسة، ويرفضون تدخلات الولايات المتحدة في أميركا الجنوبية، ويتحدثون عن العدالة الاجتماعية والحلم الأميركي، الذي يوقف رب المال البرجوازي عن التهام أعمار العمال وكرامتهم، ومن ثم ينثر فوقهم فتات الأرباح، وفي منتصف الليل، يلفون سجائر الحشيش ويدخنونها، ويوقدون ناراً كبيرة وسط الكرافانات، لمراقصة جنيات الغابة.

وفي النهاية، يكتشفون أن لا أحد ينصت إليهم، سوى أشجار الغابة، وأعين الراكون، والسناجب المترقبة التي تنتظر نومهم، لتتسلل وتلتقط بقايا طعامهم.

جميع هذا أبقى عبد القادر على مسافة منهم، فهو لا يفهم سخطهم العارم على الرأسمالية، التي تشرع البوابات جميعاً للذكي، والشجاع، والطموح، والماكر، والذي يعرف من أين تنهش الكتف. وعندما يهتف أمامهم: "عبر التاريخ لا يفوز بالسبق سوى الفارس، بينما البقية تظل في صفوف المتفرجين والمصفقين له، وليس من المفهوم رمي الفائز بأسهم النقمة والغضب والحسد"، يقول له أحدهم، يرتدي شورتاً فقط، شعره طويل، وأسنانه سوداء متراكبة: "الفارس أصبح رأس المال، أما الفرس، فهي التي تدوس جميع البسطاء والضعفاء، تدوسنا جميعاً".

كلامه كان كناموسة، أزت فوق رأس عبد القادر لبعض الوقت وغادرت، وظل يحترم نظاماً حراً كان يراه مثالياً، لأمَّةٍ عظيمة، تقاطر شعبها من أصقاع العالم، لتصنع إمبراطورية المجد وولاياتها الشاسعة.

هذا الشعور الحذر والمتردد داخل عبد القادر، أسهم في انكماشه من باربرا الشرهة المتطلبة، فلا يدري هل بات يراوغها ويتهرب منها، أم أنها أخذت تتلاشى في ممرات كامبس الجامعة، لا سيما بعد تدهور معدله الفصلي، فاستدعاه مكتب العميد ليخبره أنه مهدد بالطرد الفصل القادم إذا لم يصلح من شأنه.

ولأول مرة تخلت أميركا عن أمومتها له، وأصبحت أباً صارماً يلوح بعصاه، لأن عودته للرياض فاشلاً دون شهادة أمرٌ يفضّل الموت دونه، لا يتحمل نظرة

إخوته الضباط الأحرار، وأبيهم عبد المحسن آل مشرق الكاره لأميركا، والذي سيجعل من عودته فاشلاً إلى الرياض، موضوعاً أبدياً حول مؤامرة أميركا ضد العرب.

في مكتب مشرفه، وهو يراجع معدله الفصلي، كان يشعر بالبرد والوحدة، لا يدري ماذا يصنع؛ جلس على المقعد وأجهش في البكاء، وقال له: "أبي سيقتلني!". قالها اعتباطاً، ككل يافع أغلقت دونه البوابات. وربما لأنه من الشرق، برقت في ذهنية مشرفه الطلابي صورة إبراهام، وهو يحاول أن يذبح إسحاق، حيث الشرق الأهوج اللاعقلاني، فلم تتحمل أميركا صوت نشيجه، وعادت لأمومتها، وما كان من المشرف إلّا أن قال له إنه سيسخِّر له ساعة يومياً في نهاية دوامه، ليشرح له ما غمض من المحاضرات، وساعتين في نهاية الأسبوع مجاناً.

المشرف جيري ورموشه الشقراء، ينتظره في نهاية الدوام داخل غرفته العابقة برائحة ساندوتشات البيض، إلى أن بدأت تعود الـB والـC إلى معدله، وأزيل اسمه من المهددين بالطرد.

كانت أميركا وقتها قد ملت هرطقات الهيبيز ورخاوتهم النتنة، وإرادتهم المستلبة، وأفواههم الكبيرة المليئة بالهذر، فانتخبت لرئاستها ريغان، كاوبوي ممثل، بعزيمة وإرادة، ويطلق النار بكل اتجاه على الأشرار.

***

كان عبد القادر آل مشرق، يعرف أن في رأسه فُتاتاً من سيرة العمّة الجازي، يسمع بعض تفاصيلها ولا يكترث لها، كان هو من أولئك الطلبة الذين أفرغوا حقائبهم، وصدورهم، وأدمغتهم في صالة مطار الرياض، وذهبوا إلى أميركا على شكل إسفنجة عملاقة.

يذكر في الرياض عام 1970، أقاموا معرضاً للصخور التي جلبها الأميركيون من القمر، لا يذكر تفاصيل المعرض أو الجهة التي نظمته أو عمره، لكنه يذكر أنه كان بحاجة إلى يد تمسك بيده، ليقطعا الشارع باتجاه المعهد الملكي الصناعي بالملز، والذي عرضت صخور القمر تحت قبته الوردية. كان أخوه عبد

الحكيم يقبض على يده خشية أن يضيع في الزحام، ليجدا تلك الصخور معروضة داخل مكعبات زجاجية كالجواهر الثمينة، وحولها حراسة تمنع من الاقتراب، وعلى الجدار عُلّقت صور لرواد الفضاء الذين زاروا القمر.

ظلت تلك اللحظة كامنة في رأسه، يذكر أنه سأل باربرا يوماً: "هل أنت فخورة بأنك ابنة شعب وصل إلى القمر؟"، فهزّت كتفيها وقلبت شفتيها، ورددت كلمة أرمسترونغ عند أول خطوة له فوق القمر: "خطوة صغيرة فوق القمر هي قفزة كبرى للبشرية".

غابت باربرا الهيبية عن حياته، ولينسى طعمها الشهي كامل الدسم، اندرج بخطة متقشفة كابحة لفورات الشباب، ما بين المحاضرات والاستذكار، وعلاقات خاطفة ذات استعمال واحد كسلة البوبكورن، لا تحمل الكثير من المشاريع والالتزامات، تستمر فصلاً دراسياً، ومن ثم تنتهي صلاحيتها. شعر أن علاقته بباربرا كانت كممر، لا بد أن يخوضه لينتقل إلى غابة أخرى بكل خمائلها وعقاربها.

***

لم ينقطع عن آل ميلر طوال فترة وجوده في أميركا، إحساسهما بالوالدية تجاهه لم يضمر. فحتى بعد رحيل المستر ميلر، ظلت مسز ميلر تهاتفه وتدعوه لأعياد الميلاد في منزلها، فإذا لم يتمكن من الحضور، أرسلت له هدية الكريسميس، وبعض كعك "رجل الزنجبيل"، إلى أن فاجأته بنسخة من كتاب ماثيو إيدن "Dawn & Dunes" هديّةً، مرفق برسالة تقول فيها:

> لا أعلم من الذي وجد الآخر، أنا أم ماثيو إيدن؟ أم أننا التقينا في منتصف الطريق! لكن ذهبت إلى ميلواكي لزيارة سامنثا ابنتي، التي كانت تنتظر طفلها الأول. ولأن صباحات الصيف طويلة، بتّ أقصد مكتبتها العامة، وأحياناً أبحث في الفهارس العامة عن كتب تخص علاقة الجدات بالأحفاد، حتى لا أصبح جدة متعجرفة، تحاول أن تفرض خبرتها على الأبناء والأحفاد. أحياناً كنت أنبش الكتب المتعلقة بالعربية

السعودية، فكان نصيبي كتاب د. هاريسون عندما زار الرياض تحت مسمى طبيب في جزيرة العرب، وبدا واضحاً أنه كتاب تبشيري، ولكن ما استوقفني حقاً، هو كتيب صغير لماثيو إيدن! كان على نفس رف كتاب هاريسون، لا يبعد عنه كثيراً، ظننته في البداية ملحقاً لكتاب هاريسون، لولا أنه يمتلك رقما تصنيفياً مختلفاً، اسمه "Dawn & Dunes" واتضح لي أنه يندرج ضمن تلك الكتيبات الجامعية، التي لا تطبع سوى 100 نسخة لأغراض بحثية، وعادة لا تغادر أروقة الجامعة إلا للمكتبات العامة.

جانيت ميلر
ميلواكي

ظلّ هذا الكتاب برفقة عبد القادر آل مشرق، حتّى ما قبل سفر ابنه فواز إلى نيويورك عام 2017 بخمسِ ساعات.

نيويورك 2009

لم تكن عائلة عبد القادر آل مشرق واثقة بأنّ صيف 2009 كان قد لطف المزاج الأميركي تجاه السعوديين بعد سبتمبر 11. يتحدثون بقلق عن عدة سيناريوهات ستقابلهم في مطار JF كعائلة قادمة من العربية السعودية، رؤوسهم محشوة بقصص صادفها السعوديون على البوابات الأميركية: شراسة واسترابة وصدف عجيبة، تجعلهم دوماً الذين تقع عليهم القرعة العشوائية عند التفتيش العميق.

لكن بمجرّد أن يمرقوا من هذه البوابة المتجهمة الغاضبة، حتى تحتضنهم بهجة الكون الأميركي لوس أنجلوس، أول زيارة بعد انقطاع منذ أغسطس 2001.

ثمانية أعوام ترقى بها عبد القادر، وأصبح عضواً منتدباً في البنك الأميركي، ورزقا ببنية جميلة آخر العنقود أسموها دانا، واخترعت شركة أبل الآيفون، وأصابت أبلا عزيزة خيبات كبيرة من فيلم "آفاتار"، لأن جيمس كاميرون لم يخرج لها فيلماً يوازي "تيتانك".

واقترب عدد قصائد الهجاء العربية لأميركا، بعد غزو واحتلال العراق، ألف قصيدة، لم يقرأ منها عبد القادر آل مشرق ولا واحدة، فذائقته الشعرية فترت وخفتت، منذ كان يسمع منظمات الطلبة العرب، تتداول القصائد الشتائمية، وتلك التي تصبح منشوراً سياسياً، والتي يقول فيها الشاعر: ”كل أصحاب المعالي على نعالي“، فيهيج المستمعون طرباً، ويصفقون ويصفرون، ويرددون فوق أرضها: ”أميركا هي الطاعون، والطاعون أميركا“.

عرف أن أرض الشعر والكلام، أرض البهلوانات وشقلبة نمور السيرك، لزجة دبقة ذات أجوبة رجراجة كالهلام، متبدلة، سائلة، منزلقة، ولا تمتلك تلك الدقة الصريحة، التي تقدمها له أجوبة الأرقام.

لذا كانت مسارات المال بطيئة وحذرة عند عبد القادر آل مشرق، وأصابعه متوجسة من ملمس الجيب الخالي، رغم عمله في منصب تنفيذي كبير، بالإضافة إلى امتلاكه مكتب محاسبة ناجحاً، لكن نشأته لم تأخذه إلى ضفاف الترف.

***

كان فواز وقتها يجلس في المرتبة الخلفية في سوبربان GMC التي اعتاد والدُه أن يستأجرها فور وصولهم أميركا، ويمضون بها كقافلة من البدو ترتحل ما بين الولايات، ومن ثم يسلمها في أي مطار عودة يختاره، بزيادة 600 دولار.

تشرب عينا فواز الكون الأميركي، كما ينزلق لفيلم، فيصبح أحد الجنود الأبطال في لعبة الفيديو ”Call of Duty“ أو ”Grand Theft Auto“، ووقف في الصف، وابتاع شطيرة ماكدونلد، دون أن تكتشف البائعة أنه يمتلك لكنة غريبة.

يشعر بأنه لطالما تمشّى في هذه الشوارع، ولمح قبعات البوليس، والمنازل ذات المقدمات المعشبة، وعلبة بريد أمامية، وكلباً أحمق فرحاً بلسان طويل متدلٍّ، يلاحق صحناً بلاستيكيّاً طائراً، وفتيات بشورتات قصيرة نضرات كأنهن حلاوة قطن.

بينما يقود عبد القادر السوبربان فوق الطريق السريع، يقول وهو يشير للسيارات الأميركية حولهم، التي تمخر الطرق السريعة بفخر: ”انظروا إلى

هذه الوحوش الشرهة للبنزين، التي تحمل اقتصادنا في موتورها، تخوض أميركا أشد حروبها شراسة، لتوفير وقودها من محطة البنزين في صحرائنا".

***

سوبربان كبيرة، يقودها بعد أن يملأ صندوق بنزينها من نفط بلاده، وتتوزع مقاعدها عائلته، بينما تقبع إلى جواره أبلا عزيزة.

يشعران معاً ببهجة فائقة وانسجام، كتلك البهجة التي شعرا بها، عندما كتبا فوق كعكة زفافهما حرفَ عين واحداً، يتفرّع منه اسما عبد القادر وعزيزة، يشعران بتمام الواجبية الوالدية، عندما يقدمان أطفالهما إلى قبيلة ديزني، التي تتناثر صورها حولهم من شهقتهم الأولى خارج الرحم.

جميع الدمى، والقبعات، والمخدات، وشموع أعياد ميلاد، ميكي، والبط دونالد، وقوفي، تلوّح لهم فوق الحقائب المدرسية والأقلام، في مسيرة تبرق بالضوء والبهجة، ككرة من الشهب.

***

عزيزة دوماً تخشى أميركا، تشعر أنها فك واسع سيلتهمها، والسرعة التي تسير بها السيارات في الطرق السريعة تجعل قلبها يرتعد، لكن وهي بجوار عبد القادر في السيارة، تشعر أن السيارة تشبهه وتشبه حياتها معه، مركبة قوية متينة لا تخذلك، مقاعدها من الجلد ليست مخملية، ليس بها الكثير من الرفاهية، لكن أيضاً بها الكثير من الأمان، بدايةً من مرور كيوبيد فوق رأسيهما في منزل أخيها، عندما حضر عبد القادر لرؤيتها أول مرة.

مكوث عبد القادر آل مشرق الطويل في أميركا خمسة عشر عاماً، صنع له سجلّاً فارغاً أبيضَ في مجتمع الرياض، فحينما خطبها، لم يذهب أبوها وإخوتها للسؤال عنه لدى إمام المسجد، أو رئيسه في العمل، بل عاد من ولاية فرجينيا لمنزل أهله الجديد في العليا، فوجد أمه قد هرمت وأصبحت تشبه خاله في أيامه الأخيرة، لكنه وجد أيضاً غرفة مخصصة له بانتظاره في منزلهم الجديد، بينما أخواته البنات التقطن حقائبه وعلقن ثيابه، ولاحقاً هن اللواتي عرضن

عليه قوائم الفتيات المقترحات للزواج، وأحس بحصار مرعب كيوم دَخَلَ مطعماً مكسيكياً، وكانت المنيو مكتوبة بالإسبانية فقط، فأصبح يحرّك يده سريعاً كروليت الحظ، ويذكر كم كان حظه سيئاً في المطعم المكسيكي، إذ توقفت إصبعه عند أضلاع خنزير !

وخشية أن يعود روليت الحظ ويخذله بين قوائم الفتيات، طلب أن يهاتفها أو يراها.

في مطالع التسعينيات، باتت بعض العوائل تسمح برؤية شرعية للخطيبة ومجالستها!

ولأن بيت أهل عزيزة المتسع، المليء بزوجات الأب، والعمات المطلقات، ونساء الإخوة، لا يصلح لمشروع حساس وسري، وغائم النتائج هكذا، فقد اقترح أخوها سليمان، أن تكون الرؤية في منزله.

والكابتن سليمان له وجه غادرته الوسامة، منذ كان في السابعة من عمره، لسبب غامض، فبات كوجه قط ذكر، أمضى حياته في عراك الشوارع، عينان ضيقتان وشفتان غليظتان، مخشوشن التقاطيع، كأنه لم يكن يوماً ذلك الطفل الوضيء، الذي علَّق المصوّرُ صورته على واجهة محله، وهو يجلس على مقعد القش المدور في شارع الخزان، والذي جلس فوقه غالبية أطفال الرياض لالتقاط صورة.

الكابتن سليمان وقتها كان يعاني من الأعراض الانسحابية للنجومية، كلاعب كرة قدم مخضرم، ما برح في أوج لياقته وعنفوانه، لكن لم يبقَ في رأسه من هتافات الجماهير إلّا صداها. وباتت بطولاته تنحصر في إحضار كأس الدوري (إذا ناله فريق الهلال أو النصر) للبيت الكبير، لتتصور معه كل العائلة والأصدقاء، وأحياناً يحضر نمراً صغيراً حول عنقه سلسلة تجعله يذعن لأوامر من يشدها، ويرفع يده ليسلم، يسير به الكابتن سليمان بين فلل المنزل الكبير، ويشعر بمتعة فائقة وهو يرعب الصغار والخدم.

سليمان يتصرف بعنفوان وغرور النجم، الذي ما برح يركض في ملعب يضج بالجماهير، لذا بجسارة ومناورة مروره إلى باب الخصم، اقترح أن تكون الرؤية الشرعية في منزله.

بينما زوجته عواطف هي الغطاء الموسلين الكبير، الذي يدثره هو وقراراته، ويجعل العالم رؤوفاً رحيماً حوله. أخواته أمضين وقتاً طويلاً قبلها يبحثن له عن عروس ملائمة له، فما وفقن، فمعظم حمايل الرياض، كانت ترد خطبة لاعب كرة، بمستقبل يؤرجحه هتاف الجماهير، إلى أن ذُكرت عواطف؛ ليست من سكان الرياض، بل تعيش في قرية السر، ووالدها لديه مزرعة كبيرة تبيع أجود أنواع البطيخ. تلك المسافة التي تفصل السر عن الرياض، شوشت المعلومات حوله، وعن جموح الساحات التي يهرول بها.

حينما تزوجها كانت طبول النادي ما زالت تهدر في قاع مخه، ومعسكرات التدريب تتخطفه، الجنس الشوارعي، كنوع من الإرغام، والبطولة، ورفع الرايات، قوانين الشارع الخفية، إن لم تغرز رايتك تكسر بها عين الذئب، وإلا سيقوم بكسر عينك بدلاً من ذلك، ضراوة وشراسة المعسكرات، تفككت على عتبات هذه الفتاة السمراء المدملجة، ذات الملامح الرقيقة، والبسمة الساحرة، التي أصبحت زوجته.

شفتاها أول شفتين يقبلهما بلا شارب، لدونة كفيها ونعومة ردفيها، وصوتها المغنّج عندما تناديه، وتغاضيها عن ذلك الفتى المخنث، الذي يخرج من ضبابات الأخيلة، ليشاركها فراشها، ويصل بضجيعها لنشوته.

الصف الثاني المتوسط لم يمنحها الكثير من الخبرات والمعارف، لكن غريزتها دلتها على مضمار نزالها، وتعي أنها كي تحتفظ بهذا الجامح، الذي لا يسمع سوى هياج المدرجات في أذنيه، عليها أن تشرع بوابة الخروج له حتى أقصاها، ومن ثم تصنع أمراً نادراً وثيراً، تجعله يشتاق لها ويعود.

حدست أن اعتقال الصياد داخل كل ذكر هو أمر أحمق سيحوله لجثة بجوارك، فهو لا بد أن يغادر المغارة للبحث عن طرائد، كانت تشرع البوابة على اتساعها، ليعود لها في المساء بانتصاراته، وتعبه، ودماء طرائده، فتقبله، وتدثره، لتخبره أن العش هو أكثر لطفاً من وحشية العالم الخارجي.

اكتشف سليمان لاحقاً، أنها ليست بفتاة ضحوك مغناج فقط، بل بين أعطافها عجوز وقورة! فقد استأثرت بها جدتها ونشأت عندها، فأخذتها من بيت ابنها لتؤنس وحشتها، وشرّبتها تعاليمها بود وحب، فأسموها بنت العجوز.

تصحو باكراً، فتعد له المراصيع والقهوة، تدخن ثيابه، وتعطره، يناديها: ربوة العجوز.

ولأنها كذلك، فقد نبت لها قلبان، جعلها تعبد دربها نحوه، ولم يأخذ الأمر منها طويلاً حتى تدجن، وبات كالطفل الذي يمسك بطرف ثوب أمه، ويضيع رعباً إن غابت لحظة عن عينيه.

ولأنها تعشقه، أصبحا فريقاً، ظهيرَين يمرران لبعضهما الكرة بانسجام ولياقة.

وعواطف تحب عزيزة، الجميلة البريئة النائية، التي لم تدخل مضمار الغمزات واللمزات النسوية ضدها، في مجالس نسوة البيت الكبير، ولا تتلفظ أمامها بأسماء عطورات أو مساحيق تجميل، كي تتندر على الطريقة القروية التي تعيد نطق الأسماء بها، فعواطف عندما تسمّي مسكّن الصداع "بندوه"، بدلاً من "بنادول"، ترتجّ أجسادُ نسوة البيت في محاولة إخفاء ضحكاتهن.

عزيزة لم تُبدِ رأيها قطّ بالكيك الذي تصنعه عواطف، وتأخذه فخورةً لاجتماع النساء في المجلس الكبير، فيسألنها كم ملعقة باكينج باودر وضعت فيه، فهو يبدو ملتصقاً بالصينية كأرغفة الخبز، ليغمزن من قناتها كقروية، بينما عزيزة تحضر في مجلس نساء العائلة نصفاً أو ربعاً، فيما نسيت أجزاءها الأخرى داخل ممرات فيلم، أو صفحات رواية رومانسية.

***

استعدوا بحماس لزيارة "الشوفة الشرعية" بسرية شديدة. أم عزيزة ذهبت معها لمصففة الشعر خلسة، بسبب تفشي إشاعة بين بيوتات حي البديعة، أن الكوافيرات يسقين النساء مشروباً منوماً، ويدخلن عليهن الرجال. وفي الصالون النسائي، ظلت أمها مترقبة تقلب عينيها في الوجوه كحدأة، وترفض أن تتناول أياً مما يقدم لها. وعندما طلبت مصففة الشعر ثمنا باهظاً، رفضت أم عزيزة أن تدفعه لها، فما كان من المصففة إلا أن أحضرت دلو ماء، وهددت بأنها ستدلقه فوق رأس عزيزة، قبل أن تتدخل النساء اللواتي في الصالون ويسوين المشكلة، وتدفع أم عزيزة المطلوب؛ فمهما كانت ضراوة المقاومة، لن تقف أمام رغبة النساء في التجمل.

***

أعدت عواطف بمناسبة الشوفة الشرعية قالب كيك، رسمت فوقه بالشوكولاتة تفاؤلاً حرف العين المشترك في أول اسميهما (عزيزة وعبد القادر). لم يمسه أحد، ولم يظهر واضحاً.

لكن ليلتها انجلى الغم عن صدر عبد القادر، وتوقفت لعبة الروليت، عندما دخلت عزيزة ووضعت صينية الشاي على الطاولة، وانسكب شعرها الأسود حتى خصرها، فرفعته بغنج ونظرت إليه نظرة خاطفة تتفرس ملامحه، فوجدت أن بريق جبينه وانتظام حاجبيه وغمازة في ذقنه، تزيد فكه القوي وسامةً.

ولأنه بدأ يتحدث عن نفسه، وعن منصبه، ومؤهلاته، وطبيعة المنزل الذي أعده لها، وتشجيعه إكمالها دراستها، فإن الكابتن سليمان دخل على أخته باسماً يقول لها: "يبدو أن 'ولد السّبيت' المصفف الملمع، مبسوط وطالب القرب، ما رأيك؟".

لم تجب، بل أغضت وانفرشت رموشها السوداء الكثيفة على خديها.

***

أعطاها وقتها أخوها رقم هاتف عبد القادر، شرط أن يتحادثا مرة في الأسبوع. سخرت في أعماقها من أخيها، فباتت تحادثه سراً كل ليلة، وتأخذ الكلام إلى درب التنهدات الرومانسية، ولم تكن تدري وقتها، أنها تهدي عبد القادر زمام فتاة غرة، سهل قيادتها، وتوجيهها، كما ظلت حياتهما لاحقاً.

وعندما طلب منها في ذلك الوقت الخروج سراً ليتأمل ملامحها، فهو لم يتملاها تحت مراقبة أخيها نجم الكرة المعتزل، لم تتردد أو تتمنع قطّ، واتفقا أن يأتي لمواقف السيارات في مركز العقارية للتسوق، فهي باتت تتحرك وتتسوق بحرية أكثر بحجة التجهيز لعرسها، وتسللت إلى سيارته، ونزعت غطاء وجهها فأضاءت ظلمة سيارته، وفتحت مقدمة عباءتها ليتأمل جسدها في الفستان الأحمر، ارتبك لجموحها، ولم يعرف كيف يتصرف، فأدار أغنية "ليدي

إن رد“ في مسجل السيارة، وتلك الدقائق بشهبها ونيازكها، وفرّت لعزيزة سحاباً وردياً يدثّر أيام الخطوبة.

ولأنها كانت الرياض عام 1993، لمحا سيارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحوم في المواقف، بحثاً عمن لم يشارك في جماعة صلاة المغرب، فانسحبت من السيارة بهدوء وسرعة خاطفة، ورُكبتاها ترتجفان، وأمضيا تلك الليلة على الهاتف يتحدثان عن نجاتهما بأعجوبة، وكيف شمَّت سيارةُ الهيئة مكانَهما، كما تشمّ مجموعةُ ذئاب دماءَ فريسة.

انهمر حبها بلطف، كفتح زجاجة عطر ثمين، تضوع في أركان المكان ببطء، وهو الأعزب الذي عاش عمره وحيداً بنساء طارئات يختفين سريعاً، أحب فساتينها القطنية العارية الأكتاف، أحب بشرتها النضرة الفواحة، أحب الطريقة التي تجمع فيها الأطباق من على المائدة، وتذهب بخطوات غنجة للمطبخ، أحب أحاديثها بعد لقائهما الحميم، لتثبت لرأسها البديع المحتشد بالأفلام، أن ما بينهما ليس فقط علاقة جسد.

وبقيت أبلا عزيزة مأخوذة أنفاسها، بالماراثون الطويل الذي تخوضه منذ سنوات، لتروق لعبد القادر وطبيعته الساخرة، التي تضمر أميركياً متعجرفاً تحاول أن تبهره، وتجعله يشعر بالحظوة لفوزه بها.

شعرت بجواره بحميمة العائلة، وعالم بأرفف مرقمة مهندمة، لا تشبه دهاليز المتاهة الزلقة، دوماً في بيت أهلها، وطفولتها، وصباها، حيث بازار مزدحم كبير، بيوت متجاورة لزوجات متعددات وزوار كثر، وملاحق للخدم، تتغير وجوههم تبعاً للسنوات، حيث يتذمر الجميع من الفوضى وغياب الانضباط، لكن أيهم لا يبادر لضبطها. يدخل كيس الرز من الباب، ولا ينتهي إلى المطبخ الرئيسي، معلبات الإفطار والعشاء يبيعها الطباخ ومعاونه خلسة إلى عمال البلدية، تنطفئ مصابيح السور لأسابيع، وفجأة تضاء؛ فلا تعلم كيف ومتى أُصلحت.

لكن عزيزة مع عبد القادر، شعرت بطوق عائلي متين، ومحيط جديد نضر، يترافق مع رائحة الطلاء والموكيت الجديد في منزلها.

كانت ترافقه للتسوق، وتتأمل سلته التي يدفعها، مرتبة كسلة الدعايات التلفازية، اللحوم يفصلها عن الخضراوات والمنظفات. رتّب فوضى رأسها، وعرفت أين يستقر كيس الرز في المنزل وكم سيكفي العائلة، ماذا تتسوق للولائم أو الأيام العادية، وأخيراً 13% من دخلهما ميزانية للترفيه، تدخل فيها السفرات التي تجلبهم إلى أميركا.

***

والحقيقة لم يكن لعبد القادر أو عزيزة دور في ذلك التيار الكهربي الذي قدح بينهما، بل صدف أن طائر النصيب كان يمر فوق المنزل، كما فسرتها عزيزة له لاحقاً.

ضحك ساخراً وهو يقول: "تقصدين كيوبيد".

هتفت: "لا تطلق عليه كيوبيد، فقد يكون اسماً لشيطان رجيم، هو طائر النصيب الذي ينزل من السماء، ويوثق رباط رجل وفتاة لأبد العمر".

فيتظاهر بتصديقها. منذ البداية لم يكن يدخل معها في المنكافات الفكرية، حول اعتقاداتها الرومانسية، فهو يرى أن هذه الصبية العشرينية عاشقة الأفلام، هي من أجمل الهدايا التي نبتت على ضفاف مسيرته الصاخبة بين قارتين، يتقافز كشمبانزي لعوب بين الأنظمة، وتركه العمل الحكومي، من ثم مكتب محاسبة، واستمر يتصعد إلى أن أصبح عضواً منتدباً في بنك برواتب ثقيلة.

ظل يعاملها مثل "الغيرل فريند" طوال عامهما الأول، ففاضت عزيزة بينابيع العشق.

كانت تظن أن مذاق العشق، يشبه تلك المفرقعات التي ومضت في غرفات قلبها، عندما كانت تلمح المدرّس المصري الفارع، الذي كان يحضر بعد كل عصر ليدرّس فتيان المنزل.

كان يشبه الممثل إيهاب نافع، يتردد على منازلهم، يخرج من بيت ويدخل الآخر، يدرّس كل الدروس من الرياضيات إلى القرآن، ويغصّصها ترديداً لأولاد كل منزل، عيناه خضراوان لعوبتان، تمسحان النوافذ وهو يمر عندما يلمح

أشباحاً ترمقه، وكان عندما ينتهي من تدريس إخوتها وأولاد عمومتها، ينخرط الجميع في مباراة كرة قدم في ملاعب الحدائق الخلفية، ويتعشى ويغادر.

وقتها لم تكن تملك جسارة جداتها، اللواتي يعشقن بين النخيل، ويجمحن ويتسلقن شجر الأثل، فأسوار الأسمنت تشهق في وجهها.

أيضاً جيلها لم تفسده أفلام الأبيض والأسود، لبنى عبد العزيز تهب حياتها لفريد الأطرش في "رسالة من امرأة مجهولة"، بل فتحت عينيها على أفلام المقاولات المصرية في الثمانينيات، وأفلام العنف الأميركية، فكل شيء يصبح سهلاً وبسيطاً بلا تعقيد، أو حبكة مغلظة تكتم أنفاسها.

تقرأ الروايات الرومانسية، وإحسان عبد القدوس، وتتقن لف شعرها باللفافات، ويستعين جميع نسوة الدار بها للقيام بذلك، ولم تكن تبالي أو تكترث للنظريات الفكرية الكبرى، التي تمر بالصحف أحياناً أو المجلات، كانت تظن أن مصير عماتها المطلقات، كان نتيجة سوء تدبيرهن، وأن الفقر بسبب خطيئة ارتكبها الفقراء أنفسهم، فلم تزعج رأسها بترهات العدالة الاجتماعية.

كانت مزهوة بالربان الذي رست سفينته طويلة الترحال في أميركا أمام منزلهم، وهي في سنتها الأولى بالجامعة. أكملت سنتها الأولى في الجامعة زوجة لعبد القادر آل مشرق، وفي سنتها الأخيرة قرّرا أن يكون إنجاب ابنهما فواز في الولايات المتحدة، ونالت شهادتها، واستمرت تنمو وتتشكل، كشجرة اكتشفت جذورها ينبوعاً متدفقاً لا ينضب.

الفصل الثامن

فيلم العمة – ورشة عمل السيناريو الأولى

> ”كل فيلم لا بد أن يمتلك بطله لمسة أسطورية، تدفع بعربة الأحداث الثقيلة خطوات إلى الأمام، فهو الشخص الذي اختاره التاريخ ليحقق غاياته“ – **مجهول**

عندما صدرت المنحة من مؤسسة برامز، التي تغطي مصاريف 75% من فيلم تختاره الأكاديمية للتخرج، لم يكن فواز إطلاقاً يتخيل أن ثلاث ورقات السيناريو المرتبكة المليئة بالأخطاء المهنية، حول مقترح فيلم العمة، من الممكن أن تكون مادة لفيلم بإنتاجية ضخمة وطاقم كبير سينطلق من نيويورك إلى العاصمة الرياض، ليبحث عن أماكن ملائمة للتصوير.

قرّر د. فريدريك، أن يكون اجتماعهم الأول في قاعات اجتماعات صغيرة، ملحقة بقسم السينما في الأكاديمية، وهناك أخبرهم فواز، أن بعد مراسلاته مع أبيه، الذي وافق بحذر على أن يتابع تيسير أمورهم لدى الجهات الرسمية، تطلب وزارة الإعلام هناك ما لا يقل عن 10 صفحات من سيناريو الفيلم، قبل أن تمضي في إجراءات الفيزا، وأذونات التصوير، وفسح الدخول.

أضاف مساعد عسيري لأستاذهما: ”يجب أن نأخذ الطلبات بصورة جدية، فأي خطأ أو عدم استيفائنا المطلوب، أو كتابة معلومات مضللة، من شأنه أن يجعل مشروعنا ينهار“.

وبسرعة وكي يريح فريدريك رأسه قال ساخراً، وقد وجدها فرصة مناسبة للتعريض بالورقات الثلاث، التي قدماها كأرضية خطوط عريضة لفيلم التخرج: ”اكتبا أنتما هذه الوصايا العشر، فلديكما معلومات عن المزاج الرقابي في بلادكما، ولكن ليكن في معلومكما أنّكما بحاجة إلى تدريب جذري في كتابة السيناريو“.

قال فواز: "فريدريك أنت درّستنا أن الدقائق العشر الأولى هي أهم وأخطر عشر دقائق للفيلم ولكاتب السيناريو، فهي اللحظة التي سيقرر فيها المشاهد (الصبور) هل سيستمر معك أم سيغادر؛ فإذا كان غير صبور، فسيكتفي بالثلاث دقائق الأولى، مع تسريع اللقطات.

صمت قليلاً وهو يتأملهما، وقد انحدرت نظاراته على أنفه الأقنى، قبل أن يقول ليلطّف الجو ويشدّ من أزرهما: "ستوضع عليه درجات في مادتي".

أحس فواز وقتها بالحنق والغيظ! فقصة الفيلم هي قصة عمته، والترتيبات في بلاده تتم من خلاله وعائلته، وما برح هذا المتعجرف صاحب الشعر الأشعث وقبعة البيسبول المتهرئة، يساومه على الدرجات.

وكأن بريق الغيظ قد تبدى في عينَي فواز... فقال لهم فريدريك وهو يتناول ورقة وقلماً من حقيبته: "حسناً أتوقّع هذه العشر ورقات، ستحظى بإشراف مباشر مني حينما تنتهيان منها".

تلك الليلة وجد فواز في بريده هذه الرسالة من فريدريك:

> مرحباً أيها العربي المشاكس... إليك ومضات ضعها أمام مكتبك، وأنت تكتب نسخة أولى لسيناريو قابل أن يكون موضعاً لنقاشنا:
>
> 1– أن يكون هناك سرّ صغير، لا بد أن تتشاركاه والمشاهد وسط العتمة، سرّ يجعله كصديق قديم للعائلة، يسرد لكما الأحداث التي حصلت أثناء فترة غيابكما.
>
> 2– احرصا على أن تَعِدا المشاهد منذ بداية الفيلم، أنه سيحدث شيء ما! شيء يستحق أن يُرْوَى فينتظر ويترقب، ولكن إذا خيبتما ظنه، سيخيّب ظنّكما على جميع الأصعدة، ابتداءً من المشاهد العادي، وصولاً إلى لحظة عرضه على لجان قبول المشاركة في المهرجانات الدولية.
>
> إلى الآن أرى أن قمة الحبكة هي موت الجازي، حيث ينتهي هنا بُعْدها الأسطوري، الذي عصف به الوباء والحب، لينتقل إلى حالة حوار كامن مضمر بين حضارتين، فماثيو هنا وصل إلى الحضيض، وباقي الفيلم هو مقاطع تبثّ لنا في كل مشهد لغات حوار متعددة، تحاول أن تجسر

علاقة بين ثقافتين، قائمة على أطلال علاقة رومانسية غريبة ونادرة، فإذا شئتما ووجدتماه مناسباً فاجعلاه رقم 3.

4– أخيراً، لا بد لكل مشهد من لمسة تحرك المشاهد، وتحاكي غرائزه الأولية، موت، مرض، عشق، خوف، حتى لا نخسر أهم خيط يربطنا بالمشاهد. فالمشاهد إذا قدمنا له مشاهد فضفاضة، فهي مسموحة في نطاق ضيق للغاية، ومقاطع حذرة، كأن تشطح الكاميرا قليلاً، وتقدم جماليات المكان، أو أوار الحب المشتعل بين شخصيتين، أو جملاً فلسفية وتأملية، ترى أنها تثري الحوار، لكن وفق شرطين، أن تكون سريعة وخاطفة لا تتجاوز أربع أو خمس دقائق، ونثق بأنها تخدم قيمة النص.

تلك الليلة أمضى فواز وساعد الوقت يقلّبان في المعلومات والأوراق التي بين يديهما، وكلّما أشرفا على بوابة اليأس، وتيقّنا أنها مهمة مستحيلة، ومضت لهما فكرة كجذوة على قمة جبل، فتسارعت خطواتهما نحوها. الدنيا قد تنتشلنا فجأة من قيعان الفشل الذريع، وتعيد ركلنا لممرات الحياة المراوغة، لنمضي بروح أكثر ثباتاً أمام كون يريد أن يتحقق بنا ومن خلالنا.

أكثر ما أثار حيرتهما أنّ المعلومات التي بين أيديهما، لا تشير تحديداً متى تزوج ماثيو بالجازي آل مشرق.

سأل مساعد عسيري: ”كم تقريباً هي الأيام التي تسمح لتقدح جذوة حب؟ فمذكرات د. بول هاريسون، تشير إلى أنه مكث في زيارته الأولى 20 يوماً إلى أن نفدت الأدوية“.

فواز يقول: ”أي قصة حب يا عم؟ المرة الأولى لقاء واحد، وفي اللقاء الثاني كانت مريضة بين شدقَي الموت“.

أجابه مساعد، الذي تشبع رأسه بالحلول السينمائية المفاجأة الخاطفة: ”الحب قد يكون خاطفاً صاعقاً من أول نظرة... وحتماً في المرة الثانية، كانت القصة التي قدحت جذوتها في الزيارة الأولى، اكتملت تفاصيلها في الزيارة الثانية“.

وهكذا ظل الدرب يظلم ومن ثم ينبلج، إلى أن استطاعا في النهاية أن يبعثا لفريدريك شبه سيناريو، والعجيب ليس أن يجد فواز رداً عليه في صباح اليوم التالي، لكن الغريب، أن قدمه فريدريك مصوراً لورشة السيناريو، لتتم مناقشته، قبل أن يرسل للعربية السعودية.

***

بعد أن اطّلعت مجموعة ورشة كتابة السيناريو، وهم السيناريست بو سعادة، وآن سكرتيرة فريدريك، والطالب السعودي لؤي يوسف، ومدير التصوير، ومندوب مؤسسة برامز الذي يراقب من كثب الأخيلة، حتى لا تشطح فتزداد المصاريف، وفواز، ومساعد عسيري، وعلى رأس المجموعة المخرج فريدريك، على العشر ورقات المختزلة، طلبوا من فواز في الورشة، أن يصبح شيخ القبيلة، حتى يكف بو سعادة عن الطنين والأنين حول المنظور الاستشراقي الذي يتربص بالفيلم، ويطالب بالشروط التي تحمي الفيلم من أن يصبح فيلماً أميركياً طويلاً.

بو سعادة أستاذ في أكاديمية السينما من أصول عربية، وصحافي وكاتب سيناريو وثائقي، سبق أن ترشح لجوائز عدة مرات، إحداها غرامي، ويعرف العربية الطفيفة كما يتحدثها أجداده في جبل لبنان قبل 80 سنة، لذا حتى فواز، ومساعد، ولؤي يجدون صعوبة في فهم عربيته المعطوبة، لكن لديه السلطة المطلقة في إدارة دفة كتابة السيناريو طوال الوقت، مهما حاول أن يتقهقر وينكمش ويفسح الفرصة للشباب؛ وجوده الطاغي هو الذي يحدد ماذا سيدخل في الفيلم، وماذا سيختفي، والوقت المحدد له.

فبات لزاماً على فواز التحدث برأي أهله تماماً، وبما أنه لم يكن يعرف رأي أهله تماماً في أي موضوع، فأبوه عبد القادر في رأسه يوتوبيا أميركية كاملة، تبقيه في حالة تذمر دائمة من الأوضاع حوله، ودائماً يستجلب حلاً مرادفاً لأي موضوع يصادفه، من قوانين المصارف، إلى سعر ربطة الخبز، وموقف أمه دائماً تابع لأبيه، وإن كانت عموماً لا تميل إلى اتخاذ مواقف تلزمها بمسؤوليات.

وحينما يزورون بيت جده الكبير عبد المحسن، يمضون الوقت هو وأبناء أعمامه في لعب لعبة الفيديو، فلا يدري كيف يفكر جده عبد المحسن، ولكنه يعرف أنه لا يحب أميركا، ويصمها بالإمبريالية، ولكن يتبدى له أنه ليس خيرَ من يقدم التيار التقليدي المحافظ، فلطالما كان يسمع بأنه متطور على محيطه، يدخن، ويسمع أم كلثوم ليلة الجمعة، وأنه سبق أن أوقفته السلطات بسبب آرائه الثورية.

عندها قرر أن يتخذ موقف جده لأمه الشيخ مقرن! فكان أول سؤال طرحه: ”كيف مُنحت بنت آل مشرق وهم ملاك نخل، وأبوها له مجلس وحظوة عند الشيوخ، إلى الغريب الكافر، الذي يلبس البنطال؟“.

رد لؤي: ”الآن نحن نتعامل مع حقائق تاريخية وليس نسيجاً سردياً، فما من داعٍ للاعتراض، لأن هذه الحادثة الحقيقية هي التي قدحت قصة الفيلم، لكن بإمكاننا أن نصور صعوبة هذا الأمر وندرته... وأنه بسبب حصار الداء والحصار الاقتصادي، تتهاوى الكثير من القيم التي يتمترس بها أي مجتمع عادة“.

ردت آنا مساعدة فريدريك بلكنتها البولندية الثقيلة: ”حقّاً هو أخرجها من بين فكَّي الموت، المفارقة هنا أنه في كتابه يورد تفاصيل صغيرة وجانبية مهملة، ولا يذكر التفاصيل الهامة، وكأن تلك التفاصيل الهامة نزعت من كتيب ‘Dawns & Dunes’ قسراً. فهو مثلاً يشير إلى كيف أن بعض أفراد القافلة، كانوا يترقبون متحرقين أول توقف للقافلة بعيداً من الرياض، ليعمروا غلايينهم، ويبدؤوا في تدخين التبغ باستمتاع، بعيداً من رقابة المطاوعة في العاصمة الوهابية، ويسرف في وصف أرديتهم وشراستهم، ويصف القوافل التي صادفتهم، والدرويش الفارسي الذي مر بهم، ويتحدث اللغة البلوشية، وعلاقته مع عروسه المريضة كانت ترتكز عليهما كشخصين فقط، دون ايغال في وصف الظروف المحيطة بهما آنذاك، ويشير إلى بعض التفاصيل، وإسلامه مهراً لها، ولكن هناك العديد من الثغرات، هذا الغموض يجب أن نرممه بسيناريو مقنع“.

قال كريم بو سعادة بصوت خافت هادئ: ”حل رائع، أعتقد بأننا نتشارك الصياغة وفق معايير درامية، وسيكون فواز هو دليلنا الأول في صحراء الثقافة،

وسأكتفي بأن أكون أنا كدليل الكواليس، لأن خلفيتي العربية هي جزء من ترشيحي لهذا العمل، فأنا لا أودّ أن أخذل أحداً. ولكن لا بدّ أن نقدم عملاً تستطيع الذهنية الغربية هضمه“.

قال لؤي: ”أعتقد أن السؤال الأهم الغائب عنا منذ شرعنا في هذه الورشة، هو من هم جمهورنا؟ بالتأكيد نحن لا نتحدث عن تلك الأفلام ذات الميزانيات المهولة، والسجاد الأحمر، ورحلات تسويقية للعواصم الكبرى للصف الأول من الممثلين. إلى الآن يبدو لي، نحن نتكلم عن فيلم مهرجانات ودور سينما صغيرة، لكنها وثيرة أيضاً، بها بعض من بروفسورات الدراما، ورجال أعمال يطمحون في زيارة سياحة للعربية السعودية، وطلبة أنثروبولوجيا، وقنوات من نوع ناشيونال جيوغرافيك، وهيستوري شانل“.

قالت آنا: ”لكن نحن لا نخضع لقوانين السوق، فنحن ممولون إلى آخر لقطة، سيكون الأمر أقل تشنجاً بهذه الصورة“.

فجأة قال فريدريك بحنق: ”لن يُرمى أحد أفلامي فوق رف مكتبة كجثة، حتى إن لم تكن له سوق كبيرة. فأفلامي عادة تكون مرجعيات للأكاديميات، والأساتذة، والمهتمين، لا بد من أن تراه ملايين العيون ويتسلل إلى وجدانها ويسكب فوقه ترياق الديمومة والخلود. وأيضاً هناك تيتان ينمو ببطء مطرد، بطنه واسعة شرهة تبتلع كل شيء، اسمه نتفليكس، من الممكن أن نستثمر في جماهيريته الهائلة. فمثلاً، حتى لا نكون من حزب الياقات الأنيقة، ونظارات بإطارات ذهبية، نريد أن نغوص قليلاً في الأدوار السفلى ونعجن الخبز بأكفنا حتى لو اتسخت، فأنا أحتاج إلى 6 مشاهد غريزية أنثرها هنا وهناك في الفيلم؛ جوع، خوف من الموت، جنس، الأمومة والأبوة... هكذا نرتب المصائد التي تقتنص وجدان المشاهدين“.

قال لؤي يوسف وهو يحاول أن يعيد المسار إلى السيناريو، ويكفكف خيمة الذات المترامية الأطراف، التي ينشرها فريدريك فوقهم: ”أعتقد نحن نتجه نحو فيلم وثائقي تحضر الدراما فيه، فهل نبدأ بمقولة نيتشه عبر صوت معلق عميق، يقول إن الطبيعة تتنكر بزي الحب، للحفاظ على النوع وسلالاته؟ إن

زواج الجازي العربية بأميركي من أصول سلافية، سينتج عنها نسل قوي مهجن، يضيف للكون...“.

برقت عينا آنا، لا تدري هل تعجباً من الجواب ومصدره، أو إعجاباً، فهمست: ”واوووو! حقّاً فكرة جميلة، لكن يجب أن نوزعها على أفواه الشخصيات، ونستبقي القليل للراوي، حتى لا تبدو خطابية موعظية“.

رمقها فريدريك بطرف عينه مستخفاً بما قالت، ليكبح جماح حماسها وآرائها القطعية، حول مواضيع لم يقل فيها رأيه النهائي بعد، وقال: ”من الذي يتحدث؟ فواز أو شيخ القبيلة؟ لكن طفلهما المشترك آدم اختفى، بات غير موجود، لا أحد يعرف عنه شيئاً“.

قال بو سعادة: ”أثناء بحثي عن تاريخ تلك المرحلة، هناك أمر أدهشني في كتاب الرحالة الإنكليزي فيلبي، عن قصة يتناقلها البدو هناك حول رجل أبيض، أو تحديداً أصبح أبيض، أبهق، لهول ما شاهده من أهل الأرض، فاختبأ في بئر! لماذا لا نضع كل الكلام على لسان الرجل الأبيض؟ ثم ماذا يعني الرجل الأبيض في الخيال الشعبي عند العرب سكان الصحراء؟ هل هو مستشرق يتلصص، أو جندي فار من كتيبته الغازية إلى عمق الصحراء؟ هذه القصص دوماً تحمل بين طيات الخرافة والخيال ومضة من الحقيقة، محفوفة بخيال شعبي محتد متأجج“.

تطلع إليه فريدريك متأملاً، وقال وهو يحك رأسه بقلمه: ”أحب القصص التي تدور حول البئر، فهي ستحيلنا إلى النماذج العلوية، الإركاتيب حول فكرة الموت والقيامة، مثل نزول تموز للعالم السفلي، وسقوط يوسف في البئر، وقيامة يسوع من قبره. هي فكرة وثنية بامتياز، حول العود الأبدي، ودوران الأرض“، ومن ثم تبسم هازئاً، وقال: ”ها نحن عدنا لنيتشه وعوده الأبدي، هذا النازي اللعين، يبدو حاضراً دائماً في كل مكان“.

أردف متأففاً وهو يطقطق رقبته بيديه:

”يا شباب، بدأ يداخلني الصداع من تداخل الأصوات، ما رأيكم أن يختلي كل منا في زاوية ويكتب ما يراه لمدة ساعة؟ لا سيما أن لديّ محاضرة مسائيّة الليلة. أريد أن أكون جاهزاً ومنتعشاً. منزلي قريب، سأذهب لأتناول لقمة

وأستحم، وأراكم هنا عند الرابعة. لنرَ ما نتائج فن الأركان". ثم أردف معابثاً وهو يغمز: "طبعاً يبقى فواز محتفظاً بمقعد شيخ القبيلة، ومن ثم نعود أكثر حيوية ولياقة، فالإبداع هو أشد الممارسات حميمية، لا بد أن تكون في حالة صمت يبلغ حد الوحشة بصوامع نائية، كي تنسل المجنحات اللواتي يهمسن وراء الأذن بأسرار الفن".

تمتم فواز وهو يغالب ضحكته: "في ثقافتنا من يجلسونه في الركن، هو المذنب المستنقص، أو الذي أتى بفعل مشين".

رد عليه فريدريك وهو خارج: "أنت شيخ القبيلة الآن، فلذا أنت آخر واحد يتذمر أو يتأفف".

***

وكعادة جلساتهم للعصف الذهني، يظل هناك إعصار صغير يلف فوق الطاولة، كل يحاول أن يجتذبه ويسيطر عليه، لكن يتبدى واضحاً هدر الجهود وتبعثرها، كما أن الجميع يرفض أن يقوم بدور المدوِّن، لأنه يعرف تلقائياً أنه ستنتقل له مهمة التحرير، والإبعاد، والنقص والزيادة، بحسب مراجعات قلم فريدريك المزاجي.

ويبدو أن هذا الإعصار الصغير، هو الذي كان ينتقي الذين سيذهبون إلى العربية السعودية، حتى لو ظن فريدريك، أن الريح تأتمر بأوامره، والأشرعة تخضع له.

***

حينما غادر فريدريك خارج الغرفة، قام بو سعادة ليُعد لنفسه فنجان قهوة وهو يقول بالعربية: "هذا الأميركي الإمبريالي، يريد فقط أن يتحدث عن الجيكلز، ولا يكترث لعالمنا العربي المليء بالأوجاع والحقوق المستلبة، والشعوب غائبة عن الوعي في زمن الوهم والخرافة".

فرد عليه فواز: "لكنه نصبني هنا شيخاً للقبيلة، حتى لا يشطح بالنص ويصبح استشراقياً".

فأجاب أبو سعادة وهو يرفع كتفيه: "هو الذي نصبك كتلميذ له، ويثق بردود فعلك وآفاقك، فأنت مولود هنا في الولايات المتحدة".

همس فواز ساخراً وقد سئم روحه السوداوية: "أنت أيضاً مولود هنا، وتحمل الجنسية الأميركية".

اقترب لؤي من فواز هامساً: "دعكَ منه، ما زال يعيش في أوهام الستينيات الثورية؛ أشداق واسعة مثقلة بالشعارات... من دون فعل".

سيناريو مُقْنِع أو مُقنَّع

قبل الرابعة بخمس دقائق، كان فريدريك عند باب القاعة يضع يديه في جيبه، وقد بدا مهندماً مشرقاً، فقال بصوت منخفض وهو يخطو داخل القاعة، وكأنه يكمل حديثاً في رأسه، وهذا أحد أساليبه التي يستعملها، لصنع مسافة بينه وبين من حوله، حتى يتجنب التلطف بإلقاء التحية عليهم:

"مشكلة الأفلام الوثائقية، أنها ترصف الحقائق متجاورة أمام أعين القارئ، وتحاصره بها كحقيقة مطلقة، لكن أنا أريد ثلاثة أشياء هامة".

وتيبس في مكانه ورفع رقبته، وكأنه يتلو نبوءة تبدت له في قيلولته:

"أولاً: لا أود أن أقنع أحداً بأمر ما، أريد كاميرا رشيقة تتلصص على ما يحدث.

ثانياً: لا أحبذ راوياً نركز عليه بؤرياً، ومن ثم نقفز للفلو عن طريق الفلاش باك.

ثالثاً: لا أريد من أحد أن يثرثر في خلفية الكاميرا، فالصحراء يهيمن عليها الصمت، الكاميرا سيكون حديثها صوت الرياح، وتهتز اهتزازاً رتيباً لراكب جمل، أطلقها وهي ستكمل الحكاية، الكاميرا كالكلبة الذكية، ستأخذنا إلى موضع الصيد السمين".

صدم فواز بتشبيه الكاميرا بالكلبة، ولكنه كان في مرحلة قد أفلح في أن يجعل من وعيه وتقييمه مطاطياً يتقبل، وأن يتقافز كالجندب النشط بين ضفّتَي ثقافتين.

ولكن ما أزعجه هو عدم مبالاة فريدريك بكل الكاست الذي حوله، وهو يردد كلمة ”أريد“، وإن كان يتظاهر باهتمامه لآرائهم، وحديثه عن الفيلم بأنا متورمة، والصورة الاستشراقية هي التي في النهاية سيقولب بها الفيلم... جمال، وقافلة، وصحراء، وفي الأفق قمر فضي شهيٌ وخجول؟

قالت آنا، التي ألفت أطواره ونرجسيتيه، فأحياناً تسايره وتلاطفه، أو تتركه يحادث نفسه وتغادر المكان: ”فكرة رائعة، وطريقة غير مطروقة، وستنتشر بين ورش كتاب السيناريو، كتابة الأركان، لكن قبل أن نشرع في تنفيذها، أود أن تتجول كميرتنا الكلبة“.

هتف فريدريك: ”ماذا تقصدين؟“.

قالت آنا وهي تحكّ رأسها بقلمها: ”أريد أن نحفر عميقاً“.

قال لؤي ساخراً: ”هل نبدأ مع خطوات الهوموسابين الذي قطع القرن الأفريقي قبل 200 ألف عام، مكث في جزيرة العرب لبضعة آلاف من السنين، إلى أن تطور واشتد عوده، ومن ثم انتشر في العالم؟“.

قالت آنا بسذاجة، عجزت عن أن تلقط روح السخرية في حديثه: ”أعتقد هذا العمق التاريخي سيمطط المساحة التي نتحرك فيها“.

رد عليها لؤي متأففاً: ”هذا سيجلب للفيلم بعض القضايا الإشكالية عن دراما الكون، والتحفظات التي تدور حولها، وسيضيِّق المساحة التي يعرض فيها الفيلم، انتبهوا في التعامل مع شعوب حساسة وحذرة ضد اختراق التابوز، لفكرة السينما نفسها، فما بالكم إن تضمنت حمولة مستفزة لعقائدهم؟“.

غمز كريم بو سعادة لهم، وأشار برأسه قائلاً: ”سامع، سامعين بآذانكم وصاية المستعمر، شعوب حساسة وحذرة، يعني مغلقة وغير قادرة على مسايرة العصر“، ثم أردف بالإنكليزية وهو يخاطب الجميع: ”حساسية الشعوب، هذا الشأن اتركوا تقريره لشعوب المنطقة“.

وأضاف: ”آنا تخبرنا بعض الأبحاث والتنقيبات، إن الهوموسابين الذكي، قد تزاوج مع النياندرتال الأخرق، فأنتج الإنسان الأوروبي الحديث، الذي قاد حرباً لم تمر على البشرية عبر التاريخ، مات فيها 50 مليوناً“.

وفي محاولة سريعة من آنا للملمة الموضوع، لتداركه قبل أن يفتح باباً للتجاذبات والاحتداد، قالت: ”ما رأيكم أن أكتب في السيناريو، أنه بعد أن كانت جزيرة العرب ينبوعاً للأنبياء، أصبحت الآن الولايات المتحدة ينبوعاً لهم، عبر الأفلام والممثلين، هم أنبياء العصر الحديث، الأمر الذي يؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن ينازل وحشة هذا العالم، دون أن يحارب تحت راية نبي“.

قاطعها فريدريك غير مبالٍ بما تقول، وأخذ يسرد ما كتبه لؤي في ورقته. كان أقرب واحد إلى البوابة هو لؤي، اقترب منه وأخذ يقرأ بصوت مرتفع، وبصوت مسرحي متضخم: ”صحراء صامتة، معادية، مهددة، سكانها غير ودودين. كأنني أشاهد الكاميرا تلعق الكثبان بولَه، كقائد تاريخي يتذوق طعم أرض قد وطئها للتو، والموسيقى في الخلفية“.

فقال فريدريك: ”أعتقد إلى الآن أن إحدى أشهر اللقطات البعيدة، هي لقطة المخرج الإنكليزي دايفيد لين، عند ظهور عمر الشريف من أفق صحراوي من عمق الكادر، وحيداً سرابياً، أمام هيمنة وتغول الأفق الصحراوي، الصورة هنا اختصرت نصف صفحة من الثرثرة الأدبية“.

رد عليه كريم بو سعادة: ”آههه حدث ما كنت أخشاه، أن يلقي فيلم لورانس العرب بظلاله على عملنا“.

بعد أن أطلّ على أوراقهم كلها، ذهب إلى مقعده وجلس، ورجلاه على المقعد الذي أمامه، وأراح رأسه إلى الخلف، وقال بما يشبه الهمس، كأنه يخاطب نفسه: ”إلى الآن لم أطلع إلا على رسائل، الرسالة مكانها صندوق البريد كما يقول المخرج هيتشكوك، لا لقطات الفيلم“. ثم اعتدل في جلسته استعداداً للوقوف وقال: ”هذه عقابيل الفن الواقعي ورسالته الماركسية السخيفة التي تورطنا فيها، وأنا هنا لا أقدم سوى لحظة ذاتية خاصة، والجمهور كقيمة مطلقة، واحد من أهدافي، ولكن ليس الأول“.

انسكب الظلام باكراً على نوافذ نيويورك، وبدؤوا يلملمون أغراضهم ويتأهبون للمغادرة، نهاية أسبوع قابلة لجميع الاحتمالات، لكن فواز يريد أن يعمق علاقته مع بو سعادة، فبعد عدد من جلسات نقاش السيناريو، يراه الوحيد القادر على مبارزة أذرع الأخطبوط فردريك.

ورشة العمل 3

الجلسة الثالثة كانت صباح يوم الاثنين، اللحظات القليلة التي تسبق النقاش، هي أكثرها ثقلاً، فالجميع ما برح في تلك الضفة الرمادية التي تفصلهم عن نهاية الأسبوع، ولم يشرعوا في القفز إلى بداية الأسبوع بعد.

يختفون حول الصمت، ومعاطفهم التي لم ينزعوها، وكأنها ستخفيهم عن أعين فريدريك المتفحصة، لا سيما أن مؤسسة برامز، بدأت تطالب بأسماء القائمة النهائية للذين سيسافرون إلى العربية السعودية، لاختيار أماكن التصوير، كي تبدأ الحجوزات.

وكمحاولة سريعة، وأسئلة ألقاها فريدريك بطريقة لا يود أن ينصت لجوابها، بقدر أن يهز الرؤوس المغلقة داخل غفوتها: "ما النقطة المحورية التي سيلتف وينطلق منها هذا الحلم؟ هل هو اختفاء العمة وغيابها بعد اقترانها بالأميركي؟ أنستطيع أن نقيم محور الفيلم كله حول فتاة سبق أن تزوجت طبيباً أميركياً منذ 100 عام؟ فهذه الحادثة التي تبدو شديدة الرومانسية، لكنها قد تكون جانباً مساعداً يدفع بالأحداث".

قال بو سعادة، الذي ما برح يعاني صداعاً وهانغ أوفر يعبث برأسه، ويجعله أكثر نزقاً:

"رغم هذا نريد بطولة جماعية... أنا أرى أن نكتفي بكون شخصية الطبيب أنثروبولوجية فقط، دون أن نجعل هذه العين تستحوذ على الكاميرا".

قال فريدريك: "إلى ماذا ترمي مستر بو سعادة؟ هل عليَّ أن أقدم مفهوماً واضحاً كالأفلام التعليمية، ليتخلله بعض الصمت والغموض، فأنت في صحراء، وكما يضع الكاتب بعض النقاط على السطر، يظنها البعض خالية من المعنى، في حين هي تحمل المعنى كله، أحتاج بعض الصمت هنا. أمضيت عمري في تجنب الأفكار المبتذلة المستهلكة، دعني أبوح لك بسرٍّ صغير مستر بو سعادة، هل تعلمون من يشاركنا طاولتنا هذه خلسة؟ هناك شيطان صغير مدلس، يدفع بأفكار مستهلكة ومبتذلة إلى طاولة النقاش، ليقول لا بأس. لن يلحظ أحد ذلك، فمشهد الاستحمام المبالغ فيه بين الجازي وماثيو إيدن هو مشهد مقتبس

من فيلم المسيح ومريم المجدلية، ومشهد في أحد أفلام كلينت إيستود "The good the bad the ugly"، ومشهد ريتشارد جير في فيلم "Pretty Woman" مع العاهرة... لذا لا حيّز له هنا في هذا السيناريو".

يكمل فردريك بعد أن أخذ حسوات من كوب قهوته: "كم رجل كهف نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية؟ د. هاريسون الذي يجد في نجد عدن المخبأة، صحراوية بكراً شهية للتبشير؟ وإيدن الذي يريد أن يتجاوز الزيارة، ويقطف من هذا الجنة المحرمة، ويعود بها إلى عالمه؟ الجازي نفسها: هي حواء بعد السقوط، وخروجها من رحم بلدتها إلى الشواطئ تحت أنظار المبشرات، ولم تستطع جذورها أن تلتقم التربة الملحية للبحر، فذوت وماتت. من أين أيضاً يجلب لي شخصيات كهفية بغرائز بدائية؟".

أجابه بو سعادة: "لا تستطيع أن تخذل المشاهد، أنت حينما تقوم بجعل المجرم ينجو من العدالة كالأخت مارلين، فستفسد أمسية ذلك المشاهد الذي دخل الفيلم يحاول أن يرتب أرففه، وينتقم من الطغاة والمجرمين الذين أذوه وجاروا عليه، وفق قانون كوني تؤكده له أحداث الفيلم... وهو أن العدالة حاضرة، ولم تخذله. عدا هذا، فلن يغفر لكم خيبته. وبما أن الفيلم يقترب من السيرة الذاتية، فأنت لا بد أن تقدم شخصية، إن لم يحبها المشاهدون، على الأقل سيتعاطفون معها. فاللسان السليط في موقف ماثيو إيدن، وكورنيلا، والتجديف والهرطقة ضد المسيحية، يزعج كثيراً المشاهدين، لا سيما عندما يعرفون أن كتبة السيناريو شارك فيها عرب، ومسيحيون لم يزوروا الكنيسة قط، ويهودي ملحد".

قال فريدريك وهو يطرق بطرف قلمه على الطاولة: "شو دونت تل بو سعادة، قدم لي لقطات تختزل هذه الثرثرة التي قلتها".

رد بو سعادة وما زال صداع رأسه يتصعد بين حاجبيه: "إنها ليست ثرثرة، لكنها إطار، وثيمة لا بد أن تطوق العمل قبل أن ننغمس به عميقاً. من الممكن أن نتبع رحلة ذلك المستشرق بالإيقاع نفسه، ونبدأ من البحرين، ومن ثم نقف في ميناء العقير، ونرتب رحلة على الجمال، حتى نصل الرياض، وهناك حتماً سيتم كل هذا، كأننا عميان في مغارة دامسة، ولكن سنقدم بصورة تقريبية".

يبدو أن الرحلة فوق ظهور الجمال أغرت الجميع، ليس فقط لغرابتها، ولكنها حتماً ستمنح الفيلم مسوغه ومبرره.

***

بدأ الملل يتسرب لفواز، وأخذ يحاول أن يدوّن قائمة المهام التي سيقوم بها، وهمس: ”التنسيق مع الرياض بينما هم يتناقشون، أولاً السفارة، ومن ثم الجهات الرسمية، فكاميرا فضولية تجوس أنحاء المكان، لا أعتقد أنه سيكون مرحباً بها إلا تحت ظروف خاصة، وبالتنسيق مع وزارة الثقافة. كما يجب التنسيق مع البحرين، حيث استقرت العمة هناك، ويقولون إنها رافقت الإرسالية، وأنجبت ابناً من المستشرق الأميركي.

الحمد لله أن الفكرة راقت أبي وأحس بالزهو، وبدأ يرسل لي اقتراحات شتى. حتماً سيكون هو المدخل، فنظراً إلى علاقاته الواسعة، أعتقد أن باستطاعته أن يوفر لفريق الفيلم، فيزا دخول، وتصريحات تصوير“.

وهذا بالتحديد ما فعله عبد القادر آل مشرق في مدة ثلاثة أسابيع.

الورشة الرابعة

الورشة الرابعة والأخيرة في نيويورك، أغلبها أحاديث عن توقعاتهم، وماذا ينتظرهم. النساء يسألن عن شروط اللباس، وما المساحة المتاحة لكشف أجسادهن في الرياض، بينما يسأل الذكور عن وجود المشروب.

قال بو سعادة موجهاً حديثه لآنا التي كانت منشغلة بالسؤال عن لبس الشورت: ”في كنيسة نوتردام التي زرتها، طلبوا من زوجتي أن تغطي ذراعيها، وتضع منديلاً على شعرها، لذا تعاملي مع المكان بالمنطق نفسه“.

وعاد لؤي يقول: ”لنُخرج الدين من القضية، فأيُّنا لو دعي لمناسبة هناك دريس كود وقوانين منظّمة“.

ردّ توماس البدين، المدير المالي ومندوب شركة برامز، والذي نادراً ما يتحدث: ”هل التزمت المجندات الأميركيات بشروط الأردية عام 1990؟“.

ورغم أن فواز كان وقتها لم يولد بعد، استطاع أن يستجمع أفكاره بسرعة، ويقول: ”هن حضرن في مهمة عمل وغادرن، وليس كزائرات مستر توماس“.

أول شيء قاله فريدريك في جلسة العمل الرابعة:

”لا أود أن أقحم أن د. هاريسون كان مبشراً، أو أن يستدرجني هذا الفخ المعقد، رغم أنها مادة ثرية، من الممكن أن تأخذنا لعدد من الحقول، ولكن في الوقت نفسه، إذا اخترنا أن تكون الجديلة التي تلم شعث الأحداث هي العلاقة بين ثقافتين، فلا بد أن ننبش عميقاً في بواكير هذه العلاقة.

ما أود أن أبرزه في هذا الفيلم هو تلك الذبذبة الخافتة الحساسة، التي تصحب التقاء الثقافات، وكيف التوتر الذي يرافقها، دون أن نقع في فخ المفاضلة بين واحدة أو أخرى، أو تعتقلنا العدسة الفوقية التي ينظر بها العالم الغربي إلى الشرق، والصورة النمطية التي ترافقها هوليود“.

قالت آنا وهي تحاول لم شتات الحديث كعادتها عندما يبدأ في الانفراط:

”ما رأيكم بدلاً من أن يتحرك السياق عبر امتداد زمني طولي، أن تكون هناك دوائر؟ دائرة عجز التبشير عن اختراق المكان، دائرة أخرى لعلاقة ماثيو والجازي، دائرة كبرى ثالثة عن الحوار الذي لم ينقطع طوال 100 عام بين عالمين“.

قال فريدريك مطرياً آنا كعادته عندما يحاول أن يطيب خاطرها، خشية أن تترك العمل معه لفظاظته: ”آنا، أيتها الدمية الروسية الجميلة، كل مرة تخرج من داخلك نسخة طازجة مدهشة وجميلة“.

التفت توماس إلى فواز قائلاً: ”هل بإمكانك أن تعطينا السعر التقريبي لقافلة من الجمال، تسير من العقير إلى الرياض؟“.

صمت فواز وأُسقط في يده، تبادل نظرات ساخرة مع مساعد عسيري. توماس لا يعلم أن المرة الوحيدة التي ركب فيها جملاً، كان في رحلة بمتنزّه الثمامة، وكاد يقع عنه، ولكنه طأطأ رأسه وقال: ”أمهلني بعضاً من الوقت، فرحلة من هذا النوع لن تكون أمراً سهلاً الآن في صحراء تتقاطع في دروبها آلاف الطرق السريعة المعبدة، وسكك حديد تصعد وتهبط التلال الرملية بجسارة“.

قال فريدريك: ”أرجو أن يكون هذا سريعاً، نريد أن ننتهي وننظم الميزانية، فعندما ننتهي من اختيار أماكن التصوير في الرياض طوال شهر ديسمبر، سأكون في البندقية! سنقوم بتصوير فيلم هناك عن تهديد الماء لها كمدينة أثرية... وأرجو أن تكون آنا قد انتهت من الترتيبات قريباً“. ثمّ التفت نحو آنا متمماً كلامه: ”وقروب واتس يجمعنا يصبح مطلوباً الآن، حتى يصبح التواصل أسهل بيننا. سأظل على اتصال مع الجميع“.

قالت آنا: ”أريد أن أشير إلى أمر ما، قبل أن ننغمس في تفاصيل الورشة من جديد“. نبرة صوتها وتعابير وجهها تسعى إلى جعلها تبدو كمدبرة المنزل الماهرة التي تضيق الميزانية، لتبتاع معطفاً ثميناً: ”لسنا بحاجة إلى ملحن يرهق الميزانية ليعطينا لحناً، فالبرامج الموسيقية التي تركب على الكمبيوتر أصبحت مذهلة، فقط من الممكن أن تدرج عليه وقع أربعة أو خمسة أصوات سائدة في الخلفية... مثلاً نداء راعٍ لإبله، صوت الأذان، حفيف الحبل وهو يستجلب الماء من البئر، جميع هذه بصحبة كومبوزر ماهر، وتامبلتس مجهزة لمعزوفات عالمية، تستطيع أن تصنع مقطوعة، لها نسيج المكان وأهله“.

قال بو سعادة بعربيته المعطوبة، وهو يخاطب فواز ومساعد، ويخبط كفيه ببعضهما: ”ههههه يا عيني. الجماعة بلشوا يستهبلوا... أذان وموسيقى! ما حدا منهم بيعرف قدسية الأذان، وهو صوت الله ينادي المجاميع إلى بيته“. ومن ثم أردف بالإنكليزية: ”هذا هو الاستشراق بالتحديد، غرباء خارج الثقافة مهما درسوا الثقافة وعاشوا داخلها“، وبتنهد يقول: ”يظلون غرباء“.

قاطعه فريدريك بعد أن شعر بنفس تآمري، عندما تحدثوا ثلاثتهم بالعربية، لكن عاد يقول لها وقد انحدرت نظاراته عن أرنبة أنفه، وضيق عينيه وهو يستمع لها: ”استمري في هذا... متأكد أنه لن يكون شيء فخم بديع كالوالتز في فيلم د. زيفاكو... لكن عموماً اجلبي لي أربعة نماذج أستمع لها فأختار منها“. ثم حينما أحس أن الجميع يحدق فيه باستغراب، كقطيع من القطط، استأثر الهر ذو الرأس الكبير بجل الوليمة، تدارك وأعاد نظاراته للوراء واعتدل في جلسته وقال:

"أقصد نختارها معاً"، وهو يلوح بحزمة الأوراق التي بين يديه، والتي جمعها منهم، وأردف: "هذا ما أوحته لي أوراقكم. أود أن أجعل في العدسة بعض الأنثروبولوجيا... قد ننطلق من اهتمامات ماثيو إيدن، ولكن بشكل لا يفقد المكان والسكان إنسانيتهم وحيويتهم، لأنكم فيما كتبتموه، تكتفون بالطبقة الأولى، وهو ما نسدله على الصحراء، والطبقة الثانية، الحكاية الكاذبة التي تمنحها الصحراء للغرباء، لتخضعهم لمكرها المضلل".

والتفت إلى فواز، وهو يشير له بالأوراق التي في يده: "الآن انظر فوق نفس المكان، اكتشفوا وفق صدفة تاريخية، أنهم يطفون فوق بحيرة من ذهب، آبار بترول، مدت أذرعها عميقاً في قاع التاريخ، واستجلبت سكان نفس تلك الصحراء إلى القرن الواحد والعشرين، يدرسون في أفضل الجامعات، ويركبون السيارات الفارهة، ويصادقون أجمل الفتيات، بينما تظل البورصات الكبرى في عواصم العالم، تنصت متوجسة لذبذبات بحيرة الكنز التي يرقدون عليها".

رفرفت عينا فواز وقتها، فهو لا شيء مما ذكر فريدريك: "ولكن لا بأس إن كانوا يظنون أننا كذلك، لن أحاول البحث عن جواب يغير رأيه".

لكنه وجد فريدريك كعادته منقطعاً عن محيطه، مستغرقاً في ذاته، يتحدث دون عميق اكتراث بما حوله، فرد يديه كأنه سيطير، وأخذ يلف حول كعب رجله وهو يقول: "أغبى مخرج هو الذي يعلق مغامرته فوق وجه ممثل أو مؤخرة ممثلة... أريد أن يكون المكان هو اللولب الذي تلتف حوله اللقطات والمشاهد، لأنه بدوره، سيصنع ممراً أو قنطرة نعبر عليها لسرد حكاية".

هطل المساء عليهم، جالباً صيحات النوارس المجرَّحة بالوحشة فوق منهاتن، وصفير سيارات الإسعاف، والسماء العابقة بأنفاس العائدين إلى منزلهم.

بو سعادة يقول لفواز: "احذرهم... هؤلاء يسعون إلى غزو الشرق وامتلاكه على يد جنودهم، ومن ثم إعادة خلقه كما يروقهم على يد أفلامهم".

في المساء تحدد الفريق الذي سيسافر الرياض: المخرج فريدريك، مساعدته آنا، بو سعادة، مدير التصوير فرانك، توماس محاسب وإداري من

مؤسسة برامز، فواز آل مشرق، ولؤي يوسف، ومساعد عسيري.

الرياض 2018

في 21 سبتمبر تزورّ الشمس عن الرياض، فتجلس منهكة لتستريح، يخفت لهاثها، ترطبها نسمات قادمة من الشمال، تكون قد خرجت من صيف شرس، قد أنهكها وجفف عروقها، وبدأت نوافذ المنازل الشمالية، تبعث بنسمات صباحية ندية، تشبه قبلات لغائبين أسرفوا في البعاد، وابتدأت تعلو في الأفق، قطع متفرقة من الغيم الرمادي المستدير المتلاحق كسرب نعام، لتعلن دخول موسم الوسم والأمطار.

عندها يبدأ أصحاب الحدائق المنزلية، والاستراحات، والمزارع، في جبر خواطر حدائقهم، يسمدونها، ويشذبونها، ويعِدُّونها لدورة عام جديد.

المتأمرك القديم

تبدو الطلبات والتنظيمات مرعبة، ومن سيستطيع في فترة أسبوعين القيام بكل هذه المهام، إلى أن ظهر فجأة السوبرمان، عبد القادر آل مشرق.

انطلق سوبرمان بعضلات مفتولة، يفكك العُقَد واحدة تلو الأخرى، وهو الذي يؤمن أن الطبقية هي كذبة كبرى اخترعها الكسالى، فالطبيعة نظمت الكون هكذا طبقة تعلو الأخرى، هناك طبقة تطمح للوصول إليها، فتشحذ كل همتك نحوها، وطبقة تفر منها وتزدريها، وبين هذه وتلك يعمر الكون.

عندما نزل الطاقم مطار الرياض، كانوا يترقبون الكثبان وأهازيج القوافل، من سيهرع لاستقبالهم لنقلهم إلى مساكنهم، لكن تلقفهم أنبوب المسار، حيث وجودوا في نهايته عبد القادر آل مشرق، بابتسامته العريضة الوسيمة، التي لم تفقدها الكهولة سحرها، بجواره رجل طويل في نهاية الثلاثينات، يرتدي ثيابه السعودية البيضاء المصقولة حوله بعناية، كأنه خرج للتو من بين دفتي مكواة تضغط الملابس. ملامحه تفتقد التعبير، عيناه تظلل غوريهما أهدابه الثقيلة، رغم ثيابه المدنية، لكن بدت واضحة صيغته الأمنية.

وريما مندوبة وزارة الثقافة، وضيئة بضحكة أخاذة، وعينين لامعتين، تضبط إيقاع الانطباع الأول عنها بمهارة، عباءة حريرية بنفسجية، ورأس مرفوع، ولكنة أميركية يبدو واضحاً أنها تحاول أن تبهر الضيوف بها. وأخيراً مندوبة السفارة الأميركية، ضئيلة لزجة، ترتدي حجاباً، تحاول أن تتحدث وترد على أسئلة لم يسألها إياها أحد، تتصنع اللطف، وتتنقل بحماس بين الضيوف، تحاول أن تثبت جداراتها، كأن رئيسها يراقبها.

عند البوابات الخارجية، كانت الحركة في المطار خفيفة، ولم يكن مزدحماً عدا تلك الصفوف من العمالة الآسيوية، كأنهم يدخلون بوابة مصنع أنبوب، يدخله القادمون ببطون ضامرة، وأعين مذعورة حائرة يشوبها صفار طفيف، وصندل آسيوي بسيور شبه متهرئة، وحقيبة قماشية، لا يشبهون أبداً أولئك الخارجين من الطرف الآخر للأنبوب، بعد أن قبلتهم آلهة النعمة، استدارت أشداقهم، وصفا لونُ عيونهم، جلدهم أصبح أبنوسياً لامعاً، وتقهقر الشعر إلى الخلف مع مشروع كرش خفيف، أحذية بوما صينية مقلدة، ومعطف جلدي بسحاب أمامي، ومجموعة من الحقائب المحشوة بمقتنياته التي قايضها بغربته وسنين شبابه.

انتقلوا إلى فندق الشيراتون كمحطة أولى لهم في الرياض، فريدريك همس في أذن آنا: "يبدو أن الآسيويين هنا هم اللاتينيون لدينا؟".

***

اجتماع الرياض الأول، كان في غرفة اجتماعات صغيرة داخل الفندق، حيث نزل الكاست الضاج والمشتت، بأوراقهم، وحقائبهم، ورؤوسهم المترنحة من الجت لاق.

ومتحججاً بالإشراف على الترتيبات، شاركهم عبد القادر اجتماعهم الأول، ملوحاً بمجموعة أوراق بين يديه، قائلاً وهو يوجه كلامه لفريدريك:

"بين يديَّ وريقات من كتاب المستشرق الذي تزوج العمة، ثم انقطعت أخباره، يبدو أن جزيرة العرب المطوقة بالسحر والغموض، ما برحت تجذب كاميرا الأفلام وتلهمها، لن أستطع أن أفرض إملاءات عليكم، لكنها تستحق

الاطلاع، وأنا جاهز للمساعدة". وتوقف قليلاً كأنه يستدرك أمراً ثم قال: "بالإمكان أيضاً التنسيق مع قسم العلاقات العامة في أرامكو لمساعدتنا وطلب أذونات زيارة وتصوير لكم".

ثم أردف بزهو مستدركاً: "إنها أرامكو ينبوع العالم، فرنسا لديها باريس شانيل، وأميركا آبل، والسويد فولفو، نحن ماركتنا أرامكو، البلدة الفاخرة التي نبتت حول ينبوع العالم".

تمنى وقتها فواز أن يصمت أبوه، ويتوقف عن المباهاة والتفاخر، حتى لا تنتهي بهم الحال، ويجدوه يغني أغنية ستيفي وندر. لكنه توقف فجأة، كأنه يدوس كابحاً قوياً وقال: "لقد رتبت عشاء للطاقم جميعه؛ الليلة في منزلنا... بانتظاركم". استأذن وغادر.

وعندما عرف فريدريك أنهم سيزورون وسط الرياض غداً صباحاً قال: "لولا أن الطفرة العمرانية التي أصابت الرياض، كواحدة من أسرع مدن العالم نمواً، لم تترك حجراً مكانه، كنا بدأنا التصوير من نخل آل مشرق... ومن ثم جعلنا الكاميرا تسير بهدوء حتى تصل إحدى ناطحات السحاب حولنا. كل إنش في اللقطة لا بد أن يخدمها ويعبر عنها، لا مساحة لديّ للفوضى والعشوائية".

أجاب لؤي: "لا، أرجوك، لا تفعل... هذه المساحة مطروقة، وأعتقد أنها مستهلكة، فالتلفزيونات المحلية تبث هذا النوع من الأفلام لدينا بشكل مكثف، وبمثابة تقرير تنموي متصل، وبدلاً عن هذا مثلاً، قد نبدأ المقطع بصورة قدمين لامرأة تقفز على ناقتها كالقردة، كما وصفها فيلبي في كتابه، ومن ثم تنتقل الكاميرا عن طريق الفوتو مونتاج لفتاة في المكان الصحراوي نفسه، لكن داخل حمام رخامي، وتقوم بعمل ماسك لقدميها من نبات الأفوكادو، ومن ثم تبحث لنفسها عن حذاء في خزانات أحذيتها، وتنشره في السناب شات".

هز فريدريك رأسه بامتعاض واستخفاف كعادته وقال: "توظيف اصطفاف الأرفف بالأحذية كعلامة ثراء، يبدو مستهلكاً للغاية منذ زمن الفلبينية أميلدا ماركوس".

***

في المساء كانت الوليمة فاترة بفترات صمت طويلة، فالفريق كان ما برح يكابد عقابيل النعاس. كريم بو سعادة بدا غريب الأطوار، ارتدى طاقية وكوفية وعقالاً، فغدا يشبه الذي يدق المهابيش في أفلام فيروز، يأكل بيده، ويتحدث كالأفلام البدوية لمحمود سعيد وسميرة توفيق. كان تحت سورة فرح عارم، يريد أن يقول للجميع ولنفسه أولاً، أنا من هنا، أنا عربي، هذه جذوري، وهؤلاء أسلافي.

ولؤي يتأمله ساخراً ويتمتم: "لم يفطن أن منازلنا تشبهنا، ستكون لك الحفاوة كلها، والضيافة المرصوفة بأواني كريستال وشوكولاتة بلجيكية، والعشاء الفاخر... لكن ستبقى في الردهات الخارجية، لن تستطيع الدخول إلى أعماق المنزل. ما زال الصحراوي المستريب من الغرباء كامناً في أعماقنا".

***

بعدما وصلوا إلى الفندق، استلم الجميع رسالة في قروب الواتس المسمى "فيلم العمة": "الاجتماع في اللوبي الثامنة صباحاً للذهاب لوسط الرياض". قال لهم عبد القادر: "لن يكون الأمر يسيراً، فأنتم ستبحثون عن جدة في ملامح حفيدتها"، وهذا ما كان!

كان هناك عبق هيل وقهوة، تنبعث من المقاهي التي تحف بقلعة المصمك، الدروب إلى النخل أصبحت شوارع السويلم والظهيرة، استُبدلت بالسواقي نوافير تنبثق من بين الرخام، الفوانيس أصبحت أعمدة تتدلى منها عناقيد الضوء، ومزادات تشتعل فجأة على مقتنيات ثمينة قديمة، أو مجموعة صحون خزفية عريقة.

وسط الرياض كتلة ذكريات، نحتت على شكل وردة حجرية، وعلق في سوق السجاد أثمن ما نسجته أيدي صناع الصين وفارس، وفي شارع دخنة، ظلت هناك شجرة سدر هائلة، تقصدها سلالات من عصافير تلتف حول الرياض، وتعود للسدرة تسبِّح ربها.

وحده الأذان النجدي لم يتبدل... جافاً شجياً، يلتف بدوامات حول المئذنة.

المعلمة عزيزة

كان الجميع منشغلاً بالفيلم والطاقم، وملفات الحجوزات، والتنقلات داخل الرياض وإلى الظهران، حتى إنهم نسوها. أغاظها وقرص كرامتها أنها لم تكن جزءاً من الترتيبات. عادة عندما يزورهم أميركان أو أوروبيون أصدقاء لعبد القادر، يطلب منها أن تعد لهم عشاء من أكلات شعبية، فكانت هي تضيف لمساتها، فتصف سفرتها بأوانٍ ومناديل من نقوش شعبية، وترتدي دراعة منقوشة بوردة الشالكي، وتسشور شعرها، وتتلقى شهقات الإعجاب منهم كجزء من فسيفساء المشهد.

طلب منها عبد القادر بفتور أن ترافقه وطاقم الفيلم للظهران، لكنه لم يلحّ، كان فقط يريد أن يتأكد أن بيجامته وأغراضه جميعها قد جهزت في الحقيبة. بادلته الفتور ورفضت مرافقته، متحججة بأنها مضطرة أن تظل في الرياض، للمشاركة في ترتيبات زفاف أختها.

أمضى عبد القادر صباه وشبابه، مأخوذاً بمضمار جريه، لم يتوقف يوماً لينظر حوله أو خلفه، واثقاً أنه سيعود ليجد مقبض باب الحديقة المنكسر صباحاً قد تم تغييره، والخيول المنطلقة باحتدام داخل لوحة الصالة ما برحت تجري وتستقبله بالحيوية نفسها، وقهوة المغرب مطيبة، والزرع مسقياً، ولمبة السور المحترقة تغيرت، ونكهة الهيل والطبخ، والمائدة جاهزة، فقط تغير غطاؤها الذي تحرص عزيزة على تغييره، هو ومفرش السرير، لبثّ الحماس في علاقة دخلت قطار الرتابة.

ولم يلق بالاً كثيراً لما يحدث حوله، فأي أمر طارئ، عزيزة ستحله، وهو تحديداً لم يكن بتوقف كثيراً ليتأمل خريطة مزاجها، ستتذمر قليلاً عندما يتأخر، أو عندما تشاهد فيلماً وتتقمص إحدى الشخصيات. في البداية كانت تسخطه تلك المزاجية، ويشعر أنها فتاة غير سوية، لكن لاحقاً عرف أن حالات التقمص التي تصيبها بعد مشاهدة فيلم، تستمر بضع ساعات، وأحياناً تنتهي مع صباح اليوم التالي، وحينما يخرج غضبانَ، سيعود وثغرها يفتر عن ابتسامة، وقد ارتدت مزاجاً مزهواً بلون الورود فوق ثوبها.

تحت طمأنينة السقف جوار عبد القادر، تزهر عزيزة، إلى أن سمعت ذات يوم في نشرة الأخبار إعلان مجلس الوزراء، عن حصول زميلة دراسة لها على المرتبة الرابعة عشرة.

وكانت قبلها بوقت قصير ودعت زميلة دراسة، عندما ذهبت في بعثة ضمت أبناءها برفقتها، وسافرت بهم لأميركا لتحضير رسالتها في الدكتوراة.

وأخذت عندها تبحث عن عزيزة في أي قائمة ستبقى هي؟ عزيزة وحديقتها التي استباحتها خيول عبد القادر، وفتات الوقت الذي تحشوه بالأفلام، باغتتها هستيريا الهرمونات، ما بين انخفاض وصعود، وخرجت من بين أضلاعها تلك الطفلة المذعورة، التي تحتاج دوماً إلى يدين تتعلق بهما.

ولكن اليوم أخذت تمر بها ساعات من العزوف، عن كل أمر كانت تفعله في السابق، كومة المشاعر التي تتربص بها، بعد أن توقفت عن نثرها فوق من هم حولها، تتضخم، وتتعفن، وتتفسخ بداخلها، ولا تعرف هي ماذا تصنع بها.

لم تسخرها كطاقات تجعل العالم أجمل حولها، فعوقبت بالهباء، لدغها الملل، وأفرغ شحناته القاتمة في أعماق روحها.

وبعد أن كانت تدعو في كل صلاة، أن يحفظ الله لها عبد القادر، باتت تدعو أن يحفظه في قلبها، ولا يطاله التحلل والتفتت.

لم تكره عبد القادر، لكنها شعرت بتخمته، وأنها لا تود أن تلاحق خطواته وتحركاته لترتب جدول يومها، الشعور نفسه الذي صادفته في الحرم وهي تطوف، رفضت أن تردد ما يقوله المطوف من أدعية، وفضلت أن تحادث ربّها وتستشعر حضوره بين ضلوعها، بهمسات خاصة وحميمة، وتسترق نظرات لشاب فارسي وسيم كان يطوف بالقرب منها.

توقف هلعها من النساء الروسيات، اللواتي أمضت عمرهن، خوفاً من أن يفتتن عبد القادر بإحداهن، في إحدى سفراته إلى أوروبا أو دبي. الروسيات ظهرن كحكاية خرافية بعد انهيار الجدار الحديدي، قبيلة من النساء المصنوعات من البلور والحليب، فاتنات شبقات، شغوفات بالاكتشاف، لهن سيقان ولسان طويل، يلعق كل ما يصادفهن بشهوة.

باتت تبتهج بغيابه، واختلائها بصمت المنزل، وتستعيد طفولتها عندما كانت تلعب مع النوافذ لعبة الغميضة، فتتخيل في ذهنها شيئاً، فتجلبه النافذة: عصفوراً، سحابةً، ونثار ورقٍ وردٍ منفرط، وأحياناً سحلية، تحدثها الأبواب وصنابير المياه داخل الجدران، تأخذ في الهمس، وأحيانا الغناء، حرية شاسعة، بعيداً من عبد القادر ومزاجه الأسمنتي.

الأدراج القديمة تثرثر، وصمتها الطويل بعد أن نالت تقاعدها المبكر... بدأت اللحظات الخبيثة تؤكد لها أنها تعاني متلازمة الأرملة السوداء، التي تعقص ذكرها بعد أن ينتهي دوره في دائرة التكاثر.

وعندما هربت من أفكارها لإحدى دورات الوعي والطاقة، شعرت وقتها أن الله يحادثها بالتلميح والإشارات، يريد أن يطور حدسها وبصيرتها، وينقلها من وعي الحواس المطوقة بالفناء والدود، ليتجلى لها ما توارى عنها. أو هذا ما قالته لها مدربة الدورة كوتش عفاف، ولم تتأكد منه بعد.

وما كانت عزيزة على يقين منه، هو العرفان بعيون القلب، وعظمة الحضرة الربانية، التي تسمع وجيبها في القلب... ولكن لا تراها.

أخافتها المساحة التي وصلت لها أفكارها، وأخذت تبعدها عنها بعنف وتتّجه نحو ترتيبات زفاف أختها الصغرى. تتذكر في حفل زواجها، كانت تسمع حوافر الخرفان، الهدايا تتقاطر في ساحات البيت الأمامية، وها هي الهدايا في حفل زواج أختها الصغرى بوكيهات ورد، وشوكولاتة ميدوفا ملفوف كل غصن بخمسمئة ريال. تذكرت أمها التي كانوا يسمونها "المائقة"، والتي تصرّ على أحدث الموضات، وترفض أن يكون فستانها "كرتَه"، بل تريد أن يكون موديل برنسيس، وأكمام سميرة توفيق.

هل أصبحت مثل أمها، وملت من المضمار الذي تركض فيه مع عبد القادر، وآماله، وأفكاره، التي لم تدع لها فرصة واحدة، تلتفت لتصنع شيئاً لعزيزة نفسها؟

تمتمت: "يقولون ما تغيرنا؛ بلى تغيرنا وتغيرنا... بل تبدّلنا".

المخرج فريدريك 2018

4 سيارات سوبربان موديل 2018، حملت الفريق إلى الأحساء، قاد إحداها فواز، واختار كريم بو سعادة أن يجلس جواره، كان يود أن يستغل مسافة الساعتين والنصف، للاختلاء برأسه الذي يفور بالعجائب، فالجميع لاحظ أن بو سعادة يكتنفه مزاج بهجة غامرة، وجموح في المشاعر، يحاول أن يجعل كلامه كله عربياً، يبحث في جوّاله عن أبيات شعر عربية، يحاول أن يتلفظ بها، أو يطلب من عبد القادر أن يقرأها له، لا ينتمي لبو سعادة المقطب المتشائم. همست آنا وهم مجتمعون حول العشاء البارحة: ”ربما هو يعاني من ازدواجية القطب“، فيهمس لؤي ساخراً: ”هذا من دون البيرة، فكيف لو حضرت؟“.

بينما فواز كان يحرص على أن يبقي العلاقة معه متينة، فقد يدرّسه في فصول قادمة، أو ربما قد يحتاجه في خدمة مستقبلاً. في الطريق توقف عند محطة، وابتاع له قهوة عربية مع تمر، وانتظر لوهلة لتبدأ نشوة القهوة في عروقه، فيبدأ بالثرثرة.

قال وهو يضيق عينيه، ويتأمل الجبال، والكثبان، والأودية حوله: ”كانت الدراما هنا هائلة، النزال بين الإنسان والطبيعة، وكالعادة ينتصر الإنسان، ويغرس راياته على ضفاف الدروب التي تأخذه إلى مسافات أوسع. وفي السماء يتصارع الآلهة، وأيهم أقوى هو الذي سيخضع له العبيد“.

ثم صمت لبرهة والتفت نحو فواز متسائلاً: ”هل لديك فكرة من هما الإلهان المسيطران على الكون الآن؟“.

هز فواز برأسه نفياً. فقال بو سعادة بعد برهة صمت وعيناه تحدقان بالطريق: ”هما العلم والديموقراطية، وأميركا هي الفاتيكان الذي يقود حملاتهما التبشيرية حول العالم، وأوروبا تدور بفلكهما، فكل من لم يندرج في المعبد الديموقراطي أو الصومعة العلمية، يعتبر وثنياً بدائياً مارقاً... وعلى محاكم التفتيش، الجامعات، الأكاديميات، والأمم المتحدة، إلخ، أن تنقذ روحه“.

آنا وفرانك كانا يجلسان في المقعد الخلفي، فقال فرانك الذي التقط بعض أطراف الحديث: ”دائماً متطرف في آرائك بو سعادة، وأنت تعلم أن كل أيديولوجيا تمر على البشر منذ فجر التاريخ، تدفعهم مسافة إلى الإمام في

درب التحضر والإنسانية، قبل أن تخبو جذوتها الداخلية وتنطفئ، لتقدح جذوة أيديولوجيا أخرى، في مكان ما في هذا العالم“.

رد عليه بو سعادة بهدوء دون انفعال: ”قد تكون الحسنة الوحيدة لفاتيكان هذين الإلهين أنهما ينتقدان نفسهما من الداخل، وبدأت تظهر أصوات عديدة تعلن موت الديموقراطية والعلم، منها جون كين، في كتابه **حياة الديموقراطية وموتها**، و**الديموقراطية: الإله الذي فشل** للفيلسوف هانز هوبا، وأيضاً على ما أذكر هناك كتاب للفرنسي ميشيل هنري بعنوان: **الهمجيّة: زمن علم بلا ثقافة**“.

ساد الصمت بالسيارة فجأة، وانشغل بو سعادة بتأمل الأفق، بينما فواز غرق في أفكاره، ولم يفكر حتى في الاستماع للموسيقى كعادته عند القيادة. أخذ يتساءل هذا الرجل الموسوعي الذي يقبع بجواره، من هو؟ غريب تحزبه للعربي بداخله، وهو بالكاد يحاول مطاردة المفردات العربية، المتقافزة في رأسه كالغزلان المتفلتة. هل هو أميركي انتقلت عائلته من لبنان قبل 80 عاماً، وولد في أميركا كجيل ثالث أو رابع، ودرس في مدارسها وجامعاتها؟ ما الذي يبقيه معلقاً بالشرق، مرتبطاً بذلك المرجل الذي يغلي دوماً بالحروب، والآلام، وشعراء المواويل الحزينة؟

***

ما زالت الهفوف حقل نخيل يزاحم مدينة، شوارعها تحرص على مخاطبة المارين بها بلغة الحقول؛ في سوقها القديمة، وفي الخبز الأحمر المعجون بالتمر، في تنهدات ينابيعها قبيل المساء، في ماء اللقاح الذي ينقلك إلى قلب نخلة.

نزلوا فندق إنتركونتننتال، وقد بلغ عدد الفريق حتى الآن 11 فرداً، بمن فيهم فواز، ومساعد عسيري، وفنيون للإضاءة، وفني صوت، ومستشار تقنية، وطبعاً مندوبة وزارة الثقافة ريما.

حسب المرويات، المفروض هنا أن العمة حضرت وعاشت في الهفوف لمدة ثلاثة أسابيع، لذا لا بد أن تؤخذ بضع لقطات لها قبل الذهاب للبحرين.

***

فواز تنحّى قليلاً عن منصب شيخ القبيلة، فالجميع بات مشغولاً بالماكرة الفاتنة ريما!

زاحمته منذ البداية، عندما دخلت للفريق بطريقة درامية كحفيدة للجازي! قرأت مسوّدات السيناريو، واطّلعت على السياق العام، وراسلت آن، قبل أن تقول إن الجازي هي إحدى جداتها الأركيتايب، وفي حقيبتها باقة من حكايات الجدات، المغلفة بشجن وشغف القديم إذا أحبوا سماعها.

ريما التي أوكلَت لها مرافقة الفريق وتسهيل مهمته، التف حولها الجميع، آنا تستفسر عنها، عن امتيازات تحققت للمرأة، ومدير التصوير يطلب منها أن تقف بوجه شمس الغروب، ليلتقط صوراً لها، بينما الشمس تقطف من وجهها قُبلة.

بينما يلتقط كريم بو سعادة كفّها ليقرأها قائلاً: ”يقول غاستون باشلار، الكف غابة عضلية مذهلة، فأقل أمل يجعلها ترتعش“. أمّا فريدريك، فكان بين الحين والآخر، يجعل نظره يستجم فوق وجهها الجميل، الذي يشرق دوماً بابتسامة، وعيناها ذات الأهداب الطويلة، عادة لا تستقران على شيء، ونفسية الفتاة النزقة المدللة، التي ظل أبوها يحشو عقلها، بأنها ستصنع أموراً هائلة لهذا العالم.

وحده فواز كرهها، واستسمجها، واستفزته تلك الثقة المطلقة التي تنثر بها آراءها، الترهات نفسها التي تقوم بها دانا أخته، وكانت تصيبه بالغيظ؛ فتدليل والده المسرف لدانا، لا سيما بعد أن تفوقت في المدرسة الأميركية، صنع منها طاغية صغيرة، تثرثر أكثر من الجميع، وتقاطع بصوت مرتفع مستفز، وتتحدث كثيراً وتتباهى بمعلوماتها، وتسخر من المعلمة عزيزة عندما تنطق الكلمات الإنكليزية بطريقة مضحكة، وعبد القادر يملأ أذنها بكلمات الهيام: ”yes, you can do it“، ”نعم تقدرين وأنا أبوك... يا شيخة بنات آل مشرق“. تنام باكراً وتستيقظ باكراً لليوغا والتمارين، وتأكل الطعام العضوي فقط والمكملات، ولا تعترف بعراك الفرسان النبيل، وفواز عندما يستعير شاحن جوالها خلسة، أو

يوقف سيارته مكان موقف سيارتها، تتحول إلى ضبعة مزمجرة، تنهش من هو أمامها، واثقة أنّ أباها سينتصر لإرادتها.

قال لؤي بملل: "ماذا يفيدنا تصوير صهريج نفط مهجور قد علاه الصدأ؟".

تأمله فريدريك بعين حانقة ساخرة: "لو كلّ شيء اختفى نلغيه من السيناريو، لما عاد هناك فيلم. التحدي هو استنطاق الصامت المسكوت عنه، نمنحه حيزاً حتى لو كان هذا الحيز 3 دقائق".

قال بو سعادة: "في الأفلام عادة تتكئ الكثير من تفاصيل الفيلم وعوامل الجذب على المرور بالأماكن القديمة، سيكولوجية الأماكن القديمة وشجن الذاكرة، تضمن لك نسبة 20% من ذاكرة الجمهور، وهو بالضبط ما يجعل السوق الأولى للأفلام الأميركية هي أميركا نفسها، أو الأفلام المصرية هي سوق مصر الكبرى، لكن هذا الفيلم من سوقه؟ من جماهيره؟ لا نود أن تحجبنا عالمية الفيلم عن هؤلاء الذين سيرون في الفيلم، نستولجيا شجن قديمة في دور السينما".

بينما يتمتم فواز: "لم أشهد أبي يفتح محفظته إلى آخرها ويصرف مثل هذا اليوم، يبدو أنه يعيش حلمه الخاص. غطى إعاشة الفريق منذ وصوله، ولم تتدخل بها مؤسسة برامز أو ميزانية الفيلم. واختار عشاءهم في مطعم أرمني قريب من فندق الإنتركونتننتال بالهفوف". وقتها لم يفطن أي منهم ويلتقط هذه الإشارة، فقد كانت طريقة الطبيب آزاد للترحيب بهم.

***

العقير، الجرها

"السينما الحقيقية، هي التي تستثير المشاعر، قد تكون مشاعر بدائية، لكنها بالتأكيد مشاعر قوية، بل عنيفة" – **شازال**

أنزلت ريما في قروب الواتس الخاص بالمجموعة: "غداً ننطلق نحو ميناء العقير، بوابة جزيرة العرب الشرقية، الجرها، المكان سمي على اسم قبيلة

قطنته خلال الألف الأول قبل الميلاد، المدينة الكلدانية المفقودة، بوابة الخليج على جزيرة العرب، والمكان الذي يعج بصيد الأسماك واللؤلؤ".

حينما التقاها فواز في لوبي الفندق، رفع يديه عالياً وصفق، قائلاً: "ريما برافووو، لم تعد ويكيبيديا مصدرك الوحيد للمعلومات، بدأتِ تبحرين في محيط المعلومات بشكل أوسع".

لم تبالِ بسخريته، فقد اعتادت على استفزازات زملاء العمل، رمقته بنظرة خاطفة مؤنبة، وأكملت عملها في إرسال رسائل للذين ما زالوا في غرفهم.

عندما قرأ فريدريك الرسالة أخذ يفكر: "هناك الكثير من المعلومات التاريخية الثمينة التي تحتم وجود راوٍ، يردفه جزءٌ درامي".

***

اقشعرّ بو سعادة حينما قرأ الرسالة، شعر أنه داخل طقس سحري لذيذ، الميناء الذي انطلق منه أجداده الفينقيون، وصولاً إلى ضفاف الأبيض المتوسط، يشعر أنه يريد أن يرصد ويدوِّن كل شيء، وكأن الفيلم بات جزءاً من حكايته، ويريد أن يروي السطور الخاصة به.

هو في مزاج رائق ذلك اليوم، لأنه سيكمل الأسبوع منذ وصل السعودية، دون أن يدخل الكحول دمه، فشعر بأن هذا من الممكن أن يجعله أكثر اقتراباً من ذاته، وبإمكان صفائه الداخلي أن يجعله ينصت لصوت أسلافه، من القبائل السامية التي غادرت جزيرة العرب، واستقرت على ضفاف مدينة صيدون، أو بوزيدون إله البحر.

***

على ضفاف الشاطئ، عندما وصل فريدريك، لم يُبْدِ تركيزاً على قافلة الجمال التي وجدوها بانتظارهم، أو الاستعدادات القائمة لتأسيس مخيم، بل قصد البحر، وأخذ يتأمله؛ كان هادئاً ضحلاً، يبدو كشيخ عجوز، انسحب من العالم وأخذ يرصده.

من أين ستبدأ الكاميرا أولى لقطاتها؟ ما زال هذا السؤال يطرق جمجمة فريدريك كالبندول. عيناه تمسحان المكان ويتمتم:

”التجارة القادمة من الصين والهند والمتجهة لأوروبا، سكان هذا المكان كانوا يعرفون متى تهب الرياح الموسمية في المحيط الهندي ستة أشهر من الشرق، وستة أشهر أخرى من الغرب. وكان هذا الميناء يكتظ بالقوافل المحملة بالذهب، والبخور، الأنتيمون لتكحيل العيون، البهارات، حتى السعادين والفهود المجلوبة لتزيين القصور، كانت تمر من هنا. رسا الطبيب هاريسون ومساعده هنا عام 1918، لكن الكثير سواهما مروا من هنا، فهناك ساحة واسعة، تبرز فيها صفوف من عشرات الأعمدة بتيجان رومانية، هل مر الإسكندر من هنا؟“.

يتمتم فريدريك بإعجاب: ”كان والدي دوماً يردد: ‘الرومان هم أروع جيش معماري على امتداد التاريخ، في كل مكان يصلون له يرفعون معبداً بأعمدة، ويرصفون مسرحاً مدرجاً، ويجرون قنوات ماء ساخن بمرجل وأبخرة يغطس فيه جنودهم، ويستجمون استعداداً للمعركة التالية؛ فيخرجون من بخارها، وقد استعادوا شهوتهم للحياة، وللغنائم، والنساء، والدماء’“.

***

الكاميرا هي عين روائي حساس، وتوقفت عينه الراصدة على ثلاث نخلات يتشاركن حوضاً مستديراً، كأنهن ثلاث جنيات اعتقلن في مخلب عفريت، وقرر فريدريك أن يبدأ التصوير من هناك.

النخلات الثلاث

نحن من ذلك الزمان الذي كان فيه الطير، والحيوان يتحدث، والنبات، ونحن كنا ثلاث جنيات خيِّرات، ولكن في زمن الطوفان الذي عم الأرض، لم نستطع الوصول إلى سفينة سيدنا نوح في الوقت المناسب، فكنّا داخل الأرض مرتعبات، إلى أن مرت بنا إرادة الحياة بعدما غيض الماء، واكتشفنا أنها

ستعيدنا كرة أخرى، لكن على شكل ثلاث حمامات، وظللنا نتشكل ونتبدل، ننزع جسماً ونحل بآخر، إلى أن استقر بنا الأمر على شكل نخلة، وكما يقولون: النخيل هو سيد الأشجار وأقربها للكرامة الإنسانية، فمنها ذكر وأنثى، نلد ونموت إذا قطع رأسنا.

عمَّرنا هنا طويلاً، وشهدنا الكثير من الأهوال والحكايات، ومنها ما يبحث عنه هذا الرجل، ويحاول أن يستدعيه من ضباب الزمان فوق صهوة الخيال.

مرا بنا متّجهَين إلى الشاطئ، الشاب السلافي الفارع، يقبض على كف رفيقته الغزالة بأهدابها المشرعة، وكفها الأخرى التي ترفع بها عباءتها عن رمل الشاطئ.

فرش لها حصيراً وجلسا تحتنا، تناولا تمراً وقهوة، وتبادلا قُبَلاً طويلة، كانت الواحدة تستمر أمداً طويلاً، حتى أسقت جذورنا، وتخضلت عروقنا بقبلاتهما إلى الآن، لا يعرف بنو البشر أن الحب يسقينا أيضاً، وهذا ما أبقانا باسقات 100 عام.

كان يقول لها: "سأكون أنا أهلك ووطنك"، وكان يشير لها بأن البحرين قريبة، إذا اشتاقت لأهلها حتماً ستزورهم.

***

وسط هذه الضوضاء، يتأملهم عبد القادر متسائلاً بتعجب: "هذه الصناعة التي ندفعها لآخر النهار وآخر الأسبوع، وفتات وقتنا، نشاهدها برفقة خشخشة البوب كورن تحت أسناننا، وإذا شاهدناها في المنزل، نغفو في بعض مقاطعها ونكمل في الغد، ونرد على الهاتف ورسائل الجوال، بينما هم منغمرون بها بشدة، ويولونها اهتماماً يوازي إطلاق أول مسبار للمريخ! ها هم ينظمون أوراقهم بإجلال، ويوزعون تسلسل أحداثها فوق بطاقات، كنت أكتب عليها معلوماتي وأفهرسها، وأنا أحضِّرُ رسالتي في الدكتوراة، عن جدوى الصناديق الاستثمارية في أكبر ثلاثة بنوك في السعودية!".

ويهمهم: "عندما تحولت ساعات العمل إلى استثمار، لحقتها ساعات الفراغ آخر اليوم، وآخر الأسبوع. حقل آخر للاستثمار... جميل لتظل حركة الاقتصاد

تدور“.

قال كريم بو سعادة: ”ما أشعر به إلى الآن، أننا وضعنا الكثير من الأفكار والمشاهد، والثيمات؛ سيبدو الأمر كالموائد الخيرية، حيث كل منزل يحضر طبقاً، فتصبح المائدة عجيبة، بلا هارموني وانسجام يربطها“.

ضحكت آنا وقالت: ”بالفعل هناك ازدحام“، وضعت يدها على كتفه: ”لا تهتم، فريدريك لديه مقص مرعب، سيجعل الأمور أكثر تماسكاً. وكما قال غابرييل ماركيز في ورشته عن كتابة السيناريو: ’الخطوط المتوازية في كتابة السيناريو، من الممكن إقرارها من الجميع، ولكن عندما تأتي لحظة كتابة السيناريو، فيجب أن يتولّى هذه المهمّة شخصٌ واحد‘. والمَشاهد التي في السعودية ستقوم أنت وريما بمساعدتي في لملمة أطرافها“.

سكت على مضض، فهو لا يطمح أن يتشارك مع آنا الثرثارة بأي مشروع، ولكن تظل فكرة حضور ريما عند الكتابة مبهجة بالنسبة إليه.

***

صباح اليوم التالي، فجَّر فريدريك مفاجأته وهو منتفش بزهو؛ فقد قررت قناة صينية شراء الفيلم، بعدما عرفت أنه سيكون المخرج لهذا العمل، وهذا ما يضمن له ميزانية إضافية سخية، وانتشاراً هائلاً في القارة الصينية.

اللقطة الأولى

ما لون بوابتك، ما طبيعة البلاط في الممر، ما نوع الزهور التي تزرعها على جانبَي البوابة؟ هذا هو المشهد الافتتاحي، هو مزاج الفيلم، بصمته الجينية، ودوزنة الآلات في الأوركسترا الكبرى. هل سيكون صاخباً بقرع الطبول، أم خافتاً كنفثات الناي؟

مشهد نهاري لصحراء معشبة مزهرة، ومن زاويته، قافلة تبزغ وتسير ببطء مموسق، لتذوب وتتحلل في الضوء.

لا يُعرف هل هو شروق أم غروب... هل القافلة مغادرة أم قادمة، لكن الجميع صار يعرف أن هذه الرحلة بات عمرها مئة عام.

فصل آخير لا بدّ من مطالعته

”لا توجد حقيقة، بل تأويلات لها“ – **نيتشه**

قد يكون عمر الحكاية الذي أكمل مئة عام، وخفوت حساسية أحداثها، وارتخاء الأسلاك المكهربة التي كانت تلتف حولها، هي التي جلبت لي مهاتفة غامضة، بصوت نسائي متهدج وأنفاس ثقيلة، تهمس بفوهة الهاتف بحذر متردد، كأنها تخشى أن يلتقط السرّ أحدٌ سوانا.

وبعد عدد من الجمل المرتبكة، تتقطعها حشرجة وصمت، ومحاولة رصف أكبر كم من المعلومات داخل قوالب جمل مختزلة، فهمت أن عائلة آل مشرق يرغبون في توثيق حكاية عمتهم كرواية!

رواية تدون المتناثر، وتقيد المتفلت، لتجعله فوق سطور، تندرج ضمن تاريخ المكان، والنجاة بها من هباء مرويات شفوية هائلة تتخطفها الألسن.

وهذه ذريعتهم الأولى في البداية، قبل أن تتكشف لي لاحقاً أمور أخرى متشابكة وغريبة، تتداخل مع رغبتهم هذه.

وفي الحقيقة لم يتواصل آل مشرق جميعهم معي، بل مرسولتهم التي لن أحدد هويتها احتراماً لرغبتها، لكنها قد تكون مرت بشكل خاطف بين فصول الرواية، حتماً دون أن تميط لثامها، فهي تظل تؤكد أن دورها هو: نقل إرادة عائلية شبه جمعية، في رصد حكاية العمة وتدوينها.

وبعد أن لَمِسَت حذراً وتردداً في موقفي، ربما قد يكون مرده للمباغتة، استأذنت لتغيب ما يقارب أسبوعين، قبل أن تعاود الاتصال، ولكن هذه المرة كانت أكثر جرأة وتصميماً، وقالت بتلقائية كأنها تعرفني منذ زمن: ”الآن بات باستطاعتنا أن ندوّن ونرصد بعضاً من فصول حكاية العمة، ليس فقط ما ظل بحالته الفطرية الأولية، بل أيضاً بعض الصفحات المكتوبة في كتب وسجلات الرحالة المستشرقين، الذين مروا بالمكان، وأسهموا بحياكة مقاطع من نسيجها“.

وتوقفَت لوهلة وهي تنتظر وقع هذه الكلمات، قبل أن تقول وهي تضغط على حروفها: ”بل يحتم علينا الواجب الآن كعائلة أن نكتب حكايتها، لا سيما بعد أن بدؤوا في تحويلها إلى فيلم أميركي“.

قهقهت بصوت خافت كمجاملة لطرفتها، بعد أن ظننتها تمزح، وتحيلني إلى قصة مليئة بالتشويق والأكشن؛ قلت لها: ”إذاً هناك الكثير من المسدسات والكاوبوي والهنود الحمر“.

قالت وقد شعرتُ بأنها وقفت وهي تحدثني، كأنها تريد أن تترافع أمام محكمة، واحتدت نبرة صوتها نوعاً ما: ”لا... بل أحدثك بجدية، هناك فيلم أميركي حول حكاية العمة! كان في البداية مشروعاً جامعياً لأحد أبناء آل مشرق، من أكاديمية السينما في نيويورك، قبل أن تروق حبكته لمخرج أميركي في الأكاديمية، ليتبناه ويوفر له مصادر تمويل، لكن شطح فيه ببعض التشويهات والإضافات، لذا فكرنا كعائلة بنص يوثق الحكاية الأصلية كما هي في الواقع“.

لدغني حس التشويق والإثارة! فقلت بصوت حرصت أن يخالطه بعض البرود والرسمية، لطمس لهفة الفضول في حلقي: ”يبدو أنكم ضللتم الدرب، وتواصلتم مع الشخص الخطأ، فأنتم بحاجة إلى مؤرخ أكاديمي هنا، يرصد الحقائق ويوثقها، ويقولبها داخل تسلسل السنوات، لا روائية تشطح في عوالم الخيال والسباحين“.

بسرعة وبلا تريث أجابت، وكأنه تم تلقينها جواباً لهذا السؤال مسبقاً: ”وهذا ما لا نريده أبداً ونتحاشاه كعائلة، التوثيق سيتطلب صيغة رسمية، وموافقات من جهات معينة، أي حكاية رسمية هي جزء من تاريخ المنتصر، وسلالات، وعنعنات، ويستلزم توثيقاً لكل من يرد اسمه في الكتاب، كما سيصبح كتاباً تاريخياً، سيحمل وزر تسويغه وتفسيره أجيالٌ من عائلة آل مشرق، بينما الرواية ستظل في الجانب الآمن، تتحرك بحرية في تلك المساحة، المتراوحة بين الحقيقة التاريخية والسبحونة الخيالية، أي الحقيقة الثالثة ما بين الصدق والكذب، حتى إذا حاصرت المجالس الخاصة آل مشرق بفضولها، حول بعض

تفاصيل الفيلم، أحلناهم للرواية كمصدر للمعلومة وللمقارنة، فهناك احتمالية كبيرة، أن يخرج الفيلم مشوها فاضحاً للمكان وللعائلة“.

***

حكاية الفيلم الأميركي أزالت آخر أسوار ترددي، ودفعتني بغموض قدري باتجاه عمّة آل مشرق، وجعلتني أطلب من المتحدثة أن توالينى بالمزيد من المعلومات حوله، إضافة إلى مهلة أستطيع من خلالها أن أقلب الموضوع على جميع الأوجه، وإن كنت قد أضمرت نية التوغل في ظلمة هذا الكهف الدامس المغوي ولم أخبرها أن أول ما سأقوم به، هو الاستيضاح من دائرتي الضيقة عن هذا كله، كما أنني سأتواصل مع مختص لاستشارة قانونية، فمجتمع يغلب عليه التحفظ والوقار، لن يتسامح مع من يعبث بالحجرات الخلفية المغلقة، أو من يدس مرايا للتلصص على ردهاته الداخلية، أو يغير تراتبية أغصان شجر العائلة.

وقبل أن أبادرهم بردي، وصلني عبر البريد الإكسبريس، كرتون مقوى مقاس 50×50 يزدحم بالأوراق والملفات، أبرزها مغلف بلاستيكي بداخله كتيب بالإنكليزية من 223 صفحة، بغلاف عتيق متآكل، ومجلد يدوياً حفاظاً عليه من التلف، إصدار عام 1948، برفقة صفحات تحوي ترجمة للكتاب نفسه، تحت عنوان ”كثبان وفجر“ ممهورة بختم مكتب ترجمة تجاري، وملف آخر يحوي قصاصات ونسخاً من صور قديمة جداً، تعود لبدايات القرن، يظهر الشخوص داخلها بهيئة باهتة، وأخرى أكثر وضوحاً لمرحلة زمنية لاحقة، لعمال ومهندسين جوار أكواخ وآلات حفر آبار نفط بخلفية صحراوية، تبدّى لي أنها أرامكو في بدايات التأسيس. وعشرات النسخ المصورة لمقالات وصفحات، من كتب رحّالة زاروا المكان، وروابط لمواقع ذات صلة على الإنترنت، و4 أشرطة كاسيت، عليها تواريخ تعود للثمانينيات الميلادية، معها مسجل قديم لتشغيلها ماركة سوني، تحسباً في حال لم أعد أمتلك هذا النوع من الأجهزة المنقرضة. آلة التسجيل، لم يطلها الزمن، تبدو كحقيبة نسائية أنيقة! عندما ألقمتها أحد الأشرطة انساب ذاك الصوت البطيء الصمغي، الذي تلتف به أشرطة

الكاسيت عادة، كأنه يتكلم في بوق، وليس له علاقة بالنقاء الكريستالي الذي تجلبه لنا أجهزة الديجتال الآن، لكنه بوق استطاع أن ينقل لي فوراً أصواتاً تتحدث لأبنائها المسافرين إلى أميركا، قدرت أنها في نهاية السبعينيات وأوائل الثمينينات الميلادية، عندما انتشرت تلك الأشرطة كبديل للرسائل الجامدة، ومكالمات الهاتف الدولية المكلفة. صوت رجل وسيدتين، يبدو واضحاً من أسلوب الحديث، وتوظيف المفردات بأنهم ينتمون إلى عائلة واحدة.

الصندوق وسرعة إرساله ومحتواه أيضاً أسهمت في توسيع إطار إطلالتي الخاصة على أجواء هذه العائلة، فدقّة وأناقة الخط الإنكليزي الذي كُتب به اسمي وهاتفي، تبدى لي من خلاله أن بعض أفرادها قد تلقّوا تعليماً إنكليزياً رفيعاً.

ترجمة الكتاب وإن كانت تجارية صرفة، إضافة إلى آلة التسجيل، تحيلنا إلى مخ إداري دقيق ومنظم، لا يفسح مجالا للخطأ والمفاجآت.

لم يظهر لي قاع الكرتون، لتراكم المستندات. كم هائل من الوثائق، من شأنه أن يغرقني في كثافة معلوماتية تشلني، فلا أعرف من أين ألتقط خيط البداية وسط هذا الركام، ولا أين سأغرس العمود الفقري، الذي سينهض بمعمار الحكاية، وتتفرع منه عروقها وتفاصيلها. كيف أصل في هذا الركام إلى جذوة تقدح نار السرد وتحوله إلى رواية... لا تقرير إخلاء ذمة لعائلة تخاف على سمعتها الاجتماعية؟

أطلت مدة تريثي، أمام تجربة مدهشة جديدة، ولا أعرف ملابساتها المستقبلية، وهل حقاً كل العائلة موافقون على نشر تفاصيلها بهذه الصورة، أم هي اجتهادات متسرعة لأحد أفرادها؟

ولكن هذا لم يوقفني عن الاستمرار في تقليب الصندوق، والاطلاع على كل ورقة بتفحص وعناية، ولم أفطن وقتها أنني لم أكن أطلق العفريت من القمقم فقط، بل عشيرة من الأرواح تحوم في سقف المكتب.

فبعد أسابيع من القراءة، والاستماع، ومتابعة الروابط، والتفتيش بالملاحق، اكتشفت أنني استدرجت خلسة، وبدأت بدوري أبحث عن مراجعي الخاصة، التي ترمم ثغرات لا تبدو واضحة في الحكاية، وما لم أجده عبر غوغل، راسلت

مستفسرة حوله المكتبات العامة، ومواقع بيع الكتب المستعملة العتيقة، والمكتبات المنزلية لبعض المعارف من هواة اقتناء الكتب. بل إنني سافرت أكثر من مرة في رحلة خاطفة إلى المنطقة الشرقية، تحديداً ميناء العقير، لعل أطيافه والأرواح المختبئة داخل أصدافه، تمرر لي ما صمتت عنه الوثائقُ والصفحات.

وبعد ما يقارب الشهر، كانت المكالمة الثالثة! بعد أن ظننت أنهم ضربوا صفحاً عن المشروع، أو أحالوه لروائي يظهر لهم حماساً أكبر، تغافلت عن نفاد الصبر في صوتها المستفسر عن قراري النهائي، وخمنت أنه الوقت المناسب لتمرير شروطي، فقلت لها: "قد أوافق على التعاون معكم، شرط أن تكون المادة التي بعثتموها لي، هي الأرضية أو المادة الخام الأولية فقط، ولن أنقلها بحذافيرها، لكن أيضاً سأظل وفية للحبكة الأصلية وشخوصها".

ساد صمت طويل من الطرف المقابل، وتساءلت بانزعاج يتبدى اللوم ونفاد الصبر فيه: "لكن تواصلنا معك لسرد الحكاية الحقيقية الأصلية، يهمنا حكاية عمتنا أن تصل كاملة".

فنبست بسرعة، خشية أن نعيد تكرار ما سبق نقاشه: "لا توجد في هذا العالم حكاية أصلية حقيقية أبداً، كل حكاية تخضع لوعي السارد، والحمولة المعرفية لدى المتلقي، هي التي تحدد الحقيقة وطبيعتها". كدت أن أخبرها أن الفيلسوف هيدغر يقول: "إن الحقيقة تتحقق أثناء قراءة العمل الأدبي"، لكن خشيت أن أبدو متمنطقة متحذلقة، قبل أن تقول هي: "نطلب فقط الاعتدال الصادق، لن نذهب بالشخوص لحفلة تنكرية فنطمس هويتهم، ولكن أيضاً لن نعريهم بشكل خادش".

أجبتها بلطف: "الحقيقة معضلة فلسفية كبرى، أنهكت الفلاسفة والمتكلمين، وصولاً للهراطقة، وقد تبدى لي بوضوح من خلال الوثائق التي بعثتم بها، القسمة غير العادلة. فالمادة المكتوبة من قبل المستشرقين رصينة علمياً وأكاديمياً، تتابع فقراتها هناك وفق بناء منطقي موضوعي متسلسل، بينما بقية المادة التاريخية الخاصة بعائلتكم، نثار وقصاصات، وبعض المادة المحكية شفوية، تغرف من شتات الذاكرة، وعنعنات الأسلاف".

قالت: ”هذا السبب بالتحديد الذي جعلنا نطرق بابك، فنحن وإياك في الضفة نفسها“.

عاد الصمت على طرف الهاتف، واستأذنت المتحدثة وغادرت، وبعد ثلاثة أيام عن طريق الواتساب، وصلني خطاب مكتوب بصيغة رسمية من مكتب محامٍ، أن آل مشرق أوكلوا لي كتابة قصة عمتهم! أحسست برعدة صغيرة أسفل قفصي الصدري، ولم تبقَ لي بوابة صغيرة أنزلق منها فراراً.

خالجني عندها شعور بالعبث، فهذه الوثيقة لن تمنحني الحصانة، في حال وطأ قلمي أحد الألغام والمحظورات الاجتماعية أو التاريخية، لكن لا أستطيع مقاومة ما بات الآن قدراً ملحّاً.

طوال هذه الفترة، لم أفطن إلى ما بدأت أنصت لهم كهمس ووشوشة، حديث يطفو ويصطخب داخل أمواج رأسي أحياناً كشجار، ومن ثم لا يلبث أن يترسب ويعود كهمس العشاق.

نعم هناك تحديداً لغطٌ وجدل يصل لحالة النزال، يشبه ذلك الهسيس الذي ينقله لنا صمت الصحراء، فلا نعلم مصدره.

أحاديث لشخصين داخل غرفة مررت بها، يتكثف أحياناً في أذني اليمنى وأحياناً اليسرى، صوت مجرح بالبادية، ورطانة غربية تحولت إلى هدير آلات وطائرات، نساء، وشباب، حيناً تتكسر العربية تحت ألسنتهم، وأحياناً يتهجون الإنكليزية بصعوبة، كلٌّ يتزاحم على منصة الحديث.

اقتربت منهم بوجل وخجل، لعل أحدهم يناولني طرف حبل السرد، لكنهم لم يبالوا بي، بل استمر الحوار والجدال الذي امتدّ طويلاً على امتداد قرن.

أميمة الخميس
الرياض 2024

حول الكتاب

نبذة

تتدهور حالةُ الجازي الصحية في الرياض، فيواجِه والدُها خيارَين: إمّا الشّروع في حفر قبرٍ لها، وإمّا القَبول بعرض الممرّض الأميركي ماثيو إيدن لاصطحابها إلى مستشفى الإرسالية في البحرين.

مرغماً، يوافق على ترحيل ابنتِه للعلاج شرطَ أن يتزوّجها ماثيو ويعتنقَ الإسلام مهراً لها.

لكن هناك، في المنامة، تنقلب حياة الزّوجين رأساً على عقب.

فماذا حدث ولماذا انقطعت أخبارُهما؟

لغزٌ حاصرَ عائلة آل مشرق لأكثرَ من مئة عام، إلى أن قرّر الشابّ فوّاز كشفه من خلال فيلم سينمائي...

قيل في الكتاب

«أميمة الخميس تأسر قرّاءها» Arab News عن المؤلف

أميمة الخميس كاتبة وروائية سعودية. تكتب زاوية شبه يومية في صحيفة «الرياض». كُتب عدد من الأطروحات العلمية والدراسات النقدية حول أعمالها ويُدرّس بعضها في جامعات محلية وعالمية.